فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨-١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الثاني عشر



صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

فتح البيان

في مقاصد القرآن



ويشتمل على :

- سورة ص.
- سورة الزمر.
- سورة غافر.
- سورة فصلت.
- سورة الشورى
- سورة الزخرف
- سورة الدخان.
- سورة الجاثية.





سورة ص

وهي مكيّة . قال القرطبي : في قول الجميع . قال ابن عباس : نزلت بمكة وعنه قال : لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقال : « ان ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول . فلو بعثت اليه فنهيته فبعث اليه » فجاء النبي صلى اللّه عليه وسلم فدخل البيت . وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل . فخشي أبو جهل أن يجلس الى أبي طالب ويكون أرق عليه فوثب فجلس في ذلك المجلس . فلم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب فقال له أبو طالب « أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول » قال وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا عم اني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي اليهم بها العجم الجزية » . ففزعوا لكلمته ولقوله . فقال القوم « كلمة واحدة نعم وأبيك عشرا » قالوا « فما هي ؟ قال : « لا اله الا الله » فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون « ﴿ اجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ﴾[1] فنزل فيهم ص والقرآن ذي الذكر الى قوله بل لما يذوقوا عذاب » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وأحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن جرير وابن المنذر .

---

(١) رواه احمد والترمذي ٢/١٥٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ورواه الحاكم ٢/٤٣٢ . الطبري ٢٣/١٢٥ والواحدي ٢٠٩ والسيوطي ٥/٢٩٥ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾

﴿ صٓ ﴾ قرأ الجمهور صاد بسكون الدال كسائر حروف التهجي في أوائل السور فإنها ساكنة الأواخر على الوقف ، وقرىء بكسرها من غير تنوين لالتقاء الساكنين ، وهذا أقرب وقيل وجه الكسر أنه من صادى يصادي إذا عارض ، والمعنى صاد القرآن بعملك أي عارضه وقابله ، فاعمل به وهذا حكاه النحاس عن الحسن البصري ، وقال انه فسر قراءته هذه بهذا ، وعنه أن المعنى اتله وتعرض لقراءته ، وقرىء صاد بفتح الدال والفتح لالتقاء الساكنين وقيل نصب على الإغراء وقيل معناه صاد محمد صلى الله عليه وسلم قلوب الخلق واستمالها حتى آمنوا به ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو وروي عن أبي إسحق أيضاً أنه قرىء ، صاد بالكسر والتنوين تشبيهاً لهذا الحرف بما هو غير متمكن من الأصوات وقرىء صاد بالضم من غير تنوين على البناء نحو منذ وحيث ، كما قرىء به في ق و ن .

وقد بسط السمين الكلام على توجيهه الكل وقال الحفناوي يجوز السكون على الحكاية والفتح لمنع الصرف للعلمية والتأنيث باعتبار أن هذا الأسم علم على السورة ، والجر مع التنوين نظراً إلى كون السورة قرآنا ويقال لها سورة داود وقد اختلف في معنى صٓ فقال الضحاك معناه صدق الله وقال عطاء صدق محمد صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن جبير هو بحر يحيي الله به الموتى بين النفختين وقال محمد بن كعب هو مفتاح اسم الله وقال قتادة هو اسم من أسماء الله وعنه هو اسم من أسماء الرحمن وقال محمد هو فاتحة السورة

وقال ابن عباس ص محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هو مما استأثر الله بعلمه وهو أعلم بمراده به وهذا هو الحق كما قدمنا في فاتحة سورة البقرة قيل وهو اسم للحروف مسروداً على نمط التعديد أو اسم للسورة أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب بإضمار أذكر أو إقرأ .

﴿ والقرآن ﴾ هي واو القسم ، والإقسام بالقرآن فيه تنبيه على شرف قدره وعلو محله ، ومعنى ﴿ ذي الذكر ﴾ أنه مشتمل على الذكر الذي فيه بيان كل شي ، وقال مقاتل ؛ معنى ذي الذكر ذي البيان ، وقال الضحاك وابن عباس ذي الشرف والعظمة ، كما في قوله ﴿ لقد انزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ أي شرفكم أو الشهرة ، وقيل ذي الموعظة ، وقيل فيه ذكر ما يحتاج إليه في أمر الدين ، وقيل فيه ذكر أسماء الله تعالى وتمجيده ، وقيل فيه ذكر العقائد والشرائع والمواعيد ، وجواب القسم قوله ﴿ إن ذلك لحق ﴾ قاله الزجاج والكسائي والكوفيون . وقال الفراء لا نجده مستقيماً لتأخره جداً عن قوله والقرآن . ورجح هو وثعلب أن الجواب قوله ﴿ كم أهلكنا ﴾ وقال الأخفش الجواب هو ﴿ إن كلٌ إلا كذَّب الرسل ﴾ وقيل هو صاد لأن معناه حق فهو جواب لقوله والقرآن كما تقول حقاً والله وجب والله ذكره ابن الأنباري وروي أيضاً عن ثعلب والفراء ، وهو مبني على أن جواب القسم يجوز تقدمه وهو ضعيف ، وقيل الجواب محذوف والتقدير لتبعثن ونحو ذلك ، وقال الحوفي تقديره لقد جاءكم الحق ونحوه ، وقال الزمخشري إنه لمعجز والمحلي ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾[1]

وقال ابن عطية تقديره ما الأمر كما يزعم الكفار من تعدد الآلهة ، والقول بالحذف أولى ، وقيل إن قوله ص مقسم به وعلى هذا القول تكون الواو في والقرآن للعطف عليه ، ولما كان الإقسام بالقرآن دالا على صدقه ،

---

(١) وقد رجح الطبري في تفسيره : قول قتادة وجماعة من المفسرين : ان الجواب محذوف تقديره او القرآن ذي الذكر لا كما يقول الكفار ـ والله أعلم :

وأنه حق وأنه ليس بمحل للريب قال سبحانه ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ فأضرب عن ذلك وكأنه قال لا ريب فيه قطعاً ، ولم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه ، بل هم في عـزة عن قبول الحق أي تكبـر وتجبر وشقاق ، أي امتناع عن قبول الحق ، يعني ليس الحامل لهم عليه الدليل ، بل مجرد الحمية والخصام ، والتقليد ، والعزة عند العرب الغلبة والقهر ، يـقال : من عَـزَّ بَزَّ أي من غلب أخذ السلب،ومنه ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ ، أي غلبني ، والشقاق مأخوذ من الشق وهو الخلاف والعداوة ، وقد تقدم بيانه ، والتنكير فيهما للدلالة على شدتهما وتفاقمهما ، وقرىء في غرة أي في غفله عما يجب عليهم من النظر ، واتباع الحق ، والأول أولى ، ثم خوفهم سبحانه وهددهم بما فعله من قبلهم من الكفار فقال :

﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ يعني الأمم الخالية المهلكة بتكذيب الرسل ، أي كم أهلكنا الذين كانوا أمنع من هؤلاء ، وأشد قوة ، وأكثر اموالاً و﴿ كم ﴾ هي الخبرية الدالة على التكثير، وهي في محل نصب بأهلكنا على أنها مفعول به ، ومن قرن تمييز ، و(من) في (من قبلهم) هي لابتـداء الغاية .

﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾ النداء هنا هو نداء الاستغاثة منهم عند نزول العذاب بهم ، وليس الحين حين مناص ، قال الحسن نادوا بالتوبة ، وليس حين التوبة ، ولا حين ينفع العمل ، والمناص مصدر ناص ينوص ، وهو الفوت والتأخر ، ولات بمعنى ليس ، بلغة أهل اليمن ، وقال النحاة هي لا التي بمعنى ليس زيدت عليها التاء كما في قولهم رب وربت وثم وثمت قال الفراء النوص التأخر ، وأنشد قول امرىء القيس:

أمن ذكر ليلى إذ نأتك تنوص   فتقصر عنها خطوة وتبـوص[1]

---

(١) غريب القرآن ٣٧٦ والطبري ٢٣/١٢٠ ومختار الشعر الجاهلي ١/١٢٧ وديوان امرؤ القيس ١٧٧

قال يقال ناص عن قرنه ينوص نوصاً ومناصاً أي فر وراغ قال الفراء ويقال ناص ينوص إذا تقدم ، وقيل المعنى أنه قال بعضهم لبعض مناص أي عليكم بالفرار والهزيمة ، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص فقال الله ولات حين مناص قال سيبويه والخليل لات مشبهة بليس ، والاسم فيها مضمر ، أي ليس حيننا حين مناص ، وقال الزجاج التقدير وليس أواننا ، قال ابن كيسان والقول قول سيبويه ، والوقف عليها عند الكسائي بالهاء ، وبه قال المبرد والأخفش . وقال الأخفش إنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء ، وخصت بنفي الأحيان وقال الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش التاء تكتب منقطعة عن حين ، وكذلك هي في المصاحف ، وقال أبو عبيدة: تكتب متصلة بحين فقال : ولا تحين ، وقد يستغنى بحين عن المضاف إليه ، قال أبو عبيدة: لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان ، الآن .

قلت قد يزيدونها في غير ذلك أيضاً ، وقال ابن عباس ليس بحين نزو ولا فرار ، وأخرج ابن أبيّ من طريق عكرمة عنه قال : نادوا النداء حين لا ينفعهم وأنشد :

تذكرت ليلى حين لات تذكر وقد بنت منها والمناص بعيد

وعنه قال : ليس هذا حين زوال ، وعنه قال : لا حين فرار وقرأ الجمهور لات بفتح التاء وقرىء بكسرها كجير وجملة لات حين مناص في محل نصب على الحال من ضمير نادوا .

﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ أي عجب الكفار الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم في عزة وشقاق أن جاءهم رسول من أنفسهم ينذرهم بالعذاب إن استمروا على الكفر وأن وما في حيزها محل نصب بنزع الخافض ، أي من أن جاءهم ، وهو كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع من أنواع كفرهم .

﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ قالوا هذا القول لما شاهدوا ما جاء به من المعجزات الخارجة عن قدرة البشر ، أي هذا المدعي للرسالة ساحر فيما يظهره من المعجزات ، كذاب فيما يدعيه من أن الله أرسله ، قيل ووضع الظاهر موضع المضمر لإظهار الغضب عليهم وأن ما قالوه لا يتجاسر على مثله إلا المتوغلون في الكفر ، المنهمكون في الغي ، إذ لا كفر أغلظ من أن يسموا من صدقه الله : كاذبا ساحراً ، ويتعجبوا من التوحيد ، وهو الحق الأبلج ، ولا يتعجبوا من الشرك ، وهو باطل لجلج ، ثم أنكروا ما جاء به صلى الله عليه وسلم من التوحيد وما نفاه من الشركاء لله فقالوا :

﴿ أجعل الآلهة ﴾ أي صيرها ﴿ إلهاً واحداً ﴾ وقصرها على الله سبحانه ﴿ إن هذا لشيء عجاب ﴾ أي الأمر بالغ في العجب إلى الغاية تعجبوا من هذا القصر والحصر وقالوا : كيف يسع الخلق كلهم إله واحد، ومنشؤه أن القوم ما كانوا أصحاب نظر واستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا في الشاهد أن الفاعل الواحد لا تفي قدرته وعلمه بحفظ الخلائق قاسوا الغائب على الشاهد ، وأن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك توهموا أن كونهم على هذه الحال محال أن يكونوا مبطلين فيه ، ويكون الإنسان الواحد محقاً ، فلعمري لو كان التقليد حقاً كانت هذه الشبهة لازمة ، قاله الكرخي .

قال الجوهري : العجيب الأمر الذي يتعجب منه وكذلك العجاب بالضم ، والعجاب بالتشديد أكثر منه ، قرأ الجمهور عجاب بالتخفيف وقرىء بتشديد الجيم ، قال مقاتل : بالتخفيف لغة أزد شنوءة ، قيل : والعجاب بالتخفيف والتشديد يدل على أنه قد يجاوز الحد في العجب كما يقال : الطويل للذي فيه طول والطوال للذي قد تجاوز حد الطول وكلام الجوهري يفيد اختصاص المبالغة بعجاب مشدد الجيم لا بالمخفف وقد قدمنا في صدر هذه السورة سبب نزول هذه الآيات .

وَانطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ﴿١٠﴾

﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ المراد بالملأ الأشراف كما هو مقرر في غير موضع من تفسير الكتاب العزيز ، عن ابن عباس قال : نزلت حين انطلق أشراف قريش إلى أبي طالب فكلموه في النبي صلى الله عليه وسلم قائلين ، بعضهم للبعض : ﴿ أن امشوا ﴾ أي امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه .

﴿ واصبروا على آلهتكم ﴾ أي اثبتوا على عبادتها وقيل : المعنى وانطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام : امشوا واصبروا على آلهتكم ، وان هي المفسرة للقول المقدر ، أو لقوله :(وانطلق) لأنه مضمن معنى القول ويجوز أن تكون مصدرية معمولة للمقدر ، أو للمذكور ، أي بأن امشوا وقيل : المراد بالانطلاق الاندفاع في القول ، وامشوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها أي اجتمعوا وأكثروا وهو بعيد جداً ، وخلاف ما يدل عليه الانطلاق والمشي بحقيقتها ، وخلاف ما تقدم في سبب النزول .

وجملة ﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ تعليل لما تقدمه من الأمر بالصبر ، أي يريده محمد بنا وآلهتنا ويود تمامه من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه ليعلو علينا ، ونكون له أتباعاً فيتحكم فينا بما يريد فيكون هذا الكلام خارجاً مخرج التحذير منه والتنفير عنه .

وقيل : إن هذا الأمر يريده الله سبحانه ، وما أراده ويحكم بإمضائه فهو كائن لا محالة ، ولا ينفع فيه إلا الصبر فاصبروا على عبادة آلهتكم . وقيل المعنى إن دينكم لشيء يراد أي يطلب ليؤخذ منكم ، وتغلبوا عليه أو أن هذا

الأمر شيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه ، أو أمر يراد بأهل الأرض والأول أولى .

﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ الذي يقوله محمد من التوحيد ﴿ في الملة الآخرة ﴾ وهي ملة النصرانية فإنها آخر الملل قبل ملة الإسلام كذا قال محمد بن كعب القرظي وقتادة ومقاتل والكلبي والسدي ، وبه قال ابن عباس ، وقال مجاهد : يعنون به ملة قريش ، أي التي أدركنا عليها آباءنا وعن قتادة مثله وقال الحسن المعنى ما سمعنا أن هذا يكون في آخر الزمان ، وقيل إن المعنى ما سمعنا من اليهود والنصارى أن محمداً رسول الله .

﴿ إن هذا الا اختلاق ﴾ أي ما هذا إلا كذب اختلقه محمد وافتراه من تلقاء نفسه وافتعله ، ثم استنكروا أن يخص الله رسوله بمزية النبوة دونهم فقالوا : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ والاستفهام للانكار ، أي كيف يكون ذلك ونحن الرؤساء والأشراف ، قال الزجاج : قالوا : كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا ؟ ونحن أكبر سناً وأعظم شرفاً منه ، وهذا مثل قولهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ فأنكروا أن يتفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده بما شاء . ولما ذكر استنكارهم لنزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم دونهم ، بين السبب الذي لأجله تركوا التصديق برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به فقال :

﴿ بل هم في شك من ذكري ﴾ أي من القرآن أو الوحي ، لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه ، وإهمالهم للأدلة الدالة على أنه حق منزل من عند الله ﴿ بل لمّا يذوقوا عذاب ﴾ أي بل السبب أنهم لم يذوقوا عذابي فاغتروا بطول المهلة . ولو ذاقوا عذابي على ما هم عليه من الشرك والشك لصدقوا ما جئت به من القرآن ، ولم يشكوا فيه ، وذوقهم له متوقع فإذا ذاقوه زال عنهم الشك ، وصدقوا ، وتصديقهم لا ينفعهم حينئذ لأنهم صدقوا مضطرين فقوله : بل لما يذوقوا إضراب عن الإضراب الأول خلاف ما يفهم من

الكشاف من تعلقه بالكلامين قبله .

﴿ أم ﴾ أي بل أ ﴿ عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ ﴾ أي مفاتيح نعم ربك وهي النبوة وما هو دونها من النعم ، حتى يعطوها من شاءوا فما لهم ولإنكار ما تفضل الله به على هذا النبي واختاره له واصطفاه لرسالته والمعنى أن النبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده لا مانع له فإنه العزيز الغالب القاهر الذي لا يغلب الوهاب المعطي بغير حساب ، الذي له أن يهب كل ما يشاء لمن يشاء ثم رشح ذلك فقال :

﴿ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي : بل ألهم ملك هذه الأشياء حتى يعطوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ويعترضوا على إعطاء الله سبحانه ما شاء لمن شاءوا المعنى أنه ليس لهم مدخل في أمر هذا العالم الجسماني الذي هو جزء يسير من خزائنه ، فمن أين لهم أن يتصرفوا فيها .

وقوله ﴿ فليرتقوا في الأسباب ﴾ جواب شرط محذوف أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب أي المعارج والمناهج ، والطرق التي توصلهم إلى السماء أو إلى العرش حتى يستووا عليه ويحكموا بما يريدون من عطاء ومنع ويدبروا أمر العالم بما يشتهون أو فليصعدوا وليمنعوا الملائكة من نزولهم بالوحي على محمد صلى الله عليه وسلم .

والأسباب أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها ، قاله مجاهد وقتادة ، قال الربيع بن أنس : الأسباب أدق من الشعر وأشد من الحديد ولكن لا ترى ، وقال السدي في الأسباب في الفضل والدين ، وقيل : فليعملوا في أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة ، وهو قول أبي عبيدة وقيل : الأسباب الحبال أي إن وجدوا حبالا يصعدون فيها إلى السماء فعلوا والأسباب عند أهل اللغة كل شيء يتوصل به إلى المطلوب كائناً ما كان وفي هذا الكلام تهكم بهم وتعجيز لهم ، قال ابن عباس الأسباب السماء أي لأنها أسباب الحوادث السفلية

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ هذا وعد من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم بالنصر عليهم ، والظفر ، و﴿ جند ﴾ مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هم جند حقير ، يعني الكفار مهزوم مكسور عما قريب ، فلا تبال بهم ، ولا تظن أنهم يصلون إلى شيء مما يضمرونه بك من الكيد ، و (ما) في قوله : ما هنالك هي صفة لجند ، لإفادة التعظيم أو التحقير ، أي جند أي جند ، وقيل هي زائدة ، يقال : هزمت الجيش كسرته ، وتهزمت القرية إذا تكسرت ، وهذا الكلام متصل بما تقدم ، وهو قوله : ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ وهم جند من الأحزاب مهزومون فلا تحزن لعزتهم وشقاقهم ، فإني أسلب عزهم وأهزم جمعهم ، وقد وقع ذلك ولله الحمد في يوم بدر ، وفيما بعده من مواطن الله ، وهو إخبار بالغيب ، وقيل : مشار به إلى نصرة الإسلام ، وقيل : إلى حفر الخندق ، يعني إلى مكان ذلك ، قال الرازي : والأصح عندي حمله على يوم فتح مكة ، لأن المعنى انهم جند سيصيرون مهزومين في الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات ، وذلك الموضع هو مكة وما ذاك إلا في يوم الفتح .

﴿ كذبت قبلهم ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العتاة الطغاة الذين هؤلاء جند من جنسهم بما فعلوا من الكفر والتكذيب ، وفعل بهم من العقاب والعذاب ﴿ قوم نوح ﴾ أي كذبوا رسولهم نوحاً ، وكذا يقدر

فيها بعده ، وتأنيث قوم باعتبار المعنى . وهو أنهم أمة وطائفة وجماعة .

﴿ وعاد وفرعون ذو الأوتاد ﴾ قال المفسرون كانت له أوتاد يعذب بها الناس وذلك أنه كان إذا غضب على أحد وتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض ، وقيل : كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه ، وما أبرد هذا القول ، وقيل ذو القوة والبطش ، وقيل : المراد بالأوتاد الجموع والجنود الكثيرة ، يعني أنهم كانوا يقوون أمره ويشدون سلطانه ، كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه فالكلام خارج مخرج الاستعارة على هذا قال ابن قتيبة ، العرب تقول : هم في عز أو في ملك ثابت الأوتاد ويريدون ملكاً دائماً شديداً ، وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد ، وقيل : المراد بالأوتاد هنا البناء المحكم ، أي وفرعون ذو الأبنية المحكمة ، قال الضحاك : والبنيان يسمى أوتاداً والأوتاد جمع وتد ، وفيه لغات أفصحها فتح الواو وكسر التاء ويقال : وتد بفتحها . وود بإدغام التاء في الدال بوزن وج ، وودت وهي لغة أهل نجد قال الأصمعي : ويقال وتد واتد مثل شغل شاغل .

﴿ وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ﴾ أي الغيضة ، وهي الأشجار الملتفة المجتمعة ، وقد تقدم تفسيرها في سورة الشعراء ومعنى : ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ أنهم الموصوفون بالقوة والكثرة كقولهم فلان هو الرجل ، وقريش - وإن كانوا حزباً كما قال الله تعالى فيما تقدم : ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ ولكن هؤلاء الذين قصهم الله علينا من الأمم السالفة هم أكثر منهم عدداً ، وأقوى أبداناً ، وأوسع أموالاً وأعماراً . وقيل ، إن المعنى أن مشركي قريش من أولئك الأحزاب ، وهم هم ، ومنهم وجد التكذيب ، وهذه الجملة مستأنفة أو خبر ، والمبتدأ قوله . وعاد كذا قال أبو البقاء وهو ضعيف ، بل الظاهر أن (عاد) وما بعده معطوفات على قوم نوح ، والأولى أن تكون هذه الجملة خبراً لمبتدأ محذوف أو بدلاً من الأمم المذكورة .

﴿ إن كل ﴾ أي ما كل حزب من هذه الأحزاب ﴿ إلا كذب الرسل ﴾

لأن تكذيب الحزب لرسوله المرسل إليه تكذيب لجميع الرسل لأن دعوتهم واحدة ، وهي التوحيد ، أو هو من مقابلة الجمع بالجمع ، والمراد تكذيب كل حزب لرسوله ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي ما كان أحد من الأحزاب في جميع أحواله إلا وقع منه تكذيب الرسل ، وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية ، أولا ، وبالاستثنائية ثانياً ، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد ، أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه ؛ ثم قال :

﴿ فحق عقاب ﴾ أي فحق عليهم عقابي بتكذيبهم . ومعنى حق ثبت ووجب وإن تأخر فكأنه واقع بهم . وكل ما هو آت قريب . وقرىء عقاب بإثبات الياء وحذفها مطابقة لرؤوس الآي . وفي الآية زجر وتخويف للسامعين .

﴿ وما ينظر ﴾ أي ما ينتظر ﴿ هؤلاء ﴾ أي كفار مكة ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ وهي النفخة الكائنة عند قيام الساعة[1] . وقيل : هي النفخة الثانية . وعلى الأول المراد من عاصر نبينا صلى الله عليه وسلم من الكفار . وعلى الثاني المراد كفار الأمم المذكورة أي ليس بينهم وبين ما أعد الله لهم من عذاب النار إلا أن ينفخ في الصور النفخة الثانية . وقيل : المراد بالصيحة عذاب يفجأهم في الدنيا وجملة :

﴿ ما لها من فواق ﴾ في محل نصب صفة لصيحة ، قال الزجاج . فواق بفتح الفاء وضمها لغتان بمعنى واحد[2] ، وهو الزمان الذي بين حلبتي الحالب ، ورضعتي الراضع ، وهو مشتق من الرجوع أيضاً ، لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين ، ويقال . أفاق من مرضه أي رجع إلى الصحة ، ولهذا قال مجاهد ومقاتل . إن الفواق الرجوع ، وقال قتادة : ما لها من مثنوية

---

(١) قال ابن كثير : وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى اسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد .

(٢) عن أنس بن مالك قال رسول الله عليه وسلم : العيادة فواق الناقة «رواه السيوطي في الجامع الصغير» .

وقال السدي : ما لها من إفاقة ، وقيل : ما لها من مرد قال الجوهري : ما لها من نظرة وراحة وإفاقة .

وقال ابن عباس : ما لها من رجعة . والفيقة اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين وجمعها فيق وفواق وأما أفاويق فجمع الجمع قال الفراء والسدوسي وأبو عبيدة وابن زيد والسدي الفواق بفتح الفاء الراحة والافاقة أي لا يفيقون فيها كما يفيق المريض والمغشى عليه . وبالضم الانتظار ، ومعنى الآية أن تلك الصيحة هي ميعاد عذابهم . فإذا جاءت لم ترجع ولا ترد عنهم ، ولا تصرف منهم ، ولا تتوقف مقدار فواق ناقة ، وهي ما بين حلبتي الحالب لها ، وهذا في المعنى كقوله تعالى ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

﴿ و ﴾ لما سمعوا ما توعدهم الله به من العذاب ﴿ قالوا ﴾ استهزاء وسخرية ﴿ ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ والقط في اللغة النصيب من القط ، وهو القطع ؛ وبهذا قال قتادة وسعيد بن جبير ، قال الفراء : القط في كلام العرب الحظ والنصيب ، ومنه قيل للصك قط . قال أبو عبيدة والكسائي . القط الكتاب بالجوائز ، والجمع القطوط ، وأصله من قط الشيء أي قطعه ، ومنه قط القلم ومعنى الآية سؤالهم لربهم أن يعجل لهم نصيبهم وحظهم من العذاب ، وهو مثل قوله ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ وقال السدي : سألوا ربهم أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به .

وقال اسمعيل بن أبي خالد : المعنى عجل لنا أرزاقنا ، وبه قال سعيد بن جبير والسدي . وقال أبو العالية والكلبي ومقاتل لما نزل قوله : ﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾ قالت قريش : زعمت يا محمد أنا نؤتي كتابنا بشمالنا فعجل لنا قطنا يوم الحساب ، قال ابن عباس : سألوا الله أن يجعل لهم ، وقال : قطنا نصيبنا من الجنة ، ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر على ما يسمعه من أقوالهم فقال :

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ من أقوالهم الباطلة التي هذا القول المحكي عنهم من جملتها ، وصن نفسك أن تزل فيها كلفت من مصابرتهم ، وتحمل أذاهم ، قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقيل محكمة وهو الصحيح . ولما فرغ من ذكر قرون الضلالة وأمم الكفر والتكذيب وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يسمعه ، زاد في تسليته وتأسيته بذكر قصة داود وما بعدها فقال :

﴿ واذكر عبدنا داود الأيد ﴾ أي أذكر قصته فإنك تجد فيها ما تتسلى به ، والأيد : القوة ، قاله ابن عباس ، ومنه رجل أيد أي قوي ، وتأيد الشيء تقوى ، والأيد مفرد بوزن البيع ، وهو مصدر ، وليس جمع يد ، يقال : آد الرجل يئيد أيداً وإياداً بالكسر إذا قوي واشتد ، فهو أيد مثل سيد وهين ، ومنه قولهم : أيدك الله تأييداً والمراد ما كان فيه عليه السلام من القوة على العبادة ، قال الزجاج وكانت قوة داود على العبادة أتم قوة .

ومن قوته ما أخبرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم « أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان يصلي نصف الليل ، وكان لا يفر إذا لاقى العدو »[1] .

(١) روى بمعناه البخاري ٣/١٤ ومسلم ٢/٨١٦ باختلاف يسير في ألفاظه وابو داود والنسائي وابن ماجة وغيرهم .

وجملة ﴿ إنه أواب ﴾ تعليل لكونه ذا الأيد ، والأواب الرجاع عن كل ما يكرهه الله سبحانه إلى ما يحبه ، ولا يستطيع ذلك إلا من كان قوياً في دينه وقيل : معناه كلما ذكر ذنبه استغفر منه وتاب عنه ،. وهذا داخل تحت المعنى الأول ، يقال آب يؤوب إذا رجع . وقال ابن عباس الأواب المسبح بلغة الحبشة .

وأخرج الديلمي عن مجاهد قال : سألت ابن عمر عن الأواب فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال « هو الذي يذكر ذنوبه في الخلا فيستغفر الله» وعن ابن عباس قال الأواب الموقن .

﴿ إنا سخرنا الجبال معه ﴾ استئناف مسوق لتعليل قوته في الدين ، وكونه رجاعاً إلى مرضاته تعالى ، وإيثار مع على اللام لما أشير إليه في سورة الأنبياء من أن تسخير الجبال لم يكن بطريق التصرف الكلي فيها إليه كتسخير الريح وغيرها لسليمان بل بطريق التبعية له والاقتداء به ، قيل كان تسخيرها أنها تسير معه إذا أراد سيرها إلى حيث يريد .

﴿ يسبحن ﴾ ولم يقل مسبحات ليدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً فشيئاً ، وحالاً بعد حال ، أي يقدسن الله سبحانه وينزهنه ، عما لا يليق به . ويسبحن في محل نصب على الحال ، وفي هذا بيان ما أعطاه الله من البرهان والمعجزة ، وهو تسبيح الجبال معه ، قال مقاتل كان داود إذا ذكر الله ذكرت الجبال معه ، وكان يفقه تسبيح الجبال ، وقال محمد بن إسحق أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال دوي حسن ، فهذا معنى تسبيح الجبال ، والأول أولى ، ومعنى يسبحن يصلين ، ومعه متعلق بسخرنا .

﴿ بالعشي ﴾ أي وقت صلاة العشاء ﴿ والاشراق ﴾ أي وقت صلاة الضحى وهو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوؤها ، والمعنى كان داود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وغروبها ، وقال الكلبي أي غدوة وعشية ، يقال أشرقت الشمس إذا أضاءت ، وذلك وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها ،

قال الزجاج شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت .

عن عطاء الخراساني عن ابن عباس قال لم يزل في نفسي من صلاة الضحى حتى قرأت هذه الآية وعنه قال لقد اتى عليّ زمان وما أدري وجه هذه الآية حتى رأيت الناس يصلون الضحى ، أخرجه ابن المنذر وابن مردويه .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عنه قال كنت أمر بهذه الآية فما أدري ما هي ، حتى حدثتني أم هانىء بنت أبي طالب « أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوم الفتح فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى الضحى ، ثم قال يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق »[1] . والأحاديث في صلاة الضحى كثيرة جداً ، قد ذكرها الشوكاني في شرحه للمنتقى .

﴿ والطير محشورة ﴾ أي وسخرنا له الطير حال كونها محشورة أي مجموعة إليه من كل ناحية ، تسبح الله معه ، قيل كانت تجمعها إليه الملائكة ، وقيل كانت تجمعها الريح ﴿ كل له أواب ﴾ أي كل واحد من داود والجبال والطير رجاع إلى طاعة الله وأمره والضمير في له راجع إلى الله عز وجل ، وقيل إلى داود أي لأجل تسبيح داود مسبح ، فوضع أواب موضع مسبح ، والأول أولى ، وقد قدمنا أن الأواب الكثير الرجوع إلى الله سبحانه .

﴿ وشددنا ملكه ﴾ أي قويناه وثبتناه بالنصر في المواطن على أعدائه ، وإلقاء الرعب منه في قلوبهم ؛ وقيل بكثرة الجنود ، كان يبيت حول محرابه كل ليلة ستة أو ثلاثة وثلاثون ألف رجل يحرسونه ، وكان أشد ملوك الأرض سلطاناً .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس « قال استعدى رجل من بني إسرائيل عند داود على رجل من عظمائهم فقال إن هذا غصبني بقراً لي، فسأل داود الرجل عن ذلك ، فجحده ، فسأل الآخر البينة فلم تكن له بينة فقال لهما

(١) راجع ما ذكرناه في سورة النور آية ٣٦ .

داود قوما حتى أنظر في أمركما ، فقاما من عنده ؛ فأتى داود في منامه فقيل له اقتل الرجل الذي استعدى ، فقال إن هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتثبت : فأتى الليلة الثانية في منامه فأمر أن يقتل الرجل فلم يفعل ثم اتى الليلة الثالثة ؛ فقيل له اقتل الرجل أو تأتيك العقوبة من الله فأرسل داود إلى الرجل فقال إن الله أمرني أن أقتلك قال تقتلني بغير بينة ولا تثبت قال نعم والله لأنفذن أمر الله فيك فقال الرجل لا تعجل عليّ حتى أخبرك أني والله ما أخذت بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت والد هذا فقتلته فبذلك أخذت ؛ فأمر به داود فقتل ، فاشتدت هيبته في بني إسرائيل وشدد به ملكه فهو قول الله وشددنا ملكه » .

﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ المراد بها النبوة والمعرفة بكل ما يحكم به ، وقال مقاتل : الفهم والعلم ، وقيل الزبور وعلم الشرائع ، وقيل الإصابة في الأمور وقيل كل كلام وافق الحق فهو الحكمة ، وقال مجاهد : العدل وقال أبو العالية العلم بكتاب الله ، وقال شريح : السنة ، ولا مانع من حمل الآية على الكل .

﴿ وفصل الخطاب ﴾ المراد به الفصل في القضاء ، وبه قال الحسن والكلبي ومقاتل وحكى الواحدي عن الأكثر أن فصل الخطاب الشهود والأيمان لأنها إنما تنقطع الخصومة بهذه وبه قال أُبي ابن كعب ، وقال علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه البينة على المدعي واليمين على من أنكر . وقيل : الفصل بين الحق والباطل ، وقاله شريح والشعبي وقتادة أيضاً ، وقيل : هو الإيجاز يجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وقيل : بيان الكلام ، وقيل علم الحكم والتبصر بالقضاء والمعاني متقاربة .

وعن أبي موسى الأشعري قال : « أول من قال : أما بعد ، داود عليه السلام ، وهو فصل الخطاب » ، أخرجه ابن أبي حاتم والديلمي، وعن الشعبي أنه سمع زياد بن أبيه يقول : فصل الخطاب الذي أوتيه داود : أما بعد أخرجه سعيد بن منصور ، ولما مدحه الله سبحانه بما تقدم ذكره أردف ذلك بذكر هذه القصة الواقعة له ، لما فيها من الأخبار العجيبة وقال :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾

﴿ وهل أتاك نبأ الخصم ﴾ ومعنى الاستفهام هنا التعجب ، والتشويق إلى استماع ما بعده لكونه أمراً غريباً ، كما تقول لمخاطبك هل تعلم ما وقع اليوم ؟ ثم تذكر له ما وقع قال مقاتل : بعث الله إلى داود ملكين جبريل وميكائيل لينبهه على التوبة فأتياه وهو في محرابه قال النحاس : ولا خلاف بين أهل التفسير أن المراد بالخصم هنا الملكان ، والخصم مصدر يقع على الواحد والإثنين والجماعة ، ومعنى قوله :

﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾ أتوه من أعلى سوره ، ونزلوا إليه ، والسور الحائط المرتفع ، وجاء بلفظ الجمع في تسوروا مع كونهما اثنين نظراً إلى ما يحتمله لفظ الخصم من الجمع ، والمحراب الغرفة لأنهم تسوروا عليه وهو فيها ، كذا قال يحيى بن سلام .

وقال أبو عبيدة : إنه صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد ، وقيل : إنهما كان إنسيين ولم يكونا ملكين ، والعامل في إذ النبأ أي هل أتاك الخبر الواقع في وقت تسورهم ؟ وبهذا قال ابن عطية ومكي وأبو البقاء ، وقيل :

العامل فيه . أتاك ، وقيل : معمول للخصم ، وقيل : معمول لمحذوف ، أي وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم .

عن ابن عباس أن داود حدث نفسه إذا ابتلى أنه يعتصم ، فقيل له . إنك ستبتلى وستعلم الذي تبتلى فيه فخذ حذرك ، فقيل له . هذا اليوم الذي تبتلى فيه فأخذ الزبور ودخل المحراب ، وأغلق باب المحراب ، واخذ الزبور في حجره وأقعد منصفاً يعني خادماً على الباب ، وقال : لا تأذن لأحد عليَّ اليوم فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب كأحسن ما يكون للطير فيه من كل لون فجعل يدور بين يديه فدنا منه فأمكن أن يأخذه فتناوله بيده ليأخذه فاستوفز من خلفه فأطبق الزبور ، وقام إليه ليأخذه فطار فوقع على كوة المحراب ، فدنا منه ليأخذه فأفضى فوقع على خص فأشرف عليه لينظر أين وقع ؟ فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض ، فلما رأت ظله حركت رأسها فغطت جسدها أجمع بشعرها وكان زوجها غازياً في سبيل الله فكتب داود إلى رأس الغزاة انظر أوريا فاجعله في حملة التابوت ، وكان حملة التابوت ، إما أن يفتح عليهم ، وإما أن يقتلوا ، فقدمه في حملة التابوت فقتل ، فلما انقضت عدتها خطبها داود ، فاشترطت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة من بعده ، وأشهدت عليه خمسين من بني إسرائيل ، وكتبت عليه بذلك كتاباً فما شعر بفتنته أنه افتتن حتى ولدت سليمان ، وشب فتسور عليه الملكان المحراب وكان شأنهما ما قص الله في كتابه ، وخر داود ساجداً فغفر الله له ، وتاب عليه . أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم[1] .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب قال ، ما أصاب داود ما

---

(١) رواه الطبري من رواية الصوفي عن ابن عباس ٢٣ / ١٤٦ والصوفي ضعيف ورواه عن السدي ٢٣ / ١٤٧ وقال ابن كثير : ولم يثبت عن المعصوم فيها حديث يجب اتباعه واكثرها مأخوذ من الاسرائيليات . وقال عياض في الشفا : فلا يجب ان يلتفت إلى ما سطره الاخباريون عن أهل الكتاب الذين بدّلوا وغيّروا. والله أعلم .

أصابه بعد القدر إلا من عجب بنفسه وذلك أنه قال ، يا رب ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك يصلي لك أو يسبح أو يكبر ، وذكر أشياء فكره الله ذلك فقال ، يا داود إن ذلك لم يكن إلا بي فلولا عوني ما قويت عليه ، وعزتي وجلالي لأكلنك إلى نفسك يوماً ، قال يا رب فأخبرني به فأخبر به فأصابته الفتنة ذلك اليوم .

وأخرج أصل القصة الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس مرفوعاً بإسناد ضعيف .

وأخرجها ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس مطولة وأخرجها جماعة عن جماعة من التابعين .

قال صاحب الكشاف بعد ذكر هذه القصة هذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء اهـ . . .

وقال القاضي عياض ، لا يجوز أن يلتفت إلى ما سطره الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا نقله بعض المفسرين ، ولم ينص الله على شيء من ذلك ، ولا ورد في حديث صحيح ، والذي نص عليه الله في قصة داود ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ وليس في قصة داود وأوريا خبر ثابت وهذا هو الذي ينبغي أن يعول عليه من أمر داود .

قال الرازي : حاصل القصة يرجع إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق ، وإلى الطمع في زوجته وكلاهما منكر عظيم ، فلا يليق بعاقل أن يظن بداود عليه السلام هذا ، وقال غيره : إن الله أثنى على داود قبل هذه القصة وبعدها وذلك يدل على استحالة ما نقلوه من القصة فكيف يتوهم عاقل أن يقع بين مدحين ذم ولو جرى ذلك من بعض الناس لاستهجنه العقلاء ، ولقالوا أنت في مدح شخص كيف تجري ذمه أثناء مدحك والله تعالى منزه عن مثل هذا في كتابه القديم .

وروى سعيد بن المسيب والحارث الأعور عن علـيّ بن أبي طالب أنه قال من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وهو حد الفرية على الأنبياء وروى أنه حُدِّث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به ، وقال إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتمس خلافها ، وأعظم بأن يقال غير ذلك وإن كان على ما ذكرت وكف الله عنها ستراً على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه فقال عمر سماعي هذا الكلام أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس .

قال النسفي : والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله بقصتـه عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب ، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التصريح ، لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل ان التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه ، مع مراعاة حسن الادب بترك المجاهرة انتهى قال أبو السعود : وأما ما يذكر من أنه عليه السلام تزوج امرأة أوريا فهو إفك مبتدع مكروه ، ومكر مخترع تمجه الأسماع ، وتنفر عنه الطباع ، وويل لمن ابتدعه وأشاعه ، وتباً لمن اخترعه وأذاعه ، وسيأتي الكلام على ذنب داود عليه السلام في آخر هذه القصة .

﴿ إذ ﴾ بدل من الأولى ، وقيل هو معمول لتسوروا ، وقال الفراء إن أحد الظرفين المذكورين بمعنى لما ﴿ دخلوا على داود ففزع منهم ﴾ لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم ، ودخلوا عليه بغير إذنه ، ولم يدخلوا من الباب الذي يدخل منه الناس ، قال ابن الأعرابي : وكان محراب داود من الامتناع بالإرتفاع بحيث لا يرتقي إليه آدمي بحيلة .

﴿ قالـوا لا تخـف ﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل : فماذا قالوا لداود لما فزع منهم ﴿ خصمان ﴾ أي نحن خصمان وجاء فيما سبق بلفظ الجمع ، وهنا

بلفظ التثنية لما ذكرنا من أن لفظ الخصم يحتمل المفرد والمثنى والمجموع ، فالكل جائز قال الخليل : هو كما تقول : نحن فعلنا كذا إذا كنتما اثنين : وقال الكسائي جمع لما كان خبراً فلما انقضى الخبر وجاءت المخاطبة أخبر الإثنان عن أنفسهما فقالا : خصمان وقوله .

﴿ بغى بعضنا على بعض ﴾ هو على سبيل الفرض والتقدير أو على سبيل التعريض ، لأن من المعلوم أن الملكين لا يبغيان ؛ ثم طلبا منه أن يحكم بينهما بالحق ونهياه عن الجور فقالا :﴿ فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ﴾ أي لا تجر في حكمك يقال : شط الرجل وأشط شططاً وإشطاطاً إذا جار في حكمه وتجاوز الحد قال أبو عبيدة شططت عليه وأشططت فيه أي جرت فهو مما اتفق فيه فعل وأفعل وقال الأخفش معناه لا تسرف وقيل لا تفرط وقيل لا تمل والمعنى متقارب والأصل فيه البعد من شطت الدار إذا بعدت قال أبو عمر : والشطط مجاوزة القدر في كل شيء .

﴿ وآهدنا إلى سواء الصراط ﴾ أي وسطه ومحجته أي العدل والصواب ، والمعنى أرشدنا إلى الحق واحملنا عليه ثم لما أخبراه عن الخصومة إجمالاً شرعا في تفصيلها وشرحها فقال : ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة﴾ المراد بالأخوة هنا أخوة الدين ، قاله ابن مسعود، أو الصحبة أو الالفة أو أخوة الشركة والخلطة ، والنعجة هي الأنثى من الضأن ، وقد يقال لبقر الوحش : نعجة ويعبر بها عن المرأة لما هي عليه من السكون والعجز وضعف الجانب وقد يكنّى عنها بالبقرة والحجر والناقة لأن الكل مركوب قال الواحدي النعجة البقرة الوحشية والعرب تكني عن المرأة بها وتشبه النساء بالنعاج من البقر ، قرأ الجمهور تسع وتسعون بكسر التاء ، وقرىء بفتحها ، قال النحاس وهي لغة شاذة ، وإنما عنى بهذا داود لأنه كان له تسع وتسعون امرأة وعنى بقوله :

﴿ ولي نعجة واحدة ﴾ أوريا زوج المرأة التي أراد أن يتزوجها داود[1] كما تقدم بيان ذلك ﴿ فقال أكفلنيها ﴾ أي ضمها اليّ وانزل لي عنها حتى أكفلها

---

(١) راجع تعليقات المطيعي رقم ١ في الاستدراك آخر الكتاب .

وأصير بعلاً لها قال ابن كيسان اجعلها كفلي ونصيبي قال ابن مسعود ما زاد داود على أن قال اكفلنيها وعن ابن عباس قال ما زاد داود على أن قال تحول لي عنها وهذا يخالف ما سبق عنه[١] .

﴿ وعزني في الخطاب ﴾ أي غلبني يقال عزه يعزه عزاً إذا غلبه ، وفي المثل من عزّ بزّ أي من غلب أخذ السلب ، والإسم العزة ، وهي القوة قال عطاء المعنى إن تكلم كان أفصح مني ، وإن حارب كان أبطش مني لقوة ملكه فالغلبة كانت له عليّ لضعفي في يده ، وإن كان الحق معي ، وهذا كله تمثيل ، وقرىء وعازني أي غالبني من المعازة وهي المغالبة .

﴿ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ أي بسؤاله نعجتك ليضمها إلى نعاجه التسع والتسعين إن كان الامر على ما تقول واللام هي الموطئة للقسم ، وهي وما بعدها جواب القسم المقدر ، وجاء بالقسم في كلامه مبالغة في إنكار ما سمعه من طلب صاحب التسع والتسعين النعجة أن يضم إليه النعجة الواحدة التي مع صاحبه ولم يكن معه غيرها ويمكن أنه إنما قال بهذا بعد أن سمع الإعتراف من الآخر قال النحاس ويقال إن خطيئة داود هي قوله لقد ظلمك لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت .

﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ﴾ وهم الشركاء واحدهم خليط ، وهو المخالط في المال ﴿ ليبغي ﴾ اللام لام التوكيد وقعت في خبر إنّ أي يتعدى ﴿ بعضهم على بعض ﴾ ويظلمه غير مراع لحقه ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فإنهم يتحامون ذلك ، ولا يظلمون خليطاً ولا غيره والإستثناء متصل ﴿ وقليل ما هم ﴾ أي وقليل هم ، وما زائدة لتوكيد القلة والتعجيب وقيل هي موصولة وهم مبتدأ وقليل خبره ، عن ابن عباس قال يقول قليل الذي هم فيه .

---

(١) قال المفسر (ص ١٦٠) «ولي نعجة واحدة» أوريا . . الخ . وجاء التعليق هكذا : كان على المصنف ان لا يقحم قصة اوريا الاسرائيلية في مفهوم الآيات ، لا سيما وقد سبق له انه نقل ان الصحابة رفضوا هذه القصة .

﴿ وظن داود انما فتناه ﴾ قال أبو عمرو والفراء : ظن بمعنى أيقن ، ومعنى فتناه إبتليناه ، وقال ابن عباس . اختبرناه ، والمعنى أنه عند أن تخاصما إليه ، وقال ما قال ، علم عند ذلك أنه المراد وأن مقصودهما التعريض به وبصاحبه الذي أراد أن ينزل له عن امرأته ، قال الواحدي قال المفسرون ، فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك فعند ذلك علم داود بما أراداه قرأ الجمهور فتناه بالتخفيف للتاء وتشديد النون وقرىء بالتشديد للتاء والنون وهي مبالغة في الفتنة ، وقرأ الضحاك أفتناه ، وقرىء فتناه بتخفيفهما وإسناد الفعل إلى الملكين .

﴿ فاستغفر ربه ﴾ لذنبه ﴿ وخر راكعاً ﴾ أي ساجداً ، وعبر بالركوع عن السجود لأن كل واحد منهما فيه انحناء ، وقيل : خر ساجداً بعد ما كان راكعاً ، قال ابن العربي لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هنا السجود فإن السجود هو الميل والركوع هو الإنحناء وأحدهما يدخل في الآخر ولكنه قد يختص كل واحد منهما بهيئته ثم جاء هذا على تسمية أحدهما بالآخر وقيل المعنى للسجود راكعاً أي مصلياً وقيل : بل كان ركوعهم سجوداً ، وقيل : بل كان سجودهم ركوعاً .

﴿ وأناب ﴾ أي رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه ، قال المفسرون : سجد داود أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة أو لوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجداً إلى تمام أربعين لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربه عز وجل ويسأله التوبة ثم أنزل الله له التوبة والمغفرة وقد اختلف المفسرون في ذنب داود الذي استغفر له وتاب عنه على أقوال .

الأول : أنه نظر إلى امرأة الرجل الذي أراد أن تكون زوجة له كذا قال سعيد بن جبير وغيره قال الزجاج ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود

النظر إليها وصارت الأولى له والثانية عليه .

الثاني : أنه أرسل زوجها في جملة الغزاة .

الثالث : أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها .

الرابع : أن أوريا بن حنان كان خطب تلك المرأة فلما غاب خطبها داود فزوجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا فعتب الله عليه حيث لم يتركها لخاطبها .

الخامس : أنه لم يجزع على قتل أوريا كما كان يجزع على من هلك من الجند ، ثم تزوج امرأته فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة .

السادس : أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر كما قدمنا ، وأقول الظاهر من الخصومة التي وقعت بين الملكين تعريضاً لداود عليه السلام أنه طلب من زوج المرأة الواحدة أن ينزل له عنها ويضمها إلى نسائه ، ولا ينافي هذا العصمة الكائنة للأنبياء فقد نبهه الله على ذلك وعرض له بإرسال ملائكته إليه ليتخاصموا في مثل قصته حتى يستغفر لذنبه ويتوب منه ، فاستغفر وتاب عنه .

وقد قال تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ وهو أبو البشر ، وأول الأنبياء ووقع لغيره من الأنبياء ما قصه الله علينا في كتابه ، وفي الآية ما يدل على صدور الذنب منه ، وهو قوله ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ وقوله ﴿ فاستغفر ربه ﴾ وقوله ﴿ وأناب ﴾ وقوله : ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ والجواب عن هذا بأن حسنات الأبرار سيئآت المقربين ليس كما ينبغي ، والأولى ما ذكرناه ، ثم أخبر سبحانه أنه قبل استغفاره وتوبته فقال :

فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾

﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ الذنب الذي استغفر منه قال عطاء الخراساني وغيره إن داود بقي ساجداً أربعين يوماً حتى نبت الرعي حول وجهه ، وغمر رأسه قال ابن الأنباري : الوقف على قوله : ذلك تام . ثم يبتدأ الكلام بقوله .

﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ والزلفى القربة والكرامة بعد المغفرة لذنبه ، قال مجاهد الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة والمراد بحسن المآب حسن المرجع وهو الجنة .

وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه ذكر يوم القيامة فعظم شأنه وشدته قال : ويقول الرحمن عز وجل لداود عليه السلام : مر بين يدي ، فيقول داود : يا رب أخاف أن تدحضني خطيئتي ، خذ بقدمي ، فيأخذ بقدمه عز وجل فيمر قال فتلك الزلفى التي قال الله ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ » .

وأخرج أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس أنه قال في السجود في ﴿ صٓ ﴾ ليست من عزائم السجود وقد « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها » واخرج النسائي وابن مردويه بسند جيد عنه أيضاً « أن النبي صلى الله عليه

وسلم سجد في ﴿ صٓ ﴾ وقال : سجدها داود توبة ونسجدها شكراً »[1] .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في ﴿ صٓ ﴾ وعن أنس مثله مرفوعاً ، أخرجه ابن مردويه وأخرج الدارمي وأبو داود وابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر ﴿ صٓ ﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ؛ فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تهيأ الناس للسجود فقال إنما هي توبة ولكني رأيتكم تهيأتم للسجود فنزل فسجد » .

﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ لما تمم سبحانه قصة داود أردفها ببيان تفويض أمر خلافة الأرض إليه ، والجملة مقولة لقول مقدر معطوف على غفرنا أي وقلنا له : يا داود إنا استخلفناك على الأرض ، أو جعلناك خليفة لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتدبر أمر الناس ، وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير قط .

﴿ فاحكم بين الناس بالحق ﴾ أي بالعدل الذي هو حكم الله بين عباده لأن الأحكام إذا كانت مطابقة للشريعة الحقة الإلٓهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات ، وإذا كانت الأحكام على وفق الأهوية وتحصيل مقاصد الأنفس أفضى إلى تخريب العالم ووقوع الهرج فيه ؛ والمرج في الخلق وذلك يفضي إلى هلاك ذلك الحاكم .

﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ أي هوى النفس في الحكم بين العباد وفيه تنبيه لداود عليه السلام أن الذي عوتب عليه ليس بعدل ، وان فيه شائبة من اتباع هوى النفس .

﴿ فيضلك عن سبيل الله ﴾ بالنصب على أنه جواب النهي ، والفاعل

---

(١) النسائي ٣١٩/٢ السنن الكبرى .

هو الهوى ، ويجوز أن يكون الفعل مجزوماً بالعطف على النهي ، وإنما حرك لالتقاء الساكنين ، فعلى الوجه الأول يكون المنهي عنه الجمع بينهما وعلى الثاني يكون النهي عن كل واحد منهما على حدة ، وسبيل الله هو طريق الجنة أو دلائله التي نصبها على الحق تشريعاً وتكويناً .

﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ﴾ تعليل للنهي عن اتباع الهوى ، والوقوع في الضلال ﴿ بما نسوا يوم الحساب ﴾ الباء للسببية ، ومعنى النسيان الترك ، قال الزجاج : أي بتركهم العمل لذلك اليوم صاروا بمنزلة الناسين ، وإن كانوا ينظرون ويذكرون ولو أيقنوا بيوم الحساب لآمنوا في الدنيا .

وقال عكرمة والسدي : في الآية تقديم وتأخير ، والتقدير ، ولهم عذاب يوم الحساب بما نسوا أي تركوا القضاء بالعدل والأول أولى .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلاً ﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها من أمر البعث والحساب أي ما خلقنا هذه الأشياء خلقاً باطلاً خارجاً عن الحكمة الباهرة ، بل خلقناها للدلالة على قدرتنا . فانتصاب باطلاً على المصدرية أو على الحالية أو على أنه مفعول لأجله ، والإشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ إلى المنفي قبله وهو مبتدأ وخبره : ﴿ ظن الذين كفروا ﴾ أي مظنونهم فإنهم يظنون أن هذه الأشياء خلقت لا لغرض ويقولون : إنه لا قيامة ولا بعث ولا حساب ، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلاً .

﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ الفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل أي فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم ، كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم للإشعار بعلية للصلة ، لاستحقاقهم الويل ، ثم وبخهم وبكتهم فقال :

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ﴾ قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إنا نعطي في الآخرة كما تعطون فنزلت وأم هي المنقطعة المقدرة ببل، والهمزة للإضراب الانتقالي عن تقرير أمر البعث والحساب والجزاء، بما مر من نفي خلق العالم خالياً عن الحكم والمصالح إلى تقريره وتحقيقه بما في الهمزة من إنكار التسوية بين الفريقين، ونفيها على أبلغ وجه وآكده؛ أي بل أنجعل الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله وعملوا بفرائضه كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض بالمعاصي.

قال ابن عباس في الآية الذين آمنوا عليّ وحمزة وعبيدة بن الحارث والمفسدون في الأرض عتبة وشيبة والوليد ثم أضرب سبحانه إضراباً آخر وانتقل عن الأول إلى ما هو أظهر استحالة منه فقال:

﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ أي بل أنجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين والمنافقين؟ وحمل الفجار على المنهمكين في معاصي الله سبحانه من المسلمين، مما لا يساعده المقام، وقيل المراد بالمتقين الصحابة ولا وجه للتخصيص بغير مخصص والإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما أدخل في إنكار التسوية من الوصفين الأولين.

﴿ كتاب ﴾ أي القرآن كتاب ﴿ أنزلناه إليك ﴾ يا محمد ﴿ مبارك ﴾ أي

كثير الخير والبركة ﴿ ليدبروا آياته ﴾ أي التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع ، وهو متعلق بأنزلناه ؛ وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه لا لمجرد التلاوة بدون تدبر ، قال الحسن قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله حفظوا حروفه وضيعوا حدوده ، قرأ الجمهور ليدبروا بالادغام ، وقرىء لتدبروا بالتاء الفوقية على الخطاب وهي قراءة عليّ رضي الله تعالى عنه والأصل لتتدبروا .

﴿ وليتذكر أولو الألباب ﴾ أي ليتعظ أهل العقول والبصائر والألباب جمع لب وهو العقل .

﴿ ووهبنا لداود سليمان ﴾ أخبر سبحانه بأن من جملة نعمه على داود أنه وهب له سليمان ولداً ثم مدح سليمان فقال ﴿ نعم العبد ﴾ أي سليمان فالمخصوص بالمدح محذوف ، وقيل : إن المدح هنا بقوله نعم العبد هو لداود ، والأول أولى وجملة ﴿ إنه أواب ﴾ تعليل لما قبلها من المدح والأواب الرجاع إلى الله بالتوبة ، كما تقدم بيانه .

﴿ إذ عرض عليه بالعشي ﴾ أي اذكر ما صدر عنه وقت أن عرض عليه ﴿ الصافنات الجياد ﴾ وقيل : هو متعلق بنعم ، وهو مع كونه غير متصرف لا وجه لتقييده بذلك الوقت ، قيل : متعلق بأواب ، ولا وجه لتقييد كونه أواباً بذلك الوقت ، والعشي من الظهر أو العصر إلى آخر النهار . والصافنات جمع صافن .

وقد اختلف أهل اللغة في معناه ، فقال القتيبي والفراء الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غير هاو به قال قتادة ومنه الحديث « من أحب أن يتمثل له الناس صفونا فليتبوأ مقعده من النار[1] » ، أي يديمون القيام له وقال

---

(١) لم نره بهذا اللفظ ورواه الترمذي ٢/١٠٠ من حديث معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه قال : من سره أن يتمثل به الرجال قياماًفليتبؤوا مقعده من النار » ورواه ابو داود ٥٢٢٩ . واحمد ٩١/٤ باختلاف في الرواية .

الزجاج هو الذي يقف على إحدى اليدين ويرفع الأخرى ، ويجعل على الأرض طرف الحافر منها ، حتى كأنه يقوم على ثلاث وهي الرجلان وإحدى اليدين وقد يفعل ذلك بإحدى رجليه ، وهي علامة الفراهة .

وقال أبو عبيدة الصافن الذي يجمع يديه ويسويها وأما الذي يقف على سنبكه فاسمه المتخيم ، والجياد جمع جواد يقال للفرس ذكراً كان أو أنثى إذا كان شديد العدو ، وقيل : إنها الطوال الأعناق ، مأخوذ من الجيد وهو العنق وقيل الذي يجود في الركض ، قيل كانت مائة فرس . وقيل كانت عشرين ألفا قيل كانت عشرين فرساً ، وعن إبراهيم التيمي قال كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة فعقرها ، وقيل إنها خرجت له من البحر وكانت لها أجنحة[1]

وعن أبي هريرة قال الصافنات الجياد خيل خلقت على ما شاء وعن مجاهد قال صفون الفرس رفع إحدى يديه حتى يكون على أطراف الحافر والجياد السراع لأنه يجود بالركض وصفها بالصفون لأنه لا يكون في الهجان ، وإنما هو في العراب ، وقيل : وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين ، واقفة وجارية يعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها ، قيل إن سليمان غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس ، وقيل ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة .

﴿ فقال ﴾ اعترافاً بما صدر منه وندماً عليه وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها والتعقيب باعتبار آخر العرض الممتد دون ابتدائه ﴿ إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ انتصاب حب على أنه مفعول أحببت بعد تضمينه معنى آثرت ، قال الفراء يقول آثرت حب الخير ، وكل من أحب شيئاً فقد آثره وقيل انتصابه على المصدرية بحذف الزوائد ، والناصب له أحببت ، وقيل هو مصدر تشبيهي أي حباً مثل حب الخير ، والأول أولى ، والمراد بالخير هنا

(١) قد يكون في هذا القول غرابة لأننا لم نسمع بخيل لها أجنحة إلا أنه ليس بمستبعد لأن الله وهب لسليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعد.

الخيل ، قاله الزجاج ، وقال الفراء الخير والخيل في كلام العرب واحد ، وأنها تعاقب بين الراء واللام فتقول انهملت العين وانهمرت وختلت وخترت ، قال النحاس وفي الحديث ، الخيل معقود بنواصيها الخير فكأنها سميت خيراً لهذا وقيل لما فيها من المنافع وعن بمعنى على ، أي آثرت حب الخيل على ذكر ربي يعني صلاة العصر ، وبه قال علي ، وقال ابن عباس الخير المال ، وقيل أحببت بمعنى لزمت ، وقيل بمعنى قعدت من أحب البعير إذا سقط وبرك من الإعياء ، وفيل بمعنى أردت .

﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ يعني الشمس ولم يتقدم لها ذكر ولكن المقام يدل على ذلك ، قال الزجاج إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر ، وقد جرى هنا الدليل . وهو قوله بالعشي ، والتواري الاستتار عن الأبصار والحجاب ما يحجبها عن الأبصار ، قال قتادة وكعب الحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق وهو جبل قاف ، وسمي الليل حجاباً لأنه يستر ما فيه ويقال إن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه وفيه بعد وبرودة[1] ، وعن ابن مسعود قال توارت من وراء ياقوتة خضراء فخضرة السماء منها ، وعن ابن عباس قال كان سليمان لا يكلم إعظاماً له فلقد فاتته صلاة العصر وما استطاع أحد أن يكلمه ، وقيل الضمير للخيل أي حتى توارت في المسابقة عن الأعين ، والأول أولى .

وقوله ﴿ ردوها عليّ ﴾ من تمام كلام سليمان أي أعيدوا عرضها عليّ مرة أخرى ، قال الحسن إن سليمان لما شغله عرض الخيل حتى فاتته صلاة العصر

---

(١) قال المفسر (ص ١٦٨) «حتى توارت بالحجاب» قال قتادة وكعب : الحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق ، وهو جبل قاف الخ . وكان تعليق الأستاذ طويلاً وخلاصته أنه لا يوجد في الدنيا جبل اسمه جبل قاف ، وقد حصرت جبال الدنيا الآن وعرف الإنسان جميع الجبال وأسماءها وأماكنها .

غضب لله ، وقال ردوها عليّ ، أي أعيدوها ، وقال ابن عباس ردوها أي الخيل وقيل الضمير يعود إلى الشمس ، ويكون ذلك معجزة له ، وإنما أمر بإرجاعها بعد مغيبها لأجل أن يصلي العصر ، والأول أولى .

﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ الفاء هي الفصيحة التي تدل على محذوف في الكلام والتقدير هنا فردوها عليه قال أبو عبيدة طفق يفعل مثل ما زال يفعل ، وهو مثل ظل وبات وانتصاب مسحاً على المصدرية بفعل مقدر ، أي يمسح مسحاً لأن خبر طفق لا يكون إلا فعلاً مضارعاً ، وقيل : هو مصدر في موضع الحال والاول أولى والسوق جمع ساق والاعناق جمع عنق والمراد أنه طفق يضرب أعناقها وسوقها بالسيف ، يقال مسح علاوته أي ضرب عنقه قال الفراء المسح هنا القطع قال : والمعنى أنه أقبل يضرب سوقها وأعناقها لأنها كانت سبب فوت صلاته ، وكذا قال أبو عبيدة قال الزجاج ولم يكن يفعل ذلك إلا وقد أباحه الله له ، وجاز أن يباح ذلك لسليمان .ويحظر في هذاالوقت .

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية فقال قوم المراد بالمسح ما تقدم وقال آخرون منهم الزهري وقتادة أن المراد به المسح على سوقها واعناقها لكشف الغبار عنها حيالها ، والقول الأول أولى بسياق الكلام فإنه ذكر أنه آثرها على ذكر ربه حتى فاتته صلاة العصر ، ثم أمرهم بردها عليه ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك . وما صده عن عبادة ربه ، وشغله عن القيام بما فرضه الله عليه ، ولا يناسب هذا أن يكون الغرض من ردها عليه هو كشف الغبار عن سوقها وأعناقها بالمسح عليها بيده ، أو بثوبه ، ولا متمسك لمن قال إن إفساد المال لا يصدر عن نبي فإن هذا مجرد استبعاد باعتبار ما هو المتقرر في شرعنا مع جواز أن يكون في شرع سليمان أن مثل هذا مباح .

على أن إفساد المال المنهي عنه في شرعنا إنما هو مجرد إضاعته لغير غرض صحيح وأما لغرض صحيح فقد جاز مثله في شرعنا ، كما وقع منه صلى الله عليه وسلم من إكفاء القدور التي طبخت من الغنيمة قبل القسمة ، ولهذا نظائر كثيرة في الشريعة ، ومن ذلك ما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكر ، قال ابن عباس مسحاً عقراً بالسيف ، أي قطع سوقها وأعناقها بالسيف .

قال الرازي : التفسير الحق المطابق لألفاظ القرآن أن تقول : إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه كذلك في ديننا . ثم إن سليمان احتاج إلى غزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله تعالى ، وتقوية دينه ، وهو المراد بقوله عن ذكر ربي ، ثم إنه أمر بإعدائها وإجرائها حتى توارت بالحجاب ثم أمر برد الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح والغرض من ذلك المسح أمور :

الأول : تشريفها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو .

الثاني : أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والمملكة يبلغ إلى أنه يباشر الأمور بنفسه .

الثالث: أنه أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها من غيره فكان يمسح حتى يعلم ما فيها مما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن ولا يلزمنا شيء من تلك المنكرات والمحظورات انتهى وما أبرد هذا التفسير من الرازي ، وأبعده عن النظم القرآني والحق ما ذكرناه فإن اللغة تشهد بضرب السوق والأعناق ، ولا وجه للعدول عنه إلى تأويل ركيك ، وتوجيه بعيد ، بناء على عصمة الأنبياء عليهم السلام .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾

﴿ ولقد فتنا سليمان ﴾ أي ابتليناه واختبرناه بسلب ملكه قال الواحدي قال أكثر المفسرين : تزوج سليمان امرأة من بنات الملوك فعبدت الصنم في داره ، ولم يعلم بذلك سليمان ، فامتحن بسبب غفلته عن ذلك وقيل : إن سبب الفتنة أنه تزوج سليمان امرأة يقال لها جرادة وكان يحبها حباً شديداً فاختصم إليه فريقان أحدهما من أهل جرادة فأحب أن يكون القضاء لهم ، ثم قضى بينهم بالحق .

وقيل السبب أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد ، وقيل إنه تزوج جرادة هذه وهي مشركة لأنه عرض عليها الإسلام فقالت : اقتلني ولا أسلم .

وقال كعب الأحبار : إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه ، وقال الحسن إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره .

وقيل إنه أمر أن لا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل فتزوج امرأة من غيرهم .

وقيل إن سبب فتنته ما ثبت في الحديث الصحيح « أنه قال : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يقاتل في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله » وقيل غير ذلك والمصير إلى الحديث متعين .

قال النسفي وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان فمن أباطيل اليهود انتهى ، أقول حديث الخاتم أخرجه النسائي وغيره وقواه السيوطي كما سيأتي فكونه من أباطيل اليهود ليس على ما ينبغي[١] ثم بين سبحانه ما عاقبه به فقال :

﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ قال أكثر المفسرين هذا الجسد الذي ألقاه الله على كرسي سليمان هو شيطان اسمه صخر ، وكان متمرداً عليه غير داخل في طاعته . ألقى الله شبه سليمان عليه ، وما زال يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان وذلك عند دخول سليمان الكنيف لأنه كان يلقيه إذا دخل الكنيف فجاء صخر في صورة سليمان فأخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان فقعد على سرير سليمان ، وأقام أربعين يوماً على ملكه ، وسليمان هارب كان ملكه مرتباً على لبسه ، فإذا لبسه سخرت له الجن والإنس والرياح وغيرها وإذا نزعه زال عنه الملك .

قيل وكان خاتمه من الجنة نزل به آدم كما نزل بعصا موسى والحجر الأسود وبعود البخور وبأوراق التين وقد نظم الخمسة بعضهم في قوله :

وآدم معه أنزل العود والعصا ... لموسى من الآس النبات المكرم

وأوراق تين واليمين بمكة ... وختم سليمان النبي المعظم

لكن يفتقر ذلك إلى دليل يدل له من الأخبار المرفوعة الصحيحة .

وقال مجاهد إن شيطاناً قال له سليمان كيف تفتنون الناس ؟ قال أرني خاتمك أخبرك ، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد الشيطان على

(١) حاول المفسر (١٧٠) ان يصحح حديث خاتم سليمان، وقد قال عنه النسفي انه من أباطيل اليهود ، والمفسر في محاولته احتج بتقوية السيوطي له ، فجاء التعليق هكذا : لا يبعد ان يدس اليهود بعض الأباطيل على المسلمين ليفسدوا هذا الدين الذي قوض ملكهم ، وأما تقوية السيوطي فلا وزن لها لما عرف عنه من تصحيح الضعيف . وأما ما نقله عن كعب الأخبار قبل ذلك بسطرين من ظلم سليمان فأرجو ان لا يقيم له القارىء وزناً .

كرسيه ومنعه الله نساء سليمان ، فلم يقربهن ، وكان سليمان يستطعم فيقول أتعرفونني ؟ أطعموني ، فيكذبوه حتى أعطته امرأة يوما حوتاً فشق بطنه فوجد خاتمه في بطنه فرجع إليه ملكه وهو معنى قوله[1] :

﴿ ثم أناب ﴾ أي رجع إلى ملكه بعد أربعين ، وقيل معنى أناب رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه ، وهذا هو الصواب ، قيل فتن سليمان بعدما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة أخرج الحاكم وصححه والفريابي والحكيم الترمذي عن ابن عباس ، قال الشيطان الذي كان على كرسيه يقضي بين الناس أربعين يوماً ، وكان لسليمان امرأة يقال لها جرادة وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها فأوحى الله إليه أن سيصيبك بلاء فكان لا يدري أيأتيه من السماء ؟ أم من الأرض ؟ .

وأخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم بسند قال السيوطي قوي عن ابن عباس « قال أراد سليمان أن يدخل الخلاء فأعطى جرادة خاتمه وكانت جرادة امرأته ، وكانت أحب نسائه إليه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها : هاتي خاتمي فأعطته فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين ، فلما خرج سليمان من الخلاء قال هاتي خاتمي قالت قد أعطيته سليمان قال أنا سليمان قالت كذبت لست سليمان ، فجعل لا يأتي أحداً يقول أنا سليمان إلا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة ، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله وقام الشيطان يحكم بين الناس ؛ فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه ألقى في قلوب الناس انكار ذلك الشيطان فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن تنكرن

(١) ذكر المؤلف (ص ١٧١) عن مجاهد بضعة أسطر فجاء تعليق الأستاذ هكذا : هذا الكلام بأقاصيص الف ليلة وليلة اشبه، وأبعد ما يكون عن سير المرسلين .

من أمر سليمان شيئاً ؟ قلن نعم إنه يأتينا ونحن نحيض وما كان يأتينا قبل ذلك فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر فدفنوها تحت كرسي سليمان ، ثم أثاروها وقرأوها على الناس ، وقالوا : بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم . فأكفر الناس سليمان ، فلم يزالوا يكفرونه ، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه في البحر فتلقته سمكة فأخذته وكان سليمان يعمل على شط البحر بالأجر فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فدعا سليمان فقال : تحمل لي هذا السمك ؟ قال نعم بكم ؟ قال بسمكة من هذا السمك فحمل سليمان السمك ثم أنطلق به إلى منزله ، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فأخذها سليمان فشق بطنها فإذا الخاتم في جوفها فأخذه فلبسه فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين وعاد إلى حاله وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر فأرسل سليمان في طلبه وكان شيطاناً مريداً فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه حتى وجدوه يوماً نائماً فجاؤوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص فاستيقظ فوثب ، فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا انباط معه الرصاص فأخذوه فأوثقوه وجاؤا به إلى سليمان فأمر به فنقر له تخت من رخام ، ثم أدخله في جوفه ثم شد بالنحاس ، ثم أمر به فطرح في البحر فذلك قوله ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ يعني الشيطان الذي كان سلط عليه[1] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال صخر الجني تمثل على كرسيه على صورته .

---

(١) ذكر المؤلف (ص ١٧١) عن النسائي وابن جرير قصة طويلة عن خاتم سليمان ، وهي قصة موضوعة ؛ ومما يدل على وضعها ان الشيطان جاء في صورة سليمان ، والشيطان لا يتصور بصورة الأنبياء و وغيرهم .

﴿ قال ﴾ سليمان ﴿ رب اغفر لي ﴾ ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله وطلب المغفرة دأب الأنبياء والصلحاء ، هضما للنفس وإظهاراً للذل والخشوع ، وطلباً للترقي في المقامات ثم لما قدم التوبة والاستغفار جعلها وسيلة إلى إجابة طلبته فقال :

﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ قال أبو عبيدة معناه لا يكون لأحد من بعدي ، وقيل لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبة أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته ، وليس هذا من سؤال نبي الله سليمان عليه السلام للدنيا وملكها ، والشرف بين أهلها بل المراد بسؤاله الملك أن يتمكن به من إنقاذ حكم الله سبحانه والأخذ على يد المتمردين من عباده من الجن والإنس ولو لم يكن من المقتضيات لهذا السؤال منه إلا ما رآه عند قعود الشيطان على كرسيه من الأحكام الشيطانية الجارية في عباد الله لكفى .

وجملة ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ تعليل لما قبلها مما طلبه من مغفرة الله له وهبة الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، لا بالأخيرة فقط ، فإن المغفرة أيضاً من أحكام وصف الوهابية قطعاً قاله أبو السعود .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن عفريتاً من الجن جعل يتفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي ، وإن الله أمكنني منه فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان : ﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فرده الله خاسئاً »[1] ثم ذكر سبحانه إجابته لدعوته وإعطاءه لمسألته فقال :

﴿ فسخرنا له الريح ﴾ أي ذللناها له ، وجعلناها منقادة لأمره ثم بين

---

(١) رواه البخاري ٣٢٩/٦ و٤٢٠/٨ ومسلم ٣٨٤/١ والسيوطي في الدر ٣١٣/٥ .

كيفية التسخير لها بقوله : ﴿ تجري بأمره رخاء ﴾ أي لينة الهبوب ليست بالعاصف مأخوذ من الرخاوة والمعنى أنها ريح لينة لا تزعزع ولا تعصف مع قوة هبوبها وسرعة جريها ولا ينافي هذا قوله في آية أخرى ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره ، لان المراد أنها في قوة العاصفة ولا تعصف وقيل إنها كانت تارة رخاء وتارة عاصفة ، على ما يريده سليمان ويشتهيه ، وهذا أولى في الجمع بين الآيتين .

﴿ حيث أصاب ﴾ قال الزجاج إجماع أهل اللغة والمفسرين على أن معنى حيث أصاب حيث أراد ، وحقيقته حيث قصد ، وقال الأصمعي وابن الأعرابي العرب تقول أصاب الصواب ، وأخطأ الجواب . وقيل معنى أصاب بلغة حمير أراد ، وليس من لغة العرب ، وقيل هو بلسان هجر والأول أولى وهو مأخوذ من إصابة السهم للغرض .

﴿ و ﴾ سخرنا له ﴿ الشياطين ﴾ وقوله : ﴿ كل بناء وغواص ﴾ بدل من الشياطين أي كل بناء منهم ، وغواص منهم ، يبنون له ما يشاء من المباني ، ويغوصون في البحر فيستخرجون له الدّر منه . وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر .

﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ معطوف على كل داخل في حكم البدل ، وهم مردة الجن والشياطين ، سخروا له حتى قرنهم في الأصفاد يقال : قرنهم في الحبال إذا كانوا جماعة كثيرة ، والأصفاد الأغلال واحدها صفد ، قال الزجاج : هي السلاسل فكل ما شددته شداً وثيقاً بالحديد وغيره فقد صفدته قال أبو عبيدة : صفدت الرجل فهو مصفود ، وصفدته فهو مصفد ، قال يحيى ابن سلام : ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم ، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم .

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٠ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢﴾

﴿ هذا ﴾ أي ما تقدم من تسخير الريح والشياطين له أو من الملك والمال والبسطة ، وهو بتقدير القول ، أي وقلنا له : هذا ﴿ عطاؤنا ﴾ الذي أعطيناكه من الملك العظيم الذي طلبته .

﴿ فامنن أو أمسك ﴾ أي فأعط من شئت وامنع من شئت ، قاله الحسن والضحاك وغيرهما ، وقال ابن عباس : أعتق من الجن من شئت ، وأمسك منهم من شئت ﴿ بغير حساب ﴾ لا حساب عليك في ذلك الإعطاء والإمساك ، أو عطاؤنا لك بغير حساب ، لكثرته وعظمته ، وقال قتادة : إن قوله هذا عطاؤنا إشارة إلى ما أعطيه من قوة الجماع ، وهذا لا وجه لقصر الآية عليه ، لو قدرنا أنه قد تقدم ذكره من جملة تلك المذكورات فكيف يدعي اختصاص الآية مع عدم ذكره ؟

﴿ وإن له عندنا لزلفى ﴾ أي قربة في الآخرة ﴿ وحسن مآب ﴾ أي حسن مرجع وهو الجنة .

﴿ واذكر عبدنا أيوب ﴾ أيوب عطف بيان ، وعدم تصدير قصة سليمان بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام حتى كأن قصتيهما قصة واحدة ﴿ وأيوب ﴾ هو ابن عيصو بن إسحق.

﴿ إذ نـادى ربه ﴾ بدل اشتمال من عبدنا ﴿ أني مسني الشيطان ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه حكاية لكلامه الذي نادى به ربه ، ولو لم يحكه لقال : إنه مسه ، وقرىء بكسرها على إضمار القول وفي ذكر قصة أيوب إرشاد لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاقتداء به في الصبر على المكاره .

﴿ بنصب ﴾ قرأ الجمهور بضم النون وسكون الصاد فقيل : هو جمع نصب بفتحتين نحو أسد وأسد ، وقيل هو لغة في النصب نحو رشد ورشد وقرىء بضمتين ، وبفتحتين وبفتح وسكون وهذه القراءات باختلاف اللغات . وقال أبو عبيدة : إن النصب بفتحتين التعب والإعياء ، وعلى بقية القراءات الشر والبلاء .

﴿ وعذاب ﴾ أي ألم ، قال قتادة ومقاتل : النصب في الجسد والعذاب في المال ، قال النحاس : وفيه بعد ، كذا قال ، والأولى تفسير النصب بالمعنى اللغوي وهو التعب والإعياء وتفسير العذاب بما يصدق عليه مسمى العذاب ، وهو الألم وكلاهما راجع إلى البدن .

وقد أخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وابن عساكر عن ابن عباس خبراً طويلاً في قصة أيوب «أوله أن الشيطان عرج إلى السماء فقال : يا رب سلطني على أيوب ، قال الله تعالى : لقد سلطتك على ماله وولده ولم أسلطك على جسده الحديث بطوله »[1] ، وفيه نكارة شديدة فإن الله سبحانه لا يمكن الشيطان من نبي من أنبيائه ويسلطه عليه ، هذا التسليط العظيم ، وأسند المس إلى الشيطان مع أن الله سبحانه هو الذي مسه بذلك إما لكونه لما عمل بوسوسته عوقب على ذلك بذلك النصب والعذاب ، فقد قيل إنه أعجب بكثرة ماله ، وقيل استغاثه مظلوم فلم يغثه ، وقيل إنه قال ذلك على طريقة الأدب وقيل إنه قال ذلك لأن الشيطان وسوس إلى أتباعه فرفضوه وأخرجوه من ديارهم وقيل المراد به ما كان يوسوسه الشيطان إليه حال مرضه وابتلائه من

---

(١) ذكر المؤلف (ص ١٧٥) بضعة تفاسير لقول أيوب (اني مسني الشيطان) فجاء التعليق هكذا : لماذا لا يكون مس الشيطان متصلاً بعمل أيوب كنبي ورسول الى قومه حيث كان يوسوس لقومه فيكابرون وينقضون ما عقدوه مع أيوب من المواثيق، فكان عمل الشيطان له صلة مباشرة بإرهاق أيوب ومسه بالتعب .

تحسين الجزع ، وعدم الصبر على المصيبة ، وقيل غير ذلك .

﴿ اركض برجلك ﴾ أي قلنا له اركض كذا قال الكسائي والركض الدفع بالرجل ، يقال : ركض الدابة إذا ضربها بها وقال المبرد الركض التحريك ، قال الأصمعي يقال ركضت الدابة ، ولا يقال ركضت هي لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ، ولا فعل لها في ذلك ، وحكى سيبويه ركضت الدابة فركضت مثل جبرت العظم فجبر .

﴿ هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ هذا أيضاً من مقول القول المقدر ، وفي الكلام حذف والتقدير فركض برجله فنبعت عين فقلنا له هذا مغتسل الخ وظاهر النظم الكريم أن الاغتسال والشرب كانا من عين واحدة والمغتسل هو الماء الذي يغتسل به والشراب الذي يشرب منه ، وقيل إن المغتسل هو المكان الذي يغتسل فيه ، قال قتادة : هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها الجابية فاغتسل من إحداهما فأذهب الله ظاهر دائه وشرب من الأخرى فأذهب الله باطن دائه ، وكذا قال الحسن ، وقال مقاتل نبعت عين جارية فاغتسل فيها فخرج صحيحا ، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذباً بارداً .

﴿ ووهبنا له أهله ﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل فاغتسل وشرب فكشفنا عنه بذلك ما به من ضر ووهبنا له أهله قيل أحياهم الله بعد أن أماتهم وقيل جمعهم بعد تفرقهم ، وقيل غيرهم مثلهم ، ثم زاده مثلهم معهم ، وهو معنى قوله :

﴿ ومثلهم معهم ﴾ فكانوا مثلى ما كانوا من قبل ابتلائه ﴿ رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ﴾ أي وهبناهم له لأجل رحمتنا إياه وليتذكر بحاله أولو الألباب ، فيصبروا على الشدائد كما صبر ، ويلجأوا إلى الله كما لجأ ليفعل بهم ما فعل به من حسن العاقبة : وقد تقدم في سورة الأنبياء تفسير هذه الآية مستوفى فلا نعيده .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿ وخذ ﴾ معطوف على اركض ، أو على وهبنا ، أو التقدير وقلنا له خذ ﴿ بيدك ضغثاً ﴾ هو عثكال النخل بشماريخه ، وقيل هو قبضة من حشيش مختلط رطبها بيابسها ، وقيل الحزمة الكبيرة من القضبان ، وأصل المادة تدل على جمع المختلطات ، قال الواحدي الضغث ملء الكف من الشجر والحشيش والشماريخ ، وعن ابن عباس قال : الضغث هو الأسل ، وقال أيضاً الضغث القبضة من المرعى الرطب ، وقال أيضاً الحزمة .

﴿ فاضرب به ﴾ أي بذلك الضغث ﴿ ولا تحنث ﴾ في يمينك والحنث الإثم ويطلق على فعل ما حلف على تركه ، أو ترك ما حلف على فعله ، لأنهما سببان فيه ، وكان أيوب قد حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة ، واختلف في سبب ذلك فقال سعيد بن المسيب إنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز فخاف خيانتها فحلف ليضربها .

وقال يحيى بن سلام وغيره ، إن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلةً تقرباً إليه فإنه إذا فعل ذلك بريء . فحلف ليضربنها إذا عوفي **مائة جلدة** ، وقيل باعت ذؤابتها برغيفين إذ لم تجد شيئاً وكان أيوب يتعلق بها **إذا أراد القيام** ، فلهذا حلف ليضربنها وأخرج أحمد في الزهد عن ابن عباس **قال : إن ابليس** قعد على الطريق وأخذ تابوتاً يداوي الناس فقالت امرأة **ايوب : يا عبدالله** إن ههنا مبتلى من أمره كذا وكذا فهل لك أن تداويه ،

قال : نعم بشرط إن أنا شفيته أن يقول أنت شفيتني لا أريد منه أجراً غيره فأتت أيوب فذكرت له ذلك ، فقال : ويحك ذاك الشيطان ، لله عليَّ إن شفاني الله أن أجلدك مائة جلدة ، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثاً فيضربها به ، فأخذ عذقاً فيه مائة شمراخ فضربها به ضربة واحدة[1] .

وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال « حملت وليدة في بني ساعدة من زنا فقيل لها : ممن حملك ؟ قالت من فلان المقعد ، فسئل المقعد فقال : صدقت فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خذوا عثكولاً فيه مائة شمراخ فاضربوه ضربة واحدة . وله طرق أخرى .

وقد اختلف العلماء هل هذا خاص بأيوب أو عام للناس كلهم ؟ وأن من حلف خرج من يمينه بمثل ذلك ؟ قال الشافعي : إذا حلف ليضربن فلاناً مائة جلدة أو ضرباً ولم يقل ضرباً شديداً ولم ينو بقلبه فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية حكاه ابن المنذر عنه ، وعن أبي ثور وأصحاب الرأي ، وقال عطاء هو خاص بأيوب ، ورواه ابن القاسم عن مالك ، ثم أثنى الله سبحانه على أيوب فقال :

﴿ إنا وجدناه ﴾ أي علمناه ﴿ صابراً ﴾ على البلاء الذي ابتليناه به فإنه ابتلي بالداء العظيم في جسده وذهاب ماله وولده وأهله فصبر وليس في شكواه إلى الله إخلال بذلك فإنه ليس جزعاً تمني العافية وطلب الشفاء ، والشكاية المذمومة إنما هي إذا كانت للمخلوقين ، قال ابن مسعود أيوب رأس الصابرين يوم القيامة .

﴿ نعم العبد ﴾ أي أيوب ﴿ إنه أواب ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى بالاستغفار والتوبة .

---

(١) انظر ما كتبه ابن الجوزي في كتابه زاد السير ١٤٣/٧ .

﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ أي أذكر صبرهم على ما أصابهم تتأس بهم ، قرأ الجمهور عبادنا بالجمع ، وقرىء بالإفراد ؛ فعلى قراءة الجمهور يكون إسحق وإبراهيم ويعقوب عطف بيان ، وعلى القراءة الأخرى يكون إبراهيم عطف بيان ، وما بعده عطف على عبدنا لا على إبراهيم ، وقد يقال لما كان المراد بعبدنا الجنس جاز إبدال الجماعة منه ، وقيل إن إبراهيم وما بعده بدل ، أو النصب بإضمار أعني ، وعطف البيان أظهر وقراءة الجمهور أبين ، وقد اختارها أبو حاتم وأبو عبيدة .

﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ الأيدي جمع اليد أي الجارحة فكني بذلك عن الأعمال لأن أكثر الأعمال إنما يزاول باليد ، وقيل جمع اليد التي بمعنى القوة والقدرة ، قال قتادة أعطوا قوة في العباد ونصراً في الدين قال الواحدي وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير والمفسرون قال النحاس أما الأبصار فمتفق على أنها البصائر في الدين والعلم وأما الأيدي فمختلف في تأويلها فأهل التفسير يقولون إنها القوة في الدين ، وقوم يقولون الأيدي جمع يد ، وهي النعمة أي هم أصحاب النعم الذين أنعم الله عز وجل عليهم وقيل هم أصحاب النعم على الناس والإحسان إليهم لأنهم قد أحسنوا وقدموا خيراً واختار هذا ابن جرير ، قرأ الجمهور الأيدي بإثبات الياء وقرىء بغير ياء فقيل معناها معنى الأولى وإنما حذفت الياء لدلالة كسرة الدال عليها وقيل الأيد القوة إلا أن الزمخشري قال وتفسيره بالأيد من التأييد قلق غير متمكن انتهى وكأنه إنما قلق عنده لعطف الابصار عليه . فهو غير مناسب للأيد من التأييد وقد يقال إنه لا يراد حقيقة الجوارح إذ كل أحد كذلك إنما المراد الكناية عن العمل الصالح والتفكر ببصيرته فلم يقلق حينئذ إذ لم يرد حقيقة الابصار وكأنه قيل أولي القوة والتفكر بالبصيرة ، وقد نحا الزمخشري إلى شيء من هذا قبل ذلك ، قاله السمين ، قال ابن عباس القوة في العبادة والأبصار ،الفقه في الدين ؛ وعنه قال الأيدي النعمة وقيل أولى الاعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة فعبر بالايدي عن الاعمال وبالابصار عن المعارف لانها أقوى مباديها .

إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ تعليل لما وصفوا به من شرف العبودية ، وعلو الرتبة في العلم والعمل ، قرأ الجمهور بخالصة بالتنوين وعدم الإضافة على أنها مصدر بمعنى الإخلاص ، فيكون ذكرى منصوباً به أو بمعنى الخلوص ، فيكون ذكرى مرفوعاً به أو يكون خالصة اسم فاعل على بابه ، وذكرى بدل منها ، أو بيان لها أو منصوبة بإضمار أعني أو مرفوعة على إضمار مبتدأ ، والدار مفعول به بذكرى أو ظرف إما على الاتساع أو على إسقاط الخافض ، وعلى كل تقدير فخالصة صفة لموصوف محذوف ، والباء للسببية ، أي بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها ، وقرىء باضافة خالصة إلى ذكرى ، على أن الإضافة للبيان ، لأن الخالصة قد تكون ذكرى وغير ذكرى ، كما في قوله ﴿ شهاب قبس ﴾ لأن الشهاب يكون قبساً وغيره ، أو على أن خالصة مصدر مضاف إلى مفعوله ، والفاعل محذوف ، أي بأن أخلصوا ذكر الدار وتناسوا عند ذكرها ذكر الدنيا ، أو مصدر بمعنى الخلوص مضاف إلى فاعله ، قال مجاهد معنى الآية استصفيناهم بذكر الآخرة فأخلصناهم بذكرها ، وقال قتادة كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله ، وقال السدي : أخلصوا بخوف الآخرة .

قال الواحدي : فمن قرأ بالتنوين في خالصة كان المعنى جعلناهم لنا

خالصين بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، والخالصة مصدر بمعنى الخلوص ، والذكرى بمعنى التذكر ، أي خلص لهم تذكر الدار ، وهو أنهم يذكرون التأهب لها ويزهدون في الدنيا ، وذلك من شأن الأنبياء وأما من أضاف فالمعنى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، والخالصة مصدر مضاف إلى الفاعل والذكرى على هذا المعنى الذكر .

قال ابن عباس أخلصوا بذكر دار الآخرة أن يعلموا لها وقيل : ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا . وهذا شيء قد أخلصهم به ، فليس يذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يذكرون به يقويه قوله ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ قاله النسفي ، وفيه بعد . وقال ابن جزي : معناه إنا جعلناهم خالصين لنا أو خصصناهم دون غيرهم ، وأما الباء على الأول فهي للتعليل . وعلى الثاني هي لتعدية الفعل انتهى .

﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ الاصطفاء الاختيار ، والأخيار ، جمع خير بالتشديد والتخفيف كأموات في جمع ميت مشدداً ومخففاً ، والمعنى إنهم عندنا لمن المختارين من أبناء جنسهم من الأخيار .

﴿ واذكر إسمعيل ﴾ قيل وجه ذكره مفردا بعد ذكر أبيه وأخيه وابن أخيه للإشعار بأنه عريق في الصبر الذي هو المقصود بالتذكير هنا .

﴿ واليسع ﴾ هو ابن أخطوب بن العجوز استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبىء .

﴿ وذا الكفل ﴾ اختلف في نبوته ولقبه ، وهو ابن عم اليسع أو هو بشر بن أيوب بعثه الله بعد أبيه ، وسماه ذا الكفل وكان مقيماً بالشام حتى مات ، وعمره خمس وسبعون سنة ، وقد تقدم ذكر اليسع . والكلام فيه في الأنعام ، وتقدم ذكر ذي الكفل والكلام فيه في سورة الأنبياء ، والمراد من ذكر هؤلاء أنهم من جملة من صبر من الأنبياء وتحمل الشدائد في دين الله ، أمر الله

رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يذكرهم ليسلك مسلكهم في الصبر .

﴿ وكل ﴾ أي كل المتقدمين من داود إلى هنا ﴿ من الأخيار ﴾ الذين اختارهم الله سبحانه لنبوته واصطفاهم من خلقه ﴿ هذا ذكر ﴾ إشارة إلى ما تقدم من ذكر أوصافهم الناطقة بمحاسنهم ، أي هذا ذكر جميل في الدنيا ، وشرف يذكرون به أبداً ، جملة جيء بها إيذاناً بأن القصة قد تمت ، وأخذ في أخرى .

﴿ وإن للمتقين ﴾ مع هذا الذكر الجميل ﴿ لحسن مآب ﴾ في الآخرة والمآب المرجع ، وهذا شروع في بيان أجرهم الجزيل الآجل ، بعد بيان ذكرهم الجميل في العاجل وهو باب آخر من أبواب التنزيل ، والمعنى إنهم يرجعون في الآخرة إلى مغفرة الله ورضوانه ، ونعيم جنته . ثم بين حسن المرجع فقال :

﴿جنات عدن﴾ قرىء بالنصب بدلاً أو عطف بيان لحسن مآب وعدن وهو في الأصل الإقامة ، يقال عدن بالمكان إذا أقام فيه ، وقيل هو اسم لقصر في الجنة ، وقرىء برفع جنات على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أي هي جنات عدن .

﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ حال من جنات ، والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل ، والأبواب مرتفعة باسم المفعول ، كقوله : وفتحت أبوابها ، والرابط بين الحال وصاحبها ضمير مقدر ، أي منها أو الألف واللام لقيامه مقام الضمير ، إذ الأصل أبوابها ، وقيل ارتفاع الأبواب على البدل من الضمير في مفتحة العائد على جنات ، وبه قال أبو علي الفارسي ، أي مفتحة هي الأبواب ، قال الفراء : المعنى مفتحة لهم أبوابها ، والعرب تجعل الألف واللام خلفاً من الإضافة ، وقال الزجاج المعنى مفتحة لهم الأبواب منها ، قال الحسن إن الأبواب يقال لها : انفتحي فتنفتح انغلقي فتنغلق ، وقيل : تفتح لهم الملائكة الأبواب حال كونهم ﴿ متكئين فيها ﴾ أي في الجنات .

﴿ يدعون فيها بفاكهة كثيرة ﴾ أي بألوان متنوعة متكثرة من الفواكه ﴿ وشراب ﴾ كثير فحذف كثير لدلالة الأول عليه ، والاقتصار على دعاء الفاكهة للايذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي ، قيل : الجملة مستأنفة لبيان حالهم فيها أو حال مما ذكر .

﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي قاصرات طرفهن على أزواجهن ، وحابسات العين لا ينظرن إلى غيرهم ، وقد مضى بيانه في سورة الصافات .

﴿ أتراب ﴾ أي متحدات في السن والشباب ، أو متساويات في الحسن والجمال وقال مجاهد المعنى أنهن متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن ولا يتحاسدن ، بنات ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل لدات أي متقاربات في الولادة ، لأن التحاب بين الأقران أثبت أو بعضهن لبعض أو نصف لا عجوز فيهن ولا صبية ، قال الشهاب : لدات جمع لدة كعدة أصلها ولد ، وهو كالترب من يولد معك في وقت واحد ، كأنهما وقعا على التراب في زمن واحد ، والأتراب جمع ترب ، واشتقاقه من التراب ، لأنه يمسهن في وقت واحد ، لاتحاد مولدهن والمعاني متقاربة .

﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ أي هذا الجزاء الذي وعدتم به لأجل يوم الحساب ، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء ، والمعنى في يوم الحساب ، قرأ الجمهور توعدون على الخطاب التفاتاً ، وقرىء بالتحتية على الخبر ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة وأبو حاتم لقوله : وإن للمتقين ، فإنه خبر .

﴿ إن هذا ﴾ المذكور من النعم والكرامات والجنات وأوصافها ﴿ لرزقنا ﴾ الذي أنعمنا به عليكم وأعطيناكموه ﴿ ما له من نفاد ﴾ أي لا ينقطع ولا يفنى أبداً ، ومثله قوله ﴿ عطاءً غير مجذوذ ﴾ فنعم الجنة لا تنقطع عن أهلها .

هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

﴿ هذا ﴾ أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو هذا ذكر فيوقف على هذا ، قال ابن الأنباري : وهذا وقف حسن ، قال ابن الأثير هذا في هذا المقام من الفصل الذي هو خير من الوصل وهي علاقة وكيدة بين الخروج من الكلام إلى كلام آخر ، أي خذ هذا كيت وكيت ، وفيه بحث إذ يلزم حينئذ عطف الإخبار على الإنشاء ، ولذا لم يذكر الزمخشري هذا التقدير ثم ذكر سبحانه ما لأهل الشر بعد أن ذكر ما لأهل الخير فقال :

﴿ وإن للطاغين ﴾ الذين طغوا على الله وكذبوا رسله ﴿ لشر مآب ﴾ أي لشر منقلب ينقلبون إليه ثم بيّن ذلك فقال : ﴿ جهنم ﴾ بدل أو عطف بيان .

﴿ يصلونها ﴾ أي يصلون جهنم ، ويدخلونها ﴿ فبئس المهاد ﴾ أي بئس ما مهدوا لأنفسهم وهو الفراش ، مأخوذ من مهد الصبي ، او المراد بالمهد الموضع : والمخصوص بالذم محذوف ، أي بئس المهاد هي كما في قوله : ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ شبه الله سبحانه ما تحتهم من نار جهنم بالمهاد .

﴿ وهذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ أي هذا حميم وغساق ليذوقوه ، قاله الفراء والزجاج ، أي يقال لهم في ذلك اليوم هذه المقالة ، والحميم الماء الحار الذي قد انتهى حره ، والغساق ما سال من جلود أهل النار من القيح ، ومن الصديد ، من قولهم : غسقت عينه إذا انصبت ، والغسقان الانصباب ، قال

النحاس : ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا ، وارتفاع حميم وغساق على أنهما خبران لمبتدأ محذوف ، أي هو حميم وغساق ، ويجوز أن يكون هذا في موضع نصب بإضمار فعل يفسره ما بعده ، أي ليذوقوا هـذا فليذوقوه ويجوز أن يكون حميم مرتفعاً على الابتداء ، وخبره مقدر قبله أي منه حميم ومنه غسـاق ، وقيل : الغساق ما قتل برده ، ومنه قيل الليل غاسق لأنه أبرد من النهار ؛ وقيل : هو الزمهرير وقيل الغساق المنتن ، وقيل هو عين في جهنم يسيل إليها كل ذوب حية وعقرب وقال قتادة هو ما يسيل من فروج النساء الزواني ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم .

وقال محمد بن كعب : هو عصارة أهل النار ، وقال السدي : الغساق الذي يسيل من دموع أهل النار يسقونه مع الحميم ، وكذا قال ابن زيد ، وقال مجاهد ومقاتل . هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده ، وتفسير الغساق بالبارد أنسب بما تقتضيه لغة العرب وأنسب أيضاً بمقابلة الحميم ، قرأ أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين من غساق ، وقـرىء بالتشديد وهما لغتان بمعنى واحد ، كما قال الأخفش ، وقيل معناهما مختلف فمن خفف فهو اسم مثل عذاب وجواب وصواب ، ومن شدد قال هو اسم فاعل للمبالغة نحو ضراب وقتال .

وقال ابن عباس غساق الزمهرير وأخرج أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أن دلوا من غساق يهرق في الدنيا لأنتن أهل الدنيـا» قال الترمذي بعد إخراجه لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد ، قلت ورشدين فيه مقال معروف .

﴿ وآخر من شكله ﴾ قرأ الجمهور وآخر مفرداً مذكراً ، وقرىء آخر بضم الهمزة على أنـه جمع وأنكـر الأولى لقولـه ﴿ أزواج ﴾ وأنكر عـاصم

والجحدري الثانية ، وقال لو كانت أخر لقال من شكلها ، وارتفاع آخر على أنه مبتدأ ، وخبره أزواج ، ويجوز أن يكون من شكله خبراً مقدماً ، وأزواج مبتدأ مؤخراً ، والجملة خبر آخر ، ويجوز أن يكون خبر آخر مقدراً أي ولهم آخر ومن شكله أزواج جملة مستقلة ، ومعنى الآية على الأولى وعذاب آخر ، أو مذوق آخر أو نوع آخر من شكل ذلك العذاب ، أو المذوق أو النوع الأول ، والشكل المثل وعلى الثانية ومذوقات أخر وأنواع أخر من شكل ذلك المذوق أو النوع المتقدم ، وإفراد الضمير في شكله على تأويل المذكور أي من شكل المذكور ، ومعنى أزواج أجناس وأنواع وأشباه وحاصل معنى الآية أن لأهل النار حميماً وغساقاً وأنواعاً من العذاب من مثل الحميم والغساق ، قال الواحدي : قال المفسرون : هو الزمهرير ، ولا يتم هذا الذي حكاه عن المفسرين إلا على تقدير أن الزمهرير أنواع مختلفة ، وأجناس متفاوتة ليطابق معنى أزواج أو على تقدير أن لكل فرد من أهل النار زمهريراً .

وجملة ﴿ هذا فوج ﴾ حكاية لقول الملائكة ، هم خزنة النار ، وذلك أن القادة والرؤساء إذا دخلوا النار ودخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة للقادة : هذا فوج يعنون الأتباع ﴿ مقتحم معكم ﴾ أي داخل معكم إلى النار بشدة ، والاقتحام الإلقاء في الشيء بشدة فإنهم يضربون بمقامع من حديد حتى يقتحموها بأنفسهم خوفاً من تلك المقامع ، وقيل : الاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها ، وفي المختار قحم في الأمر رمى بنفسه فيه من غير روية ، وبابه خضع ، وأقحم فرسه النهر فانقحم ، أي أدخله فدخل واقتحم الفرس النهر دخله .

وقوله ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ من قول القادة والرؤساء لما قالت لهم الخزنة ذلك قالوا لا مرحباً بهم أي لا اتسعت منازلهم في النار ، والرحب السعة ، والمعنى لا كرامة لهم ، وهذا إخبار من الله سبحانه بانقطاع المودة بين الكفار ، وأن المودة التي كانت بينهم تصير عداوة . وجملة لا مرحباً بهم دعائية لا محل لها من الإعراب ، وقال السمين في مرحباً وجهان أظهرهما أنه مفعول بفعل مقدر

أي لا أتيتم مرحباً أو لا سمعتم مرحباً ، والثاني أنه منصوب على المصدر ، قال أبو البقاء أي لا رحبتكم داركم مرحباً . بل ضيقاً ، والجملة المنفية إما مستأنفة سيقت للدعاء عليهم بضيق المكان ، وقوله : بهم بيان للمدعو عليهم ، وإما حالية ، وقد يعترض عليه بأنه دعاء ، والدعاء لا يقع حالاً ، والجواب أنه على إضمار القول أي مقولاً في حقهم لا مرحباً بهم ، وقيل إنها من تمام قوله الخزنة ، والأول أولى ، كما يدل عليه جواب الأتباع الآتي :

﴿ إنهم صالوا النار ﴾ تعليل من جهة القائلين لا مرحباً بهم ، أي إنهم صالوا النار كما صليناها ومستحقون لها كما استحققناها .

﴿ قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر أي قال الأتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم : بل أنتم أحق بما قلتم لنا ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿ أنتم قدمتموه لنا ﴾ أي العذاب أو الصلي لنا وأوقعتمونا فيه ، ودعوتمونا إليه بما كنتم تقولون لنا من أن الحق ما أنتم عليه ، وأن الأنبياء غير صادقين فيما جاءوا به .

﴿ فبئس القرار ﴾ أي بئس المقر جهنم لنا ولكم ، ثم حكى عن الأتباع أيضاً أنهم أردفوا هذا القول بقول آخر وهو :

﴿ قالوا ربنا من قدم لنا هذا ﴾ أي من دعانا إليه وسوغه لنا ، قال الفراء المعنى من سوغ لنا هذا وسنه ، وقيل معناه من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى الكفر .

﴿ فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ أي عذاباً بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفاً ، ومثله قوله سبحانه ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ وقوله : ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ ، والضعف أن يزيد عليه مثله ، وقيل المراد بالضعف هنا الحيات والعقارب ، قال ابن مسعود : أي أفاعي وحيات .

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

﴿ وقالوا ﴾ أي كفار مكة كأبي جهل وأمية بن خلف وأصحاب القليب وهم في النار . ﴿ ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ﴾ أي الأراذل الذين لا خير لهم ولا جدوى ، وقيل : إنما سموهم أشراراً لأنهم كانوا على خلاف دينهم ، قيل : هو من قول الرؤساء ، وقيل من قول الطاغين المذكورين سابقاً قال الكلبي : ينظرون في النار فلا يرون من كان يخالفهم من المؤمنين معهم فيها ، فعند ذلك قالوا هذا القول ، وقيل يعنون فقراء المؤمنين كعمار وخباب وصهيب وبلال وسالم وسلمان ، وقيل أرادوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على العموم .

﴿ أتخذناهم سخرياً ﴾ في الدنيا فأخطأنا ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ فلم نعلم مكانهم ، قاله مجاهد والإنكار المفهوم من الاستفهام متوجه إلى كل واحد من الأمرين ، قال الحسن كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخرياً وزاغت عنهم أبصارهم ، قال الفراء والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب ، قرىء بحذف همزة اتخذناهم في الوصل ، وعلى هذا يحتمل أن يكون الكلام خبراً محضاً ، وتكون الجملة في محل نصب صفة ثانية لرجالاً ، وأن يكون المراد الاستفهام وحذفت أداته لدلالة أم عليها ، فتكون أم على الوجه الأول منقطعة بمعنى بل والهمزة أي بل أزاغت عنهم الأبصار ؟ على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار ثم الإضراب والانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء والتحقير ،

وعلى الثاني أم هي المتصلة ، وقرىء بهمزة استفهام سقطت لاجلها همزة الوصل ولا محل للجملة حينئذ ، وفيه التوبيخ لانفسهم على الامرين جميعاً لان أم على هذه القراءة هي للتسوية ، وقرىء سخرياً بضم السين وبكسرها ، قال أبو عبيدة من كسر جعله من الهزء ، ومن ضم جعله من التسخر .

﴿ إن ذلك ﴾ أي ما تقدم من حكاية حالهم ﴿ لحق ﴾ أي لواقع ثابت في الدار الآخرة لا يتخلف البتة ﴿ تخاصم أهل النار ﴾ خبر مبتدأ محذوف ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر ، وهذا على قراءة الجمهور برفع تخاصم والمعنى أن ذلك الذي حكاه الله عنهم لحق لا بد أن يتكلموا به . وهو تخاصم أهل النار فيها ، وما قالته الرؤساء للأتباع . وما قالته الاتباع لهم والجملة بيان لاسم الإشارة وفي الإبهام أولاً والتبيين ثانيا مزيد تقرير له قرأ أبن أبيّ بنصب تخاصم على أنه بدل من ذلك أو بإضمار أعني وقرىء تخاصم بصيغة الماضي فتكون جملة مستأنفة وإنما سماه تخاصماً لان قول القادة للاتباع : لا مرحباً بكم وقول الاتباع للقادة بل أنتم لا مرحباً بكم من باب الخصومة ثم أمر الله سبحانه رسوله الله صلى الله عليه وسلم أن يقول قولاً جامعاً بين التخويف والإرشاد إلى التوحيد فقال :

﴿ قل إنما أنا منذر ﴾ أي مخوف لكم من عذاب الله وعقابه لا ساحر ولا شاعر كما ادعيتم وإنما اقتصر على الإنذار لأنه إنما يناسبهم الإنذار ﴿ وما من إله ﴾ يستحق العبادة ﴿ إلا الله الواحد ﴾ الذي لا شريك له ﴿ القهار ﴾ لكل شيء سواه ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ من المخلوقات ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يغالبه مغالب ﴿ الغفار ﴾ لمن أطاعه ، وقيل معنى العزيز المنيع الذي لا مثل له ، ومعنى الغفار الستار لذنوب خلقه ، ثم أمره الله سبحانه أن يبالغ في إنذارهم ، ويبين لهم عظم الأمر وجلالته فقال :

﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ أي ما أنذرتكم به من العقاب ، وما بينته لكم من التوحيد هو خبر عظيم ونبأ جليل ، من شأنه العناية به والتعظيم له

والاعتناء به أمراً وائتماراً ، وعدم الاستخفاف به ومثل هذه الآية قوله ﴿ عم يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ ؟ وقال مجاهد وقتادة ومقاتل هو القرآن . فإنه نبأ عظيم لأنه كلام الله ، قال الزجاج قل النبأ الذي انبأتكم به عن الله نبأ عظيم ، يعني ما أنبأهم به من قصص الأولين ، وذلك دليل على صدقه ونبوته ، لأنه لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله .

﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ صفة ثانية للنبأ أو جملة مستأنفة ، وهذا توبيخ لهم وتقريع لكونهم أعرضوا عنه ، ولم يتفكروا فيه ، فيعلموا صدقه ، ويستدلوا به على ما أنكروه من البعث .

﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى ﴾ استئناف مسوق لتقرير أنه نبأ عظيم ، وارد من جهته تعالى ، يذكر نبأ من أنبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ، ولا مباشرة سبب من أسبابها المعتادة ، فإن ذلك حجة بينة دالة على أن ذلك بطريق الوحي من عند الله تعالى ، وان سائر أنبائه أيضاً كذلك ، وأن الأنبياء لا يعلمون الغيب أصلاً ، إلا ما يوحى إليهم من جهته سبحانه وتعالى ، والملأ الأعلى هم الملائكة وزاد أبو السعود وآدم عليه السلام وإبليس عليه اللعنة .

﴿ إذ يختصمون ﴾ أي ما كان لي فيما سبق علم بوجه من الوجوه بحال الملأ الأعلى ، وقت اختصامهم والضمير راجع إلى الملإ الأعلى والخصومة الكائنة بينهم هي في أمر آدم ، قال ابن عباس : قال الملائكة حين شوروا في خلق آدم فاختصموا فيه ، وقالوا : لا تجعل في الأرض خليفة ، وعنه قال هي الخصومة في شأن آدم حيث قالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ ؟

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن نصر في كتاب الصلاة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتاني الليلة ربي في أحسن صورة أحسبه قال : في المنام .

قال يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت لا ، فوضع يده

بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي ، أو في نحري ، فعلمت ما في السموات والأرض ، ثم قال لي : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت نعم في الكفارات والكفارات المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المكاره »[١] الحديث .

وأخرج الترمذي وصححه ومحمد بن نصر والطبراني والحاكم وابن مردويه من حديث معاذ بن جبل نحوه بأطول منه وقال « وإسباغ الوضوء في السبرات »[٢] وأخرج الطبراني وابن مردويه من حديث جابر بن سمرة نحوه بأخصر منه ، وأخرجا أيضا من حديث أبي هريرة نحوه ، وفي الباب أحاديث ، وقيل : الضمير لقريش أي يختصمون فيهم بعضهم يقول : بنات الله ، وبعضهم يقول غير ذلك والأول أولى .

﴿ إن يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ جملة معترضة بين اختصامهم المجمل ، وبين تفصيله بقوله ﴿ إذ قال ربك للملائكة ﴾ ، والمعنى ما يوحى إليّ إلا أنني نذير أبين لكم ما تأتون من الفرائض والسنن وما تدعون من الحرام والمعصية ، قاله الفراء وقال : كأنك قلت ما أوحى إليّ إلا الإنذار قرأ الجمهور بفتح همزة أنما على أنها وما في حيزها في محل رفع ، لقيامها مقام الفاعل أي ما يوحى إليّ إلا الإنذار ، أو إلا كوني نذيراً مبيناً ،أو في محل نصب أوحى بعد إسقاط لام العلة ، والقائم مقام الفاعل على هذا الجار والمجرور ، وقرأ أبو جعفر بكسر الهمزة لأن في الوحي معنى القول وهي القائمة مقام الفاعل على سبيل الحكاية كأنه قيل ما يوحي إليّ هذه الجملة المتضمنة لهذا الإخبار وهو أن أقول لكم إنما أنا نذير مبين والقصر هنا إضافي أي لا ساحر ولا كذاب كما زعتم ، وخصه بالذكر لأن الكلام مع المشركين وحاله معهم مقصور على الإنذار ولما ذكر سبحانه خصومة الملائكة إجمالاً فيما تقدم ذكر ههنا تفصيلاً فقال :

---

(١) وتمام الحديث : راجع زاد المسير ١ / ١٥٥

(٢) السَّبَرَات جمع سَبْرة، وهي الغداة الباردة.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿ إذ قال ربك للملائكة ﴾ إذ هذه بدل من ﴿ إذ يختصمون ﴾ لاشتمال ما في حيز هذه على الخصومة ، وقيل هي منصوبة بإضمار اذكر ، والأول أولى إذا كانت خصومة الملائكة في شأن من يستخلف في الارض .

وأما إذا كانت في غير ذلك مما تقدم ذكره فالثاني أولى ﴿ إني خالق ﴾ أي فيما سيأتي من الزمن ﴿ بشراً ﴾ أي جسماً من جنس البشر وهو آدم عليه السلام مأخوذ من مباشرته للأرض أو من كونه بادي البشرة أي ظاهر الجلد ليس على جلده صوف ولا شعر ولا وبر ولا ريش ولا قشر .

وقوله ﴿ من طين ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لـ ﴿ بشراً ﴾ أو بـ﴿ خالق ﴾ ومعنى ﴿ فإذا سويته ﴾ صورته على صورة البشر وصارت أجزاؤه مستوية وأتممته .

﴿ ونفخت ﴾ أي أجريت ﴿ فيه من روحي ﴾ أي من الروح الذي أملكه ، ولا يملكه غيري وقيل هو تمثيل ولا نفخ ولا منفوخ فيه ، والمراد جعله حياً بعد أن كان جماداً لا حياة فيه ، ويأباه ظاهر النظم الكريم فالأول أولى ، وقد مر الكلام عليه في سورة النساء والنفخ إجراء الروح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها وإضافة الروح إليه تشريف لآدم عليه السلام والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه وبه قال جمهور المتكلمين قاله الكرخي ؛ وقال النووي في شرح مسلم إنه الأصح عند أصحابنا ، وهو مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر ، وقال كثير منهم إنها عرض وهي الحياة التي صار البدن بوجودها حياً ، وقال الفلاسفة وكثير من الصوفية إنها ليست بجسم ولا

عرض ، بل جوهر مجرد قائم بنفسه غير متحيز ، متعلق للبدن للتدبير والتحريك غير داخل فيه ولا خارج عنه ووافقهم على ذلك الغزالي والراغب .

واحتج للأول بوصفها في الأخبار بالهبوط والعروج والتردد في البرزخ أ هـ .

وقيل جوهر شريف قدسي يسري في بدن الإنسان سريان الضوء في الفضاء أو كسريان النار في الفحم ، ذكره الخازن ، وأقول علم الروح مما آستأثر الله تعالى بعلمه ، ولا يعلمه أحد من خلقه كائناً من كان ، والخوض في معرفته من فضول الأعمال ولغو الكلام ، وقد قال الله عز وجل ﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾

﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ هو أمر من وقع يقع ، والسجود هنا هو سجود التحية لا سجود العبادة ، وفيه دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل ، أي اسقطوا له ساجدين ، وقد مضى تحقيقه في سورة البقرة .

﴿ فسجد الملائكة ﴾ في الكلام حذف تدل عليه الفاء والتقدير : فخلقه فسواه ونفخ فيه من روحه فسجد له الملائكة ﴿ كلهم ﴾ يفيد أنهم سجدوا جميعاً ولم يبق منهم أحد وقوله ﴿ أجمعون ﴾ يفيد أنهم أجتمعوا على السجود في وقت واحد فالأول لقصد الإحاطة والثاني لقصد الاجتماع ، قال في الكشاف فأفادا معا أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد ، أنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد ، غير متفرقين في أوقات وقيل إنه أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ، وكان هذا السجود قبل دخول آدم الجنة أو بعده قولان .

﴿ إلا إبليس ﴾ الاستثناء متصل على تقدير أنه كان متصفاً بصفات الملائكة داخلاً في عدادهم فغلبوا عليه ، أو منقطع على ما هو الظاهر من عدم دخوله فيهم، أي لكن إبليس ﴿ استكبر ﴾ أي أنف من السجود جهلاً منه بأنه طاعة لله ﴿ و ﴾ كان استكباره استكبار كفر فلذلك ﴿ كان من الكافرين ﴾ أي

صار منهم لمخالفته لأمر الله ، واستكباره عن طاعته ، أو كان من الكافرين في علم الله سبحانه ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى في سورة البقرة والأعراف وبني إسرائيل والكهف وطه .

ثم إن الله سبحانه سأله عن سبب تركه للسجود الذي أمره به فـ ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ وقرىء بالإفراد أي ما صرفك وصدك عن السجود لما توليت خلقه من غير واسطة أب وأم وأضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له وتشريفاً ، مع أنه سبحانه خالق كل شيء ، كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد.

قال مجاهد : اليد هنا لمعنى التأكيد والصلة مجازاً ، كقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ وقيل أراد باليد القدرة ، يقال : مالي بهذا الأمر يد ، ومالي به يدان ، أي قدرة ، وقيل : التثنية في اليد للدلالة على أنها ليست بمعنى القوة والقدرة ، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه ، وهو الأولى ، وقيل : التثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقه عليه السلام المستدعي لاجلاله وتعظيمه قصداً إلى تأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ ، ما في قوله ﴿ لما خلقت ﴾ هي المصدرية أو الموصولة ، وقرىء لما بالتشديد مع فتح اللام على أنها ظرف بمعنى حين ، كما قال أبو علي الفارسي .

وعن عبد الله بن عمر قال : « خلق الله أربعاً بيده العرش وجنة عدن والقلم وآدم » أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي ، وعن عبدالله بن الحارث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلق الله ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده ، وغرس الفردوس بيده » ، أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات .

﴿ أستكبرت ﴾ قرىء بهمزة الاستفهام وهو استفهام توبيخ وتقريع فتكون أم في قوله : ﴿ أم كنت ﴾ متصلة أي أتركت السجود لاستكبارك الحادث أم لاستكبارك القديم المستمر ؟ وقرىء بألف الوصل فتكون أم منقطعة

والمعنى أستكبرت عن السجود الذي أمرت به ؟ بل أكنت ﴿ من العالين ﴾ أي المستحقين للترفع عن طاعة أمر الله المتعالين عن ذلك ، وجملة : ﴿ قال أنا خير منه ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، ادعى اللعين لنفسه أنه خير من آدم ، أي ولو كنت مساوياً له في الشرف لكان يقبح أن أسجد له ، فكيف وأنا خير منه ، وفي ضمن كلامه هذا أن سجود الفاضل للمفضول لا يحسن ، ثم علل ما ادعاه من كونه خيراً منه بقوله :

﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وفي زعمه أن عنصر النار أشرف من عنصر الطين وأفضل منه ، لأن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية ، والنار أقرب العناصر من الفلك ، والأرض أبعدها منه ، وأيضاً النار لطيفة نورانية والأرض كثيفة ظلمانية ، وهما خير منهما ، وذهب عنه أن النار إنما هي بمنزلة الخادم لعنصر الطين إن احتيج إليها استدعيت كما يستدعى الخادم ، وإن استغنى عنها طردت ، وأيضاً فالطين يستولي على النار فيطفيها وأيضا فهي لا توجد إلا بما أصله من عنصر الأرض وأن مآل النار إلى الرماد الذي لا ينتفع به ، والطين أصل كل ما هو نام نابت كالإنسان والشجرة . ومعلوم أن الإنسان والشجرة المثمرة خير من الرماد وأفضل ، وعلى كل حال فقد شرف آدم بشرف وكرم بكرامة لا يوازيها شيء من شرف العناصر ، وذلك أن الله تعالى خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه ، وأمر بالسجود له والجواهر في أنفسها متجانسة ، وإنما تشرف بعارض من عوارضها .

﴿ قال فاخرج منها ﴾ مستأنفة كالتي قبلها أي فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة ، وقيل من الخلقة التي كنت عليها لأنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته واسود بعد ما كان أبيض ، وقبح بعدما كان حسناً ، وأظلم بعد ما كان نورانياً ، وهذا يدل على أنه لم يكن كافراً حين كان بين الملائكة ، ولأن الله تعالى لم يحك عنه إلا الاستكبار عن السجود ، فهذا دليل على أنه صار كافراً حين لم يسجد ، ذكره الطيبي ، ثم علل أمره بالخروج بقوله .

﴿ فإنك رجيم ﴾ أي مرجوم بالكواكب ، مطرود من كل خير ، ملعون بترك أمره .

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

﴿ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾ أي طردي لك عن الرحمة وإبعادي لك منها إلى يوم الجزاء فأخبر الله سبحانه وتعالى أن تلك اللعنة مستمرة له دائمة عليه ما دامت الدنيا ، ثم في الآخرة يلقى من أنواع عذاب الله وعقوبته وسخطه ما هو به حقيق ، وليس المراد أن اللعنة تزول عنه في الآخرة ، بل هو ملعون أبداً ولكن لما كان له في الآخرة ما ينسى عنده اللعنة ويذهل عند الوقوع فيه منها صارت كأنها لم تكن بجنب ما يكون فيه .

﴿ قال رب فانظرني ﴾ مستأنفة كما تقدم فيما قبلها أي أمهلني وأخرني ولا تعاجلني ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ يعني آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم ، وأراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم ، ويأخذ منهم ثأره ﴿ قال فإنك من المنظرين ﴾ أي الممهلين .

﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ الذي قدره الله لفناء الخلائق وهو عند النفخة الآخرة ، وقيل : هو النفخة الأولى قيل إنما طلب إبليس الإنظار إلى يوم البعث ليتخلص من الموت لأنه إذا أنظر إلى يوم البعث لم يمت قبل البعث وعند مجيء البعث لا يموت فحينئذ يتخلص من الموت ، فأجيب بما يبطل مراده وينقض عليه مقصده وهو الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم وهو الذي يعلمه الله ولا يعلمه غيره ، فلما سمع اللعين إنظار الله له إلى ذلك الوقت .

﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ فأقسم بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات والمعاصي لهم ، وإدخال الشُّبهَ عليهم حتى يصيروا غاوين جميعاً ، ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿ فبما أغويتني ﴾ فإن إغواءه تعالى إياه أثر من آثار قدرته تعالى وعزته ، وحكم من أحكام قهره وسلطنته ، فمآل الإقسام بهما واحد ، ولعل اللعين أقسم بهما جميعاً فحكى تارة قسمه بإحداهما وأخرى بأخرى .

ثم لما علم أن كيده لا ينجع إلا في أتباعه وأحزابه من أهل الكفر والمعاصي استثنى من لا يقدر على إضلاله ولا يجد السبيل إلى إغوائه فقال ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ أي الذين أخلصتهم لطاعتك ، وعصمتهم مني ، وقد تقدم تفسير هذه الآيات في سورة الحجر وغيرها .

﴿ قال فالحق والحق أقول ﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها قرأ الجمهور بنصب الحق في الموضعين ، على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم ، فانتصب ، أو هما منصوبان على الإغراء أي الزموا الحق أو مصدران مؤكدان لمضمون قوله :

﴿ لأملأن جهنم ﴾ وقرىء برفع الأول ونصب الثاني ، فرفع الأول على أنه مبتدأ وخبره مقدر ، أي فالحق مني أو فالحق أنا أو خبره لأملأن أو هو خبر مبتدأ محذوف ، وأما نصب الثاني فبالفعل المذكور بعده ، أي وأنا أقول الحق ، وأجاز الفراء وأبو عبيدة أن يكون منصوباً بمعنى حقاً لأملأن جهنم واعترض عليهما بأن ما بعد اللام مقطوع عما قبلها ، وروي عن الفراء وسيبويه أيضاً أن المعنى فالحق أن أملأ جهنم وروي عن ابن عباس ومجاهد أنهما قرأ برفعهما فرفع الأول على ما تقدم ؛ ورفع الثاني بالابتداء ؛ وخبره الجملة المذكورة بعده والعائد محذوف .

وقرىء بخفضهما على تقدير حرف القسم ، قال الفراء : كما يقول الله عز وجل لأفعلن كذا ، وغلطه أبو العباس ثعلب ، وقال : لا يجوز الخفض

بحذف مضمر ، وقيل : جملة لأملأن جواب القسم على قراءة الجمهور ، وجملة والحق أقول معترضة بين القسم وجوابه .

﴿ منك ﴾ أي من جنسك من الشياطين ﴿ وممن تبعك منهم ﴾ أي من ذرية آدم ، فأطاعوك إذ دعوتهم إلى الضلالة والغواية ، و﴿ أجمعين ﴾ تأكيد للمعطوف والمعطوف عليه ، وجوز الزمخشري أن يكون تأكيداً للضمير في منهم خاصة ، أي لأملأن جهنم من الشياطين ومن تبعهم من جميع الناس ، لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس ، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يخبرهم بأنه إنما يريد بالدعوة إلى الله امتثال أمره ، لا عرض الدنيا الزائل فقال :

﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ الضمير في عليه راجع إلى تبليغ الوحي ولم يتقدم له ذكر ولكنه مفهوم من السياق ، وقيل هو عائد إلى ما تقدم من قوله ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ وقيل : الضمير راجع إلى القرآن ، وقيل إلى الدعاء إلى الله على العموم ، فيشمل القرآن وغيره من الوحي ، ومن قول الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى ما أطلب منكم من جعل تعطونيه عليه قال ابن عباس قل يا محمد : ما أسألكم على ما أدعوكم إليه من أجر عرض دنيا .

﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أي المتصنعين بما ليسوا من أهله حتى انتحل النبوة وأتقول القرآن من تلقاء نفسي وأقول ما لا أعلم أو أدعوكم إلى غير ما أمرني الله بالدعوة إليه ، والتكلف التصنع .

وفي البخاري ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : بينما رجل يحدث في المسجد فقال فيما يقول ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ قال : دخان يكون يوم القيامة يأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام ، قال قمنا حتى دخلنا على عبدالله وهو في بيته وكان متكئاً فاستوى قاعداً فقال يا أيها الناس من علم منكم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم فإن من العلم أن يقول العالم لما لا يعلم : الله أعلم قال الله تعالى لرسوله صلى الله

عليه وسلم : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾

وأخرج البخاري عن عمر قال : « نهينا عن التكلف » ، وأخرج الطبراني والحاكم والبيهقي عن سلمان قال : « نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتكلف للضَيف »[1] .

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي ما هذا القرآن أو الوحي أو ما أدعوكم إليه إلّا ذكر من الله عز وجل للجن والإنس العقلاء دون الملائكة ، لأن المراد بالذكر الموعظة والتخويف ، وتذكير العواقب ، وهذا إنما يناسب المكلفين ، وهم الثقلان فقط ، تأمل .

﴿ ولتعلمن ﴾ أيها الكفار ﴿ نبأه ﴾ أي ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما أو ما أخبر به من الدعاء إلى الله وتوحيده ، والترغيب إلى الجنة ، والتحذير من النار .

﴿ بعد حين ﴾ قال قتادة والزجاج والفراء بعد الموت ، وقال عكرمة وابن زَيد : يوم القيامة ، وقال الكلبي من بقي علم ذلك لما ظهر أمره وعلا ، ومن مات علمه بعد الموت ، وقال السدي وذلك يوم بدر وقيل عند ظهور الإسلام وفشوه ، وكان الحسن يقول يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين ، وفيه من التهديد ما لا يخفى .

---

(١) اخرجاه في الصحيحين الأعمش وانظر صحيح الجامع الصغير ٦٧٤٨ برواية نهى عن التكلف للضَّيْف» .





سورة الزمر

ويقال لها سورة الغرف

﴿ وهي إثنتان وسبعون آية ، وقيل خمس وسبعون آية وهي مكية ﴾

في قول الحسن وعكرمة وجابر بن زيد . وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس قال : نزلت بمكة . سوى ثلاث آيات نزلن بالمدينة في وحشي . قاتل حمزة : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الثلاث الآيات . وقال آخرون إلا سبع آيات ؛ من قوله : ﴿ قل يا عبادي الذين ﴾ الى آخر السبع . وأخرج النسائي عن عائشة قالت : « كان يصوم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى نقول ما يريد أن يفطر . ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم . وكان يقرأ في كل ليلة بني اسرائيل والزمر »[1] . وأخرجه الترمذي عنها بلفظ « كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل » .

---

(١) السنن الكبرى للنسائي ٤/٢٩٢ و ٤/٢٩٩ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم تنزيل الكتاب ﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف هو اسم اشارة أي هذا تنزيل ، وقال أبو حيان إن المبتدأ المقدر لفظ هو ليعود على قوله ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ كأنه قيل وهذا الذكر ما هو؟ فقيل هو تنزيل الخ ، وقيل ارتفاعه على أنه مبتدأ ، وخبره الجار والمجرور بعده ، أي تنزيل كائن من الله العزيز ، وإلى هذا ذهب الزجاج والفراء ، وأجاز الفراء والكسائي النصب على أنه مفعول به لفعل مقدر ، أي اتبعوا أو اقرأوا تنزيل الكتاب، وقال الفراء يجوز نصبه على الاغراء أي الزموا والكتاب هو القرآن .

﴿ من الله العزيز الحكيم ﴾ صلة للتنزيل ، أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو متعلق بمحذوف على أنه حال عمل فيه اسم الإشارة المقدر .

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ أي أنزلناه بسبب الحق ، وإثباته وإظهاره ، أو متلبسين بالحق ، أو متلبساً أو بداعية الحق واقتضائه للإنزال ، والمراد كل ما فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف .

قال مقاتل يقول لم ننزله باطلاً لغير شيء ، وهذا ليس بتكرار ، لأن

الأول كالعنوان للكتاب ، والثاني لبيان ما في الكتاب ، أو المراد بالثاني هو الأول وإظهار لتعظيمه ومزيد الإعتناء بشأنه .

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي ممحضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد ، وتصفية السر . والإخلاص أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه ، والدين العبادة والطاعة ، ورأسها توحيد الله ، وأنه لا شريك له .

وفي الآية دليل على وجوب النية وإخلاصها عن الشوائب لأن الاخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب وقد جاء في السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في الأقوال والأفعال النية كما في حديث « إنما الأعمال بالنيات »[١] وحديث « لا قول ولا عمل إلا بالنية » .

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإخلاص ، أي إن الدين الخالص من شوائب الشرك وغيره هو لله وما سواه من الأديان فليس بدين الله الخالص ، الذي أمر به . قال قتادة الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله .

وقد أخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشي أن رجلاً قال « يا رسول الله إنا نعطي أموالنا إلتماس الذكر فهل لنا في ذلك من أجر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ، قال يا رسول الله إنما نعطي إلتماس الأجر والذكر فهل لنا أجر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله لا يقبل إلا ما أخلص له »[٢] ثم تلا هذه الآية ، وقال الحسن الدين الاسلام .

ولما أمر سبحانه بعبادته على وجه الاخلاص ، وأن الدين الخالص له لا لغيره ، بين بطلان الشرك الذي هو مخالف للاخلاص فقال :

---

(١) سبق ذكره .

(٢) رواه النسائي (٢/٥٩) واسناده حسن كما قال الحافظ الواقي في تخريج الاحياء ٤/٣٢٨ .

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ الموصول عبارة من المشركين ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره قوله ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ وجملة ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول والاستثناء مفرغ من أعم العلل ، والمعنى والذين لم يخلصوا العبادة لله بل شابوها بعبادة غيره قائلين ما نعبدهم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تقريباً ، فالزلفى اسم أقيم مقام المصدر ، والضمير في نعبدهم راجع إلى الأشياء التي كانوا يعبدونها من الملائكة وعيسى والأصنام ، وهم المرادون بالأولياء ، والمراد بالزلفى الشفاعة كما حكاه الواحدي عن المفسرين .

قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم ؟ ومن خلق السموات والأرض ؟ ومن أنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله . فيقال لهم : ما معنى عبادتكم للأصنام ؟ قالوا ﴿ ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ويشفعوا لنا عنده . قال الكلبي : جواب هذا الكلام قوله في سورة الأحقاف : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ﴾ .

﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ أي بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازي كُلًّا بما يستحقه ، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار وقيل بين المخلصين للدين وبين الذين لم يخلصوا وحذف الأول لدلالة الحال عليه ، وقيل : بين المتنازعين من الفريقين ﴿ فيما هم فيه يختلفون ﴾ أي في الذي اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد والشرك ، فإن كل طائفة تدّعي أن الحق معها .

﴿ إن الله لا يهدي ﴾ أي لا يرشد لدينه ولا يوفق للاهتداء إلى الحق ﴿ من هو كاذب ﴾ في زعمه أن الآلهة تقربه إلى الله ﴿ كفار ﴾ أي كفر باتخاذها آلهة ، وجعلها شركاء لله لأنه فاقد للبصيرة غير قابل للاهتداء ، لتغييره الفطرة بالتمرن في الضلال ، والتمادي في الغي ، والجملة تعليل لما ذكر من حكمه ، والكفار صيغة المبالغة تدل على أن كفر هؤلاء قد بلغ إلى الغاية ، وقرأ الحسن والأعرج كذاب على صيغة المبالغة ككفار ، ورويت هذه عن أنس .

لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى ﴾ هذا مقرر لما سبق من إبطال قول المشركين بأن الملائكة بنات الله لتضمنه استحالة الولد في حقه سبحانه على الإطلاق ، فلو أراد أن يتخذ ولداً لامتنع اتخاذ الولد حقيقة ، ولم يتأت ذلك إلا بأن يصطفي ﴿ مما يخلق ﴾ أي يختار من جملة خلقه .

﴿ ما يشاء ﴾ أن يصطفيه إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له ولا يصح أن يكون المخلوق ولداً للخالق لعدم المجانسة بينهما ، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبداً ، كما يفيده التعبير بالاصطفاء ، مكان الاتخاذ ، فمعنى الآية لو أراد أن يتخذ ولداً لوقع منه شيء ليس هو من اتخاذ الولد ، بل إنما هو الاصطفاء لبعض مخلوقاته ، ولهذا نزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزيهاً له عن ذلك وجملة ﴿ هو الله الواحد ﴾ مبينة لتنزهه بحسب الصفات بعد تنزهه بحسب الذات ، أي هو المستجمع لصفات الكمال المتوحد في ذاته فلا مماثل له .

﴿ القهار ﴾ لكل مخلوقاته ، ومن كان متصفاً بهذه الصفات استحال

وجود الولد في حقه ، لأن الولد مماثل لوالده ، ولا مماثل له سبحانه ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ﴾ والآية إشارة إلى قياس استثنائي حذفت صغراه ، ونتيجته تقريرهما ، لكنه لم يصطف أي لم يتخذ ولداً ، وهذا النفي باعترافهم شامل لسائر الخلائق ، فلم يرد اتخاذ الولد ، تأمل.

ثم لما ذكر سبحانه كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً قهاراً ذكر ما يدل على ذلك من صفاته فقال : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي لم يخلقهما باطلاً لغير شيء ومن كان هذا الخلق العظيم خلقه استحال أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد ، ثم بين كيفية تصرفه في السموات والأرض فقال :

﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ التكوير في اللغة طرح الشيء بعضه على بعض ، يقال كور المتاع ، إذا ألقى بعضه على بعض ، ومنه كور العمامة ، فمعنى تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوؤه ، ومعنى تكوير النهار على الليل تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ هكذا قال قتادة وغيره قال الضحاك : أي يلقي هذا على هذا ، وهذا على هذا ، وهو مقارب للقول الأول .

وقيل معنى الآية أن ما نقص من الليل دخل في النهار ، وما نقص من النهار دخل في الليل ، وهو معنى قوله ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ ومنتهى النقصان تسع ساعات ، ومنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة ، وقيل : المعنى أن هذا يكر على هذا ، وهذا يكر على هذا كروراً متتابعاً ، قال الراغب تكوير الشيء إدارته ، وضم بعضه على بعض ، ككور العمامة أ هـ .

وقيل التكوير اللف واللي ، وقال ابن عباس : يكور يحمل ، والإشارة بهذا التكوير المذكور في الآية إلى جريان الشمس في مطالعها ، وانتقاص الليل والنهار ، وازديادهما . قال الرازي : إن النور والظلمة عسكران عظيمان وفي كل يوم يغلب هذا ذاك وذاك هذا .

ثم ذكر تسخيره لسلطان النهار وسلطان الليل وهما الشمس والقمر فقال: ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ أي جعلهما منقادين لأمره بالطلوع والغروب لمنافع العباد ثم بين كيفية هذا التسخير فقال: ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ أي يجري في فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وذلك يوم القيامة: وقد تقدم الكلام على الأجل المسمى لجريهما مستوفى في سورة يس.

﴿ألا هو العزيز الغفار﴾ ألا حرف تنبيه، وتصدير الجملة بها لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها. والمعنى تنبهوا أيها العباد فالله هو الغالب الساتر لذنوب خلقه بالمغفرة، ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته وبديع صنعته فقال:

﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ وهي نفس آدم ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ جاء بثم للدلالة على ترتب خلق حواء على خلق آدم وتراخيه عنه لأنها خلقت منه، والعطف إما على مقدر وهو صفة لنفس قال الفراء والزجاج: التقدير خلقكم من نفس خلقها واحدة، ثم جعل منها زوجها، ويجوز أن يكون العطف على معنى واحدة. أي من نفس انفردت بالأيجاد ثم جعل الخ، والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم أدخل في كونه آية باهرة، دالة على كمال القدرة، لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة[1] في خلقه، وخلقها على الصفة المذكورة لم يجر به عادة لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الأعراف. ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته الباهرة وأفعاله الدالة على ما ذكر فقال: ﴿وأنزل لكم من الأنعام﴾ عبر بالإنزال لما يروي أنه خلقها في الجنة، ثم أنزلها فيكون الإنزال حقيقة كما قيل في قوله ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ فإن آدم لما أهبط إلى الأرض أنزل معه

---

(١) إن خلق آدم لم يكن على عادة الله المستمرة في خلقه، لأنه خلق من تراب وعلى غير مثال سابق، فخلقه ربما يكون أدخل في كمال القدرة من خلق حواء.
أما بنوه فقد خلقوا على عادة الله المستمرة في خلقه، وهي التناسل. ولعل هذا ما قصد إليه المؤلف من التعبير بكاف المخاطبين وميم الجمع في قوله تعالى: «خلقكم من نفس واحدة».

الحديد ، ويحتمل أن يكون مجازاً ؛ لأنها لما لم تعش إلا بالنبات والنبات إنما يعيش بالماء ، والماء منزل من السماء ، كانت الأنعام كأنها منزلة لأن سبب سببها منزل . وهذا يسمى التدريج ، ومنه قوله تعالى ﴿ قد أنـزلنا عليكم لباساً ﴾ وقيل : إن أنزل بمعنى أنشأ وجعل ، أو بمعنى أعطى ، وقيل : جعل الخلق إنزالاً لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء .

﴿ ثمانية أزواج ﴾ هي ما في قوله ﴿ من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضـأن اثنـين ، ومن المعـز اثنـين ﴾ ويعني بـالاثنين في الأربـع المـواضـع الذكر والأنثى ، والزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه ، ويحصل منهما النسل ، فيطلق لفظ الزوج على المفرد إذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه ، ويحصل منهما النسل ، وكذا يطلق على الإثنين فهو مشترك ، والمراد هنا الإطلاق الأول ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الأنعام ، ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته البديعة فقال :

﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم ﴾ قرأ حمزة بكسر الهمزة والميم وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم ، وقرأ الباقون بضم الهمزة وفتح الميم ، وإنما قال ﴿ في بطون أمهاتكم ﴾ مع أن الإنسان والحيوان مشترك في هذا الخلق لتغليب من يعقل ، ولشرف الانسان على سائر الخلق ﴿ خلقاً ﴾ كائناً ﴿ من بعد خلق ﴾ الجملة استئنافية لبيان ما تضمنته من الأطوار المختلفة في خلقهم ، وخلقاً مصدر مؤكد للفعل المذكور ، ومن بعد خلق صفة له . قال قتادة والسدي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ثم لحماً . وقال ابن زيد خلقكم خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم .

﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ هي ظلمة البطن وظلمة الرحم ؛ وظلمة المشيمة ؛ قاله مجاهد وقتادة والضحاك ، وقال سعيد بن جبير ظلمة المشيمة ، وظلمة الرحم وظلمة الليل وقال أبو عبيدة ظلمة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ؛ وظلمة الرحم والرحم داخل البدن والمشيمة داخل الرحم قال ابن الأعرابي يقال لما يكون فيه الولد المشيمة والكيس والغلاف ؛ والجمع مشيم بحذف الهاء ، ومشايم ، ويقال لها من غيره السلى ، والاشارة بقوله ﴿ ذلكم

الله ربكم ﴾ إليه سبحانه باعتبار افعاله السابقة والاسم الشريف خبره وربكم خبر آخر .

﴿ له الملك ﴾ الحقيقي في الدنيا والآخرة لا شراكة لغيره فيه ، وهو خبر ثالث وقوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ خبر رابع ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أي فكيف تنصرفون عن عبادته ؟ وتتقلبون عنها إلى عبادة غيره ؟ أو تصرفون عن طريق الحق بعد هذا البيان ، ولما ذكر سبحانه النعم التي أنعم بها على عباده ، وبين لهم من بديع صنعه ، وعجيب فعله ، ما يوجب على كل عاقل أن يؤمن به عقبه بقوله : ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ أي غير محتاج إليكم ولا إلى إيمانكم ولا عبادتكم له ، فإنه الغني المطلق .

﴿ و ﴾ مع كون كفر الكافر لا يضره كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن ، فهو أيضاً ﴿ لا يرضى لعباده الكفر ﴾ أي لا يرضى لأحد من عباده الكفر ، ولا يحبه ، ولا يأمر به ، ولا يفعل فعل الراضي بأن يأذن فيه ويقر عليه ، ويثيب فاعله ويمدحه ، بل يفعل فعل الساخط بأن ينهي عنه ويذم عليه ، ويعاقب مرتكبه ، وإن كان بإرادته إذ لا يخرج شيء عنها .

قال أبو السعود : عدم رضاه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم ، رحمة عليهم لا لتضرره تعالى به انتهى . ومثل هذه الآية قوله ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ ومثلها ما ثبت في صحيح مسلم من قوله صلى الله عليه وسلم : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على قلب أفجر رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً »[١] .

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية هل هي على عمومها ؟ وأن الكفر غير مرضي لله سبحانه على كل حال كما هو الظاهر ، أو هي خاصة ، والمعنى لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وقد ذهب إلى التخصيص حبر الأمة ابن عباس رضي الله تعالى عنه ، وتابعه على ذلك عكرمة والسدي وغيرهما، ثم اختلفوا في الآية اختلافاً آخر ، فقال قوم : إنه يريد كفر الكافر ولا يرضاه

---

(١) وتمام الحديث في مسلم ١٧/٨ .

وقال الآخرون: إنه لا يريده ولا يرضاه ،والكلام في تحقيق مثل هذا يطول جداً.

وقد استدل القائلون بتخصيص هذه الآية والمثبتون للإرادة مع عدم الرضا بما ثبت في آيات كثيرة من الكتاب العزيز أنه سبحانه ﴿ يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ ونحو هذا مما يؤدي معناه كثير في الكتاب العزيز .

قال ابن عباس في قوله :(إن تكفروا)إلخ يعني الكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، فيقولوا لا إله إلا الله، ثم قال : ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ وهم عباده المخلصون ، الذين قال فيهم ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وحببها إليهم أخرجه ابن جرير فيكون عاماً في اللفظ خاصاً في المعنى ، كقوله ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ يريد بعض العباد وقال عكرمة لا يرضى لعباده المسلمين الكفر ، وعن قتادة قال ، والله ما رضي الله لعبد صلاته ، ولا أمره بها ، ولا دعاه إليها ، ولكن رضي لكم طاعته ، وأمركم بها ، ونهاكم عن معصيته ، ثم لما ذكر سبحانه أنه لا يرضى لعباده الكفر بين أنه يرضى لهم الشكر فقال :

﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ أي يرضى لكم الشكر ، المدلول عليه بقوله . وإن تشكروا أي يثبكم عليه ، وإنما رضي لهم سبحانه الشكر لأنه سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة . كما قال سبحانه ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ لا لانتفاعه به ، قرىء بإسكان الهاء من يرضه ، وبإشباع الضمة على الهاء . واختلف الباقون والقراءات كلها سبعية .

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى ، وهذا بيان لعدم سراية كفر الكافر لغيره أصلاً ، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ يوم القيامة ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ من خير وشر ، وفيه تهديد شديد ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما تضمره القلوب وتستره ، فكيف بما تظهره وتبديه ، وهذا تعليل بالتنبيه بالأعمال .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

﴿ وإذا مس الإنسان ضر ﴾ أي ضر كان في جسمه أو ماله أو أهله أو ولده من بلاء ومرض أو فقر أو خوف أو شدة لأن اللفظ مطلق فلا معنى لتقييده ، والمس في الأعراض مجاز . وجواب إذا قوله ﴿ دعا ربه منيباً إليه ﴾ أي راجعاً إليه مستغيثاً به في دفع ما نزل به تاركاً لما كان يدعوه ويستغيث به من ميت أو حي ، أو صنم أو غير ذلك في حال الرخاء لعلمه أنها بمعزل عن القدرة على كشف ضره .

﴿ ثم إذا خوله نعمة منه ﴾ أي أعطاه وملكه ، ويقال خوله الشيء أي ملكه إياه ولا يستعمل في الجزاء ، بل في ابتداء العطية ﴿ نسي ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه عنه من قبل أن يخوله ما خوله وقيل نسي الدعاء الذي كان يتضرع به وتركه أو نسي ربه الذي كان يدعوه ، ويتضرع إليه ، ثم جاوز ذلك إلى الشرك بالله وهو معنى قوله :

﴿ وجعل لله أنداداً ﴾ أي شركاء من الأصنام أو غيرها ، يستغيث بها ويعبدها ؛ وقال السدي : يعني أنداداً من الرجال يعتمد عليهم في جميع أموره ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ أي ليضل الناس عن طريق الله التي هي الإسلام والتوحيد قرأ الجمهور بضم الياء ، وقرىء بفتحها ، وهما سبعيتان ، واللام للعاقبة ، ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يهدد من كان متصفاً بتلك الصفة فقال :

﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً ﴾ أي تمتعاً قليلاً أو زماناً قليلاً فمتاع الدنيا قليل قال الزجاج لفظه لفظ الأمر ومعناه التهديد والوعيد وفيه إشعار بأن الكفر

نوع تشه لا سند له ، وإقناط للكافرين من التمتع في الآخرة ، ولذلك علله بقوله :

﴿ إنك من أصحاب النار ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة أي مصيرك إليها عن قريب ، وإنك ملازمها ومعدود من أهلها على الدوام ، وهو تعليل لقلة التمتع ، وفيه من التهديد أمر عظيم ، قيل : نزلت في عتبة بن ربيعة ، وقيل : في أبي حذيفة المخزومي ، وقيل : هو عام في كل كافر ، وهو الأوفق بقواعد الشريعة .

ثم لما ذكر سبحانه صفات المشركين وتمسكهم بغير الله عند اندفاع المكروهات عنهم ذكر صفات المؤمنين فقال :

﴿ أمن هو قانت ﴾ هذا إلى آخره من تمام الكلام المأمور به رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى أذلك الكافر أحسن حالاً ومآلاً أمن هو قائم بطاعات الله في السراء والضراء ، في ساعات الليل ، مستمر على ذلك ، غير مقتصر على دعاء الله سبحانه عند نزول الضرر به ؟ قرىء : أمن بالتشديد وبالتخفيف ، فعلى القراءة الأولى (أ) داخلة على (من) الموصولة ، وأدغمت الميم في الميم وأم هي المتصلة ، ومعادلها محذوف ، أي الكافر خير ؟ أم الذي هو قانت ؟ وقيل ، هي المنقطعة مقدرة ببل والهمزة ، أي بل أمن هو قانت كالكافر؟ وعلى الثانية الهمزة للإستفهام ، والاستفهام للتقرير ، ومقابله محذوف ، أي أمن هو قانت كمن كفر ؟ وقال الفراء إن الهمزة في هذه القراءة للنداء ، ومن منادى ، وهي عبارة عن النبي صلى الله عليه وسلم المأمور بقوله :

﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً ﴾ والتقدير : يا من هو قانت قل : كيت وكيت ، وقيل : التقدير يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة ، ومن القائلين بأن الهمزة للنداء الفراء ، وضعف ذلك أبو حيان وقال هوأجنبي عما قبله وعما بعده ، وقد سبقه إلى هذا التضعيف أبو علي الفارسي ، واعترض على هذه القراءة من أصلها أبو حاتم والأخفش ولا وجه لذلك ، فإنها إذا ثبتت

الرواية بطلت الدراية .

وقد اختلف في تفسير القانت هنا فقيل المطيع ، وقيل : الخاشع أو القائم في صلاته ، وقيل : الداعي لربه ، قال النحاس : أصل القنوت الطاعة فكل ما قيل فيه فهو داخل في الطاعة .

﴿ آناء الليل ﴾ جمع إنى بكسر الهمزة والقصر كمعي وأمعاء ، وقيل : واحدها أنو ، يقال : مضى من الليل أنيان وأنوان والمراد بآناء الليل ساعاته وأوقاته ، وقيل : جوفه ، وقيل : ما بين المغرب والعشاء ، وقيل : أوله وأوسطه وآخره .

﴿ ساجداً وقائماً ﴾ منصوبان على الحال ، أي جامعاً بين السجود والقيام في الصلاة ، وقدم السجود على القيام لكونه أدخل في العبادة ، والآية دلت على ترجيح قيام الليل على النهار ، وأنه أفضل منه وذلك لأن الليل استر فيكون أبعد عن الرياء ، ولأن ظلمة الليل تجمع الهم وتمنع البصر عن النظر إلى الأشياء ، وإذا صار القلب فارغاً عن الاشتغال بالأحوال الخارجية رجع إلى المطلوب الأصلي ، وهو الخشوع في الصلاة ، ومعرفة من يصلي له .

وقيل لأن الليل وقت النوم ومظنة الراحة فيكون قيامه أشق على النفس ، فيكون الثواب فيه أكثر قال ابن عباس : من أحب أن يهون الله عليه الوقوف يوم القيامة فليره الله في ظلمة الليل ، ذكره القرطبي .

﴿ يحذر الآخرة ﴾ أي يحذر عذاب الآخرة قاله سعيد بن جبير ومقاتل ﴿ ويرجو رحمة ربه ﴾ فيجمع بين الرجاء والخوف وما اجتمعا في قلب رجل إلا فاز قيل : وفي الكلام حذف تقديره كمن لا يفعل شيئاً من ذلك ، كما يدل عليه السياق ، قيل : الرحمة هنا المغفرة ، وقيل : الجنة ، وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل ، وأولى أن ينسب إلى الله تعالى .

وعن ابن عمر أنه تلا هذه الآية وقال « ذاك عثمان بن عفان »[1] . وفي

---

(١) قاله السيوطي في الدر (٥/٣٢٣) .

لفظ نزلت في عثمان بن عفان وعن ابن عباس قال : نزلت في عمار بن ياسر .

وأخرج الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أنس قال « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الموت فقال كيف تجدك ؟ قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو ، وأمنه الذي يخاف » أخرجوه من طريق سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال الترمذي : غريب ، وقد رواه بعضهم عن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم قولاً آخر ، يتبين به الحق من الباطل فقال :

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون ﴾ إن ما وعد الله به من البعث والثواب والعقاب حق ﴿ والذين لا يعلمون ﴾ ذلك أو الذين يعلمون ما أنزل الله على رسله والذين لا يعلمون ذلك أو المراد العلماء والجهال ، ومعلوم عند كل من له عقل أنه لا استواء بين العلم والجهل ، ولا بين العالم والجاهل . قال الزجاج أي كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المطيع والعاصي .

وقيل المراد بالذين يعلمون هم العاملون بعلمهم ، فإنهم المنتفعون به لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم ، وقيل : افتتح الله الآية بالعمل وختمها بالعلم ، لأن العمل من باب المجاهدات والعلم من باب المكاشفات ، وهو النهاية فإذا حصل للانسان دل ذلك على كماله وفضله .

﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أي إنما يتعظ بوعظ الله ويتدبر ويتفكر فيه أصحاب العقول الصافية ، والقلوب النيرة ، وهم المؤمنون لا الكفار ، فإنهم وإن زعموا أن لهم عقولاً فهي كالعدم ، وهذه الجملة ليست من جملة الكلام المأمور به ، بل من جهة الله سبحانه بعد الأمر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصي ، لبيان عدم تأثيرها في قلوب الكفرة لاختلال عقولهم .

قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾

﴿ قل يا يَـٰعِبَادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ لما نفى سبحانه المساواة بين من يعلم من لا يعلم ، وبين أنه ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه والإيمان به ، والمعنى يـأيـها الذين صدقوا بتوحيد الله اتقوا ربكم بطاعته واجتناب معاصيه ، وامتثال أوامره وإخلاص الإيمان له ، ونفي الشركاء عنه ، والمراد : قل لهم قولي هذا بعينه ، ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتقوى ، بين لهم ما في هذه التقوى من الفوائد فقال :

﴿ للذين أحسنوا ﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة ﴿ في هذه الدنيا ﴾ على وجه الاخلاص ﴿ حسنة ﴾ عظيمة وهي الجنة ، وقوله ﴿ في هذه الدنيا ﴾ متعلق بأحسنوا وقيل بحسنة على أنه بيان لمكانها ، فيكون المعنى للذين أحسنوا في العمل حسنة في الدنيا بالصحة والعافية ، والظفر والغنمية ، والأول أولى ، ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات ، والإحسان في وطنه أرشد الله سبحانه من كان كذلك إلى الهجرة فقال :

﴿ وأرض الله واسعة ﴾ وبلاده كثيرة ، فليهاجر إلى حيث تمكنه طاعة الله والعمل بما أمر به ، والترك لما نهى عنه ، كما هو سنة الأنبياء والصالحين ، فإنه لا عذر له في التفريط أصلاً ؛ ومثل ذلك قوله سبحانه ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيـها ﴾ وقـد مضى الكلام في الهجـره مستوفى في سـورة النساء .

وقيل المراد بالأرض الواسعة هنا أرض الجنة ، رغبهم في سعتها وسعة نعيمها كما في قوله ﴿ جنة عرضها السموات والأرض ﴾ والجنة قد تسمى أرضاً . قال تعالى ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ والأول أولى .

وقيل ارتحلوا من مكة وتحولوا إلى بلاد أخر ؛ واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ، ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم ؛ وفيه حث على الهجرة من البلد الذي يظهر فيه المعاصي وقيل من أمر بالمعاصي في بلد فليهرب منه ثم لما بين سبحانه ما للمحسنين إذا أحسنوا ؛ وكان لا بد في ذلك من الصبر على فعل الطاعة ؛ وعلى كف النفس عن الشهوات ، أشار إلى فضيلة الصبر وعظيم مقداره فقال :

﴿ إنما يوفي الصابرون ﴾ على مفارقة أوطانهم وعشائرهم وعلى غيرها من تجرع الغصص ، واحتمال البلايا في طاعة الله : بزيادة ﴿ أجرهم ﴾ في مقابلة صبرهم وما كابدوه من العسر ﴿ بغير حساب ﴾ أي بما لا يقدر على حصره حاصر ولا يستطيع حسبانه حاسب وإن كان معلوماً محصياً عند الله . قال عطاء : بما لا يهتدي إليه عقل ولا وصف . وقال مقاتل أجرهم الجنة وأرزاقهم فيها بغير حساب .

وقيل قوله إنما يوفي الصابرون ترغيب في التقوى المأمور بها . وإيثار الصابرين على المتقين للإيذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر ، كحيازتهم لفضيلة الإحسان لما أشير إليه من استلزام التقوى لهما مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة في تحمل مشاق الهجرة .

والحاصل أن الآية تدل على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له لأن كل شيء يدخل تحت الحساب فهو متناه ، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو

غير متناه ، وهذه فضيلة عظيمة ، ومثوبة جليلة ، تقتضي من كل راغب في ثواب الله ، وطامع فيما عنده من الخير أن يتوفر على الصبر ويزم نفسه بزمامه ، ويقيدها بقيده ، فان الجزع لا يرد قضاء قد نزل ، ولا يجلب خيراً قد سلب ، ولا يدفع مكروها قد وقع ، وإذا تصور العاقل هذا حق تصور ، وتعقله حق تعقله ، علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم ، وظفر بهذا الخير الخطير ، وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى . ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره ، ولا يبلغ مداه ، فضم إلى مصيبته مصيبة أخرى ولم يظفر بغير الجزع ، وما أحسن قول من قال :

أرى الصبر محموداً وعنه مذاهب فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب
هناك يحق الصبر والصبر واجب وما كان منه للضرورة أوجب

قال علي بن أبي طالب : كل مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلا الصابرين ، فإنه يحثى لهم حثياً ، وروي أنه يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا لو أن أجسادهم تقرض بالمقاريض ، لما يذهب به أهل البلاء من الفضل ، ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أولاً بما أمر به من التوحيد والإخلاص فقال :

﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي أعبده عبادة خالصة من الشرك والرياء وغير ذلك ، قال مقاتل : « إن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ما يحملك على الذي أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك ؟ وسادات قومك يعبدون اللات والعزى فتأخذ بها » ،[١] فأنزل الله الآية ، وقد تقدم بيان معنى الآية في أول هذه السورة ، ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم ثانياً بأنه مأمور بأن يكون أول من أطاع وانقاد وأسلم فقال :

---

(١) ذكره الخازن في تفسيره دون مسنده .

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾

﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ من هذه الأمة وكذلك كان صلى الله عليه وسلم فإنه أول من خالف دين آبائه ودعا إلى التوحيد ، ومعنى الأولية السبق بحسب الزمان ، فالمراد بالسبق السبق بحسب الدعوة ، فإن الأفضل أن من يدعو الغير إلى خلق كريم أن يدعو نفسه إليه أولاً ، ويتخلق به حتى يؤثر في الغير كسنة الأنبياء والصالحين ، لا الملوك والمتجبرين ، واللام للتعليل ، أي وأمرت بما أمرت به لأجل أن أكون ، وقيل : أنها مزيدة للتوكيد ، والأول أولى ، ثم أمره ثالثاً أن يخبرهم بخوفه من العذاب على تقدير العصيان فقال :

﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي ﴾ بترك إخلاص العبادة له ، وتوحيده والدعاء الى ترك الشرك ، وتضليل أهله ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ وهو يوم القيامة قال أكثر المفسرين : المعنى اني أخاف إن عصيت ربي بإجابة المشركين إلى ما دعوني إليه من عبادة غير الله .

قال أبو حمزة اليماني وابن المسيب : هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ وفي هذه الآية دليل على أن الأمر للوجوب لأن قبله ﴿إنما أمرت أن أعبد الله﴾، فالمراد عصيان هذا الأمر ، وفيه زجر الغير عن المعاصي ، لأنه مع جلالة قدره وشرف طهارته ونزاهته ، ومنصب نبوته إذا كان خائفاً حذراً من المعاصي فغيره أولى بذلك ، ثم أمره رابعاً أن

يخبرهم بأنه امتثل الأمر وانقاد ، وعبد الله وأخلص له الدين على أبلغ وجه ، وآكده ، إظهاراً لتصلبه في الدين ، وحسماً لأطماعهم الفارغة ، وتمهيداً لتهديدهم فقال :

﴿ قل الله أعبد ﴾ التقديم مشعر بالاختصاص ، أي لا أعبد غيره لا استقلالاً ولا على جهة الشركة ، ومعنى ﴿ مخلصاً له ديني ﴾ أنه خالص لله غير مشوب بشرك ولا رياء ولا غيرهما ، وقد تقدم تحقيقه في أول السورة ، قال الرازي : فإن قيل ما معنى التكرير في قوله ﴿ إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ ، وقوله ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ﴾ قلنا ليس هذا بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالايمان والعبادة والثاني إخبار بأنه أمر أن لا يعبد أحداً غير الله .

﴿ فاعبدوا ما شئتم ﴾ أن تعبدوه ﴿ من دونه ﴾ هذا الأمر للتهديد والتقريع والتوبيخ ، كقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ وفيه إيذان بأنهم لا يعبدون الله تعالى ، وقيل إن الأمر على حقيقته ، وهو منسوخ بآية السيف ، والأول أولى .

﴿ قل إن الخاسرين ﴾ الكاملين في الخسران هم ﴿ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ بتخليد الأنفس في النار وبعدم وصولهم الى الحور المعدة لهم في الجنة لو آمنوا لأن من دخل النار فقد خسر نفسه وأهله ، وأهلي جمع أهل وأصله أهلون أو أهلين والمراد بأهليهم أهل الآخرة ، وقيل أزواجهم وخدمهم وقيل أهلهم في الدنيا لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم ، كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده .

قال الزجاج وهذا يعني به الكفار ، فإنهم خسروا أنفسهم بالتخليد في النار ، وخسروا أهليهم لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة ، قال ابن عباس في الآية هم الكفار الذين خلقهم للنار ، زالت عنهم الدنيا وحرمت عليهم الجنة ، وعنه قال أهليهم من أهل الجنة ، كانوا أعدوا

لهم لو أطاعوا الله فغيبوهم .

﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ مستأنفة لتأكيد ما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه للاشعار بأن هذا الخسران الذي حل بهم قد بلغ من العظم الى غاية ليس فوقها غاية ، وكذلك تعريف الخسران ووصفه بكونه مبيناً ، فإنه يدل على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران وأنه لا خسران يساويه ولا عقوبة تدانيه ثم بين سبحانه هذا الخسران الذي حل بهم والبلاء النازل عليهم بعد تهويله بطريق الابهام فقال :

﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ﴾ الظلل عبارة عن أطباق النار أي لهم من فوقهم أطباق وسرادقات وقطع كبار من النار تلتهب عليهم وإطلاق الظلل عليها تهكم وإلا فهي محرقة والظلة تقي من الحر .

﴿ ومن تحتهم ظلل ﴾ أي أطباق من النار وفراش ومهاد وسمي ما تحتهم ظلالاً لأنها من إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر ، أو أن الظلة التحتانية لما كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الايذاء والحرارة سميت باسمها لأجل المماثلة والمشابهة أو لأنها تظل من تحتها من أهل النار لأن طبقات النار صارت في كل طبقة منها طائفة من طوائف الكفار ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ لهم في جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ وقوله : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره من وصف عذابهم في النار وهو مبتدأ وخبره قوله ﴿ يخوف الله به عباده ﴾ المؤمنين أي يحذرهم بما توعد به الكفار من العذاب ليخافوه فيتقوه وهو معنى ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ أي اتقوا هذه المعاصي الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار ، ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين أن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم وقيل هو للكفار ، وأهل المعاصي وقيل هو عام للمسلمين والكفار .

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ هو بناء مبالغة في المصدر كالرحموت والعظموت وهو الأوثان والشيطان ، وقال مجاهد وابن زيد : هو الشيطان وقال الضحاك والسدي : هو الأوثان وقيل : انه الكاهن ، وقيل : هو اسم أعجمي مثل طالوت وجالوت ، وقيل : انه اسم عربي مشتق من الطغيان إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين ، وفيها مبالغات ، وهي التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان ، وإن البناء بناء مبالغة وهو للاختصاص إذ لا تطلق على غير الشيطان قال الأخفش : الطاغوت جمع ، ويجوز أن يكون واحده مؤنثاً ، والمعنى أعرضوا عن عبادته وخصوا عبادتهم بالله عز وجل ، وقوله :

﴿ أن يعبدوها ﴾ في محل نصب على البدل من الطاغوت ، بدل اشتمال كأنه قال اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وقد تقدم الكلام على تفسير الطاغوت مستوفى في سورة البقرة .

﴿ وأنابوا الى الله ﴾ معطوف على اجتنبوا ، والمعنى رجعوا إليه بالكلية ، وأقبلوا على عبادته ، معرضين عما سواه ﴿ لهم البشرى ﴾ بالثواب الجزيل وهو الجنة ، وهذه البشرى إما على ألسنة الرسل ، أو على ألسنة الملائكة عند حضور الموت أو عند البعث أو من الله تعالى لقوله ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ ولا مانع أن يكون من الله ومن الملائكة ، فان فضل الله واسع .

وقيل : لهم البشرى في الدنيا بالثناء عليهم بصالح أعمالهم ، وعند الوضع في القبر ، وفي الآخرة عند الخروج من القبر وعند الوقوف للحساب ، وعند جواز الصراط وعند دخول الجنة ، وفي الجنة ، ففي كل موقف من هذه

المواقف تحصل لهم البشارة ، بنوع من الخير والراحة والروح والريحان .

﴿ فبشر عباد ﴾ المراد بالعباد هنا العموم فيدخل الموصوفون بالاجتناب والانابة إليه دخولاً أولياً وقيل : المراد بهم هم الموصوفون باجتناب الأوثان والإنابة إلى الله فالمقام للضمير ، وإنما أتى به ظاهراً توصلاً لوصفهم بما ذكر .

﴿ الذين يستمعون القول ﴾ الحق من كتاب الله وسنة رسوله ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾ أي محكمه ، ويعملون به قال السدي : يتبعون أحسن ما يؤمرون به فيعملون بما فيه ، وقيل : هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به ، وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن .

وقيل : يستمعون الرخص والعزائم فيتبعون العزائم ويتركون الرخص ، وقيل : يأخذون بالعفو ويتركون العقوبة ، وعن ابن عمر قال . كان سعيد بن زيد وأبو ذر وسلمان يتبعون في الجاهلية أحسن القول والكلام لا إله إلا الله قالوا بها ، فأنزل الله على نبيه ﴿ يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ الآية ثم أثنى الله سبحانه على هؤلاء المذكورين فقال :

﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ أي هم الذين أوصلهم إلى الحق ، وهم أصحاب العقول الصحيحة ، لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم ، ولم ينتفع من عداهم بعقولهم ، وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال : « لما نزلت فبشر عبادي الذين الآية أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً فنادى من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة فاستقبل عمر الرسول فرده ، فقال يا رسول الله خشيت أن يتكل الناس فلا يعملون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلم الناس قدر رحمة ربي لاتكلوا ، ولو يعلمون قدر سخط ربي وعقابه لاستصغروا أعمالهم » . وهذا الحديث أصله في الصحيح من حديث أبي هريرة .

وفي الآية إشارة إلى إيثار الاتباع ، وترك التقليد ، لأن الله قد أثنى على المتبعين بكونهم مهديين ، وسماهم أولي الألباب ، ولم يثن على التقليد ولا على أهله في موضع من القرآن الكريم ، بل ذمه وذمهم في غير موضع كما تقدم مراراً ثم ذكر سبحانه من سبقت له الشقاوة وحرم السعادة فقال :

﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب ﴾ من هذه موصولة في محل رفع على الابتداء ، وخبرها محذوف ، أي كمن يخاف ، أو فأنت تخلصه أو تتأسف عليه أو شرطية وجوابه قوله ﴿ أفأنت تنقذ من في النار ﴾ فالفاء فاء الجواب ، دخلت على جملة الجزاء وأعيدت الهمزة الانكارية لتأكيد معنى الانكار ، وقال سيبويه إنه كرر الاستفهام لطول الكلام ، وقال الفراء المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب ؟ والمراد بها قوله تعالى لابليس : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ وقوله ﴿ لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ وقيل قوله هؤلاء في النار ولا أبالي .

ومعنى الآية التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان حريصاً على إيمان قومه فأعلمه الله أن من سبق عليه القضاء وحقت عليه كلمة الله لا يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينقذه من النار ، بأن يجعله مؤمناً ، قال عطاء يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان .

وفي الآية مجاز بإطلاق المسبب وإرادة السبب ، وتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع في النار ، وأن اجتهاده في دعائهم الى الايمان سعي في إنقاذهم من النار ، وأصل الكلام : أفأنت تهدي من هو منغمس في الضلال ؟ فوضع النار موضع الضلال ، وضعاً للمسبب موضع السبب لقوة أمره ، ثم عقب المجاز بما يناسبه من قوله تنقذ بدل تهدي فهو ترشيح ، ولما ذكر سبحانه فيما سبق أن لأهل الشقاوة ظللاً من فوقهم من النار ومن تحتهم ظللاً استدرك عنهم من كان من أهل السعادة فقال :

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

﴿ لكن الذين اتقوا ربهم ﴾ وهم الذين خوطبوا بقوله ﴿ يعْباد فاتقون ﴾ ووصفوا بما عدد من الصفات الفاضلة ، وهم المخاطبون أيضا فيما سبق بقوله . ﴿ يَعْبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ الآية ، وقيل لكن ليست للاستدراك لأنه لم يأت قبله نفي ، بل هو إضراب عن قصة الى قصة مخالفة للأولى .

﴿ لهم غرف من فوقها غرف ﴾ أي منازل في الجنة رفيعة ، فوقها منازل هي أرفع منها ، وذلك لأن الجنة درجات بعضها فوق بعض وقوله لهم غرف في معنى وعدهم الله بذلك ، وعداً لا يخلفه وأنها ﴿ مبنية ﴾ بناء المنازل في إحكام أساسها وقوة بنائها ، وإن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة اليها .

﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي من تحت تلك الغرف الفوقانية والتحتانية وفي ذلك كمال لبهجتها ، وزيادة لرونقها وانتصاب ﴿ وعد الله ﴾ على المصدرية المؤكدة لمضمون الجملة لأن قوله لهم غرف في معنى وعدهم الله ذلك ، وجملة :

﴿ لا يخلف الله الميعاد ﴾ مقررة للوعد ، أي لا يخلف الله ما وعد به الفريقين من الخير والشر ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الجنة يتراؤون أهل الغرف من فوقهم كما يتراؤون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق ، أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم ، فقالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ،

قال بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »[1] ، متفق عليه .

ولما ذكر سبحانه الجنة ووصفها بوصف يوجب الرغبة والشوق اليها أتبعه بذكر الدنيا ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها ، والنفرة منها ، فذكر تمثيلاً لها في سرعة زوالها وقرب اضمحلالها ، مع ما في ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرته الباهرة ، وصنعه البديع فقال :

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً ﴾ أي من السحاب مطراً ﴿ فسلكه ﴾ أي فأدخله وأسكنه ﴿ ينابيع ﴾ أي عيونا ومسالك ومجاري وركايا ﴿ في الأرض ﴾ كالعروق في الجسد ، والينابيع جمع ينبوع من نبع الماء ينبع ، والينبوع عين الماء والأمكنة التي ينبع منها الماء من خلال الأرض أو نفس الماء الجاري والمعنى :

أدخل الماء النازل من السماء في الأرض ، وجعله فيها عيوناً جارية أو جعله في ينابيع أي في أمكنة ينبع منها الماء فهو على الوجه الثاني منصوب بنزع الخافض ، قال مقاتل : فجعله ركايا وعيوناً في الأرض ، وقال ابن عباس ما في الأرض ماء إلا نزل من السماء ، ولكن عروق في الأرض تغيره ، فذلك قوله ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ فمن سره أن يعوده الملح عذباً فليصعده .

﴿ ثم يخرج به ﴾ أي بذلك الماء من الأرض ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة ﴿ زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ من أصفر وأخضر وأبيض وأحمر ؛ أو من بر وشعير وغيرهما إذا كان المراد بالألوان الأصناف ، وشمل لفظ الزرع جميع ما يستنبت حتى المقات .

﴿ ثم يهيج ﴾ أي يجف وييبس يقال : هاج النبت يهيج هيجاً إذا تم جفافه وحان له أن ينتشر عن منبته ، قال الجوهري : يقال : هاج النبت هياجاً

(١) صحيح الجامع الصغير ٢٠٢٢ و٢٠٢٣ .

إذا يبس ، وأرض هايجة يبس بقلها ، أو اصفر ، وأهاجت الريح النبت أيبسته ، قال المبرد قال الأصمعي يقال : هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولى قال وكذلك هاج النبت ﴿ فتراه ﴾ بعد خضرته ونضارته ، وحسن رونقه ﴿ مصفراً ﴾ قد ذهبت خضرته وزالت نضارته .

﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ أي متفتتاً متكسراً ، من تحطم العود إذا تفتت من اليبس ، ويقال للدابة إذا أسنت حطمة ، ويتعدى بالحركة فيقال : حطمته حطماً من باب ضرب فانحطم ، وحطمته بالتشديد مبالغة ، قرأ الجمهور : ثم يجعله بالرفع عطفاً على ما قبله ، وقرىء بالنصب بإضمار أن ولا وجه لذلك .

﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور من الأفعال الخمسة التي أولها أنزل ﴿ لذكرى لأولي الألباب ﴾ أي لتذكيراً لأهل العقول الصحيحة ، فإنهم الذين يتعقلون الأشياء على حقيقتها ، فيتفكرون ويعتبرون ، ويعلمون بأن الحياة الدنيا حالها كحال هذا الزرع في سرعة التصرم ، وقرب التقضي ، وذهاب بهجتها ، وزوال رونقها ونضارتها ، فإذا أنتج لهم التفكر والاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها ، والميل اليها ، وإيثارها على دار النعيم الدائم والحياة المستمرة ، واللذة الخالصة ، ولم يبق معهم شك في أن الله قادر على البعث والحشر ، لأن من قدر على هذا قدر على ذلك .

وقيل : هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من في الأرض ، والمعنى أنزل من السماء قرآنا فسلكه في قلوب المؤمنين ، ثم يخرج به ديناً بعضه أفضل من بعض ، فأما المؤمن فيزداد إيماناً ويقيناً ، وأما الذي في قلبه مرض فانه يهيج كما يهيج الزرع ، وهذا بالتغيير أشبه منه بالتفسير ، ثم لما ذكر سبحانه ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ ذكر شرح الصدر للاسلام لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به فقال :

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام ﴾ أي وسعه لقبول الحق وفتحه للاهتداء الى سبيل الخير ، قال السدي : وسع صدره للاسلام للفرح به ، والطمأنينة إليه . وشرح الصدر للإسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له ، فإنه محل للقلب الذي هو منبع الروح التي تتعلق بها النفس القابلة للإسلام ، فانشراحه مستدع لانشراح القلب ، والكلام في الهمزة والفاء كما تقدم في ﴿ أفمن حق ﴾ ومن الخ مبتدأ وخبرها محذوف تقديره كمن قسا قلبه ، وطبع الله عليه ، وحرج صدره فلم يهتد .

ودل على هذا الخبر المحذوف.قوله : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم ﴾ والمعنى أفمن وسع الله صدره للاسلام فقبله واهتدى بهديه ﴿ فهو ﴾ بسبب ذلك الشرح ﴿ على نور ﴾ أي على بيان وبصيرة ويقين وهداية ﴿ من ربه ﴾ يفيض عليه كمن قسى قلبه لسوء اختياره ؟ فصار في ظلمات الضلالة وبليات الجهالة .

قال قتادة : النور كتاب الله به يؤخذ وإليه ينتهي . قال الزجاج تقدير الآية أفمن شرح الله صدره كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته ؟ قال ابن عباس

من شرح الله صدره للاسلام أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : « تلا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية قلنا : يا نبي الله كيف انشراح صدره ؟ قال : إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح ، قلنا : فما علاقة ذلك يا رسول الله ؟ قال الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت » .

وأخرج ابن مردويه عن محمد بن كعب القرظي مرفوعاً مرسلاً .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عمر أن رجلاً قال : « يا نبي الله أي المؤمنين أكيس ؟ قال أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم له استعداداً ، وإذا دخل النور في القلب انفسح واستوسع ، فقالوا ما آية ذلك يا نبي الله ؟ قال الانابة الى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت » ، وأخرجه عن أبي جعفر عبد الله بن المسور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه ، وزاد فيه ثم قرأ ﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام ﴾ .

﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ قال الفراء والزجاج أي عن ذكر الله كما تقول اتخمت عن طعام أكلته ومن طعام أكلته والمعنى أنه غلظ قلبه وجفا عن قبول ذكر الله والقسوة جمود وصلابة تحصل في القلب ، يقال قسى القلب إذا صلب ، وقلب قاسٍ أي صلب لا يرق ولا يلين ، وقيل المعنى من أجل ذكره الذي من حقه أن تنشرح له الصدور ، وتطمئن به القلوب ، والمعنى أنه إذا ذكر الله اشمأزوا ، والأول أولى ، ويؤيده قراءة من قرأ عن ذكر الله ، أي إذا ذكر الله عندهم أو آياته ازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله : ﴿ فزادتهم رجساً الى رجسهم ﴾ .

وقيل إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن قبول

الحق فإن سماعها لذكر الله لا يزيدها إلا قسوة وكدورة كحر الشمس يلين الشمع ويعقد الملح ، فكذلك القرآن يلين قلوب المؤمنين عند سماعه ، ولا يزيد الكافرين إلا قسوة .

قال مالك بن دينار ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة ، وأخرج الترمذي ، وابن مردويه وابن شاهين في الترغيب في الذكر ، والبيهقي في الشعب ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي »[1] .

والاشارة بقوله ﴿ أولئك ﴾ الى القاسية قلوبهم ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي غواية ظاهرة واضحة ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز فقال :

﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ يعني القرآن الذي فيه مندوحة عن سائر الأحاديث ، وسماه حديثاً لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث به قومه ، ويخبرهم بما ينزل عليه منه ، وفيه بيان أن أحسن القول المذكور سابقاً هو القرآن ، وفي إيقاع الاسم الشريف مبتدأ ؛ وبناء نزل عليه تفخيم لشأن أحسن الحديث والوصف بهذا لوجهين .

أحدهما من جهة اللفظ ، لأن القرآن من أفصح الكلام وأجزله وأبلغه ، وليس هو من جنس الشعر ، ولا من جنس الخطب والرسائل ، بل هو نوع يخالف الكل في أسلوبه ، والثاني من جهة المعنى لأنه كتاب منزه عن التناقض والاختلاف ، مشتمل على أخبار الماضين وقصص الأولين ، وعلى أخبار الغيوب الكثيرة ، وعلى الوعد والوعيد ، والجنة والنار وغير ذلك .

---

(١) روى ابن ماجة (٤١٩٣) لا تكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب. وروى البوصيري في الزوائد (ق ١/٢٥٨) والترمذي (٢/٥٠) .

﴿ كتاباً ﴾ بدل من أحسن الحديث أو حال منه ﴿ متشابهاً ﴾ صفة لكتاب أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن والاحكام ، وصحة المعاني وقوة المباني ، وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة ، والدلالة على المنافع العامة ، وقال قتادة يشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف ، وقيل يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ، عن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله لو حدثتنا فنزل ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الآية .

﴿ مثاني ﴾ صفة أخرى لكتاب وهو جمع مثنى أو مثنى وانه من التثنية بمعنى التكرير أي تثنى فيه القصص وتتكرر فيه المواعظ والأحكام وقيل يثني في التلاوة فلا يمل سماعه ولا يسأم قارئه قرأ الجمهور مثاني بفتح الياء وقرىء بسكونها تخفيفاً واستثقالاً لتحريكها أو على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هو مثاني .

قال ابن عباس القرآن كله مثاني وعنه قال القرآن يشبه بعضه بعضاً ويرد بعضه الى بعض ، وعنه قال كتاب الله مثاني ثني فيه الأمر مراراً وصح وصف الواحد بالجمع لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير ألا تراك تقول القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول أحكام وأقاصيص ومواعظ مكررات ، ونظيره قولك الانسان عروق وعظام وأعصاب . أو منصوب على التمييز من (متشابهاً) كما تقول رأيت رجلاً حسناً شمائل ، والمعنى متشابهة مثانية .

قال الرازي في تبيين معنى مثاني إن أكثر الأشياء المذكورة في القرآن متكررة زوجين زوجين ، مثل الأمر والنهي والعام والخاص والمجمل والمفصل ، وأحوال السموات والأرض والجنة والنار ، والنور والظلمة ، واللوح والقلم والملائكة والشياطين والعرش والكرسي والوعد والوعيد والرجاء ، والخوف ، والمقصود في ذلك البيان أن كل شيء ما سوى الحق زوج ، وأن الفرد الأحد الحق هو الله ولا يخفى ما في كلامه هذا من التكلف والبعد عن

مقصود التنزيه .

﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ أي تضطرب وتتحرك وتشمئز صفة الكتاب أو حال منه ، لأنه وإن كان نكرة فقد تخصص بالصفة ، أو مستأنفة لبيان ما يحصل عند سماعه من التأثر لسامعيه ، والاقشعرار التقبض . يقال اقشعر جلده إذا تقبض ، وتجمع من الخوف ، ووقف شعره ومنه القشعريرة ، والمعنى أنها تأخذهم منه قشعريرة .

قال الزجاج : إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله ، وهي تغير يحدث في جلد الانسان عند ذكر الوعيد ، والوجل والخوف . وقيل المراد بالجلود القلوب والأول أولى لذكرها فيما بعد . قال الواحدي : وهذا قول جميع المفسرين .

وقيل : المعنى إن القرآن لما كان في غاية الجزالة والبلاغة ، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته اقشعرت الجلود منه إعظاماً له ، وتعجباً من حسنه وبلاغته . عن عبد الله بن عبد الله بن الزبير قال : قلت لجدتي أسماء كيف كان يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأوا القرآن ؟ قالت : « كانوا كما نعتهم الله تدمع أعينهم ، وتقشعر جلودهم ، قلت : فإن ناساً ههنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية ، قالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ﴾ عدى تلين بإلى لتضمينه فعلاً يتعدى بها ، كأنه قيل : سكنت واطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة ، ومفعول ذكر الله محذوف ، والتقدير الى ذكر الله رحمته وثوابه وجنته وحذف للعلم به .

قال بعض العارفين : إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا ، وإذا لاح لهم

عالم الجمال عاشوا . قال قتادة : هذا نعت أولياء الله نعتهم بأنهم تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم الى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان .

وروي أن ابن عمر مر برجل من أهل العراق ساقط فقال : ما بال هذا . قالوا : انه إذا قرىء عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط ، فقال ابن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط ، وعنه قال : إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم ، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرىء عليهم القرآن فقال : بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطاً رجليه ، ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره . فإن رمى بنفسه فهو صادق .

وذكرت الجلود وحدها أولاً ثم قرنت بها القلوب ثانياً لأن محل الخشية القلب فكان ذكرها يتضمن ذكر القلوب ، وقيل : إن المكاشفة في مقام الرجاء أكمل منها في مقام الخوف ، لأن الخير مطلوب بالذات ، والخوف ليس بمطلوب ، وإذا حصل الخوف اقشعر منه الجلد ، وإذا حصل الرجاء اطمأن اليه القلب ، ولان الجلد .

﴿ ذلك ﴾ الكتاب الموصوف بتلك الصفات ﴿ هدى الله يهدي به من يشاء ﴾ أن يهديه من عباده ، وقيل الاشارة إلى ما وهبه الله لهؤلاء من خشية عذابه ورجاء ثوابه ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي يجعل قلبه مظلماً قاسياً غير قابل للحق ﴿ فما له من هاد ﴾ يهديه الى الحق ، ويخلصه من الضلال ، قرأ الجمهور من هاد بغير ياء وقرىء بالياء ، ثم لما حكم على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا وهو الضلال ، حكم عليهم في الآخرة بحكم آخر وهو العذاب فقال :

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ أفمن يتقي بوجهه ﴾ الاستفهام للانكار وقد تقدم الكلام فيه ، وهذه الفاء الداخلة على من في قوله : أفمن حق عليه عاطفه ومن مبتدأ والخبر محذوف لدلالة المقام عليه ، والمعنى أفمن شأنه أن يقي نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه ﴿ سوء العذاب يوم القيامة ﴾ لكون يده قد صارت مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه شيء من ذلك ، ولا يحتاج إلى الاتقاء ؟ قال الزجاج المعنى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة ؟ .

قال عطاء وابن زيد يرمي به مكتوفاً في النار ، فأول شيء تمس النار منه وجهه . وقال ابن عباس : ينطلق به الى النار مكتوفاً ثم يرمي به فيها ، فأول ما يمس وجهه النار . وقال مجاهد يجر على وجهه في النار . قال الأخفش المعنى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب أفضل ؟ أم من سعد ؟ مثل قوله تعالى ﴿ أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ ثم أخبر سبحانه عما يقوله الخزنة للكفار فقال :

﴿ وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ وهو معطوف على يتقي أي ويقال لهم ، وجاء بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم ، والإشعار بعلة الأمر في قوله . ذوقوا قال عطاء أي جزاء ما كنتم تعلمون ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ هذا ما كنزتم

لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ وقد تقدم الكلام على معنى الذوق في غير موضع ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار فقال :

﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من قبل الكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى أنهم كذبوا رسلهم ﴿ فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ أي من جهة لا يحتسبون إتيان العذاب منها ، وذلك عند أمنهم وغفلتهم عن عقوبة الله لهم بتكذيبهم ﴿ فأذاقهم الله الخزي ﴾ أي الذل والهوان ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بالمسخ والخسف ، والقتل والأسر والجلاء ، وغير ذلك .

﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ لكونه في غاية الشدة مع دوامه ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لو كانوا ممن يعلم الأشياء ويتفكر فيها ويعمل بمقتضى علمه لآمنوا وما كذبوا ، قال المبرد : يقال لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته أي وصل اليها كما تصل الحلاوة والمرارة الى الذائق لهما ، قال : والخزي المكروه .

﴿ ولقد ﴾ اللام موطئة للقسم ﴿ ضربنا للناس في هذا القرآن ﴾ أي جعلنا وأوجدنا وبينا ﴿ من كل مثل ﴾ قد قدمنا تحقيق المثل وكيفية ضربه في غير موضع ، ومعنى من كل مثل ما يحتاجون اليه في أمر دينهم ، وليس المراد ما هو أعم من ذلك ، فهو هنا كما في قوله ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ أي من شيء يحتاجون اليه في أمر دينهم ، وقيل : المعنى ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ يتعظون فيعتبرون .

﴿ قرآناً عربياً ﴾ حال مؤكدة من هذا ، وتسمى هذه حالاً موطئة لأن الحال في الحقيقة هو عربياً وقرآناً توطئة له ، نحو جاءني زيد رجلاً صالحاً ، كذا قال الأخفش ، ويجوز أن ينتصب على المدح ، قال الزجاج . عربياً منتصب على الحال ، وقرآناً توكيد .

﴿ غير ذي عوج ﴾ أي لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، قال الضحاك :

أي غير مختلف ، قال النحاس : أحسن ما قيل في معناه قول الضحاك ، وقيل : غير متضاد ، وقيل : غير ذي لبس ، وقيل غير ذي لحن ، وقيل : غير ذي شك ؛ كما قال الشاعر :

وقد أتاك يمين غير ذي عوج   من الإله وقول غير مكذوب

وقال ابن عباس : غير مخلوق ، وقيل : معناه صحيح مستقيم يفهم ولا يلتبس بخلافه من الباطل ﴿ لعلهم يتقون ﴾ علة أخرى بعد العلة الأولى وهي لعلهم يتذكرون ، أي لكي يتقوا الكفر والكذب ، وقيل : علة لقوله : لعلهم يتذكرون فالأول سبب في الثاني ، ثم ذكر سبحانه مثلاً من الأمثال القرآنية للتذكير والايقاظ فقال :

﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ أي تمثيل حالة عجيبة بأخرى مثلها ، ثم بين المثل فقال : ﴿ رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾ قال الكسائي : نصب رجلاً لأنه تفسير للمثل ، وقيل منصوب ينزع الخافض ، أي ضرب الله مثلاً برجل ، وقيل إن رجلاً هو المفعول الأول ، ومثلاً هو المفعول الثاني ، وأُخر المفعول الأول ليتصل بما هو من تمامه ، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة يس ، وجملة . فيه شركاء في محل نصب صفة لرجل ، والتشاكس التخالف ، وأصله سوء الخلق وعسره ، وهو سبب التخالف والتشاجر ، ويقال التشاخس بالخاء المعجمة ، قال الفراء ؛ أي مختلفون ، وقيل : متنازعون ، وقال المبرد متعاسرون من شكس يشكس شكساً فهو شكس ، مثل عسر يعسر عسراً فهو عسر ، وشكس بكسر الكاف هو القياس قال الجوهري التشاكس الاختلاف ، قال : ويقال رجل شكس بالتسكين أي صعب الخلق ، وهذا مثل من أشرك بالله وعبد آلهة كثيرة ، ثم قال :

﴿ ورجلاً سلماً لرجل ﴾ أي خالصاً له . وهذا مثل من يعبد الله وحده ، قرأ الجمهور . سلماً بفتح السين واللام ، وقرىء بكسر السين وسكون اللام ، وقرأ ابن عباس ومجاهد والجحدري وابن كثير ويعقوب سالماً اسم فاعل من سلم له فهو

سالم ، واختارها أبو عبيد ، قال لأن السالم الخالص ضد المشترك والسلم ضد الحرب ، ولا موضع للحرب ههنا ، وأجيب عنه بأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولالهما ، فالسلم وإن كان ضد الحرب فله معنى آخر بمعنى سالم من سلم له كذا إذا خلص له ، وأيضا يلزمه في سالم ما ألزم به لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به ، واختار أبو حاتم القراءة الأولى ، والحاصل أن قراءة الجمهور هي على الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف ، أي ذا سلم ، ومثلها قراءة سعيد بن جبير ومن معه ، قال ابن عباس ، رجلاً سلماً أي ليس لأحد فيه شيء ، ثم جاء سبحانه بما يدل على التفاوت بين الرجلين فقال :

﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ وهذا الاستفهام للانكار والاستبعاد، والمعنى هل يستوي هذا الذي يخدم جماعة شركاء ؟ أخلاقهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، يستخدمه كل واحد منهم فيتعب وينصب ، مع كون كل واحد منهم غير راض بخدمته ، وهذا الذي يخدم واحداً لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضي عنه ، وإذا عصاه عفا عنه ؟ فإن بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوه باستوائهما لأن أحدهما في أعلى المنازل ، والآخر في أدناها ، وانتصاب مثلاً على التمييز المحول عن الفاعل لأن الأصل هل يستوي مثلهما ؟ أي حالهما وصفتهما ؟ وأفرد التمييز ولم يثنه لأن الأصل في التمييز الافراد لكونه مبنياً للجنس ، وقال السمين وأفرد التمييز لأنه مقتصر عليه أولاً في قوله ضرب الله مثلاً ، وقرىء مثلين فطابق حالي الرجلين .

وجملة ﴿ الحمد لله ﴾ مقررة لما قبلها من نفي الاستواء بطريق الاعتراض وللايذان للموحدين بما في توحيدهم لله من النعمة العظيمة المستحقة لتخصيص الحمد به ، أي الحمد لله على عدم استواء هذين الرجلين ، وقيل : الجملة اعتراضية فإن قوله ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ إضراب انتقالي من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس ، وهم المشركون ، فإنهم لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره ووضوحه ،

فيقعون في ورطة الشرك والضلال .

قال الواحدي والبغوي والمراد بالأكثر الكل ، والظاهر خلاف ما قالاه ، فإن المؤمنين بالله يعلمون ما في التوحيد من رفعة شأنه ، وعلو مكانه ، وأن الشرك لا يماثله بوجه من الوجوه ، ولا يساويه في وصف من الأوصاف ، ويعلمون أن الله سبحانه يستحق الحمد على هذه النعمة ، وأن الحمد مختص به .

ثم أخبر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن الموت يدركه ويدركهم لا محالة ، فقال :

﴿ إنك ميت وأنهم ميتون ﴾ وذلك إنهم كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ، ، فأخبر أن الموت يعمهم جميعاً ، فلا معنى للتربص ، وشماتة الفاني بالفاني وهذا تمهيد لما يعقبه من الخصام يوم القيامة ، قرأ الجمهور ميت وميتون بالتشديد ، وقرىء مائت ومائتون ، وبها قرأ عبد الله بن الزبير ، وقد استحسن هذه القراءة بعض المفسرين لكون موته وموتهم مستقبلاً ، ولا وجه للاستحسان فان قراءة الجمهور تفيد هذا المعنى ، قال الفراء والكسائي : الميت بالتشديد من لم يمت وسيموت ، والميت بالتخفيف من قد مات وفارقته الروح قال الخليل : أنشد أبو عمرو :

وتسألني تفسير ميت وميت فدونك قد فسرت إن كنت تعقل
فمن كان ذا روح فذلك ميت وما الميت إلا من إلى القبر يحمل

وقال السمين : ولا خلاف بين القراء في تثقيل مثل هذا ؟ قال قتادة : نعيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، نفسه ونعيت إليهم أنفسهم ، ووجه هذا الاخبار الإعلام للصحابة بأنه يموت ، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت مع كونه توطئة وتمهيداً لما بعده أخرج النسائي وغيره عن ابن عمر قال : لقد لبثنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين من قبلنا ، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت أنها نزلت فينا .

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ ثم إنكم ﴾ أيها الناس جميعاً مؤمنكم وكافركم ﴿ يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ فيما بينكم من المظالم ، قيل : يعني المحق والمبطل ، وقيل : تخاصمهم يا محمد وتحتج عليهم بأنك قد بلغتهم وأنذرتهم ، وهم يخاصمونك ، أو يخاصم المؤمن الكافر ، والظالم المظلوم ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحملت عليه » . رواه البخاري .

وعنه قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم ولا متاع له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار »[1] ، أخرجه

---

(١) مسلم ١٨/٨ والترمذي ٢٩١/٣ وأحمد ٣٠٣/٢ والبخاري ٣٥/٨ (معلق).

مسلم .

وعن ابن عمر قال : نزلت علينا هذه الآية وما ندري ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة ، فقلنا هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه ، أخرجه ابن جرير وأخرج النسائي وغيره عنه قال : لقد لبثنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا ، وفي أهل الكتابين من قبلنا ، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها نزلت فينا .

وعن الزبير بن العوام قال : لما نزلت : إنك ميت إلى قوله : تختصمون قلت : « يا رسول الله أيكرر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : نعم ليكررن عليكم ذلك حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه ، قال الزبير : فوالله إن الأمر لشديد» ، أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت هذه الآية كنا نقول : ربنا واحد ، وديننا واحد ، ونبينا واحد ، فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : نعم هو هذا وعن ابراهيم لما نزلت هذه الآية قالوا : كيف نختصم ونحن إخوان ؟ فلما قتل عثمان قالوا هذه خصومتنا ثم بين سبحانه حال كل فريق من المختصمين فقال :

﴿ فمن ﴾ أي لا أحد ﴿ أظلم ممن كذب على الله ﴾ فزعم أن له ولداً أو شريكاً أو صاحبة ﴿ وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ وهو ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعاء الناس إلى التوحيد ، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ، ونهيهم عن محرماته ، وإخبارهم بالبعث والنشور ، وما أعد الله للمطيع والعاصي ، وقوله: (إذ جاءه) ظرف لكذب بالصدق أي كذب بالقرآن في وقت مجيئه . أي فاجأه بالتكذيب لما سمعه من غير وقفة ، ولا إعمال روية بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النَّصَفَة فيما يسمعون ، ثم استفهم سبحانه استفهاماً تقريرياً فقال :

﴿ أليس في جهنم مثـوى للكـــافـرين ﴾ آي أليس لهؤلاء المفتـرين المكذبين بالصدق ؟ والمثوى المقام وهو مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام بـه ، يثوى ثواء وثوياً ، مثل مضى مضاء ومضياً ، وحكى أبوعبيدة أنه يقال : أثوى ، وأنكـر ذلك الأصمعي وقـال : لا نعرف أثـوى ثم ذكر سبحـانه فـريق المؤمنين المصدقين فقال :

﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ الموصول في موضع رفـع بالابتـداء وهو عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن تابعه . وقيـل الذي جـاء بـالصدق رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، والـذي صدق بـه أبو بكـر ، قالـه علي بن أبي طالب ، وعن أبي هريرة مثله ، وقال مجـاهد الـذي جاء بـالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي صدق به علي بن أبي طالب .

وقال السدي الذي جاء بـالصدق جبـريل ، والـذي صدق بـه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال قتادة ومقاتـل وابن زيد الـذي جاء بـالصدق النبي صلى الله عليـه وسلم والذي صـدق به المؤمنـون . وقـال النخعي الـذي جـاء بالصدق وصدق به هم المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة .

وقيل إن ذلك عام في كل من دعـا إلى توحيـد الله وأرشد إلى مـا شرعـه لعباده ، واختار هذا ابن جرير وهو الذي اختاره من هذه الأقوال ، ويؤيده قراءة ابن مسعود ، والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به ، وقرىء صدق به بالتخفيف ، أي صدق به الناس ، قال ابن عباس الذي جـاء بالصـدق يعني بلا إلـه إلا الله وصدق به يعني برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل الذي جاء بالصدق هو جبريل جاء بالقرآن وصدق بـه محمد صلى الله عليـه وآله وسلم . وقيل الذي جاء بالصدق الأنبياء وصدق به الأتباع والكل صحيح .

قالوا والوجه في العربية أن يكون جاء وصدق لفاعل واحد ، لأن التغـاير يستدعي إضمار الذي وذا غير جـائز وإضمـار الفاعـل من غير تقـدم الذكـر وذا بعيد . ولفظ الذي كما وقع في قـراءة الجمهور وإن كـان مفرداً فمعنـاه الجمع

لأنه يراد به الجنس كما يفيده قوله ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ أي المتصفون بالتقوى التي هي عنوان النجاة ، قال ابن عباس : يعني اتقوا الشرك : ثم ذكر سبحانه ما لهؤلاء الصادقين المصدقين في الآخرة فقال :

﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ أي لهم كل ما يشاؤونه من رفع الدرجات ، ودفع المضرات ، وتكفير السيئآت ، وجلب المنافع ، وفي هذا ترغيب عظيم وتشويق بالغ ﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره من جزائهم ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ جزاء المحسنين ﴾ أي الذين أحسنوا في أعمالهم ، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إن الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك »[1] ، ثم بين سبحانه ما هو الغاية مما لهم عند ربهم فقال :

﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ﴾ فان ذلك هو أعظم ما يرجونه من دفع الضرر عنهم ، لأن الله سبحانه إذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم غفر لهم ما دونه بطريقة الأولى ، واللام متعلقة بيشاؤون أو بالمحسنين أو بمحذوف قرأ الجمهور أسوأ على أنه أفعل تفضيل وقيل : ليست للتفضيل بل بمعنى سيىء الذي عملوا أو بهذا الاعتبار عم الأسوأ جميع معاصيهم وقرىء أسواء بألف بين الهمزة والواو بزنة أحمال جمع سوء .

ولما ذكر الله سبحانه ما يدل على دفع المضار عنهم ، ذكر ما يدل على جلب أعظم المنافع اليهم فقال :

﴿ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ إضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه بل من إضافة الشيء إلى بعضه قصداً إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل ، قال مقاتل : يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء ، وعم الأحسن جميع حسناتهم ، ولولا هذا التأويل لاقتضى النظم أنه يكفر عنهم أقبح السيئآت فقط ويجزيهم على أفضل الحسنات فقط .

---

(١) سبق ذكره .

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ قرأ الجمهور بالافراد ، وقرىء بالجمع فعلى الأولى المراد النبي صلى الله عليه وسلم ، أو الجنس ويدخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دخولاً أولياً وعلى الثانية المراد الأنبياء ، أو المؤمنون أو الجميع ، واختار أبو عبيدة الأولى لقوله عقبه : ﴿ ويخوفونك ﴾ والاستفهام للانكار لعدم كفايته سبحانه على أبلغ وجه ، كأنها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره ، وقيل المراد بالعبد والعباد ما يعم المسلم والكافر قال الجرجاني : إن الله كاف عبده المؤمن وعبده الكافر ، هذا بالثواب وهذا بالعقاب . وقرىء بكافي عباده بالاضافة ويكافي بصيغة المضارع .

وقوله ﴿ ويخوفونك ﴾ يجوز أن يكون في محل نصب على الحال إذ المعنى أليس كافيك حال تخويفهم إياك ﴿ بالذين من دونه ﴾ هي المعبودات التي يعبدونها ، قالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون كأن المعنى أنه كافيك في كل حال حتى في هذه الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي من حق عليه القضاء بضلاله حتى غفل عن كفاية الله لعبده محمد ، وخوفه بما لا ينفع ولا يضر ﴿ فما له من هاد ﴾ يهديه إلى الرشد ويخلصه من الضلالة .

﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ يخرجه من الهداية ويوقعه في الضلالة ﴿ أليس الله بعزيز ﴾ أي غالب لكل شيء قاهر له ﴿ ذي انتقام ﴾ ينتقم من عصاته بما يصبه عليهم من عذابه ، وما ينزله بهم من سوط عقابه ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ذكر سبحانه اعترافهم إذا سئلوا عن الخالق بأنه الله سبحانه لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية ، مع عبادتهم للأصنام والأوثان ، واتخاذهم الآلهة من دون الله وفي هذا أعظم دليل على أنهم كانوا في غفلة شديدة ، وجهالة عظيمة لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم ولما يعبدون من دون الله هو الله سبحانه ، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل ، وتشريك مخلوق مع خالقه في العبادة وقد كانوا يذكرون بحسن العقول وكمال الادراك والفطنة التامة ، ولكنهم لما قلدوا أسلافهم وأحسنوا الظن بهم هجروا ما يقتضيه العقل ، وعملوا بما هو محض الجهل ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يبكتهم بعد هذا الاعتراف ويوبخهم فقال :

﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ أي أخبروني عن آلهتكم هذه هل تقدر على كشف ما أراده الله بي من الضر ؟ والضر هو الشدة والبلاء ﴿ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ عنّي بحيث لا تصل إليّ والرحمة النعمة والرخاء قرأ الجمهور : كاشفات وممسكات في الموضعين بالإضافة ، وقرأهما أبو عمرو بالتنوين ،

واختار أبو عبيدة وأبو حاتم قراءة أبي عمرو لأن كاشفات اسم فاعل في معنى الاستقبال ، وما كان كذلك فتنوينه أجود وبها قرأ الحسن وعاصم ، قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية سألهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فسكتوا وقال غيره قالوا لا تدفع شيئاً من قدر الله ، ولكنها تشفع فنزل :

﴿ قل حسبي الله ﴾ في جميع أموري في جلب النفع ودفع الضر ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ أي عليه لا على غيره يعتمد المعتمدون ، ثم أمره الله سبحانه أن يهددهم ويتوعدهم فقال ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أي على حالتكم التي أنتم عليها وتمكنتم منها ، والمكانة بمعنى المكان فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا ، وحيث للزمان وهما للمكان ﴿ إني عامل ﴾ على حالتي التي أنا عليها ، وتمكنت منها ، وحذف ذلك للعلم به مما قبله .

﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي يهينه ويذله في الدنيا ، فيظهر عند ذلك أنه المبطل وخصمه المحق ، والمراد بهذا العذاب عذاب الدنيا وما حل بهم من القتل والأسر والقهر والذلة ، ثم ذكر عذاب الآخرة فقال :

﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أي دائم مستمر في الدار الآخرة ، وهو عذاب النار ، وهو مجاز في الطرف أو في الإسناد ، وأصله مقيم فيه صاحبه ، ثم لما كان يعظم على رسول الله صلى الله عليه وسلم اصرارهم على الكفر أخبره بأنه لم يكلف إلا بالبيان ، لا بأن يهدي من ضل فقال :

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس ﴾ أي لأجلهم ، ولبيان ما كلفوا به فإنه مناط مصالحهم في معاشهم ومعادهم ، فهو للناس كافة ، لأن رسالتك كذلك ﴿ بالحق ﴾ حال من الفاعل أو المفعول ، أي محقين أو متلبساً بالحق ﴿ فمن اهتدى ﴾ طريق الحق وسلكها ﴿ فلنفسه ومن ضل ﴾ عنها ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ أي على نفسه فضرر ذلك عليه لا يتعدى الى غيره .

﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي مكلف بهدايتهم مخاطب بها ، بل ليس عليك إلا البلاغ وقد فعلت ، وهذه الآيات منسوخة بآية السيف فقد أمر الله سبحانه رسوله بعد هذه أن يقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلا الله ويعملوا بأحكام الإسلام ، ثم ذكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته البالغة وصنعته العجيبة فقال :

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ أي يقبض الأرواح عند حضور آجالها ويخرجها من الأبدان ﴿ و ﴾ يتوفى الأنفس ﴿ التي لم تمت في منامها ﴾ أي لم يحضر أجلها في منامها ، وقد اختلف في هذا فقيل : يقبضها عن التصرف مع بقاء الروح في الجسد ، وقال الفراء : المعنى ويقبض التي لم تمت ، عند انقضاء أجلها قال وقد يكون توفيها نومها فيكون التقدير على هذا ، والتي لم تمت وفاتها نومها ، قال الزجاج لكل إنسان نفسان إحداهما نفس التمييز وهي التي تفارقه إذا نام فلا يعقل ، والأخرى نفس الحياة إذا زالت زال معها

النفس ، والنائم يتنفس قال القشيري في هذا بعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة في الحالين شيء واحد ولهذا قال : ﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ﴾ فلا يردها الى البدن .

قرأ الجمهور قضى مبنياً للفاعل أي قضى الله عليها الموت ، وقرىء على البناء للمفعول ، واختار أبو عبيدة وأبو حاتم الأولى لموافقتها لقوله ﴿ الله يتوفى الأنفس ﴾ .

﴿ ويرسل الأخرى ﴾ أي النائمة إلى بدنها عند اليقظة ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو الوقت المضروب لموته ، وهو غاية جنس الإرسال ، وقد قال بمثل قول الزجاج ابن الأنباري ، وقال سعيد بن جبير : إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ، فيمسك التي قضي عليها الموت ، ويرسل الأخرى فيعيدها ، والأولى أن يقال : أن توفى الأنفس حال النوم بإزالة الاحساس ، وحصول الآفة به في محل الحس ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ولا يردها الى الجسد الذي كانت فيه ، ويرسل الأخرى بأن يعيد عليها إحساسها .

قيل : ومعنى يتوفى الأنفس عند موتها هو على حذف مضاف ، أي عند موت أجسادها ، وعن ابن عباس قال : نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فيتوفى الله النفس في منامه ، ويدع الروح في جوفه يتقلب ويعيش ، فإن بدا له أن يقبضه قبض الروح فمات ، وإن أخر أجله رد النفس إلى مكانها من جوفه ، أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم .

وعنه قال : تلتقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات في المنام ، فيتساءلون بينهم ما شاء الله ، ثم يمسك الله أرواح الأموات ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها إلى أجل مسمى ، لا يغلط بشيء منها أخرجه عبد بن حميد وغيره ، وعنه أيضا في الآية قال : كل نفس لها سبب تجري فيه ، فاذا قضى عليه الموت نامت حتى ينقطع السبب ، والتي لم تمت في منامها تترك .

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقل : باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين »[١] .

وقد اختلف العقلاء في النفس والروح هل هما شيء واحد ؟ أو شيئان والكلام في ذلك يطول جداً ، وهو معروف في الكتب الموضوعة لهذا الشأن[٢] والأظهر أنهما شيء واحد ، وهو الذي تدل عليه الآثار الصحاح .

﴿ إن في ذلك ﴾ أي فيما تقدم من التوفي والامساك والارسال للنفوس ﴿ لآيات ﴾ عجيبة بديعة دالة على القدرة الباهرة ، ولكن ليس كون ذلك آيات يفهمه كل أحد بل ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ في ذلك ويتدبرونه ويستدلون به على توحيد الله ، وكمال قدرته ، فان في هذا التوفي والإمساك والإرسال موعظة للمتعظين وتذكرة للمتذكرين .

﴿ أم ﴾ هي المنقطعة المقدرة ببل والهمزة أي بل أ ﴿ أتخذوا من دون الله ﴾ آلهة ﴿ شفعاء ﴾ تشفع لهم عند الله ؟ ﴿ قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ﴾ الهمزة للانكار والتوبيخ ، والواو للعطف على محذوف مقدر ، أي أيشفعون ؟ ولو كانوا الخ جواب لو محذوف ، أي وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم والمعنى أنهم غير مالكين لشيء من الأشياء ، وتدخل الشفاعة في ذلك دخولاً أولياً ﴿ ولا يعقلون ﴾ شيئاً من الأشياء لأنها جمادات لا عقل لها ، وجمعهم بالواو والنون لاعتقاد الكفار فيهم أنهم يعقلون ، ثم أمره سبحانه بأن يخبرهم أن الشفاعة لله وحده فقال :

---

(١) صحيح الجامع/ ٤٠٠ .
(٢) أهم هذه الكتب وأجمعها كتاب الروح لابن القيم طبعة مطبعة الامام بتحقيق وتعليق المطيعي

قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ فليس لأحد منها شيء إلا أن تكون بإذنه لمن ارتضى ، كما في قوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ، وقوله ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وانتصاب ﴿ جميعاً ﴾ على الحال ، وإنما أكد الشفاعة بما يؤكد به الاثنان فصاعداً لأنها مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، ثم وصف نفسه بسعة الملك فقال ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أي يملكهما ويملك ما فيهما ، ويتصرف في ذلك كيف يشاء ، ويفعل ما يريد ، فهو مالك الملك كله ، لا يملك أحد أن يتكلم دون إذنه ورضاه ﴿ ثم إليه ﴾ لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ بعد البعث .

﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ انتصاب وحده على الحال عند يونس ، وعلى المصدر عند الخليل وسيبويه ، والاشمئزاز في اللغة النفور ، قال أبو عبيدة : اشمأزت نفرت ، وقال المبرد : انقبضت ، وبالأول قال قتادة ، وبالثاني قال مجاهد ، والمعنى متقارب ، وقال

المؤرج : أنكرت ، وقال أبو زيد : اشمأز الرجل ذعر من الفزع . والمناسب للمقام تفسير اشمأزت بانقبضت ، وهو في الأصل الازورار ، وكان المشركون إذا قيل لهم : لا إله إلا الله انقبضوا ، كما حكاه الله عنهم في قوله :

﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾ قال ابن عباس في الآية : اشمأزت قست ونفرت قلوب هؤلاء الأربعة الذين لا يؤمنون بالآخرة أبو جهل ابن هشام ، والوليد بن عقبة ، وصفوان ، وأبي بن خلف .

﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ اللات والعزى وغيرهما من الأصنام ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي يفرحون بذلك ، ويبتهجون به ، والعامل في ﴿ إذا ﴾ في قوله ﴿ وإذا ذكر الله ﴾ الفعل الذي بعدها وهو اشمأزت ، والعامل في إذا في قوله ﴿ وإذا ذكر الذين ﴾ الخ الفعل العامل في إذا الفجائية ، والتقدير فاجأوا الاستبشار وقت ذكر الذين من دونه ، وذلك لفرط افتتانهم بها ، ونسيانهم حق الله .

ولقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فيهما ، فإن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ، والاشمئزاز أن يمتلىء غضباً وغماً حتى ينقبض أديم وجهه ، ولما لم يقبل المتمردون من الكفار ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدعاء إلى الخير ، وصمموا على كفرهم أمره الله سبحانه ، أن يرد الأمر إلى الله سبحانه ، ويلتجىء إليه تعالى بالدعاء لما تحير في أمرهم ، وعجز في عنادهم وشدة شكيمتهم ، فإنه القادر على الأشياء ، العالم بالأحوال كلها فقال :

﴿ قل اللهم ﴾ أصله يا الله عوض عنها الميم لقربها من حروف العلة ، وشددت لتكون على حرفين كالمعوض عنه ، ولذا لم يجمع بينهما ،

فلا يقال : يا اللهم في فصيح الكلام ، وما سمع من قوله :

إني إذا ما حدثٌ ألمَّا أقول : يا اللهم يا اللهما

فضرورة قاله الرخى ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي ما غاب وشوهد ، وهما منصوبان على النداء :

﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ من الهدى والضلالة ، والمعنى تجازي المحسن بإحسانه ، وتعاقب المسيء بإساءته ، فإنه بذلك يظهر من هو المحق ، ومن هو المبطل ، ويرتفع عنده خلاف المختلفين ، وتخاصم المتخاصمين .

وقيل : هذه محاكمة من النبي للمشركين إلى الله تعالى .

وعن ابن المسيب لا أعرف آية قرئت فدعي عندها إلا أجيب سواها ، وعن الربيع ابن خيثم ـ وكان قليل الكلام ـ أنه أخبر بقتل الحسين رضي الله عنه ، وقالوا الآن يتكلم فما زاد أن قال آه أو قد فعلوا ، وقرأ هذه الآية ، وروي أنه قال على إثره . قتل من كان صلى الله عليه وآله وسلم يجلسه في حجره ويضع فاه على فيه .

وأخرج مسلم وأبو داود والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته :

«اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1] . ثم لما حكى عن الكفار ما حكاه من الاشمئزاز عند ذكر

(١) الجزء الأول منه اخرجه النسائي ٢/ ٣٢٠ والحاكم ٣/ ٦٢٢ .

الله ، والاستبشار عند ذكر الأصنام ذكر ما يدل على شدة عذابهم وعظم عقوبتهم فقال :

﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ﴾ أي جميع ما في الدنيا من الأموال والذخائر ﴿ ومثله معه ﴾ أي منضماً إليه ﴿ لافتدوا به ﴾ أي بالمذكور من الأمرين أي لجعلوه فدية لأنفسهم ﴿ من سوء العذاب يوم القيامة ﴾ أي من سوء عذاب ذلك اليوم ، وقد مضى تفسير هذا في آل عمران .

﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ أي ظهر لهم من فنون عقوبات الله وسخطه ، وشدة عذابه ، ما لم يكن في حسابهم ولا يحدثون به في نفوسهم وفي هذا وعيد لهم عظيم ، وتهديد بالغ غاية لا غاية وراءها وقال مجاهد عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئآت وكذا قال السدي .

وقال سفيان الثوري : ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء ، وهذه آيتهم وقصتهم . وقال عكرمة بن عمار ، جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً فقيل له ما هذا الجزع ؟ قال : أخاف آية من كتاب الله ، ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب .

﴿ وبدا لهم سيئآت ما كسبوا ﴾ أي مساوىء أعمالهم من الشرك ، وظلم أولياء الله ، و ﴿ ما ﴾ تحتمل أن تكون مصدرية أي سيئآت كسبهم ، وأن تكون موصولة أي سيئآت الذي كسبوه ، حين تعرض صحائف أعمالهم ، وكانت خافية عليهم ، أو عقاب ذلك ﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم ونزل بهم ﴿ ما كانوا به يستهزؤن ﴾ من الإنذار الذي كان ينذرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

﴿ فإذا مس الانسان ﴾ المراد هنا بالانسان الجنس باعتبار بعض أفراده أو غالبها ، وقيل : المراد به الكفار فقط ، والأول أولى ،ولا يمنع من حمله على الجنس خصوص سببه ، لأن الاعتبار بعموم اللفظ وفاء بحق النظم القرآني ، ووفاء بمدلوله ، والمعنى أن شأن غالب نوع الانسان أنه إذا مسه ﴿ ضر ﴾ من مرض أو فقر أو غيرهما ﴿ دعانا ﴾ وتضرع إلينا في رفعه ودفعه .

﴿ ثم إذا خولناه نعمة منا ﴾ أي أعطيناه نعمة كائنة من عندنا ﴿ قال إنما أوتيته على علم ﴾ مني بوجوه المكاسب ، أو على خير عندي ، أو على علم من الله بفضلي ، وقيل إن كان ذلك سعادة في المال أو عافية في النفس يقول: إنما حصل ذلك بجدي واجتهادي ، وإن كان صحة قال : إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني ، وإن حصل مالاً ، يقول : حصل بكسبي ، وهذا تناقض أيضاً لأنه لما كان عاجزاً محتاجاً أضاف الكل إلى الله تعالى ، وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله تعالى وأسنده الى كسب نفسه. وهذا تناقض قبيح .

وقال الحسن : على علم علمني الله إياه . وقيل : قد علمت أني إذا أوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلة ، وجاء في أوتيته بالضمير مذكراً مع كونه

راجعاً الى النعمة لأنها بمعنى الإنعام ، وقيل : إن الضمير عائد إلى ﴿ ما ﴾ وهي موصولة والأول أولى .

﴿ بل هي فتنة ﴾ هذا رد لما قاله ، أي ليس ذلك الذي أعطيناك لما ذكرت بل هو محنة لك واختبار لحالك ، أتشكر أم تكفر ؟ قال الفراء : أنث الضمير في قوله :(هي)لتأنيث الفتنة ، ولو قال : بل هو فتنة لجاز ، وقيل : تأنيث الضمير باعتبار لفظ الفتنة ، وتذكير الأول في قوله : أوتيته باعتبار معناها وقال النحاس : بل عطية فتنة ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن ذلك استدراج لهم من الله ، وامتحان لما عندهم من الشكر أو الكفر .

﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ أي قال هذه الكلمة التي قالوها ، وهي قوله ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ الذين من قبلهم كقارون وقومه ، فإن قارون قال ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ وإنما نسب إليهم قوله باعتبار رضاهم به ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ ما نافية أي لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئاً أو استفهامية أي أيُّ شيء أغنى عنهم ذلك .

﴿ فأصابهم سيئآت ما كسبوا ﴾ أي جزاء سيئآت كسبهم أو أصابهم سيئآت هي جزاء كسبهم ، وسمي الجزاء سيئآت لوقوعه في مقابلة سيئآتهم ، فيكون ذلك من باب الازدواج والمشاكلة . كقوله ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ وفيه رمز إلى أن جميع أعمالهم كذلك ، ثم أوعد سبحانه الكفار في عصره فقال :

﴿ والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ الموجودين من الكفار ﴿ سيصيبهم سيئآت ما كسبوا ﴾ كما أصاب من قبلهم ، وقد أصابهم في الدنيا ما أصابهم من القحط والقتل والأسر والقهر ، والسين للتأكيد ﴿ وماهم بمعجزين ﴾ أي بفائتين على الله بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما شاء من العقوبة .

﴿ أولم يعلموا ﴾ الضمير للقائلين ﴿إنما أوتيته على علم ﴾ فالمعنى أقالوها ولم يعلموا؟أو أغفلوا ولم يعلموا ؟ ﴿ إن الله يبسط ﴾ أي يوسع

﴿ الرزق لمن يشاء ﴾ أن يوسعه له ، وإن كان لا حيلة له ولا قوة امتحاناً ﴿ ويقدر ﴾ أي يقبضه على من يشاء أن يقبضه ، ويضيقه عليه ، وإن كان قوياً شديد الحيلة ابتلاه ، وقيل : يجعله على قدر قوت ، قال مقاتل : وعظهم الله ليعتبروا في توحيده ، وذلك حين مطروا بعد سبع سنين ، فقال : أولم يعلموا أن الله يوسع الرزق لمن يشاء ؟ ويقتر على من يشاء ؟ فلا قابض ولا باسط إلا الله تعالى ، ويدل على ذلك أنا نرى الناس مختلفين في سعة الرزق وضيقه ، فلا بد لذلك من حكمة وسبب ، وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله ، فإنا نرى العاقل القادر في أشد الضيق ، والجاهل الضعيف في أعظم السعة .

﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور من التوسيع والتضييق ﴿ لآيات ﴾ أي لدلالات عظيمة وعلامات جليلة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ بالله ، وإنما خص المؤمنين لأنهم المنتفعون بالآيات ، المتفكرون فيها ، ثم لما ذكر سبحانه ما ذكره من الوعيد عقبة بذكر سعة رحمته ، وعظيم معرفته ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبشرهم بذلك فقال :

﴿ قل : يا عبادي ﴾ قرىء بإثبات الياء وصلاً ووقفاً . وبغير الياء . وهما سبعيتان ﴿ الذين أسرفوا ﴾ أي أفرطوا ﴿ على أنفسهم ﴾ في الكفر أو المعاصي واستكثروا منها ﴿ لا تقنطوا ﴾ بفتح النون وبكسرها أي لا تيأسوا ﴿ من رحمة الله ﴾ أي من مغفرته ، وفي هذه الآية من أنواع المعاني والبيان أشياء حسنة : منها إقباله تعالى عليهم ، ونداؤهم ومنها إضافتهم إليه إضافة تشريف ومنها الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله : ﴿ من رحمة الله ﴾ ومنها إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى ، ومنها إعادة الظاهر بلفظه في قوله الآتي : ﴿ إنَّ الله ﴾، قاله السمين .

وقال عبد الله وغيره : هذه الآية أرجى آية في كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم ، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من

الذنوب ، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب ، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى ، وبفحوى الخطاب قيل : وهذه عامة في كل كافر يتوب ، ومؤمن عاص يتوب ، فتمحو توبته ذنبه ، والمراد منها التنبيه على أنه لا ينبغي للعاصي أن يظن أنه لا مخلص له من العذاب ، فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله تعالى إذ لا أحد من العصاة إلا وإنه متى تاب زال عقابه ، وصار من أهل المغفرة والرحمة والحق أن الآية غير مقيدة بالتوبة بل هي على إطلاقها .

ولما نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه ، ويجعل الرجاء مكان القنوط ، وجاء بما لا يبقى بعده شك ، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن ، فقال :

﴿ إن الله يغفر الذنوب ﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس ، الذي يستلزم استغراق أفراده فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائناً ما كان ، إلا ما أخرجه النص القرآني ، وهو الشرك ، ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب ، بل أكد ذلك بقوله ﴿ جميعاً ﴾ فيالها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم ، الصادقين في رجائه الخالعين لثياب القنوط الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب ، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده ، المتوجهين إليه في طلب العفو ، الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم ، وما أحسن ما علل به سبحانه هذا الكلام قائلاً :

﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة عظيمهما بليغهما واسعهما فأبرز الجملة مؤكدة بإن والفصل ، وباعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الآية السابقة ، فمن أبى هذا التفضل العظيم ، والعطاء الجسيم ، وظن أن تقنيط عباد الله وتأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم الله به فقد ركب أعظم الشطط وغلط أقبح الغلط، فإن التبشير وعدم التقنيط هو الذي جاءت به مواعيد الله في كتابه العزيز والمسلك الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه

وسلم كما صح عنه من قوله : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا »[١] .

وإذا تقرر لك هذا فاعلم أن الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ هو أن كل ذنب كائناً ما كان ما عدا الشرك بالله مغفور لمن شاء الله أن يغفر له ، على أنه يمكن أن يقال إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعاً يدل على أنه يشاء غفرانهما جميعاً ، وذلك يستلزم أنه يشاء المغفرة لكل المذنبين من المسلمين فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية .

وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين ، وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات فهو جمع بين الضب والنون وبين الملاح والحادي ، وعلى نفسها براقش تجني .

ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك باجماع المسلمين ، ولذا قال ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة ، وقد قال سبحانه ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ قال الواقدي المفسرون كلهم قالوا إن هذه الآية في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام كالشرك وقتل النفس ومعاداة النبي صلى الله عليه وسلم .

قلت : هب أنها في هؤلاء القوم فكان ماذا ؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم ، لا بخصوص السبب ، كما هو متفق عليه بين أهل العلم ، ولو كانت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة ، إن لم ترتفع كلها واللازم باطل بالاجماع فالملزوم مثله وفي السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة في الصحيحين وغيرهما في هذا الباب ما لو عرفه المطلع عليه حق معرفته وقدره حق قدره علم صحة

---

(١) البخاري ٤/٢٦ ـ ٥/١٠٨ ـ ٧/١٠١ ـ ٨/١١٤ مسلم ٥/١٤١ ـ احمد ٤/٤١٢ ـ ٤/٤١٧ .

ما ذكرناه ، وعرف حقيقة ما حررناه ، قاله الشوكاني .

وعن ابن عمر قال: « كنا نقول ليس لمفتتن توبة وما الله بقابل منه شيئاً عرفوا الله وآمنوا به وصدقوا رسوله ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولونه لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله فيهم .﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا ﴾الآيات ، قال ابن عمر فكتبتها بيدي ثم بعثت بها إلى هشام بن العاصي » .

وعن أبي سعيد قال : « لما أسلم وحشي أنزل الله ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ ، قال وحشي وأصحابه قد ارتكبنا هذا كله ، فأنزل الله ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ » الآية .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة قال: « خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رهط من أصحابه وهم يضحكون ويتحدثون ، فقال : والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ثم انصرف وأبكى القوم ، وأوحى الله إليه يا محمد لم تقنط عبادي فرجع النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبشروا وسددوا وقاربوا »[1] .

وعن عمر بن الخطاب أنها نزلت فيمن افتتن وعن ابن عباس أنها نزلت في مشركي مكة لما قالوا إن الله لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك ، وقتل النفس وغير ذلك وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ثوبان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم الآية ، فقال رجل : ومن أشرك ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : ألا ومن أشرك ، ثلاث مرات »

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنة وابن المنذر والحاكم وغيرهم

---

(١) حديث قاربوا وسددوا وأبشروا صحيح الجامع الصغير ٤١٧٣ .

عن أسماء بنت يزيد : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ يا عبادي الـذين أسـرفـوا على أنفسهم لا تقنـطوا من رحمـة الله إن الله يغفـر الـذنـوب جميعـاً ـ ولا يبالي ـ انه هو الغفور الرحيم » وعن ابن مسعود أنه مـر على قاص يذكر الناس فقال : يا مذكر الناس لا تقنط الناس ، ثم قرأ يا عبادي الآية .

وعن ابن سيرين قال : قال علي : أي آية أوسع ؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن : ﴿ من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ﴾ الآية ونحوها ، فقال علي : ما في القرآن أوسع من ﴿ يا عبادي ﴾ الآية ، وأخرج ابن جـرير وابن المنـذر عن ابن عبـاس في الآية قـال : قد دعـا الله إلى مغفـرتـه من زعم أن المسيـح ابن الله ، ومن زعم أن عـزير ابن الله ومن زعم أن الله فقيـر ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول لهؤلاء أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفـور رحيم ؟ ثم دعا الى تـوبته من هـو أعظم قـولاً من هؤلاء ، من قـال ﴿ أنـا ربكم الأعلى ﴾ وقـال : ﴿ مـا علمت لكم من إلـه غيـري ﴾ قـال ابن عباس : ومن آيس العباد من التـوبة بعـد هذا فقـد جحد كتـاب الله ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه .

وحديث أبي سعيد الخـدري « في رجل قتـل تسعة وتسعين إنسـاناً » في الصحيحين بـطوله ، وكـذا حديث رجـل قـال « وذرُّوني في الـريـح ؟ » فيهمـا بطوله ، عن أبي هريرة ، وعنه في سنن أبي داود حديث رجلين متحابين .

وعن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : « قـال الله عـز وجل يـا ابن آدم إنك مـا دعوتني ورجـوتني غفـرت لـك على مـا كـان منـك ، ولا أبالي ، يـا ابن آدم لو بلغت ذنـوبك عنـان السمـاء ثم استغفـرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم لو انك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة »[١] أخـرجه التـرمذي والعنـان السحاب ، والقراب بضم القاف هو ما يقارب ملؤها .

---

(١) رواه الترمذي ٢/٢٧٠ والدارمي ٢/٣٢٢ وأحمد ٥/١٧٢ و ٥/١٥٤ .

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

﴿ وأنيبوا الى ربكم ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة لما بشرهم سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعاً أمرهم بالرجوع إليه ، بفعل الطاعات ، واجتناب المعاصي وليس في هذا ما يدل على تقييد الآية الأولى بالتوبة ، لا بمطابقة ، ولا تضمن ، ولا التزام ، بل غاية ما فيها أنه بشرهم بتلك البشارة العظمى . ثم دعاهم إلى الخير وخوفهم من الشر على أنه يمكن أن يقال إن هذه الجملة مستأنفة خطاباً للكفار الذين لم يسلموا بدليل قوله :

﴿ وأسلموا له ﴾ جاء بها لتحذير الكفار وإنذارهم بعد ترغيب المسلمين بالآية الأولى ، وتبشيرهم ، وهذا وإن كان بعيداً ولكنه يمكن أن يقال به ، والمعنى على ما هو الظاهر أن الله جمع لعباده بين التبشير العظيم ، والأمر بالإنابة اليه ، والإخلاص له ، والاستسلام لأمره ، والخضوع لحكمه .

وقوله ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب ﴾ أي عذاب الدنيا كما يفيده النظم ، فليس في ذلك ما يدل على ما زعمه الزاعمون ، وتمسك به القانطون المقنطون والحمد لله رب العالمين ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ أي لا تمنعون من العذاب إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب .

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ يعني القرآن ، يقول : أحلوا

حلاله ، وحرموا حرامه والقرآن كله حسن . قال الحسن : التزموا طاعته ، واجتنبوا معاصيه . وقال السدي الأحسن ما أمر الله به في كتابه .

وقال ابن زيد : يعني المحكمات ، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه . وقيل : الناسخ دون المنسوخ . وقيل العفو دون الانتقام بما يحق فيه الانتقام . وقيل أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية ، ومثله قوله تعالى : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ وقيل القرآن أو المأمور به دون المنهي عنه أو العزائم دون الرخص ، ولعله ما هو أنجى وأسلم ، كالإنابة والمواظبة على الطاعة .

﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ أي من قبل أن يفاجئكم العذاب وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به ، وقيل : أراد أنهم يموتون بغتة فيقعون في العذاب ، والأول أولى ، لأن الذي يأتيهم بغتة هو العذاب في الدنيا بالقتل والأسر ، والخوف والقهر ، والجدب لا عذاب الآخرة ولا الموت لأنه لم يسند الإتيان إليه .

﴿ أن تقول نفس ﴾ قال البصريون : أي حذر أن تقول : وقال الكوفيون أي لئلا تقول ، قال المبرد : بادروا خوف أن تقول أو حذراً من أن تقول ، وقدره الزمخشري كراهة أن تقول ، وابن عطية : وأنيبوا من أجل أن تقول وأبو البقاء والحوفي : أنذرناكم مخافة أن تقول قال الحلبي : عقب نقل بعض هذه التقادير : ولا حاجة إلى إضمار هذا العامل مع وجود أنيبوا ونكر (نفس) لأن المراد بها بعض الأنفس وهي النفس الكافرة المتميزة باللجاج الشديد في الكفر ، أو بالعذاب الأليم .

وقيل : المراد به التكثير كما في قوله ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ أي نفوس كثيرة ، وهم الكفار والعصاة المؤمنون . وقال الزجاج خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها : ﴿ يا حسرتي ﴾ قرأ الجمهور يا حسرتا بالألف بدلاً من الياء المضاف إليها ، وقرأ ابن كثير يا حسرتاه بهاء السكت . وقفاً ، وقرأ أبو

جعفر : يا حسرتي بالياء على الأصل ، والحسرة الندامة ، والاغتمام والحزن على ما فات ﴿ على ما فرطت ﴾ أي على تفريطي وتقصيري فما مصدرية ﴿ في جنب الله ﴾ أي طاعته قاله الحسن .

والجنب والجانب كلاهما بمعنى جهة الشيء المحسوسة ، وإطلاق الجنب على الطاعة مجاز بالاستعارة حيث شبهت بالجهة بجامع تعلق كل بصاحبه ، فالطاعة لها تعلق بالله ، كما أن الجهة لها تعلق بصاحبها ، وقال الضحاك : في ذكر الله ويعنى به القرآن والعمل به وقال أبو عبيدة ، في ثواب الله ، وقيل : في حق الله أو في أمر الله أو في ذات الله .

وقال الفراء : الجنب القرب والجوار أي في قرب الله وجواره ، ومنه قوله ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ والمعنى على هذا القول على ما فرطت في طلب جواره وقربه وهو الجنة ، وبه قال ابن الاعرابي .

وقال الزجاج : أي في الطريق الذي هو طريق الله من توحيده والإقرار بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا فالجنب بمعنى الجانب ، أي قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله ، يقال أنا في جنب فلان وفلان لين الجانب والجنب ثم قالوا : فرط في جنبه وفي جانبه يريدون في حقه ، وهذا من باب الكناية قال ابن عباس في الآية أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوا وعلمهم قبل أن يعلموا .

﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ أي وما كنت إلا من المستهزئين بدين الله في الدنيا ، وبكتابه وبرسوله وبالمؤمنين قال قتادة : « لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ، والجملة حالية ، أي فرطت وأنا ساخر .

﴿ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ أي لو أن الله أرشدني الى دينه لكنت ممن يتقي الشرك والمعاصي وهذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة ، ويتعللون به من العلل الباطلة كما في قوله : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ فهي كلمة حق

يريدون بها باطلاً .

قال أبو المنصور : هذا الكافر أعرف بهداية الله من المعتزلة ، وكذا أولئك الكفرة الذين قالوا لأتباعهم ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ ولكن علم منا اختيار الضلالة والغواية فخذلنا ولم يوفقنا ، والمعتزلة يقولون : بل هداهم وأعطاهم التوفيق ، لكنهم لم يهتدوا ثم ذكر سبحانه مقالة أخرى مما قالوه فقال :

﴿ أو تقول حين ترى العذاب ﴾ والتعبير بأو للدلالة على أن النفس لا تخلو عن هذه الأقوال تحسراً وتحيراً وتعللاً بما لا طائل تحته ، فأو للتنويع لما تقوله النفس في ذلك اليوم ، ويصح أن تكون مانعة خلو فتجوز الجمع ﴿ لو أن لي كرة ﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿ فأكون من المحسنين ﴾ المؤمنين بالله الموحدين له ، المحسنين في أعمالهم ، ثم ذكر سبحانه جوابه على هذه النفس المتمنية المتعللة بغير علة فقال :

﴿ بلى ﴾ أي فيقال له من قبل الله : بلى الخ كأنه قال : ما هداني الله فيقال بلى ﴿ قد جاءتك آياتي ﴾ مرشدة لك ، والمراد بالآيات هي الآيات التنزيلية وهو القرآن ﴿ فكذبت بها ﴾ وهو قوله : إنها ليست من عند الله ﴿ واستكبرت ﴾ أي تكبرت عن الإيمان بها ﴿ وكنت ﴾ مع ذلك التكذيب والاستكبار ﴿ من الكافرين ﴾ بالله .

وجاء سبحانه بخطاب المذكر في قوله جاءتك وكذبت ، واستكبرت ، وكنت لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث . قال المبرد : تقول العرب نفس واحد أي إنسان واحد ، أو التذكير باعتبار كونها شخصاً كافراً قرأ الجمهور بفتح التاء في هذه المواضع ، وقرىء بكسرها في جميعها وهي قراءة أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، وبنته عائشة ، وأم سلمة ، ورويت عن ابن كثير .

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾

﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله ﴾ بأن له شريكاً ، وصاحبة ، وولداً ﴿ وجوههم مسودة ﴾ لما أحاط بهم من العذاب ، ولما شاهدوه من غضب الله ونقمته ، والجملة في محل النصب على الحال ، قال الأخفش ﴿ ترى ﴾ غير عامل في ﴿ وجوههم مسودة ﴾ إنما هو مبتدأ وخبره ، والأولى أن ﴿ ترى ﴾ إن كانت من الرؤية البصرية فجملة ﴿ وجوههم مسودة ﴾ حالية وإن كانت قلبية فهي مفعول ثان لترى .

﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ الاستفهام لتقرير اسوداد وجههم ، وتعليل له ، كأنه قال : لأن لهم في جهنم مقراً ومقاماً ، والكبر هو «بطر الحق وغمط الناس »[1] ، كما ثبت في الحديث الصحيح .

﴿ وينجي الله الذين اتقوا ﴾ الشرك ومعاصي الله من جهنم متلبسين ﴿ بمفازتهم ﴾ أي بمكان فوزهم من الجنة بأن يجعلوا فيه ، قرأ الجمهور بالإفراد على أنه مصدر ميمي والفوز الظفر بالخير ، والنجاة من الشر ، قال المبرد المفازة مفعلة من الفوز وهي السعادة ، وإن جمع فحسن كقولك :

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري ٥٤٨ وأحمد ٢/١٦٩ والبيهقي في الاسماء بقوله :«ان نبي الله نوحاً لما حضرته الوفاة . . . .» وبطر الحق : إنكاره ، وغمط الناس : ظلمهم

السعادة والسعادات .

والمعنى ينجيهم الله بفوزهم ، أي بنجاتهم من النار ، وفوزهم بالجنة ، وقرىء بمفازاتهم جمع مفازة وجمعها مع كونها مصدراً لاختلاف الأنواع وقيل ثَمَّ مضاف محذوف ، والتقدير بدواعي مفازتهم أو أسبابها ، والمفازة المنجاة ، وقيل لا حاجة لذلك إذ المراد بالمفازة الفلاح .

وجملة ﴿ لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ مفسرة لمفازتهم كأنه قيل : وما مفازتهم ؟ فقيل لا يمسهم الخ أو منصوبة رد على الحال من الذين اتقوا ، وقيل الباء للسببية أي بسبب فوزهم مع انتفاء مساس السوء لهم ، وعدم وصول الحزن إلى قلوبهم ، لأنهم رضوا بثواب الله وأمنوا من عقابه .

﴿ الله خالق كل شيء ﴾ من الأشياء الموجودة في الدنيا والآخرة ، كائناً ما كان ، من غير فرق بين شيء وشيء وفيه رد على المعتزلة والثنوية ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أي الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها وتدبيرها ، من غير مشارك له .

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ جملة مستأنفة والمقاليد واحدها مقليد ومقلاد ، أو لا واحد له من لفظه كأساطير ، ويقال أيضا أقليد وأقاليد أو الكلمة أصلها فارسية على ما قيل إنه جمع إقليد معرب إكليد والكلام من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبرها هو الذي يملك مفاتيحها ، فهو كناية عن شدة التمكن والتصرف في كل شيء مخزون في السموات أو في الأرض ، والحمل على الظاهر أولى ، وهي هنا مفاتيح الرزق والرحمة . قاله مقاتل وقتادة وغيرهما ، قال ابن عباس أي مفاتيحها ، وقال الليث المقلاد الخزانة .

ومعنى الآية له خزائن السموات والأرض ، وبه قال الضحاك والسدي ، وقيل : خزائن السموات المطر ، وخزائن الأرض النبات وقيل : هي عبارة عن قدرته سبحانه وحفظه لها ، والأول أولى : قال الجوهري : الإقليد المفتاح ثم قال : والجمع المقاليد ، وقيل هي لا إلَه إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله

وبحمده ، واستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأخرج أبو يعلى ويوسف القاضي في سننه وأبو الحسن القطان وابن السني وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عثمان ابن عفان قال :

سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ فقال لي: يا عثمان لقد سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك ، مقاليد السموات والأرض لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير » ، ثم ذكر فضل هذه الكلمات وله طرق عن عثمان . وقيل غير ذلك ، والمعنى على هذا أن لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد ، وهي مفاتيح خير السموات والأرض ، من تكلم بها أصابه .

﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ أي بالقرآن وسائر الآيات الدالة على الله سبحانه وتوحيده ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ أي الكاملون في الخسران لأنهم صاروا بهذا الكفر إلى النار متصل بقوله :﴿وينجي الله ﴾الخ أي معطوف عليه وما بينهما اعتراض ، وإن كان المعطوف جملة اسمية ، والمعطوف عليه جملة فعلية فهذا لا يمنع صحة العطف ، غايته أنه خال عن حسنه .

﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، والأصل أفتأمروني ؟ أي بعد مشاهدة الآيات الدالة على انفراده وتوحيده أن أعبد غير الله ، قاله الكسائي وغيره ، وقيل : أفتلزموني عبادة غير الله ؟ أو أعبد غير الله ؟ أمره الله سبحانه أن يقول هذا للكفار لمّا دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا : هو دين آبائك .

وعن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، ويطأون

عقبه فقالوا له : هذا لك يا محمد وتكف عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء ، قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي ، فجاء بالوحي :﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾الى آخر السورة ، وأنزل الله عليه﴿ قل أفغير الله تأمروني ﴾الى قوله : ﴿ من الخاسرين ﴾[١] .

﴿ ولقد ﴾ هذه اللام دالة على قسم مقدر أي والله لقد ﴿ أوحي اليك وإلى الذين من قبلك ﴾ من الرسل ﴿ لئن ﴾ جواب القسم وهذه اللام أيضاً دالة على قسم مقدر أي والله لئن ﴿ أشركت ﴾ يا محمد فرضاً ﴿ ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ وكل من هاتين اللامين واقعة في جواب القسم الثاني ، والثاني وجوابه جواب الأول ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ، وهذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل ، لأن الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك ، ووجه إيراده على هذا الوجه التحذير والانذار للعباد من الشرك ، لأنه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير ، فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى .

قيل وفي الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير ولقد أوحي اليك لئن أشركت الخ وأوحى الى الذين من قبلك كذلك ، قال مقاتل أي أوحي اليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد ، والتوحيد محذوف ، ثم قال : لئن اشركت يا محمد ليحبطن عملك ، وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

وقيل إفراد الخطاب في لئن أشركت ، باعتبار كل واحد من الأنبياء كأنه قيل أوحي إليك وإلى كل واحد من الأنبياء هذا الكلام ، لئن أشركت ، وهذه الآية مقيدة بالموت على الشرك كما في الآية الأخرى .

﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ﴾ وقيل هذا خاص بالأنبياء لأن الشرك منهم أعظم ذنباً من الشرك من غيرهم والأول أولى ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بتوحيده فقال :

---

(١) سيأتي الكلام عنه عند تفسيرنا لسورة الكافرون .

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (٦٧)

﴿ بل الله فأعبد ﴾ وفي هذا رد على المشركين حيث أمروه بعبادة الأصنام ووجه الرد ما يفيده التقديم من القصر ، قال الزجاج ، لفظ اسم الله منصوب بأعبد قال ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين ، وقال الفراء هو منصوب بإضمار فعل ، وعن الكسائي مثله ، والأول أولى .

قال الزجاج : والفاء في فاعبد للمجازاة ، وقال الأخفش زائدة قال عطاء ومقاتل . معنى فاعبد وَحِّد لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ لإنعامه عليك بما هداك إليه من التوحيد والدعاء الى دينه ، واختصك به من الرسالة .

﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته ، وقال المبرد أي ما عظموه حق عظمته حين أشركوا به غيره ، من قولك فلان عظيم القدر . وانما وصفهم بهذا لأنهم عبدوا غير الله ، وأمروا رسوله بأن يكون مثلهم في الشرك ، وقرىء قدروا بالتشديد .

﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ القبضة في اللغة ما قبضت عليه بجميع كفك فأخبر سبحانه عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمتها وكثافتها في مقدوره ، كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه كما يقولون هو في يد فلان وفي قبضته للشيء الذي يهون عليه التصرف فيه ، وإن لم يقبض عليه .

والمراد بالأرض الأرضون السبع ، يشهد لذلك قوله ﴿ جميعاً ﴾ وقوله الآتي ﴿ والسموات ﴾ لأن هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلا على الجمع ، ولأن الموضع موضع تعظيم ، فهو مقتض للمبالغة ، والمعنى الأرضون جميعاً ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة ، وقدم الأرض على السموات لمباشرتهم بها ومعرفتهم بحقيقتها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : « جاء حبر من الأحبار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إنا نجد أن الله يحمل السموات يوم القيامة على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على اصبع ، وسائر الخلق على اصبع ، ثم يهزهن فيقول أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ » وانما خص يوم القيامة بالذكر ـ وإن كانت قدرته عامة وشاملة لدار الدنيا أيضا ـ لأن الدعاوي تنقطع في ذلك اليوم ، كما قال . ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ وقال ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ولذلك قال في الحديث « ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟» .

﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ ذكر اليمين للمبالغة في كمال القدرة كما يطوي الواحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه ، والطي ضد النشر واليمين في كلام العرب قد يكون بمعنى القدرة والملك . قال الأخفش بيمينه يقول في قدرته نحو قوله ﴿ أو ما ملكت أيمانكم ﴾ أي ما كانت لكم قدرة عليه ، وليس الملك لليمين دون الشمال وسائر الجسد ، ومنه قوله سبحانه ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أي بالقوة والقدرة ، وليس يريد به طياً بعلاج وانتصاب ، وانما المراد بذلك الفناء والذهاب ، يقال قد انطوى عنا ما كنا فيه ، وجاءنا غيره ،

وانطوى عنا ، وهو بمعنى المضي والذهاب قال الخازن اليمين ليس عندنا بمعنى الجارحة ، وإنما هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها ، وننتهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب ؛ والأخبار المأثورة الصحيحة ؛ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، قال سفيان بن عيينة كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه ا هـ .

ومعنى الآية ما عظموه حق تعظيمه ، والحال أنه متصف بهذه الصفة الدالة على كمال القدرة ، والمقصود الاشارة إلى أن المتولي لإبقاء السموات والأرض في هذه الدار هو المتولي لتخريبهما يوم القيامة ، وذلك يدل على قدرته التامة على الإيجاد والإعدام ، وأنه غني على الإطلاق فإنه إذا حاول تخريب الأرض يقبضها ويزيلها وتخريب السموات يجمعها كالسجل المطوي .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض »[1] ؟

وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك اين الجبارون أين المتكبرون أين ملوك الأرض » ، أخرجه الشيخان وفي الباب أحاديث وآثار تقتضي حمل الآية على ظاهرها من دون تكلف لتأويل ، ولا تعسف بقال وقيل ، ثم نزه سبحانه نفسه فقال :

﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ به من المعبودات التي يجعلونها شركاء له مع هذه القدرة العظيمة ـ والحكمة الباهرة .

---

(١) صحيح الجامع/ ٧٩٨١ .

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض ﴾ هذه هي النفخة الأولى ، والصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل وقد تقدم غير مرة ، وقد قيل : إنه يكون معه جبريل لحديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن صاحبي الصور بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر حتى يؤمران » أخرجه ابن ماجة ، وفي أبي داود عنه قال : « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الصور وقال : عن يمينه جبريل ، وعن يساره ميكائيل ، ذكره القرطبي .

ومعنى صعق زالت عقولهم ، فخروا مغشياً عليهم ، وقيل : ماتوا : قال الواحدي : قال المفسرون : مات من الفزع وشدة الصوت أهل السموات والأرض ، قرأ الجمهور الصور بسكون الواو وقرىء بفتحها جمع صورة :

﴿ إلا من شاء الله ﴾ والاستثناء متصل والمستثنى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، وقيل : رضوان وحملة العرش وخزنة الجنة والحور العين والنار ، وقيل : الباري تعالى وحده قاله الحسن وفيه نظر من حيث قوله من في السموات ومن في الأرض . فإنه لا يتحيزه فعلى هذا يتعين أن يكون منقطعاً وقيل الزبانية وقيل عقارب أهل النار وحياتها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : « قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذي اصطفى موسى على البشر ، فرفع رجل من

الأنصار يده فلطمه وقال أتقول هذا وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « قال الله ونفخ في الصور إلى قوله : ينظرون فأكون أول من يرفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أرفع رأسه قبلي ! أو كان ممن استثنى الله »

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « إلا من شاء الله » قال : « هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة يوم القيامة » الحديث أخرجه أبو يعلى والدارقطني في الأفراد وابن المنذر والحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقي في البعث وأخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد من قول أبي هريرة .

وعن أنس أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿إلا من شاء الله﴾ «فقال جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل وحملة العرش » أخرجه الفريابي وابن جرير وأبو نصر السجزي في الابانة ، وابن مردويه .

وأخرج ابن المنذر عن جابر قال هو موسى لأنه كان صعق قبل ، وههنا إشكال أورده بعض السلف وهو أن نص القرآن يدل على أن هذا الاستثناء بعد نفخة الصعق وهي النفخة الأولى التي مات فيها من بقي على وجه الأرض والحديث المتقدم يدل على أنها نفخة البعث . وما قيل إنه يحتمل أن موسى ممن لم يمت من الأنبياء باطل لصحة موته ، وقال القاضي عياض يحتمل أن تكون هذه صعقة فزع بعد النشر حين تنشق الأرض والسموات فتتوافق الآيات والأحاديث .

قال القرطبي : ويرده ما مر في الحديث من أخذ موسى بقائمة العرش ، فإنه إنما هو عند نفخة البعث ، وأيضا تكون النفخات أربعاً ولم ينقله الثقات قال الشهاب : فمن حمل الصعق على غشي يكون من نفخة بعد نفخة البعث للإرهاب والارعاب فكلامه مردود بما عرفت ، ومن الغريب أن بعضهم جعلها

بحديث أبي هريرة خمساً ، وقد سمعنا بمن زاد في الطنبور نغمة ، ولم نسمع بمن زاد في الصور نفخة .

قال القرطبي : والذي يزيح الإشكال ما قاله بعض مشايخنا أن الموت ليس بعدم محض بالنسبة إلى الانبياء والشهداء فانهم موجودون أحياء ، وإن لم نرهم ، فإذا نفخت نفخة الصعق صعق كل من في السموات والأرض وصعق غير الأنبياء موت وصعقهم غشي ، فإذا كانت نفخة البعث حيي من مات ، وأفاق من غشي عليه ، ولذا وقع في الصحيحين فأكون أول من يفيق ، والأحاديث الواردة في كيفية نفخ الصور كثيرة ، وقد ذكر سليمان الجمل في هذا المقام عن ابن الوردي وغيره ما جاء في صورة الصور وهيئته وتعداد نفخاته ، ولا تعلق له بالتفسير .

﴿ ثم نفخ فيه ﴾ نفخة ﴿ أخرى فاذا هم ﴾ يعني الخلق كلهم ﴿ قيام ﴾ على أرجلهم ﴿ ينظرون ﴾ ما يقال لهم ، أو ينتظرون ذلك ، والاستثناء ملاحظ في هذا أيضاً لأن من لم يمت كالحور فلا يقال له ذلك ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بين النفختين أربعون : قالوا أربعون يوماً ؟ قال أبو هريرة أبيت ، قالوا أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قالوا أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، ثم ينزل الله عز وجل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة »[1] أخرجه الشيخان .

ودلت الآية على أن النفخة اثنتان الأولى للموت ، والثانية للبعث ، والجمهور على أنها ثلاث ، الأولى للفزع كما قال : ونفخ في الصور ففزع ، والثانية للموت ، والثالثة للإعادة .

---

(١) سبق ذكره

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

﴿ وأشرقت الأرض ﴾ الاشراق الإضاءة ، يقال : أشرقت الشمس إذا أضاءت ، وشرقت إذا طلعت ، وأراد بالأرض عرصات القيامة ، أي الأرض الجديدة التي يوجدها الله في ذلك الوقت ، ليحشر الناس عليها ، وليس المراد بها أرض الدنيا .

﴿ بنور ربها ﴾ أي بعدل ربها قاله الحسن وغيره ، وقال الضحاك : بحكم ربها . والمعنى أن الأرض أضاءت وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها ، وما قضى به من الحق فيهم ، فالعدل نور ، والظلم ظلمات . وقيل : ذلك حين يتجلى الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء بين خلقه ، فما يضارون في نوره كما لا يضارون في الشمس في يوم الصحو .

وقيل : إن الله سبحانه يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق به غير نور الشمس والقمر ، ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي ، فإن الله سبحانه هو ﴿ نور السموات والأرض ﴾ قرأ الجمهور : أشرقت مبنياً للفاعل ، وقرىء على البناء للمفعول .

﴿ ووضع الكتاب ﴾ قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقال قتادة يعني الكتب والصحف التي فيها أعمال بني آدم ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله ، وكذا قال مقاتل : وقيل هو من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه ، أي وضع الكتاب للحساب ﴿ وجىء بالنبيين ﴾ إلى الموقف فسئلوا عما أجابتهم به أممهم .

﴿ والشهداء ﴾ الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما في قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ وقيل المراد بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة لمن ذب عن دين الله . قاله السدي وقيل هم الحفظة كما قال تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ قاله ابن زيد قال ابن عباس النبيون الرسل والشهداء الذين يشهدون لهم بالبلاغ ليس فيهم طعان ولا لعان يشهدون بتبليغ الرسالة وتكذيب الأمم إياهم .

ولما بين سبحانه أنه يوصل لكل ذي حق حقه عبر عن هذا المعنى بأربع عبارات أولاها قوله ﴿ وقضى بينهم بالحق ﴾ أي قضى بين العباد بالعدل والصدق ، والثانية ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي والحال أنهم لا ينقصون من ثوابهم ولا يزاد على ما يستحقونه من عقابهم ختم الآية بنفي الظلم كما افتتحها باثبات العدل ، والثالثة ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ من خير وشر أي جزاءه والرابعة ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ في الدنيا لا يحتاج إلى كاتب ولا حاسب ولا شاهد ، لأنه عالم بمقادير أفعالهم وبكيفياتها . فامتنع دخول الخطأ عليه ، قاله الكرخي ، وقال القرطبي ومع ذلك فتشهد الكتب والشهود وإلزاماً للحجة انتهى . يعني إنما وضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء لتكميل الحجة وقطع المعذرة .

ثم ذكر سبحانه تفصيل ما ذكره من توفية كل نفس ما كسبت فقال: ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾ أي سيق الكافرون سوقاً عنيفاً إلى النار

حال كونهم جماعات متفرقة بعضها يتلو بعضاً ، قال أبو عبيدة والأخفش زمراً جماعات متفرقة بعضها إثر بعض ، واحدتها زمرة واشتقاقه من الزمر ، وهو الصوت ، إذ الجماعة لا تخلو عنه غالباً ﴿ حتى ﴾ هي التي تحكى الجمل بعدها ﴿ إذا جاؤوها فتحت أبوابها ﴾ أي أبواب النار ليدخلوها ، وهي سبعة أبواب . وكانت قبل ذلك مغلقة . وقد مضى بيان ذلك في سورة الحجر .

﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ جمع خازن نحو سدنة وسادن : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أي من أنفسكم ومن جنسكم ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ التي أنزلها عليكم ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ ﴾ أي يخوفونكم لقاء هذا اليوم الذي صرتم فيه ، والمراد به وقت الشدة لا يوم القيامة جميعه ، قال الزمخشري : وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضا في أوقات الشدة ، قالوا لهم هذا القول تقريعاً وتوبيخاً ، فأجابوا بالاعتراف ، ولم يقدروا على الجدل الذي كانوا يتعللون به في الدنيا ، لانكشاف الأمر وظهوره ولهذا ﴿ قالوا بلى ﴾ أي قد أتتنا الرسل بآيات الله وأنذرونا بما سنلقاه .

﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ وهي ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ جيء بالظاهر مقام المضمر لبيان سبب استحقاقهم العذاب وهو كفرهم ، فلما اعترفوا هذا الاعتراف ﴿ قيل ﴾ لهم من قبل الملائكة الموكلين لعذابهم .

﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ التي قد فتحت لكم لتدخلوها ﴿ خالدين ﴾ أي مقدرين الخلود ﴿ فيها ، فبئس مثوى المتكبرين ﴾ جهنم ، واللام فيه للجنس ، وجيء بالظاهر لبيان سبب كفرهم الذي استحقوا به العذاب ، وقد تقدم تحقيق المثوى في غير موضع ، ولما ذكر فيما تقدم حال الذين كفروا وسوقهم إلى جهنم زمراً ذكر هنا حال المتقين ، وسوقهم الى الجنة فقال :

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ أي ساقتهم الملائكة سوق إعزاز وتشريف وتكريم ، والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان ، كما يفعل بمن يكرم من الوافدين على بعض الملوك والمراد بالسوق المتقدم طردهم إلى العذاب بالهوان كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس أو القتل ، فشتان ما بين السوقين .

وهذا من بدائع أنواع البديع ، وهو أن يأتي سبحانه وتعالى بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم وعقابهم ، ويأتي بتلك الكلمة بعينها وهيئتها في حق المؤمنين فتدل على إكرامهم بحسن ثوابهم ، فسبحان من أنزله معجز المباني ، متمكن المعاني ، عذب الموارد والمثاني قيل الكلام على حذف مضاف ، أي : سيقت مراكبهم إذ لا يذهب بهم إلا راكبين وقد سبق معنى الزمر أي جماعات أهل الصلاة على حدة ، وأهل الصوم كذلك إلى غير ذلك .

﴿ حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها ﴾ جواب إذا محذوف ، قال المبرد : تقديره سعدوا وفتحت ، وقال الزجاج : القول عندي أن الجواب محذوف على تقدير حتى إذا جاؤها كانت هذه الأشياء التي ذكرت دخلوها فالجواب دخلوها وحذف لأن في الكلام دليلاً عليه . وقال الأخفش والكوفيون : الجواب فتحت والواو زائدة وهو خطأ عند البصريين لأن الواو من حروف المعاني فلا تزاد .

وقيل إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله والتقدير حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة بدليل قوله ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ وحذفت الواو في قصة أهل النار لأنهم وقفوا على النار ، وفتحت بعد وقوفهم إذلالاً وترويعاً . ذكر معناه النحاس منسوباً الى بعض أهل العلم قال : ولا أعلم أنه سبقه إليه أحد ، وعلى هذا القول تكون الواو واو الحال بتقدير قد ، أي : جاؤوهاوقد فتحت لهم الأبواب . وقيل : إنها واو الثمانية ، وذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا يقولون في العدد خمسة ستة سبعة وثمانية ، وقد مضى القول في هذا في سورة براءة مستوفى ، وفي سورة الكهف أيضاً .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة »[1] وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « في الجنة ثمانيةأبواب منها باب يسمى باب الريان ، لا يدخله إلا الصائمون » ، وقد ورد في كون أبواب الجنة ثمانية أحاديث في الصحيحين وغيرهما ، وكتابنا (مثير ساكن الغرام ، إلى روضات دار السلام) هو أحسن ما جمع في أحوال الجنة فليرجع إليه وليعول عليه ، ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين فقال :

﴿ وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ أي سلامة لكم من كل آفة ، لا يعتريكم بعده مكروه ﴿ طبتم ﴾ وطهرتم في الدنيا ، فلم تتدنسوا بالشرك والمعاصي . قال مجاهد طبتم بطاعة الله ، وقيل بالعمل الصالح ، والمعنى واحد وقيل طاب لكم المقام وقيل طابت حالكم وحسنت وجعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة لأنها دار الطيبين ، ومثوى الطاهرين ، وقد طهرها الله من كل دنس وطيبها من كل قذر ، فلا يدخلها إلا مناسب لها ، موصوف

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٢٥٦٢ .

بصفتها .

قال مقاتل إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فتقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم ، حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه سلام عليكم الآية ، وقد أخرج البخاري حديث القنطرة هذا في جامعه من حديث أبي سعيد الخدري وهو طويل جدا ﴿ فادخلوها ﴾ أي الجنة ﴿ خالدين ﴾ أي مقدرين الخلود .

﴿ وقالوا ﴾ أي فعند ذلك قال أهل الجنة ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ بالبعث والثواب بالجنة في قوله : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ أي أرض الجنة قاله قتادة وأبو العالية ، كأنها صارت من غيرهم إليهم ، فملكوها وتصرفوا فيها تصرف الوارث فيما يرثه ، ففي الكلام تجوز . وقيل : إنهم ورثوا الأرض التي كانت لأهل النار لو كانوا مؤمنين ، قاله أكثر المفسرين ، وقيل : إنها أرض الدنيا وفي الكلام تقديم وتأخير .

﴿ نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ أي نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء فلا يختار أحد مكان غيره ، وقيل : يتخير كل واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأين ينزل تكرمة له ، وإن كان لا يختار إلا ما قسم له ، وأما بقية الأمم فيدخلون بعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فينزلون فيما فضل عنهم ، وفي الكرخي الجنة نوعان : الجنات الجسمانية ، وهي لا تحتمل المشاركة ، والجنات الروحانية ، وحصولها لواحد لا يمنع من حصولها لآخرين ﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ في الدنيا أي الجنة وهذا من تمام قول أهل الجنة ، وقيل هو من قول الله سبحانه .

﴿ وترى ﴾ يا محمد ﴿ الملائكة حافين ﴾ أي محيطين ومحدقين قائمين بجميع ما عليهم من الحقوق ﴿ من حول العرش ﴾ أي جوانبه التي يمكن الحفوف بها فيسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتمجيد والتقديس ، وإدخال

﴿ من ﴾ يفهم أنهم مع كثرتهم إلى حد لا يحصيه إلا الله لا يملأون حوله ، وهذا أولى من قول البيضاوي : إن (من) مزيدة ، وبه قال الأخفش : أو للابتداء أي ابتداء حفوفهم من حول العرش إلى حيث شاء الله .

والمعنى أن الرائي يراهم بهذه الصفة في ذلك اليوم ، والحافين جمع حاف قاله الأخفش ، وهو المحدق بالشيء من حففت بالشيء إذا أحطت به ، وهو مأخوذ من الحفاف وهو الجانب ، وقال الفراء وتبعه الزمخشري لا واحد له من لفظه إذ لا يقع لهم هذا الاسم الا مجتمعين .

﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ أي حال كونهم مسبحين لله متلبسين بحمده أي يقولون سبحان الله وبحمده وقيل معنى يسبحون يصلون حول العرش شكراً لربهم ، وهذا تسبيح تلذذ لا تسبيح تعبد ، لأن التكليف يزول في ذلك اليوم وذلك يشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التسبيح ، وأفهم أن منتهى درجات العليين ولذاتهم الاستغراق في صفاته تعالى ، اللهم أرزقنا .

﴿ وقضي بينهم ﴾ أي بين جميع العباد والخلائق ﴿ بالحق ﴾ أي بالعدل بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار ، وقيل بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء ، وبين أممهم ، وقيل بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب درجاتهم والأول أولى .

﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ القائلون هم المؤمنون ، حمدوا الله على قضائه بينهم وبين أهل النار بالحق كما قال : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ ، وقيل القائلون هم الملائكة حمدوا الله تعالى على عدله في الحكم وقضائه بين عباده بالحق ، وبدأ سبحانه هذه الآية بالحمد ، وختمها بالحمد ، للتنبيه على تحميده في بداية كل أمر ونهايته ، والحمد الأول على صدق الوعد وإيراث الجنة ، وهذا على القضاء بالحق ، فلا تكرار فيه ، وروي من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر آخر الزمر فتحرك المنبر مرتين .



سورة غافر

وهي سورة المؤمن وتسمى سورة الطول
وهي خمس وثمانون آية

وقيل اثنتان وثمانون آية قاله القرطبي ، وهي مكّية في قول عطاء وجابر وعكرمة ، قال الحسن الا قوله :﴿ وسبح بحمد ربك ﴾لان الصلوات نزلت بالمدينة وقال ابن عباس وقتادة الا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ﴿ ان الذين يجادلون في آيات الله ﴾ والتي بعدها ، وكذا نص عليه السيوطي في الاتقان ، وفي لب الاصول في أسباب النزول ، قال ابن عباس أنزلت حم المؤمن بمكة ، وعن سمرة بن جندب قال نزلت الحواميم جميعاً بمكة .

وأخرج محمد بن نصر وابن مردويه عن أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله أعطاني السبع الحواميم مكان التوراة ، واعطاني الرآت الى الطواسين مكان الانجيل ، وأعطاني ما بين الطواسين الى الحواميم مكان الزبور ، وفضلني بالحواميم والمفصل ، ما قرأهن نبي قبلي ، وقال ابن عباس ان لكل شيء لبابا ، وان لباب القرآن حم » . وقال ابن مسعود الحواميم ديباج القرآن ، وعنه قال : « اذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن »[1] .

وعن سعد بن ابراهيم الحواميم تسمى العرائس ، رواه الدارمي في مسنده ، وقال الجوهري آل حم سور في القرآن ، فأما قول العامة الحواميم فليس من كلام العرب ، وبه قال الحريري في درة الغواص وقال أبو عبيدة الحواميم على غير قياس ، والاولى أن تجمع بذوات حم انتهى ، فتلخص من مجموع هذه الاخبار أن هذه السور السبع تسمى الحواميم ، وتسمى ال حم. وتسمى ذوات حم فلها جموع ثلاثة خلافا لمن أنكر الاول منها .

وأخرج البيهقي في الشعب عن خليل بن مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحواميم سبع وأبواب النار سبع يجيء كل حم منا يقف على باب من هذه الابواب ، يقول اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرؤني .

---

(١) السيوطي في الدر ٥/٣٤٤ .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حَم ﴾ قرأ الجمهور بفتح الحاء مشبعاً [1]، وقرىء بإمالته إمالة محضة ، وبإمالته بين بين وقرأ الجمهور بسكون الميم كسائر الحروف المقطعة وقرأ الزهري بضمها على أنها خبر مبتدأ مضمر أو مبتدأ والخبر ما بعده وقرأ عيسى بن عمر الثقفي بفتحها ، وهي تحتمل وجهين أحدهما أنها منصوبة بفعل مقدر ، أي اقرأ حَم ، وانما منعت من الصرف للعلمية والتأنيث ، أو للعلمية وشبه العجمة وذلك انه ليس في الأوزان العربية وزن فاعيل بخلاف الأعجمية ، نحو قابيل وهابيل والثاني أنها حركة بناء تخفيفاً كأين وكيف ، وقرأ ابن أبي إسحق وأبو السماك بكسرها لالتقاء الساكنين . أو بتقدير القسم وقرأ الجمهور بوصل الحاء بالميم ، وقرأ ابو جعفر بقطعها .

وقد اختلف في معناه فقيل : هو اسم من اسماء الله قاله أبو أمامة ، وقيل اسم من أسماء القرآن قاله قتادة ، وقال الضحاك والكسائي : معناه قضى ، وجعلاه بمعنى حَم أي وقع وقضى ، وقيل : مفاتيح خزائنه ، وقيل : اسم الله الأعظم ، وقيل بدء أسماء الله تعالى كحميد وحليم وحكيم وحنان ، وكمالك ومجيد ومنان ومتكبر ومصور ومؤمن ومهيمن ، وقيل معناه حَم أمر الله أي قرب نصره لأوليائه ، وانتقامه من أعدائه ؛ وهذا كله تكلف لا موجب له ؛ وتعسف لا ملجىء اليه ، والحق ان هذه الفاتحة لهذه السورة وأمثالها من المتشابه الذي استأثر الله بعلم معناه ، كما قدمنا تحقيقه في فاتحة سورة البقرة.

(١) الحاء من حروف (حس طهر) وكلها تمد مداً طبيعياً .

وأخرج الترمذي والحاكم وصححه ، وأبو داود وغيرهم ، عن المهلب ابن أبي صفرة قال : حدثني من سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ليلة الخندق « إن أتيتم الليلة فقولوا حم لا ينصرون » ، وعن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنكم تلقون عدوكم فليكن شعاركم حَم لا ينصرون » أخرجه النسائي والحاكم وابن أبي شيبة .

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ هو خبر لِحَم على تقدير انه مبتدأ أو خبر لمبتدأ مضمر أي هذا تنزيل أو هو مبتدأ وخبره ﴿ من الله ﴾ قال الرازي : المراد بالتنزيل المنزل ، والمعنى أن القرآن منزل من عند الله ليس بكذب عليه ﴿ العزيز ﴾ المنيع بسلطانه الغالب ، القاهر في ملكه ﴿العليم ﴾ الكثير العلم بخلقه ، وما يقولونه ويفعلونه ، فهو تهديد للمشركين وبشارة للمؤمنين .

﴿ غافر الذنب ﴾ أي ذنب المؤمنين ، وعن ابن عمر قال : ساتر الذنب لمن يقول : لا إله إلا الله ﴿ وقابل التوب ﴾ أي توبة الراجعين أو عمن يقول : لا إله إلا الله . والتوب والثوب والأوب أخوات في معنى الرجوع مصادر ، وقال الأخفش : التوب جمع توبة ، كدوم ودومة ، وإدخال الواو في هذا الوصف لإفادة الجمع للمذنب التائب بين قبول توبته ومحو حوبته قاله العمادي او لتغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد قاله البيضاوي .

﴿ شديد العقاب ﴾ أي مشدودة لمن لا يقول : لا إله إلا الله ، أو على المخالفين والكافرين ، وقيل : قابل التوب لأوليائه ، وشديد العقاب لأعدائه وقيل قابل التوب من الشرك وشديد العقاب لمن لا يوحده ﴿ ذي الطول ﴾ أي ذي الفضل على العارفين ، أو الغني عن كل العالمين وأصل الطول الانعام والتفضل أي ذي الانعام على عباده والتفضل عليهم ، وقال مجاهد وابن عباس : ذي الغنى والسعة ، ومنه قوله :

﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً ﴾ أي غنى وسعة ، وقال عكرمة : ذي المن قال الجوهري والطول بالفتح لمن يقال : منه طال عليه ويطول عليه اذا امتن عليه . وقال محمد بن كعب : ذي التفضل قال الماوردي والفرق بين المن والتفضل أن المن عفو عن ذنب ، والتفضل إحسان غير مستحق ، والله سبحانه موصوف على الدوام بكل من هذه الصفات ، فإضافة المشتق منها للتعريف كالأخيرة ، وقال السمين : فيها ثلاثة أوجه أحدها أنها كلها صفات للجلالة ، الثاني أن الكل أبدال ، لأن اضافتها غير محضة الثالث أن غافر وقابل نعتان ، وشديد العقاب بدل انتهى .

ثم ذكر ما يدل على توحيده ، وأنه الحقيق بالعبادة فقال :

﴿ لا إلّه إلا هو ﴾ استئناف أو حال لازمة ، وقال ابو البقاء : صفة قال ابن عادل : وهذا على ظاهره فاسد ، لأن الجملة لا تكون صفة للمعارف ، ويمكن ان يريد أنه صفة لشديد العقاب لأنه لم يتعرف عنده بالاضافة ﴿ إليه ﴾ لا إلى غير ﴿ المصير ﴾ أي مصير من يقول لا إلّه إلا الله فيدخل الجنة ومصير من لا يقول لا إلّه إلا الله فيدخل النار ، وذلك في اليوم الآخر ، قال الكرخي حال من الجملة قبله .

أخرج أبوعبيدة وابن سعد ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حم المؤمن إلى : إليه المصير وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح »[١]

ثم لما ذكر الله سبحانه أن القرآن كتاب الله أنزله ليهتدى به في الدين . ذكر أحوال من يجادل فيه لقصد إبطاله فقال :

(١) ضعيف الجامع الصغير ٥٧٨١/ مشكاة المصابيح ٢١٤٤ .

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ أي ما يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها بالطعن فيها إلا الكفار، والمراد الجدال بالباطل، القصد إلى دحض الحق، كما في قوله وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فأما الجدال لاستيضاح الحق وإيضاح الملتبس، وحل المشكل وتكذيبها، وكشف المعضل، واستنباط المعاني، ورد أهل الزيغ بها، ورفع اللبس، والبحث عن الراجح والمرجوح، وعن المحكم والمتشابه، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم بالجدال الى المحكم، فهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون، وأفضل ما يجاهد في سبيله المجاهدون، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال :

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ وقال : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ وقال. ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ .

فتلخص أن الجدال نوعان، جدال في تقرير الحق ؛ وجدال في تقرير الباطل ؛ أما الأول فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام، ومنه قوله تعالى حكاية عن قوم نوح ﴿ يا نوح قد جادلتنا ﴾ وأما الثاني فهو مذموم، وهو المراد بهذه الآية، فجدالهم في آيات الله هو قولهم مرة هذا سحر، ومرة شعر، ومرة هو قول الكهنة، ومرة ﴿ أساطير الأولين ﴾ ومرة ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ وأشباه هذا قاله الكرخي . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود عن أبي

هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن جدالاً في القرآن كفر » ، وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المراء في القرآن كفر »[١] ، أخرجه أبو داود وغيره .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال « هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية ، فخرج يعرف في وجهه الغضب فقال إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب »[٢] ، أخرجه مسلم ، قال أبو العالية آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن هذه الآية ، وقوله ﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ .

ولما حكم سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أن يغتر بشيء من حظوظهم الدنيوية فقال :

﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ أي فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة النافقة في البلاد ، كالشام واليمن ، وما يحصلونه من المكاسب والأرباح ، وما يجمعونه من الأموال سالمين غانمين ، فإنهم معاقبون عما قليل ، وإن أمهلوا لا يهملون ، قال الزجاج : لا يغررك سلامتهم بعد كفرهم ، فإن عاقبتهم الهلاك وهذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم ، والفاء لترتيب النهي ، أو وجوب الانتهاء على ما قبلها ، من التسجيل عليهم بالكفر ، الذي لا شيء أمقت منه عند الله ، ولا أجلب لخسران الدنيا والآخرة قرأ الجمهور : لا يغررك بفك الادغام وقرىء بالادغام ، وهو جواب لشرط مقدر ، أي اذا تقرر عندك أن المجادلين في آيات الله كفار فلا يغررك الخ ، ثم بين حال من كان قبلهم ، وأن هؤلاء سلكوا سبيل أولئك في التكذيب فقال :

﴿ كذبت قبلهم ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿ قوم نوح والأحزاب من

---

(١) صحيح الجامع ٦٥٦٣ ـ المشكاة/ ٢٣٦ .

(٢) صحيح الجامع ٢٣٧٠ .

بعدهم ﴾ أي وكذبت الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل من بعد قوم نوح ، كعاد وثمود وغيرهما ﴿ وهمت كل أمة ﴾ من تلك الأمم المكذبة ﴿ برسولهم ﴾ الذي أرسل إليهم ﴿ ليأخذوه ﴾ أي ليتمكنوا منه فيحبسوه ويعذبوه ، ويصيبوا منه ما أرادوا . وقال قتادة والسدي ليقتلوه ، والأخذ قد يرد بمعنى الاهلاك كقوله : ﴿ فأخذتهم فكيف كان نكير ﴾ والعرب تسمي الأسير الأخيذ والأخذ بمعنى الأسر .

﴿ وجادلوا ﴾ أي خاصموا رسولهم ﴿ بالباطل ﴾ من القول ﴿ ليدحضوا ﴾ أي ليزيلوا ﴿ به الحق ﴾ ومنه مكان دحض أي مزلقة ، ومزلة أقدام ، والباطل داحض لأنه يزلق ويزول فلا يستقر ، قال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان ﴿ فأخذتهم ﴾ أي فأخذت هؤلاء المجادلين بالباطل ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ الذي عاقبتهم به وحذف ياء المتكلم اجتزاء بالكسرة عنها وصلاً ووقفاً لأنها رأس آية .

﴿ وكذلك حقت كلمة ربك ﴾ أي وجبت وثبتت ولزمت ، يقال : حق الشيء اذا لزم وثبت ، والمعنى وكما حقت على الأمم المكذبة لرسلهم كلمة العذاب حقت كلمة ربك أي وعيده ﴿ على الذين كفروا ﴾ بك ، وجادلوك بالباطل ، وتحزبوا عليك ، وهموا بما لم ينالوا ، كما ينبىء عنه إضافة اسم الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم فإن ذلك للاشعار بأن وجوب كلمة العذاب عليهم من إحكام تربيته التي من جملتها نصرته على أعدائه وتعذيبهم ، قاله ابو السعود ، وقرأ الجمهور كلمة بالتوحيد ، وقرىء كلمات بالجمع وجملة

﴿ أنهم أصحاب النار ﴾ للتعليل أي لأجل أنهم مستحقون للنار ، قال الأخفش : أي لأنهم ، أو بأنهم وقال المحلي بدل من كلمة أي بدل الكل أو الاشتمال على إرادة اللفظ أو المعنى ثم ذكر أحوال حملة العرش ومن حوله فقال :

ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله ﴾ الموصول مبتدأ وخبره قوله : ﴿ يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ببيان أن هذا الجنس من الملائكة الذين هم أعلى طبقاتهم ، وأولهم وجوداً يضمون إلى تسبيحهم لله ، والإيمان به الاستغفار للذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا . وفيه دليل على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء الى النصيحة والشفقة ، وإن تباعدت الأجناس وشطت الأماكن ، والمراد بمن حول العرش هم الملائكة الذين يطوفون به مهللين مكبرين ، وهم الكروبيون ، وهو في محل رفع عطفاً على الذين الخ وهذا هو الظاهر ، وقيل : يجوز أن يكون في محل نصب عطفاً على العرش والأول أولى .

والمعنى ان الملائكة الذين يحملون العرش وكذلك الملائكة الذين هم حول العرش ينزهون الله متلبسين بحمده على نعمه ، ويؤمنون بالله ببصائرهم ، ويستغفرون الله لعباده المؤمنين به ، وأخبر عنهم بالإيمان

اظهاراً لفضله ، وتعظيماً لأهله ، ومساق الآية لذلك وهم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أردفهم الله تعالى بأربعة أخر ، كما قال تعالى :

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ وهم أشرف الملائكة وأفضلهم ، لقربهم من الله عز وجل ، « وهم على صورة الأوعال ، والعرش فوق ظهورهم » ، ذكره القشيري وأخرجه الترمذي من حديث ابن عباس ، واستفيد منه أن حمل الملائكة للعرش على ظهورها .

وقد وردت في بيان مسافة أظلافهم الى ركبهم وأرجلهم وأقدامهم وما بين شحمة أذنهم إلى عاتقهم وألفاظ تسبيحهم أخبار وآثار ، وكذا في صفة العرش وبعد ما بين السماء السابعة وبين العرش ، والمعول عليه منها ما ورد في الصحيح ثم بين سبحانه كيفية استغفارهم للمؤمنين فقال حاكياً عنهم .

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ أي وسع رحمتك كل شيء ، وعلمك كل شيء ، وتقديم الرحمة على العلم لأنها المقصودة بالذات ههنا ، قاله البيضاوي وأبو السعود ، لأن المقام مقام الاستغفار ، وإلا فالعلم متقدم ذاتاً ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ أي أوقعوا التوبة عن الذنوب ، أو عن الشرك وإن كان عليهم ذنوب .

﴿ واتبعوا سبيلك ﴾ وهو دين الاسلام ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي احفظهم منه واجعل بينهم وبينه وقاية بأن تلزمهم الاستقامة ، وتتم نعمتك فإنك وعدت من كان كذلك بذلك ، ولا يبدل القول لديك ، وإن كان يجوز ان تفعل ما تشاء ، وأن الخلق عبيدك .

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن ﴾ أي إقامة ، معطوف على قوله قهم ووسط الجملة الندائية لقصد المبالغة بالتكرير ، ووصف جنات عدن بأنها هي ﴿ التي وعدتهم ﴾ إياها ﴿ و ﴾ أدخل ﴿ من صلح من آبائهم

وأزواجهم وذرياتهم ﴾ المراد بالصلاح هنا الإيمان بالله والعمل بما شرعه الله ، فمن فعل ذلك فقد صلح لدخول الجنة ، ويجوز عطف ومن صلح على الضمير في وعدتهم ، أي ووعدت من صلح والأولى عطفه على الضمير الأول في وأدخلهم ، لأن الدعاء لهم بالادخال عليه صريح وعلى الثاني ضمني .

والمعنى ساو بينهم ليتم سرورهم ، قرأ الجمهور بفتح اللام من صلح ، وذرياتهم على الجمع ، وقرأ ابن أبي عبلة بضم اللام ، وقرأ عيسى بن عمر على الافراد ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي الغالب القاهر الكثير الحكمة الباهرة .

﴿ وقهم السيئآت﴾ يقال : وقاه يقيه وقاية أي حفظه والمعنى احفظهم عن العقوبات أو جزاء السيئآت على تقدير مضاف محذوف ، قال قتادة : وقهم ما يسوؤهم من العذاب ، وهذا دعاء يتناول عذاب الجحيم ، وعذاب موقف القيامة ، والحساب والسؤال ، وقوله﴿ وقهم عذاب الجحيم﴾ مقصور على إزالة عذاب النار فيكون تعميماً بعد تخصيص ، او الأول دعاء للأصول ، والثاني للفروع ، والضمير راجع للمعطوف وهو الآباء والأزواج والذرية ، أفاده أبو السعود .

﴿ ومن تق السيئآت يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ، والتنوين عوض عن جملة غير موجودة في الكلام ، بل متصيدة من السياق ، وتقديرها يوم إذ تدخل من تشاء الجنة ومن تشاء النار ، والمسببة عن السيئآت ، وهو يوم القيامة ، وقيل : التقدير يوم إذ تؤاخذ بها ، وجواب من ﴿ فقد رحمته ﴾ من عذابك وأدخلته جنتك ﴿ وذلك ﴾ أي ما تقدم من إدخالهم الجنات ، ووقايتهم السيئآت .

﴿ هو الفوز العظيم ﴾ أي الظفر الذي لا ظفر مثله ، والنجاة التي لا

تساويها نجاة ، حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيماً لا ينقطع ، وبأفعال حقيرة ملكاً لا تصل العقول الى كنه جلالته . قال مطرف أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة وأغش الخلق لهم هم الشياطين .

ثم لما ذكر سبحانه أصحاب النار وأنهم حقت عليهم كلمة العذاب ، ذكر أحوالهم بعد دخول النار فقال :

﴿ إن الذين كفروا ينادون ﴾ قال الواحدي . قال المفسرون إنهم لما رأوا أعمالهم ونظروا في كتابهم ، وأدخلوا النار ، ومقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم ، ناداهم حين عاينوا عذاب الله مناد : ﴿ لمقت الله ﴾ إياكم في الدنيا ﴿ أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ اليوم ، أو من مقت بعضكم بعضاً اليوم قال الأخفش : هذه اللام هي لام الابتداء وقعت بعد ينادون ، لأن معناه يقال لهم ، والنداء قول ، قال الكلبي : يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك يا نفسي ، فتقول الملائكة لهم وهم في النار : لمقت الله إياكم إذ أنتم في الدنيا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم . وقال الحسن يعطون كتابهم فإذا نظروا الى سيئآتهم مقتوا أنفسهم فينادون لمقت الله إياكم في الدنيا،

﴿ إذ تدعون الى الايمان ﴾ فتكفرون أكبر من مقتكم اذ عاينتم النار والظرف منصوب بمقدر محذوف دل عليه المذكور ، أي مقته تعالى إياكم وقت دعائكم ، وقيل هو اذكروا ، وقيل بالمقت المذكور أولاً ، والمقت أشد البغض ، والمراد به هنا لازمه وهو الغضب عليهم ، وتعذيبهم ، قاله أبو السعود وقال الكرخي المراد منه هنا أشد الانكار والزجر ﴿ فتكفرون ﴾ أي فتصرون على الكفر اتباعاً لأنفكسم الأمارة ، ومسارعة الى هواها ، واقتداء بأخلائكم المضلين ، وتقليداً لأسلافكم المتقدمين ، واستحباباً لآرائهم . ثم أخبر سبحانه عما يقولونه في النار فقال :

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿ قالوا : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ نعتان لمصدر محذوف ، أي امتنا إماتتين اثنتين ، وأحييتنا إحياءتين اثنتين ، والمراد بالاماتتين أنهم كانوا نطفاً لا حياة لها في أصلاب آبائهم ، ثم أماتهم بعد أن صاروا احياء في الدنيا والمراد بالاحياءتين أنه أحياهم الحياة الأولى في الدنيا ، ثم أحياهم عند البعث ، ومثل هذه الآية قوله :

﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ﴾ قاله ابن مسعود ، أي كانوا أمواتاً في صلب آبائهم ، ثم أخرجهم فأحياهم ، ثم أماتهم ، ثم يحييهم بعد الموت . وقيل : معنى الآية انهم أميتوا في الدنيا عند انقضاء آجالهم ثم أحياهم الله في قبورهم للسؤال ، ثم أميتوا ثم أحياهم الله في الآخرة .

ووجه هذا القول أن الموت سلب الحياة ، ولا حياة للنطفة ، ووجه القول الأول أن الموت قد يطلق على عادم الحياة من الأصل ، وقد ذهب الى التفسير الأول جمهور السلف ، وقال ابن زيد : المراد بالآية أنه خلقهم في ظهر آدم واستخرجهم ، وأحياهم ، وأخذ عليهم الميثاق ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم في الدنيا ، ثم أماتهم .

وقال ابن عباس : قال كنتم تراباً قبل أن يخلقكم ، فهذه ميتة ، ثم

أحياكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون الى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى ، فهما موتتان وحياتان ، كقوله ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ الآية .

ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد أن صاروا في النار بما كذبوا به في الدنيا فقال حاكياً عنهم : ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ التي أسلفناها في الدنيا ، من تكذيب الرسل ، والاشراك بالله ، وترك توحيده ، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف وندموا حيث لا ينفعهم الندم ، والمعنى لما رأوا الاماتة والإحياء قد تكررا عليهم ، علموا أن الله قادر على الإعادة كما هو قادر على الانشاء ، فاعترفوا ، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقدمة لقولهم : ﴿ فهل الى خروج ﴾ لنا عن النار ورجوع لنا الى الدنيا لنطيع ربنا .

﴿ من سبيل ﴾ أي من طريق لنتخلص منها أم اليأس واقع دون ذلك ؟ فلا خروج ولا سبيل اليه وهذا كلام من غلب عليه اليأس ، وإنما يقولون ذلك تحيراً ، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك ، ومثل هذا قولهم الذي حكاه الله عنهم ﴿ فهل الى مرد من سبيل ﴾ وقوله ﴿ فأرجعنا نعمل صالحاً ﴾ وقوله ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ الآية ؟ ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم هذا بقوله :

﴿ ذلكم ﴾ مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلكم ، أو مبتدأ خبره محذوف ، أي ذلكم العذاب الذي أنتم فيه ﴿ بأنه ﴾ أي بسبب أنه ﴿ إذا دعى الله ﴾ في الدنيا ﴿ وحده ﴾ دون غيره ﴿كفرتم به ﴾ وتركتم توحيده ﴿ وإن يشرك به ﴾ غيره من الأصنام أو غيرها ﴿ تؤمنوا ﴾ بالاشراك وتصدقوا به ، وتجيبوا الداعي اليه فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم الى الخروج من النار ، وهو ما كانوا فيه من إشراك غيره به في العبادة التي رأسها الدعاء ، وترك توحيد الله .

﴿ فالحكم لله ﴾ وحده دون غيره وهو الذي حكم عليكم بالخلود في

النار ، وعدم الخروج منها فتعذيبه لكم عدل نافذ ﴿ العلي ﴾ المتعالي سلطانه عن أن يكون له مماثل في ذاته وصفاته فلا يرد قضاؤه ﴿ الكبير ﴾ الذي كبر عن أن يكون له مثل أو صاحبة أو ولد أو شريك فلا يحد جزاؤه ، وقيل : كأن الحرورية أخذوا قولهم : لا حكم إلا لله من هذا . وقال قتادة : لما خرج أهل حروراء قال علي : من هؤلاء ؟ قيل : المحكمون أي يقولون : لا حكم إلا لله ، فقال علي كلمة حق أريد بها الباطل .

﴿ وهو الذي يريكم آياته ﴾ أي دلائل توحيده ، وعلامات قدرته ، من الريح والسحاب والرعد والبرق ونحوها ﴿ وينزل لكم من السماء رزقاً ﴾ يعني مطراً فإنه سبب الأرزاق ، جمع سبحانه بين إظهار الآيات ، وإنزال الأرزاق لأن بإظهار الآيات قوام الأديان ، وبالأرزاق قوام الأبدان ، وهذه الآيات هي التكوينية التي جعلها الله سبحانه في سماواته وأرضه ، وما فيهما وما بينهما قرأ الجمهور : ينزل بالتشديد ، وقرىء بالتخفيف ، وصيغة المضارعة في الفعلين للدلالة على تجدد الارادة والتنزيل واستمرارهما .

﴿ وما يتذكر الا من ينيب ﴾ أي ما يتعظ بتلك الآيات الباهرة فيستدل بها على التوحيد وصدق الوعد والوعيد إلا من يرجع الى طاعة الله بما يستفيده من النظر في آيات الله ويتوب من الشرك ، ويرجع اليه في جميع أموره ، فإن المعاند لا يتذكر ولا يتعظ ، ثم لما ذكر سبحانه ما نصبه من الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه وإخلاص الدين له فقال :

﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أي اذا كان الأمر كما ذكر من اختصاص التذكير بمن ينيب فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التي أمركم بها ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ ذلك فلا تلتفتوا الى كراهتهم ، ودعوهم يموتوا بغيظهم ، ويهلكوا بحسرتهم .

رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾

﴿ رفيع الدرجات ﴾ مرفوع على أنه خبر آخر عن المبتدأ المقدم ، أي هو الذي يريكم آياته وهو رفيع الدرجات ، وكذلك ﴿ ذو العرش ﴾ خبر ثالث ويجوز أن يكون رفيع مبتدأ ، وخبره ذو العرش ، ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف ورفيع صفة مشبهة ، والمعنى رفيع الصفات عظيمها أو رفيع درجات ملائكته ، أي معارجهم ، أو رفيع درجات أنبيائه وأوليائه في الجنة ، وقال الكلبي وسعيد بن جبير : رفيع السموات السبع ، وعلى هذا الوجه يكون رفيع بمعنى رافع ، وقيل : هو المرتفع بعظمته في صفات جلاله وكماله ووحدانيته ، المستغني عن كل ما سواه وكل الخلق فقراء إليه ومعنى ذو العرش مالكه وخالقه ، والمتصرف فيه ، خلقه مطافاً للملائكة ، وجعله فوق سمواته وذلك يقتضي علو شأنه وعظم سلطانه ، ومن كان كذلك فهو الذي تحق له العبادة ، ويجب له الإخلاص .

وجملة ﴿ يلقي الروح ﴾ في محل رفع على أنها خبر آخر للمبتدأ المتقدم أو للمقدر أي ينزل الوحي وسمي الوحي روحاً لأن الناس يحيون به من موت الكفر ، كما تحيا الأبدان بالأرواح ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿ وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ﴾ وقيل الروح جبريل كما في

قوله﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾وقوله ﴿ نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾، وقوله ﴿ من أمره ﴾ متعلق بيلقي ، ومن لابتداء الغاية ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف على أنه حال من الروح أو المعنى من أجل أمره ، أو بأمره أو من قضائه .

﴿ على من يشاء من عباده ﴾ وهم الأنبياء ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ قرأ الجمهور مبنياً للفاعل ونصب اليوم والفاعل هو الله سبحانه او الرسول أو من يشاء والمنذر به محذوف أي لينذر العذاب يوم التلاق ، وقرىء لتنذر بالفوقية على أن الفاعل ضمير المخاطب وهو الرسول ، أو ضمير يرجع الى الروح لأنه يجوز تأنيثها ، وقرىء على البناء للمفعول ، ورفع يوم على النيابة ، والتلاق بحذف الياء وإثباتها وقفاً ووصلاً ، وتوجيه ذلك ذكره الفاسي في شرح الشاطبية فليراجع .

والمعنى يوم يلتقي أهل السموات والأرض في المحشر ، وبه قال قتادة ، وقال أبو العالية ومقاتل : يوم يلتقي العابدون والمعبدون ، وقيل الظالم والمظلوم ، وقيل يلتقي الخلق والخالق ، وقيل الأولون والآخرون ، وقيل جزاء الأعمال والعاملون .

قال ابن عباس : يوم التلاق يوم القيامة يلتقي فيه آدم وآخر ولده ، وعنه قال : هو يوم الآزفة ونحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذر عباده منه .

﴿ يوم هم بارزون ﴾ أي خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ، لكون الأرض يومئذ قاعاً صفصفا ، ولا ثياب عليهم وانما هم عراة مكشوفون ، كما في الحديث : « يحشرون عراة حفاة غرلاً » ، وهو بدل من يوم التلاق ، بدل كل من كل ، ويوم ظرف مستقبل كإذا مضاف الى الجملة الاسمية على طريقة الأخفش ، وحركة يوم حركة إعراب على المشهور وقيل حركة بناء كما ذهب اليه الكوفيون ، ويكتب

هنا وفي الذاريات في قوله تعالى « يوم هم على النار يفتنون » منفصلاً وهو الأصل أفاده السمين ، ونحوه في شرح الجزرية لشيخ الإسلام ، لأن (هم) مرفوع بالابتداء فالمناسب القطع ، وما عداهما نحو « من يومهم الذي يوعدون » ، « حتى يلاقوا يومهم » ، موصول لأن هم فيهما ضمير مبني في محل جر ، فالمناسب الوصل .

وجملة : ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ مستأنفة مبينة لبروزهم ، أي لا يخفى عليه سبحانه شيء من ذواتهم وأحوالهم وأعمالهم التي عملوها في الدنيا أو حال من ضمير بارزون ، أو خبر ثان للمبتدأ وقوله ﴿ لمن ﴾ خبر مقدم ، وقوله : ﴿ الملك اليوم ﴾ مبتدأ مؤخر ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل فماذا يقال عند بروز الخلائق في ذلك اليوم ؟ فقيل يقال لمن الملك اليوم .

قال المفسرون إذا هلك كل من في السموات والأرض ، فيقول الرب تبارك وتعالى هذا القول ، فلا يجيبه أحد فيجيب تعالى نفسه فيقول : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ خبر مبتدأ محذوف قال الحسن : هو السائل وهو المجيب ، حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه . وقيل : إنه سبحانه يأمر منادياً بذلك فيقول أهل المحشر مؤمنهم وكافرهم ﴿ لله الواحد القهار ﴾ .

قال النحاس : وهذا أصح ما قيل فيه وقيل : الأول ظاهر جداً ، وقيل إنه يجيب المنادي بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار إفاده الزمخشري . وقيل : هو حكاية لما ينطق به لسان الحال في ذلك اليوم لانقطاع دعاوى المبطلين ، كما في قوله : ﴿ وما ادراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ وقال القرطبي : وذلك عند فناء الخلق ، وقيل : بقوله تعالى بين النفختين ، ويجيب نفسه بعد أربعين سنة .

﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ هذا من تمام الجواب على

القول بأن المجيب هو الله سبحانه ، وأما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم ، أو بعضهم ، فهو مستأنف لبيان ما يقوله الله سبحانه بعد جوابهم ، أي اليوم تجزى كل نفس بما عملت في الدنيا من خير وشر ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ على أحد منهم بنقص من ثوابه ، أو بزيادة في عقابه.

﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي سريع حسابه ، لأنه سبحانه لا يحتاج الى تفكر في ذلك كما يحتاجه غيره لإحاطة علمه بكل شيء ﴿ فلا يعزب عنه مثقال ذرة ﴾ قيل : يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لأنه تعالى لا يشغله حساب عن حساب ، يحاسب الخلق في وقت واحد ، الحديث ورد بذلك .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال : « يجمع الله الخلق كلهم يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء ، كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط ، فأول ما يتكلم أن ينادي مناد : لمن الملك اليوم الى قوله . «الحساب» أخرجه عبد بن حميد ، قال : ما يبدأ به من الخصومات الدماء ، وقال ابن عباس ينادي مناد بين يدي الساعة : يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات وينزل الله الى السماء الدنيا فيقول : لمن الملك اليوم لله الواحد القهار الآية .

وأخرج ابن أبي الدنيا في البعث والديلمي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله ثم أمر الله سبحانه رسول بإنذار عباده فقال :

﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ أي يوم القيامة ، سميت بذلك لقربها ، يقال : أزف فلان أو الرحيل أي قرب ، يأزف أزفاً من باب تعب ، وأزوفاً دنا وقرب ، ومنه قوله تعالى ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي قربت الساعة ودنت القيامة ، وقيل : إن يوم الآزفة هو يوم حضور الموت ، والأول أولى . قال

الزجاج : وقيل لها آزفة لأنها قريبة ، وان استبعد الناس أمرها ، وما هو كائن فهو قريب .

﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ وذلك أنها تزول عن مواضعها ، وترتفع عن أماكنها من الخوف ، حتى تصير الى الحنجرة وتلصق بحلوقهم ، فلا تعود فيستريحوا بالنفس ولا تخرج فيستريحوا بالموت كقوله ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ وهي جمع حنجور كحلقوم وزناً ومعنى ، أو جمع حنجرة وهي الحلقوم و ﴿ كاظمين ﴾ بمعنى مغمومين مكروبين ممتلئين غماً ، قال الزجاج : المعنى إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم ، قال قتادة وقعت قلوبهم في الحناجر من المخافة فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها .

وقيل : هو إخبار عن نهاية الجزع ، وإنما قال : كاظمين باعتبار أهل القلوب ، لأن المعنى اذ قلوب الناس لدى حناجرهم ، فيكون حالاً منهم . وقيل : حالاً من القلوب ، وجمع الحال منها جمع العقلاء ، لأنه اسند إليها ما يسند الى العقلاء ، فجمعت جمعه .

ثم بين سبحانه أنه لا ينفع الكافرين في ذلك اليوم أحد فقال :

﴿ ما للظالمين من حميم ﴾ أي قريب ومحب ينفعهم وحميمك قريبك الذي تهتم لأمره ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ في شفاعته لهم ، قال الكرخي : حقيقة الإطاعة لا تتأتى هنا لأن المطاع يكون فوق المطيع رتبة ، فمقتضاه أن الشافع يكون فوق المشفوع عنده ، وهذا محال هنا لأن الله تعالى لا شيء فوقه ، فحينئذ هو مجاز ، ومعناه ولا شفيع يشفع ، أي يؤذن له في الشفاعة ، أو تقبل شفاعته . وقال المحلي : لا مفهوم للوصف اذ لا شفيع لهم أصلاً ، أي لا مطاع ولا غيره ثم وصف سبحانه شمول علمه بكل شيء وإن كان في غاية الخفاء فقال :

يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ وهي مسارقة النظر الى ما لا يحل له النظر إليه ، والخائنة مصدر كالعافية والكاذبة ، أي يعلم خيانة الأعين ، والجملة خبر آخر لقوله : هو الذي يريكم ، أو خبر رابع عن المبتدأ الذي أخبر برفيع وما بعده عنه ، والأول هو الظاهر ، وقيل غير ذلك ، قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير اي يعلم الأعين الخائنة . وقيل : الاضافة على معنى من ، أي : الخائنة من الأعين ، قال قتادة : خائنة الأعين الهمز بالعين فيما لا يحب الله ، وقال الضحاك : هو قول الإنسان : ما رأيت ، وقد رأى ، ورأيت ، وما رأى . وقال السدي : إنه الرمز بالعين ، وقال سفيان : هي النظرة بعد النظرة ، وبه قال الفراء والأول أولى ، وبه قال مجاهد قال ابن عباس في الآية : « الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، واذا غضوا نظر إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم .

وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال : « إذا نظر إليها يريد الخيانة أم لا ؟ وما تخفي

الصدور ، قال : إذا قدر عليها أيزني لها أم لا ؟ ألا أخبركم بالتي تليها ؟ والله يقضي بالحق ، قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة .

وأخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال لما كان يوم فتح مكة أمن النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلا اربعة نفر وامرأتين وقال : اقتلوهم ، وان وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فاختبأ عند عثمان بن عفان ، فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى البيعة جاء به فقال : « يا رسول الله بايع عبد الله ، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى بيعته ثم بايعه ، ثم أقبل على أصحابه فقال أما كان فيكم رجل رشيد يقوم الى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ، فقالوا ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ؟ هلا أومأت الينا بعينك فقال إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين »

﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي القلوب من الضمائر ، وتستره وتكنه ، وتضمره عن معاصي الله أو من أمانة وخيانة أو النظرة الأولى ، أو هل يزني بها لو خلا بها أو لا ؟ ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر .

﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي يعبدونهم من دون الله ، قرأ الجمهور بالتحتية يعني الظالمين ، وقرىء بالفوقية على الخطاب لهم ، وهما سبعيتان ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ لأنهم لا يعلمون شيئاً ولا يقدرون على شيء . فكيف يكونون شركاء لله ، وهذا تهكم بهم لأن ما لا يوصف بالقدرة كالجماد لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي .

﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ فلا يخفى عليه من المسموعات والمبصرات خافية ؛ تقرير لقوله . ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ ولقضائه بالحق ، ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ، ويبصر ما يعملون ، وأنه يعاقبهم عليه . وتعريض بما يدعون من دونه وأنها لا تسمع

ولا تبصر .

ولما خوفهم سبحانه بأحوال الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال :

﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ لأن العاقل من اعتبر بحال غيره ، أي اغفلوا ولم يسيروا في الأرض فيعتبروا بمن قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم ، كعاد وثمود وأضرابهم ، أو العاقبة بمعنى الصفة أو بمعنى المآل أرشدهم الله سبحانه الى الاعتبار بغيرهم ، فإن الذين مضوا من الكفار ﴿ كانوا هم أشد منهم قوة ﴾ أي من هؤلاء الحاضرين من الكفار ، وهذا بيان للتفاوت بين حال هؤلاء وأولئك ، وفي قراءة منكم أي التفاتاً من الغيبة الى الخطاب ، ووقع ضمير الفصل هنا بين معرفة ونكرة ، مع أنه لا يقع إلا بين معرفتين لكون النكرة هنا مشابهة للمعرفة من حيث امتناع دخول أل عليها ، لأن افعل التفضيل المقرون بمن لا تدخل عليه أل .

﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ بما عمروا فيها من الحصون المتينة ، والمصانع الحصينة ، والقصور المشيدة وبما لهم من العدد والعدة ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ أي عاقبهم ، وأهلكهم بسبب ذنوبهم ، وتكذيبهم رسلهم ﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾ أي دافع يدفع عنهم العذاب ويقيهم ، وقد مر تفسير هذه الآية في مواضع .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم من الأخذ ﴿ بأنهم ﴾ اي بسبب أنهم ﴿ كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج الواضحة والمعجزات الظاهرة ﴿ فكفروا ﴾ بماجاؤوهم به ﴿ فأخذهم الله إنه قوي ﴾ يفعل كل ما يريده لا يعجزه شيء ﴿شديد العقاب ﴾ لمن عصاه ولم يرجع إليه ، ثم ذكر سبحانه قصة موسى ليعتبروا فقال :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ أي متلبساً بها وهي التسع التي تقدم ذكرها في غير موضع ﴿ وسلطان مبين ﴾ أي حجة بينة واضحة وهي التوراة ، وقيل المراد به إما الآيات نفسها والعطف لتغاير العنوانين ، وإما بعضها أي المشهورة منها كاليد والعصا . وأفردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات اعتناء بها .

﴿ إلى فرعون وهامان وقارون ﴾ خصهم بالذكر لأن مدار التدبير في عداوة موسى كان عليهم لأنهم رؤساء المكذبين بموسى ، ففرعون الملك وهامان الوزير ، وقارون صاحب الأموال والكنوز ﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾ فيما جاءهم به ، والقائل فرعون وقومه ، وأما قارون فلم يقل ذلك ففي الكلام تغليب ، وكذا يقال في قوله قالوا اقتلوا ، وقال الخطيب كان هذا قول قارون وان لم يقل بالفعل . فإنه طبع على الكفر ففعله آخراً .

﴿ فلما جاءهم ﴾ موسى ﴿ بالحق من عندنا ﴾ وهي معجزاته الظاهرة

الـواضحة ﴿ قـالوا اقتلوا أبنـاء الـذين آمنـوا معـه ﴾ قـال قتـادة هـذا قتـل غيـر القتـل الأول لأن فرعـون قـد كـان أمسـك وكف عن قتـل الـولـدان وقت ولادة مـوسى فلما بعث الله مـوسى وأحس بأنـه قد وقـع ما وقـع ، أعـاد القتـل على بني اسـرائيل غيـظاً وحنقاً فكـان يأمـر بقتل الـذكور وتـرك الإناث ، ومثـل هذا قول فرعون .

﴿ سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴾ والمعنى أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونـه أولاً ، زعماً منـه أنه يصـدهم بـذلـك عن مـظاهـرتـه ، ظنـاً منهم أنـه المـولود الـذي حكم المنجمون والكهنـة بذهـاب ملكهم على يـده ، فشغلهم الله عن ذلـك بمـا أنـزل عليهم من أنـواع العـذاب كـالضفـادع والقمـل والـدم والطوفان الى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله تعالى .

﴿ واستحيوا ﴾ أي استبقوا ﴿ نسـاءهم ﴾ للخدمـة ﴿ وما كيـد الكافـرين إلا في ضـلال ﴾ أي في خسـران وضيـاع ووبـال ، لأنـه يـذهب بـاطـلاً ولا يغني عنهم شيئـاً ، ويحيق بهم مـا يـريـده الله عـز وجـل وإن النـاس لا يمتنعـون من الإيمـان وإن فعـل بهم مثـل هـذا ، بـل ينفـذ عليهم لا محالـة القـدر المقدور ، والقضـاء المحتم والـلام إمـا للعهـد والإظهـار في مـوضـع الاضمـار لذمهم بـالكفر والاشعـار بعلة الحكم ، أو للجنس وهم داخلون فيـه دخـولاً اوليـاً ، والجملة اعتـراض جيء بهـا في تضـاعيف مـا حكي عنهم من الأباطيل ، للمسارعة الى بيان بطلان ما أظهروه ، واضمحلالاً بالمرة .

﴿ وقـال فـرعـون ذروني أقتـل مـوسى ﴾ أي اتـركـوني أن أقتله ، والـظاهر من حـال اللعين أنه قـد استيقن أنه نبي وأن مـا جـاء بـه حق ، ولكن كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بـالهلاك ، وإنمـا قال ذلـك تمويهـاً وإيهامـاً

أنهم هم المانعون له من قتله ، ولولاهم لقتله، مع أنه ما منعه إلا ما في نفسه من الفزع الهائل .

وقوله ﴿ وليدع ربه ﴾ تجلد منه ، وإظهار لعدم المبالاة ولكنه أخوف الناس منه ، وفي منعه من قتله وجوه ذكرها الخطيب ، أي ليدع الذي يزعم أنه أرسله إلينا ، فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك ، أي لا يهولنكم ذلك فإنه لا رب له حقيقة ، بل أنا ربكم الأعلى ، ثم ذكر العلة التي لأجلها أراد أن يقتله فقال :

﴿ إني أخاف ﴾ إن لم أقتله ﴿ أن يبدل دينكم ﴾ الذي أنتم عليه من عبادة غير الله ويدخلكم في دينه الذي هو عبادة الله وحده ﴿ أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ أي يوقع بين الناس الخلاف والفتنة ، جعل اللعين ظهور ما دعا اليه موسى وانتشاره في الأرض واهتداء الناس اليه فساد ، وليس الفساد إلا ما هو عليه هو ومن تابعه ، والمعنى أنه لا بد من وقوع أحد الأمرين أو وقوع الأمرين جميعاً .

﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ لما هدده فرعون بالقتل لم يأت في دفع شدة اللعين إلا بأن استعاذ بالله عز وجل من كل متعظم عن الإيمان بالله ، غير مؤمن بالبعث والنشور ، واعتمد عليه فلا جرم صانه الله من كل بلية ويدخل فرعون في هذا العموم دخولاً أولياً ، ولم يسم فرعون بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة لتعميم الاستعاذة ، والاشعار بعلة القساوة والجرأة على الله تعالى .

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ قال الحسن ومقاتل والسدي : كان قبطياً وهو ابن عم فرعون ، وهو الذي نجا مع موسى ، وهو المراد بقوله ﴿ وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى ﴾ وقيل : كان من بني إسرائيل ولم يكن من آل فرعون وهو خلاف ما في الآية وقد تمحل لذلك بأن في الآية تقديماً وتأخيراً ، والتقدير وقال رجل من بني اسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون ، قال القشيري : ومن جعله اسرائيلياً ففيه بعد لأنه يقال : كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه كما قال سبحانه :

﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول وقد اختلف في اسم هذا الرجل فقيل : حبيب ، وقيل : شمعون ، وهو الأصح كما في مبهمات القرآن وقيل : حزقيل وبه قال ابن عباس وأكثر العلماء ، وقال وهب كان اسمه جبريل ، وقيل غير ذلك قال ابن عباس : لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون ، وغير المؤمن الذي أنذر موسى ، الذي قال : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ قال ابن المنذر : أخبرت أنه حزقيل ، وعن أبي

إسحق قال : اسمه حبيب ، قرأ الجمهور رجل بضم الجيم وقرىء بسكونها وهي لغة تميم ونجد ، والأولى هي الفصيحة ، وقرىء بكسر الجيم .

﴿ أتقتلون رجلاً ﴾ الاستفهام للإنكار ﴿ أن يقول ﴾ أي لأن يقول او كراهة ان يقول ، وقال الزمخشري : أي وقت أن يقول ، ورد ذلك لنص النحاة على خلافه ، وقال الامام تاج الدين ابن مكتوم : أجاز ابن جني ذلك والأول أولى ﴿ ربي الله ﴾ وهو ربكم أيضاً لا ربه وحده ، وهو إشارة الى التوحيد ، وهذا إنكار منه عظيم ، كأنه قيل : أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة من غير روية وتأمل في أمره واطلاع على سبب يوجب قتله ؟ ومالكم علة في ارتكابه إلا كلمة الحق وهو قوله ربي الله .

﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أي والحال أن قد جاءكم بالمعجزات الواضحات . والدلالات الظاهرات على نبوته ، وصحة رسالته ، والمعنى أنه لم يحضر لتصحيح قوله ببينة واحدة ولكن ببينات من عند من نسبت اليه الربوبية ، وهو استدراج لهم الى الاعتراف به .

أخرج البخاري وغيره من طريق عروة قال : قيل لعبد الله بن عمرو ابن العاص « أخبرنا بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ ﴾

وأخرج البزار وأبو نعيم في فضائل الصحابة عن علي ابن أبي طالب أنه قال : يا أيها الناس أخبروني من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت ، قال : أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ولكن أخبروني عن أشجع الناس ؟ قالوا : لا نعلم فمن؟ قال : أبو بكر ، رأيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأخذته قريش فهذا يجنبه وهذا يتلتله وهم يقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً قال فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ، يجيء هذا ويتلتل هذا ، وهو يقول ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم دفع بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال أنشدكم أمؤمن آل فرعون خير ؟ أم أبو بكر ؟ فسكت القوم فقال ألا تجيبون ؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن من آل فرعون ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه » .

ثم تلطف الرجل المؤمن لهم في الدفع عن موسى واحتج عليهم بطريق التقسيم فقال .

﴿ وإن يك كاذباً فعليه كذبه ﴾ أي ضرر كذبه ﴿ وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ هذا كلام صادر عن غاية الانصاف ، وعدم التعصب ولذلك قدم من شقي الترديد كونه كاذباً ، وإنما خوفهم به اقتصاراً على ما هو أظهر احتمالاً عندهم ، ولم يكن قوله هذا لشك منه فإنه كان مؤمناً كما وصفه الله ، ولا يشك المؤمن .

والمعنى إذا لم يصبكم كله فلا أقل من أن يصيبكم بعضه ، لا سيما إن تعرضتم له بسوء . وقال أبو عبيدة وأبو الهيثم . بعض هنا بمعنى كل ، أي يصيبكم كل الذي يعدكم ، والبعض قد يستعمل في لغة العرب بمعنى الكل ، قال النسفي : وتفسير البعض بالكل مزيف انتهى نعم ولا ضرورة تلجىء الى حمل ما في الآية على ذلك لأنه أراد التنزل معهم وإيهامهم أنه لا يعتقد صحة نبوته كما يفيده قوله ﴿ يكتم إيمانه ﴾ .

قال أهل المعاني وهذا على المظاهرة في الحجاج ، كأنه قال لهم : أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم ، وفي بعض ذلك هلاككم ، فكأن الحاصل بالبعض هو الحاصل بالكل . وقال الليث : بعض ههنا صلة يريد بصيبكم الذي يعدكم ، وقيل يصيبكم هذا العذاب

الذي يقوله في الدنيا ، وهو بعض ما يتوعدكم به من العذاب . وقيل إنه وعدهم بالثواب والعقاب فإذا كفروا أصابهم العذاب ، وهو بعض ما وعدهم به وحذفت النون من يكن في الموضعين تخفيفاً لكثرة الاستعمال كما قال سيبويه .

﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن ، وهو احتجاج آخر ذو وجهين ، أحدهما أنه لو كان موسى مسرفاً كذاباً لما هداه الله الى البينات ، ولا أيده بالمعجزات ، وثانيهما أنه اذا كان كذلك خذله الله وأهلكه ، فلا حاجة لكم الى قتله ، والمسرف المقيم على المعاصي المستكثر منها ، والكذاب المفتري .

﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ﴾ ذكرهم ذلك الرجل المؤمن ما هم فيه من الملك ليشكروا الله ولا يتمادوا في كفرهم ، ومعنى ﴿ ظاهرين ﴾ الظهور على الناس ، والغلبة لهم ، والاستعلاء عليهم ﴿ في الأرض ﴾ أي أرض مصر .

﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ أي من يمنعنا من عذابه ويحول بيننا وبينه عند مجيئه ، وفي هذا تحذير منه لهم من نقمة الله بهم ، وإنزال عذابه عليهم ، وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض لهم خاصة ، ونظم نفسه في سلكهم فيما يهمهم من مجيء بأس الله تطييباً لقلوبهم ، وإيذاناً بأنه مناصح ساع في تحصيل ما يجديهم ، ودفع ما يرديهم ، ليتأثروا بنصحه ؛ فلما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصح الصحيح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة والرعاية بمكان مكين ، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكاً يكون فيه جلب النفع لهم ، ودفع الضر عنهم ولهذا :

﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أي ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي ، قاله ابن زيد ، وهذا تفسير لمآل المعنى ، والتفسير المطابق

لجوهر اللفظ ما قال الضحاك ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ، وهو قتل موسى والرؤية هنا هي القلبية الاعتقادية ، لا البصرية العينية ، فتعدى لمفعولين ثانيهما إلا ما أرى .

﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ أي ما أهديكم ولا أدعوكم بهذا الرأي الا إلى طريق الحق والهدى ، قرأ الجمهور بتخفيف الشين ، وقرأ معاذ بن جبل - رضي الله تعالى عنه - بتشديدها على أنها صيغة مبالغة كضراب ، قال النحاس : هي لحن ولا وجه لذلك . ثم كرر ذلك الرجل المؤمن تذكيرهم ، وحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم فقال الله حاكياً عنه :

﴿ وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ أي مثل يوم عذاب الأمم الماضية الذين تحزبوا على أنبيائهم ، وأفرد اليوم لأن جمع الأحزاب قد أغنى عن جمعه ، والأحزاب لم ينزل بها العذاب في يوم واحد ، بل نزل بها في الدنيا في أيام مختلفة مترتبة ثم فسر الأحزاب فقال :

﴿ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴾ أي مثل حالهم في العذاب ، أو مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب ، أو مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر والتكذيب .

﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ أي لا يعذبهم ولا يعاقبهم بغير ذنب ، ولا يترك الظالم منهم بغير انتقام ، أو لا يزيد على قدر ما يستحقون من العذاب أو لا يهلكهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم ، ونفي الارادة للظلم يستلزم نفي الظلم بفحوى الخطاب وتفسير المعتزلة بأنه لا يريد لهم أن يظلموا بعبد ، لأن أهل اللغة قالوا إذا قال الرجل لآخر لا أريد ظلماً لك ، معناه لا أريد أن أظلمك ثم زاد الرجل المؤمن في الوعظ والتذكير فقال :

وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾

﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ قرأ الجمهور بتخفيف الدال وحذف الياء ، والأصل التنادي ، وهو التفاعل من النداء ، يقال تنادى القوم أي نادى بعضهم بعضاً وقرىء باثبات الياء على الأصل وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة بتشديد الدال ، قال بعض أهل اللغة : هو لحن لأنه من ند يند اذا مر على وجهه هارباً ، قال النحاس : وهذا غلط والقراءة حسنة على معنى التنافي قال الضحاك : في معناه أنهم اذا سمعوا بزفير جهنم ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة ، فيرجعون الى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك قوله يوم التناد وعلى قراءة الجمهور المعنى يوم ينادي بعضهم بعضاً ، أو ينادي أهل النار أهل الجنة ، وأهل الجنة أهل النار أو يوم ينادي فيه ﴿ كل أناس بإمامهم ﴾ ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني ، وهو ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف :

﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ ، ﴿ ونادى أصحاب النار

أصحاب الجنة ﴾ ﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾ وقيل : ينادي مناد ألا إن فلاناً سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وألا إن فلاناً شقي شقاوة فلا يسعد بعدها أبداً وينادي حين يذبح الموت يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت . وقيل ينادي المؤمن ﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾ وينادي الكافر : ﴿ يا ليتني لم أوت كتابيه ﴾ .

﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ أي منصرفين عن الموقف الى النار أو فارين عنها غير معجزين ، قال قتادة ومقاتل : المعنى الى النار بعد الحساب ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ يعصمكم من عذاب الله ويمنعكم منه ﴿ ومن يضلل الله فماله من هاد ﴾ يهديه الى طريق الرشاد ، قرىء هاد باثبات الياء وحذفها في الوقف ، وبحذفها في الوصل مع حذفها خطاً .

﴿ ولقد جاءكم يوسف ﴾ هذا من تمام وعظ مؤمن آل فرعون ، ذكرهم قديم عتوهم على الأنبياء وقيل : إن هذا من قول موسى عليه السلام والأول أولى ﴿ من قبل ﴾ أي قبل موسى وهو يوسف بن يعقوب ، في قول عمر الى زمن موسى ، قاله المحلي ، أي عاش واستمر يوسف ابن يعقوب الى زمن موسى الكليم ، قال سليمان الجمل : وهذا القول لم يقله غيره من المفسرين وإنما غاية ما وجد بعد التفتيش ما نقله الشهاب بقوله وفي بعض التواريخ أن وفاة يوسف قبل مولد موسى بأربع وستين سنة ، قال القاري : والصحيح ان المعمر هو فرعون موسى : أدرك يوسف وعاش الى أن أرسل اليه موسى ، وعمره أربعمائة سنة وأربعين سنة انتهى . وقال السيوطي في التحبير : وعاش يوسف بن يعقوب مائة وعشرين سنة ، وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة انتهى وقيل : هو فرعون آخر .

﴿ بالبينات ﴾ أي أنه جاءهم بالمعجزات الظاهرات ، والآيات الواضحات من قبل مجيء موسى اليهم ، أي جاء إلى آبائكم ، فجعل

المجيء الى الآباء مجيئاً الى الأبناء ، وقال ابن جريج : المراد بالبينات رؤيا يوسف ، وقيل : المراد بها قوله : ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ ؟ وقيل : المراد بيوسف يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، وكان أقام فيهم أي في القبط نبياً عشرين سنة ، وحكى النقاش عن الضحاك أن الله بعثه اليهم رسولاً من الجن يقال له : يوسف قال الشوكاني رحمه الله : والأول أولى ﴿ فما زلتم ﴾ أي ما زال أسلافكم ﴿ في شك مما جاءكم به ﴾ من البينات ولم تؤمنوا به .

﴿ حتى إذا هلك ﴾ يوسف ﴿ قلتم ﴾ أي قال أسلافكم : ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ فكفروا به في حياته وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، وظنوا أن الله لا يجدد عليهم الحجة ، وإنما قالوا ذلك على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان ، ليكون لهم أساس في تكذيب الرسل الذين يأتون بعده ، وهذا ليس إقراراً منهم برسالته ، بل هو ضم منهم الى الشك في رسالته ، والتكذيب برسالة من بعده ، أفاده الخطيب والخازن .

﴿ كذلك ﴾ الضلال الواضح ﴿ يضل الله من هو مسرف ﴾ في معاصي الله مستكثر منها أو مشرك ﴿ مرتاب ﴾ في دين الله شاك في وحدانيته ووعده ووعيده ، وقوله :

﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ بدل (مَنْ) ، والجمع باعتبار معناها ، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ ، أو بيان لها ، أو صفة ، أو في محل نصب بإضمار أعني ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هم الذين ، أو مبتدأ وخبره يطبع ، والأول أولى . قال ابن جريج : الذين يجادلون يهود ، قيل : هذا من كلام الرجل المؤمن أيضاً ، وقيل : إنه ابتداء كلام من الله سبحانه .

﴿ بغير سلطان ﴾ أي بغير حجة واضحة ، وبرهان ساطع ﴿ أتاهم ﴾ صفة لسلطان ﴿ كبر مقتاً عند الله ، وعند الذين آمنوا ﴾ يحتمل أن يراد به

التعجب والاستعظام وأن يراد به الذم كبئس ، وفاعل كبر ضمير يعود الى الجدال المفهوم من : يجادلون ، قال المحلي : كبر خبر المبتدأ انتهى ، وهذا أولى وأحسن الأعاريب العشرة التي ذكرها السمين . واليه نحا أبو حيان .

﴿ كذلك ﴾ الطبع المحكم البليغ ﴿ يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ مستأنف قرأ الجمهور بإضافة قلب الى متكبر واختارها أبو حاتم وأبو عبيدة وفي الكلام حذف والتقدير كذلك يطبع الله على كل قلب كل متكبر ، فحذف كل الثانية لدلالة الأولى عليها ، والمعنى أنه سبحانه يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين .

وقرىء بتنوين قلب على أن متكبراً صفة له فيكون القلب مراداً به الجملة ، لأن القلب هو محل التكبر ، وسائر الأعضاء تبع له في ذلك ، وهما سبعيتان ، وقرأ ابن مسعود على قلب كل متكبر ، وتقديره عند الزمخشري على كل ذي قلب متكبر ، قال الشيخ ولا ضرورة تدعو الى اعتبار الحذف ، قلت بل ثم ضرورة الى ذلك ، وهي توافق القراءتين .

ثم لما سمع فرعون هذا رجع الى تكبره وتجبره ، معرضاً عن الموعظة نافراً عن قبولها .

﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ أي قصراً مشيداً كما تقدم بيان تفسيره في سورة القصص ، وقيل صرحاً أي بناء ظاهراً لا يخفى على الناظرين وإن بعد ، ومنه يقال صرح الشيء اذا ظهر ، وفي المصباح الصرح بيت واحد يبنى مفرداً طولاً ضخماً ، وفي السمين الصرح القصر ، أو صحن الدار ، أو بلاط يتخذ من زجاج ، وأصله من التصريح وهو الكشف ﴿ لعلي أبلغ الأسباب ﴾ اي الطرق من السماء الى السماء ، قال قتادة والزهري والسدي والأخفش هي الأبواب أي أبوابها الموصلة اليها .

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿أسباب السموات﴾ بيان للأسباب لأن الشيء إذا أبهم ثم فسر كان أوقع في النفوس ، وأفخم للشأن ، أو بدل منها ، وأنشد الأخفش عند تفسير الآية بيت زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وقيل أسباب السموات الأمور التي يستمسك بها وكل ما أواك الى شيء فهو سبب اليه كالرشاء ونحوه ﴿فأطلع الى إله موسى﴾ أي انظر اليه ، وأطلع على حاله ، قرأ الأعرج السلمي وعيسى بن عمر وحفص بالنصب على جواب الأمر في قوله ابن لي ، وهذا رأى البصريين . أو على جواب الترجي كما قال ابو عبيدة وغيره وهذا رأى الكوفيين .

قال النحاس معنى النصب خلاف معنى الرفع لأن معنى النصب متى بلغت الأسباب اطلعت ، وقرأ الجمهور بالرفع عطفاً على أبلغ فهو على هذا داخل في حيز الترجي ، ومعناه لعلي أبلغ ، ولعلي أطلع بعد ذلك ، وقيل غير ذلك ، وفي هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم ، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جداً .

﴿وإني لأظنه﴾ أي موسى ﴿كاذباً﴾ في ادعائه بأن له إلٰهاً غيري ، مستوياً على العرش فوق السموات أو فيما يدعيه من الرسالة قيل : قال

فرعون ذلك تمويهاً وتلبيساً ، وتخليطاً على قومه ، وإلا فهو يعرف ويعتقد حقيقة الإله ، وأنه ليس في جهة العلو ، ولكنه أراد التلبيس على قومه توصلاً لبقائهم على الكفر ، فكأنه يقول . لو كان إله موسى موجوداً لكان له محل ، ومحله إما الأرض وإما السماء ، ولم نره في الأرض فيبقى أن يكون في السماء ، والسماء لا توصل إليها إلا بسلم قاله الحفناوي .

﴿ وكذلك ﴾ التزيين ﴿ زين لفرعون سوء عمله ﴾ من الشرك والتكذيب فتمادى في الغي واستمر على الطغيان ، والمزين هو الشيطان ﴿ وصد عن السبيل ﴾ أي سبيل الرشاد والهدى ، قرأ الجمهور وصد بفتح الصاد والدال ، أي صد فرعون الناس عن السبيل ، وقرأ الكوفيون وصد بضم الصاد مبنياً للمفعول ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم .

ولعل وجه الاختيار لها منهما كونها مطابقة لما أجمعوا عليه في زين ، من البناء للمفعول والقراءتان سبعيتان وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة . صد بكسر الصاد وضم الدال منوناً وقرأ ابن أبي إسحق وعبد الرحمن بن أبي بكر بفتح الصاد وضم الدال منوناً ، وكل من هاتين القراءتين على أنه مصدر معطوف على : (سوء عمله) ، أي زين له الشيطان سوء العمل والصد .

﴿ وما كيد فرعون ﴾ في إبطال آيات موسى ﴿ إلا في تباب ﴾ أي خسار وهلاك ، قال ابن عباس : التباب الخسران ، ومنه ﴿ تبت يدا ابي لهب ﴾ ثم إن ذلك الرجل المؤمن أعاد التذكير والتحذير كما حكى عنه بقوله :

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾

﴿ وقال الذي آمن يا قوم اتبعون ﴾ بإثبات الياء وحذفها في الوصل والوقف ، والقراءتان سبعيتان ، وهذا بالنظر للفظ وأما في الرسم فهي محذوفة لا غير لأنها من ياآت الزوائد ، أي اقتدوا بي في الدين ، واعملوا بنصيحتي ﴿ أهدكم سبيل الرشاد ﴾ أي طريق الهدى والصواب ، وهو الجنة ، وهو ضد الغي ، وفيه تعريض شبيه بالتصريح ، أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي ، وقيل . هذا من قول موسى والأول أولى .

﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ يتمتع بها أياماً ثم تنقطع وتزول ، لأن التنوين للتقليل ، فالإخلاد اليها أصل الشر ومنبع الفتن ، ورأس كل بلاء وآفة ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ أي الاستقرار والثبات ، فلا انتقال ولا تحول عنها ، لكونها دائمة لا تنقطع ومستمرة لا تزول ، والباقي خير من الفاني . قال بعض العارفين : لو كانت الدنيا ذهباً فانياً ، والآخرة خزفاً باقياً لكانت الآخرة خيراً من الدنيا ، فكيف والدنيا خزف فان ، والآخرة ذهب باق !

قال ابن عباس : « الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة » ، وأخرج ابن مردويه عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحياة الدنيا متاع وليس من متاعها شيء أفضل من

المرأة الصالحة التي اذا نظرت اليها سرتك ، واذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالها » .

﴿ من عمل سيئة ﴾ من كلام الرجل المؤمن ، والمعنى من عمل في دار الدنيا معصية من المعاصي كائنة ما كانت ﴿ فلا يجزى إلا مثلها ﴾ ولا يعذب إلا بقدرها والظاهر شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة ، وقيل : هي خاصة بالشرك ، ولا وجه لذلك .

﴿ ومن عمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ قيل : هو لا إله إلا الله ﴿ من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ أي مع كونه مؤمناً بما جاءت به رسله ﴿ فأولئك ﴾ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ يدخلون الجنة ﴾ بفتح الياء وضم الخاء . وبالعكس سبعيتان ﴿ يرزقون فيها ﴾ رزقاً واسعاً ﴿ بغير حساب ﴾ أي بغير تقدير ومحاسبة قال مقاتل : يقول لا تبعة عليهم فيما يعطون في الجنة من الخير ثم كرر ذلك الرجل المؤمن دعاءهم الى الله . صرح بإيمانه ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم ، وأنه إنما تصدى لتذكيرهم كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى ، كما يقول الرجل المحب لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه ، فقال : ﴿ و ﴾ ترك العطف في النداء الثاني لأنه تفصيل لإجمال الأول ، وهنا عطف لأنه ليس بتلك المثابة لأنه كلام مباين للأول والثاني ، فحسن إيراد الواو العاطفة فيه ونحوه .

قال الزمخشري : ﴿ يا قوم ما لي ﴾ تكرير النداء لزيادة التنبيه لهم ، والإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه أنهم قومه وأنه من آل فرعون . والمعنى : أخبروني عنكم كيف هذه الحال ؟ ﴿ أدعوكم الى النجاة ﴾ من النار ودخول الجنة بالايمان بالله وإجابة رسله ﴿ وتدعونني الى النار ﴾ بما تريدونه مني من الشرك ، وقيل : المعنى ما لَمِ أدعوكم ؟ كما تقول ما لي أراك حزيناً ؟ أي مالك ؟ ثم فسر الدعوتين فقال :

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾

﴿ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ﴾ أي ما لا علم لي بكونه شريكاً لله ، والمراد بنفي العلم نفي المعلوم بدل من تدعونني الأولى على جهة البيان لها ، وأتى بجملة فعلية لتدل على أن دعوتهم باطلة لا ثبوت لها ، وفي قوله ﴿ وأنا أدعوكم ﴾ بجملة اسمية لتدل على ثبوت دعوته وتقويتها ﴿ الى العزيز ﴾ الغالب على أمره ، وفي انتقامه ممن كفر ﴿ الغفار ﴾ لذنب من آمن به وتاب .

﴿ لا جرم ﴾ قد تقدم تفسير هذا في سورة هود وجرم فعل ماض بمعنى حق ، ولا الداخلة عليه لنفي ما ادعوه ، ورد مازعموه ، وفاعل هذا الفعل هو قوله : ﴿ أن ما تدعونني إليه ﴾ أي حق ووجب بطلان دعوته ، وما بمعنى الذي ؛ فكان حقها أن تكتب مفصولة من النون كما هو القاعدة ، لكنها رسمت في المصحف الإمام موصولة بالنون كما اشار له ابن الجزري ﴿ ليس له دعوة ﴾ قال الزجاج : معناه ليس له استجابة دعوة تنفع ؛ وقيل : ليس له دعوة توجب الألوهية ﴿ في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ وقال الكلبي ليس له شفاعة ﴿ وأن مردنا الى الله ﴾ أي مرجعنا ومصيرنا اليه بالموت أولاً وبالبعث آخراً فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير

وشر .

﴿ وأن المسرفين ﴾ أي المستكثرين من معاصي الله : قال قتادة وابن سيرين : يعني المشركين ، وقال مجاهد والشعبي هم السفهاء السفاكون للدماء بغير حقها ؛ وبه قال ابن مسعود ، وقال عكرمة الجبارون المتكبرون، وقيل : هم الذين تعدوا حدود الله ، والمعنى حق أن المسرفين ﴿ هم أصحاب النار ﴾ أي أهل جهنم ولما بلغ ذلك المؤمن في باب النصيحة الى هذا الكلام ختم كلامه بخاتمة لطيفة فقال ﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ اذا نزل بكم العذاب وتعلمون أني قد بالغت في نصحكم وتذكيركم ، وهو كلام مجمل مبهم ، وفي هذا الإبهام والإجمال من التخويف والتهديد ما لا يخفى .

﴿ وأفوض أمري الى الله ﴾ مستأنف ، أي أتوكل عليه وأسلم أمري اليه قيل : إنه قال هذا لما أرادوا الإيقاع به ، قال مقاتل : هرب هذا المؤمن الى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه وقيل : القائل هو موسى والأول أولى ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ يعلم المحق من المبطل .

﴿ فوقاه الله سيئآت ما مكروا ﴾ أي ما أرادوا به من المكر السيء وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم ، قال قتادة نجاه الله مع بني إسرائيل من الغرق ﴿ وحاق بآل فرعون ﴾ أي أحاط بهم ونزل عليهم ﴿ سوء العذاب ﴾ قال الكسائي : يقال حاق يحيق حيقاً وحيوقاً إذا نزل ولزم قال الكلبي غرقوا في البحر ودخلوا النار ، والمراد بآل فرعون فرعون وقومه ، وترك التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره ، لكونه أولى بذلك منهم ، او المراد بآل فرعون فرعون نفسه ، والأول أولى لأنهم قد عذبوا في الدنيا جميعاً بالغرق وسيعذبون في الآخرة بالنار ، ثم بين سبحانه ما أجمله من سوء العذاب فقال :

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾

﴿ النار يعرضون ﴾ أي تعرض أرواحهم من حين موتهم الى قيام الساعة ﴿عليها غدواً وعشياً ﴾ أي صباحاً ومساء ، فارتفاع النار على أنها بدل من سوء العذاب وقيل : على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ وخبره يعرضون والأول أولى ورجحه الزجاج ، وعلى الوجهين الأخيرين تكون الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر وقرىء بالنصب على تقدير فعل يفسره يعرضون من حيث المعنى ، أي يصلون النار يعرضون عليها أو على الاختصاص وأجاز الفراء الخفض على البدل من العذاب .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك حين يبعثك الله اليه يوم القيامة » زاد ابن مردويه ثم قرأ ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ ، وعرضهم عليها إحراقهم بها ، يقال عرض الامام الأساري على السيف اذا قتلهم به ، أي في هذين الوقتين يعذبون بالنار ، وفيما بين ذلك إما أن يعذبوا بجنس آخر أو ينفس عنهم ، ويجوز أن يكون غدواً وعشياً عبارة عن الدوام[١] .

---

(١) البخاري ١٩٣/٣/ مسلم ٢١٩٩/٤ .

واحتج بعض أهل العلم على اثبات عذاب القبر بهذه الآية أعاذنا الله تعالى منه بمنه وكرمه ، وبه قال مجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب كلهم ، قال القرطبي : إن أرواحهم في جوف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين ، فذلك عرضها انتهى . وقد حققنا ذلك في كتابنا ثمار التنكيت في شرح أبيات التثبيت ، بالفارسية فليعلم ، ثم ذهب الجمهور الى أن هذا العرض هو في البرزخ وقيل هو في الآخرة . قال الفراء : ويكون في الآية تقديم وتأخير ، أي : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ، النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ، ولا ملجىء الى هذا التكلف فإن قوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ الخ يدل دلالة واضحة على أن ذلك العرض هو في البرزخ .

﴿ أدخلوا ﴾ أي يقال للملائكة : أدخلوا ﴿ آل فرعون أشد العذاب ﴾ هو عذاب النار فإنه أشد مما كانوا فيه ، وقيل : أنواع من العذاب بعضها أشد من بعض غير التي كانوا يعذبون بها منذ أغرقوا ، قرأ حمزة والكسائي ونافع وحفص : أدخلوا بقطع الهمزة وكسر الخاء ، وهو على تقدير القول كما ذكر وقرأ الباقون ادخلوا بهمزة وصل من دخل يدخل أمراً لآل فرعون بالدخول بتقدير حرف النداء أي ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب ، عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلا أثابه الله ، قلنا يا رسول الله ما إثابة الكافر ؟ قال المال والولد والصحة وأشباه ذلك ، قلنا وما إثابته في الآخرة ؟ قال عذاباً دون العذاب ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ أخرجه البزار وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان .

﴿ وإذ يتحاجون في النار ﴾ أي اذكر لقومك وقت تخاصمهم في النار ، ثم بين سبحانه هذا التخاصم فقال : ﴿ فيقول الضعفاء للذين

استكبروا ﴾ عن الانقياد للأنبياء والاتباع لهم ، وهم رؤساء الكفر ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ فتكبرتم على الناس بنا ، والتبع جمع تابع كخدم وخادم أو مصدر واقع موقع اسم الفاعل ، أي تابعين أو ذوي تبع ، قال البصريون التبع يكون واحداً ويكون جمعاً ، وقال الكوفيون هو جمع لا واحد له .

﴿ فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ أي هل تدفعون عنا نصيباً منها ؟ أو تحملونه معنا ، وجملة ﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر قرأ الجمهور (كل) بالرفع على الابتداء ، وخبره (فيها) والجملة خبر إن قاله الأخفش ، وقرأ ابن السميفع وعيسى ابن عمر (كُلًّا) بالنصب ، قال الكسائي والفراء على التأكيد لاسم إن بمعنى كلنا ، وتنوينه عوض عن المضاف اليه ؛ وقيل على الحال ، ورجحه ابن مالك ، والمعنى إنا نحن وأنتم جميعاً في جهنم ، فكيف نغني عنكم ؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا .

﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ أي قضى بينهم بأن فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير ، فلا يغني أحد عن أحد شيئاً فعند ذلك يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين ، فيرجعون كلهم الى خزنة جهنم يسألونهم ، كما قال :

﴿ وقال الذين في النار ﴾ من الأمم الكافرة ، مستكبرهم وضعيفهم جميعاً ﴿ لخزنة جهنم ﴾ جمع خازن ، وهم القوام بتعذيب أهل النار ، وإنما لم يقل لخزنتها لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً ، أو لبيان محلهم فيها فإن جهنم هي أبعد النار قعراً من قولهم بئر جهنام ، بعيدة القعر . وفيها أعتى الكفار وأطغاهم ، فلعل الملائكة الموكلين لعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله ، فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم .

﴿ ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ أي شيئاً منه مقدار يوم من أيام الدنيا لأنه ليس في الآخرة ليل ولا نهار .

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾

﴿ قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر والاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿ قالوا بلى ﴾ أي أتونا بها فكذبناهم ، ولم نؤمن بهم ، ولا بما جاءوا به من الحجج الواضحة ، فلما اعترفوا ﴿ قالوا ﴾ أي قال لهم الملائكة الذين هم خزنة جهنم تهكماً بهم : ﴿ فادعوا ﴾ أي اذا كان الأمر كذلك ، فادعوا أنتم فإنا لا ندعو لمن كفر بالله وكذب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة ، ثم أخبروهم بأن دعاءهم لا يفيد شيئاً فقالوا :

﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي في ضياع وبطلان ، وخسار وتبار وانعدام ، وفيه إقناط لهم عن الإجابة ، وقيل : هو من قول الله تعالى إخباراً لنبيه وهو أنسب بما بعده وعليه جرى المحلي والشهاب :

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴾ مستأنفة من جهة الله سبحانه ، أي نجعلهم الغالبين لأعدائهم ، القاهرين لهم ، والموصول في محل نصب عطفاً على رسلنا أي لننصر رسلنا وننصر الذين آمنوا معهم ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بما عودهم الله من الانتقام لهم بالقتل والسلب والأسر ، وقيل بالغلبة والقهر ، وقيل بالحجة ، وقيل بالانتقام لهم من الأعداء بالاستئصال ، وان غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحاناً من الله عز

وجل ، والعاقبة لهم ، كما نصر يحيى ابن زكريا لما قتل ، فإنه قتل به سبعين ألفاً ، وكما نصر الحسين بن علي الشهيد فإنه قتل به سبعين ألفاً أيضاً .

أخرج أحمد والترمذي وحسنه ، وابن أبي الدنيا والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال« من ردّ . . . عن عرض أخيه رد الله عن وجهه نار جهنم يوم القيامة » ، ثم تلا ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴾ وأخرج ابن مردويه من حديث أبي هريرة مثله .

﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ هو يوم القيامة قال زيد بن أسلم الأشهاد هم الملائكة والنبيون والمؤمنون . وقال مجاهد والسدي الأشهاد الملائكة ، يشهدون للأنبياء بالإبلاغ ، وعلى الأمم بالتكذيب . وقيل الحفظة يشهدون على بني آدم بما عملوا من الأعمال ، وكذا الجوارح تشهد عليهم بما فعلوا ، قال الزجاج الأشهاد جمع شاهد مثل صاحب واصحاب ، قال النحاس ليس لباب فاعل أن يجمع على أفعال ، ولا يقاس عليه ولكن ما جاء منه مسموعاً أدى على ما سمع فهو على هذا جمع شهيد ، مثل شريف وأشراف ، ومعنى نصرهم يوم القيامة أن الله يجازيهم بأعمالهم فيدخلهم الجنة ، ويكرمهم بكراماته ، ويجازي الكفار بأعمالهم ، فيلعنهم ويدخلهم النار وهو معنى قوله :

﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ قرأ نافع والكوفيون بالتحتية وقرأ الجمهور تنفع بالفوقية ، والكل جائز في اللغة ، وإنما لم تنفعهم المعذرة لأنها معذرة باطلة ، وعلة داحضة . وشبهة زائغة ﴿ ولهم اللعنة ﴾ أي البعد عن الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ أي النار .

﴿ولقد آتينا موسى الهدى ﴾ هذا من جملة ما قصه الله سبحانه قريباً من نصره لرسله ، أي آتيناه التوراة والنبوة ، كما في قوله سبحانه ﴿ إنا

أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ قال مقاتل : الهدى من الضلالة يعني التوراة ﴿ وأورثنا بني إسرائيل ﴾ أي بعد ما كانوا فيه من الذل ﴿ الكتاب ﴾ أي التوراة والمعنى أن الله سبحانه لما أنزل التوراة على موسى بقيت بعده فيهم وتوارثوها خلفاً عن سلف وقيل المراد بالكتاب سائر الكتب المنزلة على أنبياء بني اسرائيل بعد موت موسى ﴿ هدى وذكرى ﴾ أي لأجلهما أو هادياً ومذكراً ومرشداً ﴿ لأولي الألباب ﴾ أي لأهل العقول السليمة .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على الأذى فقال :

﴿ فاصبر ﴾ أي اصبر على أذى المشركين كما صبر من قبلك من الرسل ، قال الكلبي : فنسخت آية القتال آية الصبر ﴿ إن وعد الله ﴾ الذي وعد رسله به ﴿حق ﴾ لا خلف فيه ، ولا شك في وقوعه ، كما في قوله ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ وقوله ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ثم أمره الله سبحانه بالاستغفار لذنبه فقال :

﴿ واستغفر لذنبك ﴾ قيل : المراد ذنب أمتك فهو على حذف مضاف وقيل المراد الصغائر عند من يجوزها على الأنبياء ، وقيل : هو مجرد تعبد له صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لزيادة الثواب ،وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

﴿ وسبح بحمد ربك بالعشي والإبتكار ﴾ أي دم على تنزيه الله متلبساً بحمده وقيل المراد الصلوات الخمس ، والعشي هو من بعد الزوال ، وفيه اربع صلوات ، والابكار من الفجر الى الزوال ، وفيه صلاة واحدة . وقيل : المراد صل في الوقتين صلاة العصر وصلاة الفجر ، قاله الحسن وقتادة ، وقيل هما صلاتان : ركعتان غدوة ، وركعتان عشية ، وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿ إن الذين يجادلون ﴾ عام في كل مجادل وإن نزل في مشركي مكة ، قاله أبو السعود ﴿ في آيات الله ﴾ أي القرآن ﴿ بغير سلطان أتاهم ﴾ أي بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهة الله سبحانه تقييداً لمجادلة بذلك مع استحالة إتيانه للإيذان بأن المتكلم في أمر الدين لا بد من استناده الى سلطان مبين .

﴿ إن في صدورهم إلا كبر ﴾ أي ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق يحملهم على تكذيبك ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ صفة لكبر : قال الزجاج : بالغي إرادتهم فيه فجعله على حذف المضاف ، وقال غيره بالغي كبرهم . وقال ابن قتيبة : كبر أي تكبر على محمد صلى الله عليه وسلم وطمع أن يبلغوه وما هم ببالغي ذلك ، وقيل : المراد بالكبر الأمر الكبير ، أي يطلبون النبوة ويطلبون أمراً كبيراً يصلون به اليك من القتل ونحوه ، ولا يبلغون ذلك . وقال مجاهد معناه في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها ، والمراد بهذه الآية المشركون ، وقيل اليهود .

عن أبي العالية قال : « إن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا إن الدجال يكون منا في آخر الزمان ، ويكون من أمره فعظموا

أمره ، وقالوا يصنع كذا ويصنع كذا ، فأنزل الله هذه الآية . قال : لا يبلغ الذي يقول ، فاستعذ بالله ، فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال ، لخلق السموات والأرض اكبر من خلق الدجال ، أخرجه عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، قال السيوطي : بسند صحيح ، وعن كعب الأحبار قال : هم اليهود نزلت فيهم ، فيما ينتظرونه من أمر الدجال . وقال مجاهد ﴿إلا كبر﴾ أي عظمة قريش ، ثم أمره الله سبحانه بأن يستعيذ بالله من شرورهم فقال :

﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي فالتجىء اليه من شرهم ، وكيدهم ، وبغيهم عليك ﴿ انه هو السميع ﴾ لأقوالهم ﴿ البصير ﴾ بأفعالهم لا تخفى عليه من ذلك خافية ثم بين سبحانه عظيم قدرته فقال ﴿ لخلق السموات والأرض ﴾ ابتداء من غير سبق مادة ﴿ أكبر من خلق الناس ﴾ أي أعظم في النفوس ، وأجل في الصدور ، لعظم إجرامهما واستقرارهما من غير عمد ، وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب ، وأشق بحسب عادة الناس في مزاولة الأفعال من أن علاج الشيء الكبير أشق من علاج الصغير ، وإن كان بالنسبة الى الله لا تفاوت بين الصغير والكبير ، فكيف ينكرون البعث وإحياء ما هو دونهما من كل وجه ؟ كما في قوله .

﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ قال ابو العالية المعنى لخلق السموات والأرض أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود ، وقال يحيى بن سلام هو احتجاج على منكري البعث أي هما أكبر من إعادة خلق الناس .

﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي كفار مكة ﴿ لا يعلمون ﴾ بعظم قدرة الله ، وأنه لا يعجزه شيء فهم كالأعمى ، ومن يعلمه كالبصير وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذكر الدجال وصفته ، وإنذار الرسل منه لأمتهم وخروجه في آخر الزمان ، وما يقع منه ، ومن يتبعه من اليهود ، كما

حققناه في حجج الكرامة في آثار القيامة ، وليس هذا موضع ذكرها وبسطها ، وإليه ذهب جميع أهل السنة والمحدثين والفقهاء خلافاً لمن أنكره ، وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة ، وخلافاً للجبائي وموافقيه في أنه صحيح الوجود : ولكن الأشياء التي يأتي بها زعموا أنها مخاريف وخيالات لا حقائق لها والأخبار الصحيحة المتواترة تدفعه وترده رداً مشبعاً .

ثم لما ذكر سبحانه الجدال بالباطل ذكر مثالاً للباطل والحق ، وأنهما لا يستويان فقال :

﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي الذي يجادل بالباطل الذي يجادل بالحق ، أو الغافل والمستبصر ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي ولا يستوي المحسن بالإيمان والعمل الصالح .

﴿ ولا المسيء ﴾ بالكفر والمعاصي ، وزيادة (لا) للتأكيد ، والتقابل يجيء على ثلاث طرق إحداها أن يجاور المناسب ما يناسبه كهذه الآية ، والثانية أن يتأخر المتقابلان كقوله تعالى ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ ، والثالثة أن يقدم مقابل الأول ويؤخر مقابل الآخر ، كقوله تعالى ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ﴾ وكل ذلك تفنن في البلاغة ، وقدم الأعمى في نفي التساوي لمجيئه بعد صفة الذم في قوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

﴿ قليلاً ما يتذكرون ﴾ بالتحتية على الغيبة لأن قبلها وبعدها على الغيبة لا على الخطاب ، واختارها أبو عبيد وأبو حاتم ، وبالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفاف وفائدته في مقام التوبيخ هي إظهار العنف الشديد ، والإنكار البليغ أفاده الكرخي .

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١﴾

﴿ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ﴾ أي لا شك في مجيئها وحصولها وقيامها لوضوح شواهدها ، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ، ولأنه لا بد من جزاء لئلا يكون خلق الخلق للفناء خاصة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ بتلك ولا يصدقونه لقصور أفهامهم ، وضعف عقولهم ، عن إدراك الحجة ، والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث ، ثم لما بين سبحانه أن قيام الساعة حق وليس بمرتاب فيها . ولا شبهة في مجيئها ، أرشد عباده الى ما هو الوسيلة الى السعادة في دار الخلود فأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحكي عنه ما أمره بإبلاغه وهو :

﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾ قال اكثر المفسرين : المعنى وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم ، وأغفر لكم ، وأجبكم وأثبكم . وقيل : هذا الوعد بالإجابة مقيد بالمشيئة ، أي استجب لكم إن شئت ، كقوله ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء الله ﴾ وقيل : المراد بالدعاء السؤال بجلب النفع ودفع الضر ، قيل : الأول أولى لأن الدعاء في أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو العبادة .

قلت : بل الثاني أولى ، لأن معنى الدعاء حقيقة وشرعاً هو الطلب ، فإن استعمل في غير ذلك فهو مجاز ، على أن الدعاء في نفسه باعتبار معناه الحقيقي هو عبادة ، بل مخ العبادة ، كما ورد بذلك الحديث الصحيح ، فالله سبحانه قد أمر عباده بدعائه ، ووعدهم بالإجابة ، ووعده

الحق ، وما يبدل القول لديه ، ولا يخلف الميعاد .

وعن ابن عباس قال : وحدوني أغفر لكم ، وقال جرير بن عبد الله اعبدوني ، وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء الاستغفار » أخرجه ابن مردويه ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يدع الله يغضب عليه ، أخرجه أحمد والحاكم وابن أبي شيبة . وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا ينفع حذر من قدر ، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ، ومما لم ينزل ، فعليكم بالدعاء » ، أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة »[1] أخرجه الترمذي والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وعن ابن عباس قال أفضل العبادة الدعاء ، وقرأ هذه الآية ، وأخرج البخاري في الأدب عن عائشة قالت : سئل النبي صلى الله عليه وسلم « أي العبادة أفضل ؟ فقال دعاء المرء لنفسه » . ثم صرح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقي وهو الطلب هو من عبادته فقال :

﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادي سيدخلون جهنم ﴾ قرأ الجمهور بفتح الياء وضم الخاء وقرىء بالعكس مبنياً للمفعول ﴿ داخرين ﴾ أي ذليلين صاغرين ، وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله ، وفيه لطف بعباده عظيم ، وإحسان اليهم جليل حيث توعد من ترك طلب الخير منه واستدفاع الشر به بهذا الوعيد البالغ ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة ، فيا عباد الله وجهوا رغباتكم ، وعولوا في كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها اليه ، وأرشدكم الى التعويل عليه ، وكفل لكم الإجابة بإعطاء الطلبة فهو الكريم المطلق ، الذي يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم ، وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا

---

(١) الدعاء وهو العبادة اخرجه أحمد ٢٧١/٤ وغيره .

والدين .

وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ: وقال ربكم أدعوني الى قوله داخرين ، أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب ، وأحمد وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وسعيد بن منصور والطبراني .

ثم ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على عباده فقال :

﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ من الحركات في طلب الكسب لكونه جعله مظلماً بارداً تناسبه الراحة الظاهرية ، بالسكون والنوم الذي هو الموت الأصغر ، والراحة الحقيقية بالعبادة التي هي الحياة الدائمة ﴿والنهار مبصراً ﴾ أي مضيئاً لتبصروا فيه حوائجكم ، وتنصرفوا في طلب معايشكم ، وهو من الإسناد المجازي ، أي مبصراً فيه لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار .

﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ يتفضل عليهم بنعمه التي لا تحصى ، ولم يقل لمفضل أو لمتفضل لأن المراد تنكير الفضل ، وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل ، وذلك إنما يكون بالإضافة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ النعم ولا يعترفون بها إما لجحودهم لها ولكفرهم بها ، كما هو شأن الكفار ، أو لإغفالهم للنظر وإهمالهم لما يجب من شكر المنعم وهم الجاهلون ، ولم يقل : ولكن أكثرهم حتى لا يتكرر ذكر الناس ، لأن في هذا التكرير تخصيصاً لكفران النعمة بهم ، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه كقوله ﴿ إن الانسان لكفور ﴾ وقوله : ﴿ إن الانسان لظلوم كفار ﴾ .

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

﴿ ذلكم ﴾ أي الفاعل المخصوص بالأفعال المقتضبة للألوهية والربوبية ﴿ الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ بيّن سبحانه في هذا كمال قدرته ، المقتضية لوجوب توحيده ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تنقلبون عن عبادته وتنصرفون عن توحيده ؟ وتصرفون عن الايمان مع قيام البرهان .

﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ أي مثل ذلك الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله ، المنكرون لتوحيده ، ثم ذكر لهم سبحانه نوعاً آخر من نعمه التي أنعم بها عليهم ، مع ما في ذلك من الدلالة على كمال قدرته ، وتفرده بالآلهية فقال :

﴿ الله الذي جعل لكم الارض قراراً ﴾ أي موضع قرار مع كونها في غاية الثقل ولا ممسك لها سوى قدرة الله وفيها تحيون وفيها تموتون ﴿ والسماء بناء ﴾ اي سقفاً قائماً ثابتاً مع كونها أفلاكاً دائرة بنجوم طول الزمان سائرة ينشأ عنها الليل والنهار ، والإظلام والإضاءة ، ثم بين بعض نعمه المتعلقة بأنفس العباد فقال :

﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ أي خلقكم في أحسن صورة لم

يخلق حيواناً أحسن منكم ، وقيل : لم يخلقكم منكوسين كالبهائم قيل خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده ،وغيره يتناول بفيه ، وقال الزجاج خلقكم أحسن الحيوان كله ، قرأ الجمهور صوركم بضم الصاد ، وقرأ الأعمش وأبو رزين بكسرها قال الجوهري : والصور بكسر الصاد لغة في الصور بضمها ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أي المستلذات من المأكل والمشرب من غير رزق الدواب .

﴿ ذلكم ﴾ المنعوت بهذه النعوت الجليلة ﴿ الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ أي كثر خيره وبركته ﴿ هو الحي لا إلٓه إلا هو ﴾ أي الباقي الذي لا يفنى ، المتفرد بالألوهية ، وهذا التركيب يفيد الحصر ، وفيه إشارة الى العلم التام والقدرة التامة الكاملة ﴿ فادعوه ﴾ أي اعبدوه ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي الطاعة والعبادة من الشرك .

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الفراء هو خبر وفيه إضمار أمر ، أي احمدوه عن ابن عباس قال : من قال لا إلٓه إلا الله فليقل إثرها الحمد لله رب العالمين وذلك قوله ﴿ فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ وعلى هذا هو من كلام المأمورين بالعبادة ، ويجوز ان يكون من كلامه تعالى على أنه استئناف لحمد ذاته بذاته .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يخبر المشركين بأن الله نهاه عن عبادة غيره ، وأمره بالتوحيد فقال :

﴿قل﴾ لهم رداً عليهم فيما طلبوه منك وهو عبادة آلهتهم : ﴿ إني نهيت﴾ نهياً عاماً ببراهين العقول ونهياً خاصاً بأدلة النقول ﴿ أن أعبد الذين تدعون ﴾ أي تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ وهي الأصنام ثم بين وجه النهي فقال ﴿ لما جاءني البينات من ربي ﴾ وهي الأدلة العقلية والنقلية فإنها توجب التوحيد ﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ أي استسلم له بالانقياد والخضوع ، أو الإخلاص ثم أردف هذا بذكر دليل من الأدلة الدالة على التوحيد فقال :

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ هو الذي خلقكم ﴾ أي خلق أباكم الأول وهو آدم ، وخلقه ﴿ من تراب ﴾ يستلزم خلق ذريته منه ﴿ ثم من نطفة ثم من علقة ﴾ قد تقدم تفسير هذا في غير موضع ﴿ثم يخرجكم طفلاً ﴾ أي أطفالاً ، وأفرده لكونه اسم جنس ، أو على معنى : ثم يخرج كل واحد منكم طفلاً .

﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ وهي الحالة التي تجتمع فيها القوة والعقل من الثلاثين سنة الى الأربعين ، وقد سبق بيان الأشد مستوفي في الأنعام والتقدير لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا غاية الكمال ﴿ ثم ﴾ يبقيكم .

﴿ لتكونوا شيوخاً ﴾ بضم الشين وبكسرها سبعيتان وقرىء شيخاً على الإفراد كقوله طفلاً والشيخ من جاوز أربعين سنة ، يعني أن مراتب الإنسان بعد خروجه من بطن أمه ثلاث : الطفولية ، وهي حالة النمو والزيادة الى أن يبلغ كمال الأشد من غير ضعف ، ثم يتناقص بعد ذلك وهي الشيخوخة .

﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ أي من قبل الأشد ، ومن قبل الشيخوخة ﴿ ولتبلغوا ﴾ جميعاً ﴿ أجلاً مسمى ﴾ أي وقت الموت أو يوم القيامة ، واللام هي لام التعليل او العاقبة ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ أي لكي تعقلوا توحيد ربكم وقدرته البالغة في خلقكم على هذه الأطوار المختلفة الى الأجل المذكور .

﴿ هو الذي يحيي ويميت ﴾ أي يقدر على الإحياء والإماتة ﴿ فإذا قضى أمراً ﴾ من الأمور التي يريدها ﴿ فإنما يقول له . كن فيكون ﴾ من غير توقف على شيء من الأشياء أصلاً وهذا تمثيل لتأثير قدرته في المقدورات عند تعلق إرادته بها ، وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه ، من غير أن يكون هناك آمر ومأمور ، والفاء الأولى للدلالة على أن ما بعدها من نتائج ما قبلها من اختصاص الإحياء والإماتة به سبحانه وتعالى ، قاله أبو السعود وقد تقدم تحقيق معناه في البقرة وفيما بعدها .

﴿ ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴾ تعجيب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة ، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن ، وبسائر الكتب والشرائع ، وترتيب الوعيد على ذلك ، كما أن ما سبق من قوله تعالى ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله ﴾ إلخ بيان لابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود هو الأمنية الفارغة ، فلا تكرار فيه أي انظر الى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة ، الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعي الى الإقبال عليها ؟ وانتفاء الصوارف عنها بالكلية ، وقيام الأدلة الدالة على صحتها ، وأنها في أنفسها موجبة للتوحيد قاله أبو السعود .

وقال النسفي ذكر الجدال في هذه السورة في ثلاثة مواضع ، فجاز أن يكون في ثلاثة أقوام ، أو ثلاثة أصناف ، وللتأكيد انتهى . قال ابن زيد هم المشركون بدليل قوله الآتي ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ قال القرطبي ، وقال اكثر المفسرين نزلت في القدرية ، قال ابن سيرين إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية فلا أدري فيمن نزلت ، ويجاب عن هذا بأن الله سبحانه قد وصف هؤلاء بصفة تدل على غير ما قالوه فقال :

ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾

﴿ الذين كذبوا بالكتاب ﴾ وهذا وصف لا يصح أن يطلق على فرقة من فرق الاسلام ، والمراد بالكتاب إما القرآن ، أو جنس الكتب المنزلة من عند الله ، والموصول إما في محل جر على أنه نعت للموصول الأول أو بدل منه ، ويجوز ان يكون في محل نصب على الذم .

﴿ وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ معطوف على قوله (بالكتاب) ويراد به ما يوحى الى الرسل من غير كتاب إن كانت اللام في الكتاب للجنس ، أو سائر الكتب إن كان المراد بالكتاب القرآن .

﴿ فسوف يعلمون ﴾ عاقبة أمرهم ، ووبال كفرهم ، وفي هذا وعيد شديد والظرف في قوله ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم ﴾ متعلق بـ (يعلمون) أي فسوف يعلمون . وقت كون الأغلال في أعناقهم ، أو اذكر لهم وقت الأغلال ليخافوا وينزجروا ﴿ والسلاسل ﴾ جمع سلسلة معروفة قال الراغب تسلسل الشيء اضطرب ، كأنه تصور منه تسلسل متردد فتردد لفظه ، تنبيه على تردد معناه ، وماء سلسل متردد في مقره ، معطوف على الأغلال ، والتقدير إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم .

ويجوز أن يرتفع السلاسل على أنه مبتدأ ، وخبره محذوف لدلالة في أعناقهم عليه ، ويجوز أن يكون خبره ﴿ يسحبون في الحميم ﴾ بحذف العائد أي يسحبون بها في الحميم ، وهذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل ، وقرىء بنصبها ، وقرأوا يسحبون بفتح الياء مبنياً للفاعل ، فتكون السلاسل مفعولاً مقدماً ، وقرىء بجر السلاسل ، قال الفراء وهذه القراءة محمولة على المعنى ، إذ المعنى أعناقهم في الأغلال والسلاسل وقال الزجاج المعنى على هذه القراءة وفي السلاسل يسحبون ، واعترضه ابن الانباري بأن ذلك لا يجوز في العربية والسحب الجر بعنف ، والسحاب من ذلك لأن الريح تجره أو لأنه يجر الماء ، والحميم هو المتناهي في الحر ، وقيل الصديد ، وقيل جهنم . وقيل الماء الحار الذي يكسب الوجوه سواداً والأعراض عاراً ، والأرواح عذاباً ، والأجسام ناراً ، وقد تقدم تفسيره قال ابن عباس يسحبون في الحميم فينسلخ كل شيء عليهم ، من جلد ولحم وعرق ، حتى يصير في عقبه ، حتى إن لحمه قدر طوله ، وطوله ستون ذراعاً ، ثم يكسى جلداً آخر ثم يسجر في الحميم .

﴿ ثم في النار يسجرون ﴾ يقال سجرت التنور ، أي أوقدته ، وسجرته ملأته بالوقود ، ومنه ﴿ البحر المسجور ﴾ أي المملوء ، فالمعنى توقد بهم النار أو تملأ بهم ، والمراد أنهم يعذبون بألوان العذاب ، وينقلون من باب الى باب قال مجاهد ومقاتل : توقد بهم النار فصاروا وقودها ، عن عبد الله بن عمرو قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذ الأغلال الى قوله : يسجرون ، فقال : لو أن رصاصة مثل هذه ـ وأشار الى جمجمة ـ أرسلت من السماء الى الأرض ، وهي مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن يبلغ أصلها . أو قال :

قعرها» ، أخرجه أحمد والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور .

﴿ ثم قيل لهم ﴾ أي يقال لهم ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ أين ما كنتم تشركون ﴾ من دون الله هذا توبيخ وتقريع لهم ، أي أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ؟ وهي الأصنام وغيرها ، وترسم أين مفصولة من ما كما أشار اليه ابن الجزري ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أي يقولون : ذهبوا وغابوا ، وفقدناهم فلا نراهم ، ثم أضربوا عن ذلك وانتقلوا الى الاخبار بعدمهم ، وأنه لا وجود لهم فقالوا :

﴿ بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً ﴾ أي لم نكن نعبد شيئاً ، قالوا هذا بعد ما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة والجهالة ، وأنهم كانوا يعبدون ما لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ، وليس هذا إنكاراً منهم لوجود الأصنام التي كانوا يعبدونها ، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة ، كقولك : حسبته شيئاً فلم يكن كذلك ، وقال المحلي : أنكروا عبادتهم إياها انتهى . وهذا المعنى بعيد في مقام الحساب والعرض على رب العالمين ﴿ كذلك ﴾ الضلال الفظيع ﴿ يضل الله الكافرين ﴾ حيث عبدوا هذه الأصنام التي أوصلتهم الى النار .

﴿ ذلكم ﴾ أي ذلك الإضلال المدلول عليه بالفعل او العذاب ﴿ بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ﴾ أي تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله ، والسرور بمخالفة رسله وكتبه ، وقيل : بما كنتم تفرحون به من المال والأتباع والصحة ، وقيل : من إنكار البعث والعذاب ، وقيل : المراد بالفرح هنا البطر والتكبر ﴿ وبما كنتم تمرحون ﴾ المراد بالمرح الزيادة في البطر ، وقال مجاهد وغيره : تبطرون وتأشرون ، وقال الضحاك : الفرح السرور . والمرح العدوان وقال مقاتل : المرح البطر والخيلاء وقيل المرح أشد من الفرح .

ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ السبعة المقسومة لكم ، قال تعالى : لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، حال كونكم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقدرين الخلود فيها ﴿ فبئس مثوى ﴾ أي مأوى ﴿ المتكبرين ﴾ عن قبول الحق جهنم وكان الظاهر أن يقال : مدخل ، وعبر عنه بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود قاله أبو السعود ، وقال السمين لم يقل مدخل لأن الدخول لا يدوم ، وانما يدوم الثواء فلذلك خصه بالذم ، وإن كان الدخول أيضاً مذموماً ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر تسلية له فقال :

﴿فاصبر إن وعد الله ﴾ أي وعده بالانتقام منهم ﴿ حق ﴾ كائن لا محالة ، إما في الدنيا أو في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ من العذاب في الدنيا ، بالقتل والأسر والقهر ، وما زائدة عند المبرد والزجاج ، والأصل ترك ، ولحقت بالفعل نون التأكيد ﴿ أو نتوفينك ﴾ معطوف على نرينك أي قبل إنزال العذاب بهم ﴿ فإلينا

يرجعون ﴾ يوم القيامة فنعذبهم أشد العذاب .

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً ﴾ وأنبياء ﴿ من قبلك ﴾ الى أممهم ﴿ منهم من قصصنا عليك ﴾ أي أنبأناك بأخبارهم في القرآن ، وما لقوه من قومهم ، وهم خمسة وعشرون ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ فيه خبره ولا أوصلنا اليك علم ما كان بينه وبين قومه ، وعن علي بن أبي طالب في الآية قال : بعث الله عبداً حبشياً فهو ممن لم يقصص على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، عن أبي ذر قال : قلت : « يا رسول الله كم عدة الأنبياء ؟ قال : مائة الف وأربعة وعشرون الفاً . الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً ، » أخرجه أحمد ، وعبر عنه في الكشاف بقيل .

﴿ وما كان ﴾ أي ما صح وما استقام ﴿ لرسول ﴾ منهم ﴿ أن يأتي بآية ﴾ أي معجزة دالة على نبوته ﴿ إلا بإذن الله ﴾ لا من قبل نفسه ، فان المعجزات عطايا قسمها الله تعالى بينهم ، على ما اقتضته حكمته ، كسائر القسم ، ليس لهم اختيار في إيثار بعضها ، والاستبداد بإتيان المقترح بها لأنهم عبيد مربوبون ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ أي الوقت المعين لعذابهم في الدنيا وفي الآخرة ﴿ قضى بالحق ﴾ فيما بين الرسل ومكذبيها ، فينجي الله بقضائه الحق عباده المحقين .

﴿ وخسر هنالك ﴾ أي في ذلك الوقت ﴿ المبطلون ﴾ الذين يتبعون الباطل ويعملون به ، وهم خاسرون في كل وقت قبل ذلك ، وختمه بقوله : (المبطلون) ،وختم السورة بقوله :(الكافرون) ،لأن الأول متصل بقوله : قضى بالحق ، ونقيض الحق هو الباطل ، والثاني متصل بإيمان غير نافع ونقيض الإيمان الكفر أفاده الكرخي ، ثم امتن الله سبحانه على عباده بنوع من أنواع نعمه التي لا تحصى فقال :

﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام ﴾ أي خلقها لأجلكم ، قال الزجاج : الأنعام هنا الإبل خاصة ، وقيل : الأزواج الثمانية ، والأول هو الظاهر لأنها

هي التي توجد فيها المنافع الآتية كلها ، وقوله : ﴿ لتركبوا منها ﴾ تفصيل لهذا الاجمال ، ومن للتبعيض ، وكذلك في قوله :

﴿ ومنها تأكلون ﴾ أو لابتداء الغاية في الموضعين ومعناها ابتداء الركوب ، وابتداء الأكل ، والأول أولى . والمعنى لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها .

﴿ ولكم فيها منافع ﴾ أخر غير الركوب والأكل من الوبر والصوف والشعر ، والزبد والسمن والجبن ، والدر والنسل ، وغير ذلك ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ قال مجاهد ومقاتل وقتادة : تحمل أثقالكم من بلد الى بلد ، وقد تقدم بيان هذا مستوفى في سورة النحل :

﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ أي على الإبل في البر ، وعلى السفن في البحر ، وقيل : المراد بالحمل على الأنعام هنا حمل الولدان والنساء في الهوادج ، وهو السر في فصله عن الركوب ، وفي الجمع بينهما من المناسبة التامة حتى سميت سفائن البر ، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة النحل ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ﴾ الآية ، لكن هذه أجمع منها .

﴿ ويريكم آياته ﴾ أي دلالاته الدالة على كمال قدرته ووحدانيته ﴿ فأي ﴾ آية من ﴿ آيات الله تنكرون ﴾ فإنها كلها من الظهور ، وعدم الخفاء ، بحيث لا ينكرها منكر ، ولا يجحدها جاحد ، وفيه تقريع لهم وتوبيخ عظيم وتذكيرُ أيّ أشهر من تأنيثه ، فلذلك لم يقل فأية آيات الله لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء الجامدة نحو حمار وحمارة غريب ، وهي في أي أغرب لابهامها ، ونصب أي بـ ﴿ تنكرون ﴾ وانما قدم على العامل فيه لأن له صدر الكلام ، ثم أرشدهم سبحانه الى الاعتبار والتفكر في آيات الله فقال :

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)

﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ أي في أطرافها ونواحيها ﴿ فينظروا ﴾ بأبصارهم وبصائرهم ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ من الأمم التي عصت الله وكذبت رسلها ، فإن الآثار الموجودة في ديارهم تدل على ما نزل بهم من العقوبة ، وما صاروا اليه من سوء العاقبة ، ثم بين سبحانه أن تلك الأمم كانوا فوق هؤلاء في الكثرة والقوة فقال :

﴿ كانوا أكثر منهم ﴾ عددا ﴿ وأشد قوة ﴾ أي أقوى منهم أجساداً وأوسع منهم أموالاً ﴿ و ﴾ أظهر منهم ﴿ آثاراً في الأرض ﴾ بالعمائر والمصانع والحصون والصهاريج والحرث ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ يجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ الأولى نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى ، والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة به ، أي لم يغن عنهم أو أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم .

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج الواضحات ، والمعجزات الظاهرات ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ أي أظهر الكفار الفرح بما عندهم مما يدعون أنه من العلم ، من الشبه الداحضة ، والدعاوى الزائغة ، والفنون الفاسدة ، والعلوم الكاسدة ، وسماه علماً تهكماً بهم ، أو

على ما يعتقدونه ، وقال مجاهد : قالوا نحن أعلم منهم لن نعذب ولن نبعث ، وقيل المراد من العلم علم أحوال الدنيا لا الدين كما في قوله :

﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ قال النسفي : أو علم الفلاسفة والدهريين ، فانهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصغروا علم الأنبياء الى علمهم ، وعن سقراط أنه سمع بموسى وقيل له لو هاجرت اليه ؟ فقال : نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا الى من يهذبنا ، أو المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك واستهزاء به ، كأنه قال : استهزأوا بالبينات وبما جاؤوا به من علم الوحي ، فرحين مرحين ، انتهى : وقيل : الذين فرحوا بما عندهم من العلم هم الرسل ، وذلك أنهم لما كذبهم قومهم وأعلمهم الله بأنه مهلك الكافرين ومنجى المؤمنين ، ففرحوا بذلك .

﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴾ أي أحاط بهم جزاء استهزائهم ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ أي عاينوا عذابنا النازل بهم في الدنيا ﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ وهى الأصنام التي كانوا يعبدونها .

﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ أي عند معاينة عذابنا لأن ذلك الإيمان ليس بالإيمان النافع لصاحبه ، فانه إنما ينفع الإيمان الاختياري لا الإيمان الاضطراري ، والفاآت من قوله : فما أغنى إلى هنا أربع : الأولى لبيان عاقبة كثرتهم وشدة قوتهم ، أي أن عاقبتها خلاف وضد ما كانوا يؤملونه منها ، وهو نفعها ، فلم يترتب عليها ، بل ترتب عدمه ، كقولك : وعظته فلم يتعظ ، والثانية تشير لتفصيل ما أبهم وأجمل من عدم الإغناء ، والثالثة لمجرد التعقيب ، وجعل ما بعدها تابعاً لما قبلها واقعاً عقيبه ، لأن مضمون قوله : فلما جاءتهم الخ انهم كفروا فكأنه قيل • فكفروا ثم لما رأوا بأسنا آمنوا والرابعة للعطف على آمنوا ، كأنه قيل : فآمنوا فلم ينفعهم ، لأن النافع هو الايمان الاختياري(١) .

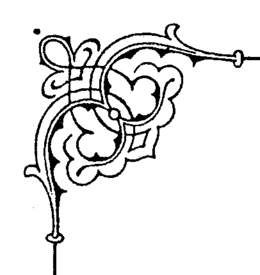
﴿ سنة الله التي قد خلت ﴾ أي مضت ﴿ في عباده ﴾ المعنى أن الله

---

(١) زاد المسير/٢٣٨ .

سبحانه سن هذه السنة في الأمم كلها أنه لا ينفعهم الإيمان اذا رأوا العذاب ، وقد مضى بيان هذا مستوفى في سورة النساء وسورة التوبة ، وانتصاب سنة على أنها مصدر مؤكد لفعل محذوف بمنزلة وعد الله ، وما أشبهه من المصادر المؤكدة ، وقيل منصوب على التحذير أي احذروا يأهل مكة سنة الله في الأمم الماضية ، والأول أولى .

﴿ و ﴾ قد ﴿ خسر هنالك الكافرون ﴾ أي وقت رؤيتهم بأس الله ، ومعاينتهم لعذابه على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفا قاله أبو السعود وقال السمين : لا يحتاج لهذا ، بل يصح إبقاؤه على أصله ، قال الزجاج : الكافر خاسر في كل وقت ، ولكنه يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب .





سورة حم السجدة

وتسمى سورة فصلت وسورة المصابيح وهي أربع وخمسون آية

وقيل : ثلاث وخمسون . قال القرطبي : وهي مكيّة في قول الجميع . قال ابن عباس : انها نزلت بمكة . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل ، وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : اجتمع قريش يوما فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا فليكلمه ، ولينظر ماذا يرد عليه ؟ فقالوا : ما نعلم احداً غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا : أنت يا أبا الوليد . فأتاه فقال يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبدت ، وان كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، أما والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا ، وأن في قريش كاهنا ، والله ما تنتظر الا مثل صيحة الحبلى ، أن يقوم بعضنا الى بعض بالسيوف . يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا . وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرغت ؟ قال نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته حتى بلغ : فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود : فقال عتبة حسبك حسبك ما عندك غير هذا ؟ قال لا ، فرجع الى قريش فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به الا كلمته ، قالوا فهل أجابك ؟ قال : والذي نصبها بنية ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ،

قالوا ويلك . يكلمك الرجل بالعربية . وما تدري ما قال . قال : لا واللّه ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة .

وأخرج أبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عمر قال : « لما قرأ النبي صلى اللّه عليه وسلم . على عتبة بن ربيعة حم أتى أصحابه فقال : يا قوم أطيعوني في هذا اليوم واعصوني بعده . فواللّه لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ما سمعت أذني قط كلاما مثله : وما دريت ما أرد عليه » . وفي هذا الباب روايات تدل على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة . وتلاوته صلى اللّه عليه وسلم . أول هذه السورة عليه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم ﴾ قد تقدم الكلام على إعرابه ومعناه في السورة التي قبل هذه السورة . فلا نعيده والله أعلم بمراده به ، وكذلك تقدم الكلام على معنى قوله : ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ وإعرابه ، وإنما خص هذين الوصفين بالذكر لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى المحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج اليه المرضى من الأدوية ، وعلى ما يحتاج اليه الأصحاء من الأغذية ، فكان أعظم النفع من الله على هذا العالم إنزال القرآن الناشىء عن رحمته ولطفه بخلقه .

﴿ كتاب فصلت ﴾ أي بينت وميزت باعتبار اللفظ والمعنى ، أو جعلت ﴿ آياته ﴾ أساليب وتفاصيل مختلفة ، من أحكام وأمثال ومواعظ وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان ، وتهذيب الأخلاق ، ورياضة النفس وتواريخ الماضين ، وصفات التنزيه والتقديس ، وشرح غرائب الملكوت والملك ، وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس في بدء الخلق وغايته كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة مثل ما في القرآن ﴿ فتبارك الله رب العالمين ﴾ وأحسن الخالقين .

قال قتادة : فصلت ببيان حلاله من حرامه ، وطاعته من معصيته وقال الحسن بالوعد والوعيد ، وقال سفيان : بالثواب والعقاب ، ولا مانع من الحمل على الكل ، وقرىء فصلت بالتخفيف أي فرقت بين الحق والباطل ، والجملة في محل رفع صفة للكتاب .

وانتصاب : ﴿ قرآنا عربياً ﴾ على الاختصاص أو على المدح قاله الأخفش أي أريد بهذا الكتاب المفصل قرآناً من صفته كيت وكيت أو على الحال أي فصلت آياته حال كونه قرآناً وقيل على المصدرية أي يقرؤه قرآناً وقيل مفعول ثان لفصلت ، وقيل : على إضمار فعل يدل عليه فصلت أي فصلناه قرآناً عربياً .

﴿ لقوم يعلمون ﴾ معانيه ويفهمونها ، وهم أهل اللسان العربي ، وانما خصوا بالذكر لأنهم يفهمونها بلا واسطة ، لكون القرآن بلغتهم ، وغيرهم لا يفهمها إلا بواسطتهم . قال الضحاك : أي يعلمون أن القرآن منزل من عند الله ، وقال مجاهد أي يعلمون أنه إلّه واحد في التوراة والانجيل واللام متعلقة بمحذوف صفة أخرى لقرآناً ، أو متعلقة بفصلت ، والأول أولى ، وكذلك :

﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ صفتان أخريان لقرآن ، أو حالان من كتاب ، والمعنى بشيراً لأولياء الله ونذيراً لأعدائه وقرئا بالرفع على أنهما صفة لكتاب أو خبر عن محذوف .

﴿ فأعرض أكثرهم ﴾ أي الكفار عما اشتمل عليه من النذارة ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ سماعاً ينتفعون به لإعراضهم عنه ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ﴾ الأكنة جمع كنان ، وهو الغطاء أي في أغطية مثل الكنانة التي فيها السهام ، فهي لا تفقه ما تقول من التوحيد ، ولا يصل اليها قولك ، قال مجاهد : الكنان للقلب كالجنة للنبل ، وقد تقدم بيان هذا في البقرة ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ أي صمم ، يمنع من استماع قولك ، وأصل الوقر الثقل ، قرىء بكسر الواو وقرىء بفتح الواو والقاف .

﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ أي ستر ﴿ ومن ﴾ لابتداء الغاية ، والمعنى أن الحجاب ابتدىء منا وابتدىء منك ، فالمسافة المتوسطة بين جهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب ، لا فراغ فيها ، ولو قيل : بيننا وبينك حجاب ولم تأت لفظة من لكان المعنى أن الحجاب حاصل وسط الجهتين ، والمقصود المبالغة بالتباين المفرط ، فلذلك جيء بمن وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وتقبله واعتقاده ، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، ومج أسماعهم له كأن بها صمماً عنه ، ولتباعد المذهبين والدينين ، وامتناع المواصلة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن بينهم وما هم عليه ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هو عليه حجاباً ساتراً ، وحاجزاً منيعاً ، من جبل أو نحوه . فلا تلاقي ولا ترائي .

﴿ فاعمل ﴾ أي استمر على دينك وهو التوحيد ﴿ إننا عاملون ﴾ أي مستمرون على ديننا ، وهو الإشراك ، وقال الكلبي : اعمل في هلاكنا فإنا عاملون في هلاكك ، وقال مقاتل : إعمل لإلهك الذي أرسلك فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها ، وقيل : فاعمل لآخرتك فإنا عاملون لدنيانا ، أو فاعمل في إبطال أمرنا فإنا نعمل في إبطال أمرك ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عن قولهم هذا فقال :

﴿ قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ أي إنما أنا كواحد منكم لولا الوحي ، ولم أكن من جنس مغاير لكم حتى تكون قلوبكم في أكنة مما أدعوكم اليه ، وفي آذانكم وقر ، ومن بيني وبينكم حجاب ، ولم أدعكم الى ما يخالف العقل ، وانما أدعوكم الى التوحيد .

قرأ الجمهور يوحي مبنياً للمفعول وقرأ الأعمش والنخعي مبنياً للفاعل ، أي يوحي الله إليّ ، قيل : ومعنى الآية أني لا أقدر على أن أحملكم على الايمان قسراً فإني بشر مثلكم ، ولا امتياز لي عنكم إلا أني أوحي إلي التوحيد ، والأمر به ، فعلى البلاغ وحده ، فان قبلتم رشدتم ؛ وإن أبيتم

هلكتم ، وقيل ؛ المعنى أني لست بملك لا يرى ، وإنما أنا بشر مثلكم ، وقد أوحي إلي دونكم فصرت بالوحي نبياً ، ووجب عليكم اتباعي ، وقال الحسن في معنى الآية إن الله سبحانه علم رسوله صلى الله عليه وسلم كيف يتواضع .

﴿ فاستقيموا اليه ﴾ عداه بإلى لتضمنه معنى : توجهوا والمعنى وجهوا استقامتكم إليه بالطاعة ، ولا تميلوا عن سبيله ﴿ واستغفروه ﴾ لما فرط منكم من الذنوب والشرك ، وما أنتم عليه من سوء العقيدة والعمل ثم هدد المشركين وتوعدهم فقال :

﴿ وويل للمشركين ﴾ ثم وصفهم بقوله : ﴿ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ أي يمنعونها ولا يخرجونها الى الفقراء ؛ وقال الحسن وقتادة : لا يقرون بوجوبها ، وقال الضحاك ومقاتل : لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة وقيل معنى الآية لا يشهدون أن لا إله إلا الله لأنها زكاة الأنفس وتطهيرها ، قاله ابن عباس . وقال مجاهد : لا يزكون أعمالهم ، وكان يقال : الزكاة قنطرة الاسلام فمن قطعها نجا ، ومن تخلف عنها هلك .

وقال الفراء : كان المشركون ينفقون النفقات ويسقون الحجيج ويطعمونهم فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت فيهم هذه الآية ، وإنما جعل منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة لأن أحب الشيء الى الانسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته ، وثباته وصدق نيته ، ونصوح طويته ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا ففرت عصبيتهم ، ولانت شكيمتهم ، وما ارتدت بنو حنيفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا بمنع الزكاة[1] ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن الكفر بالآخرة .

﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ معطوف على : لا يؤتون الزكاة ، داخل معه في حيز الصلة ؛ أي منكرون للآخرة جاحدون لها ، والمجيء بضمير

(١) سقط من الأصل: فتعصبت لهم الحروب وجوهدوا ، وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾

الفصل لقصد الحصر .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع عنهم ، يقال : مننت الحبل إذا قطعته ، وقيل : الممنون المنقوص قاله ابن عباس وقطرب ، قال الجوهري : المن القطع ، ويقال النقص ومنه قوله تعالى ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ وقيل غير محسوب ، وقيل معنى الآية لا يمن عليهم به لأنه إنما يمن بالتفضل ، فأما الأجر فحق أداؤه ، وقال السدي نزلت في المرضى والزمنى والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة ، كتب لهم من الأجر مثل ما كانوا يعملون في الصحة .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يوبخهم ويقرعهم فقال : ﴿ قل أئنكم ﴾ قرأ الجمهور بهمزتين الثانية بين بين ، وقرىء بهمزة بعدها ياء خفيفة ، وإن واللام إما لتأكيد الانكار ، وقدمت الهمزة لاقتضائها الصدارة وإما للاشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج الى التأكيد .

﴿ لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ والمعنى لتكفرون بمن شأنه هذا الشأن العظيم وقدرته هذه القدرة الباهرة ، قيل : اليومان هما يوم الأحد ويوم الاثنين ، وقيل : خلقهن في نوبتين كل نوبة أسرع مما يكون في يوم ، وقيل : المراد مقدار يومين لأن اليوم الحقيقي إنما يتحقق بعد وجود الأرض والسماء ذكرهما تعليماً للأناة ، ولو أراد أن يخلقهما في لحظة لفعل .

﴿ وتجعلون له انداداً ﴾ أي أضداد وشركاء والجملة معطوفة على تكفرون داخلة تحت الاستفهام ، ذكر عنهم شيئين منكرين ، أحدهما الكفر بالله ، والثاني إثبات الشركاء له ﴿ ذلك ﴾ المتصف بما ذكر ﴿ رب العالمين ﴾ جمع عالم ، وهو ما سوى الله وجمع لاختلاف أنواعه بالياء والنون تغليباً للعقلاء من جملة العالمين ما تجعلونها أنداداً لله ، فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له في عبادته ؟

﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابت ، معطوف على خلق وقيل مستأنفة لوقوع الفصل بينهما بالأجنبي ، والأول أولى ، لأن الجملة الفاصلة هي مقررة لمضمون ما قبلها ، فكانت بمنزلة التأكيد ، ومعنى : ﴿ من فوقها ﴾ أنها مرتفعة عليها لأنها من أجزاء الأرض ، وإنما خالفتها باعتبار الارتفاع فكانت من هذه الحيثية كالمغايرة لها وإنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون منافع الجبال ظاهرة لطالبيها ، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال كلها مفتقرة الى ممسك ، وهو الله العزيز المتعال ، القادر المختار .

﴿ وبارك فيها ﴾ أي جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من المنافع للعباد قال السدي : أنبت فيها شجرها ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ قال الحسن وعكرمة والضحاك : قدر فيها أرزاق أهلها ، وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع ، جعل في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد الى بلد وقيل قدر البُرَّ لأهل قطر من الأرض والتمر لأهل قطر آخر ، وكذلك سائر الأقوات .

قيل : إن الزرع أكثر الحرف بركة لأن الله وضع الأوقات في الأرض ، وقال ابن عباس أي شق الأنهار ، وغرس الأشجار ، ووضع الجبال ، وأجرى البحار ، وجعل في هذه ما ليس في هذه وفي هذه ما ليس في هذه ، وقال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها .

﴿ في ﴾ تتمة ﴿ أربعة أيام ﴾ أي في يوم الثلاثاء والأربعاء باليومين

المتقدمين، قاله الزجاج وغيره ، قال ابن الأنباري : ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً ، أي في تتمة خمسة عشر يوماً ، فيكون المعنى : إن حصول جميع ما تقدم من خلق الأرض وما بعدها في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان ولولا هذا التقدير لكانت الأيام ثمانية يومان في الأول وهو قوله ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ ويومان في الأخير وهو قوله الآتي : ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ وأربعة في الوسط .

وقال أبو البقاء : ولعل زيادة مدة الأرض على مدة السماء جرياً على ما يتعارف من أن بناء السقف أخف من بناء البيت ، وقيل : للتنبيه على أن الأرض هي المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين وكثرة المنافع ، وقيل : لما فيها من الابتلاء بالمعاصي ، والمجاهدات والمجادلات والمعالجات .

عن ابن عباس أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن خلق السموات والأرض ، فقال «خلق الله الأرض في يومين الأحد والاثنين ، وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الأربعاء الشجر والحجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه أربعة أيام فقال تعالى : قل أئنكم لتكفرون إلى قوله للسائلين ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم ، والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه ، فخلق من أول ساعة من هذه الثلاث الآجال حين يموت من مات ، وفي الثانية ألقى فيها من كل شي مما ينتفع به ، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة ، وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجه منها في آخر ساعة قالت اليهود ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش ، قالوا قد أصبت لو أتممت . قالوا ثم استراح ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، غضباً شديداً فنزل : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ، فاصبر على ما يقولون ﴾ أخرجه ابن جرير والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ في العظمة

والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

ولكن في حديث مسلم عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء وخلق الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة في آخر الخلق فيما بين العصر الى الليل». وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أيضاً قال: «إن الله خلق يوماً فسماه الأحد ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء، ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء ثم خلق خامساً فسماه الخميس، وذكر نحو ما تقدم». وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إن الله فرغ من خلقه في ستة أيام» وذكر نحو ما تقدم.

وانتصاب ﴿سواء﴾ على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف هو صفة للأيام، أي استوت الأربعة سواء، بمعنى استواء، ويجوز أن يكون منتصباً على الحال من الأرض أو من الضمائر الراجعة اليها قرأ الجمهور بنصب سواء، وقرأ زيد بن علي والحسن وغيرهما بخفضه على أنه صفة للأيام وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، قال الحسن: المعنى في أربعة أيام مستوية تامة لا تزيد ولا تنقص، وقوله:

﴿للسائلين﴾ متعلق بسواء أي مستويان للسائلين أو بمحذوف كأنه قيل هذا الحصر للسائلين في كم يوم خلقت الأرض وما فيها؟ أو متعلق بقدر أي قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين المحتاجين اليها قال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين في أربعة أيام، واختار هذا ابن جرير.

ثم لما ذكر سبحانه خلق الأرض وما فيها ذكر كيفية خلقه للسموات فقال ﴿ثم استوى الى السماء﴾ أي عمد وقصد نحوها قصداً سوياً، وتعلقت إرادته

بخلقها ، قال الرازي : هو من قولهم ، استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلتفت معه إلى عمل آخر ، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج ، ونظيره قولهم : استقام اليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فاستقيموا إليه ﴾ والمعنى ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السموات بعد خلق الأرض وما فيها قال الحسن : المعنى صعد أمره إلى السماء ، ويفهم من هذه الآية أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض وبه قال ابن عباس ، وقوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ مشعر بأن خلق الأرض بعد خلق السماء .

والجواب أن الخلق ليس عبارة عن الإيجاد والتكوين فقط ، بل هو عبارة عن التقدير أيضاً ، فالمعنى قضى أن يحدث الأرض في يومين بعد إحداث السماء وعلى هذا يزول الاشكال ، وقال الشوكاني بعد ذكر هذا الاستشكال . إن ثم ليست للتراخي الزماني[1] فالجمع ممكن بأن الأرض خلقها متقدم على خلق السماء ، ودحوها بمعنى بسطها هو أمر زائد على مجرد خلقها ، فهي متقدمة خلقاً متأخرة دحواً ، وهذا ظاهر انتهى .

ولعله يأتي عند تفسيرنا لقوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ زيادة ايضاح للمقام إن شاء الله تعالى ، وقد تقدم هذا الجمع في سورة البقرة ولكن خلق ما في الأرض لا يكون إلا بعد دحوها فالاشكال باق ، وعلى هذا لا يتفصى عن الاشكال إلا بما ذكر في ثم ؛ أو أن بعد بمعنى قبل أو بمعنى مع .

﴿ وهي دخان ﴾ هو ما ارتفع من لهب النار ويستعار لما يرى من بخار الأرض ، قال المفسرون هذا الدخان هو بخار الماء ، وقياس جمعه في القلة أدخنة ، وفي الكثرة دخيان ، وهي من باب التشبيه الصوري لأن صورتها صورة الدخان في رأى العين ، وخص سبحانه الاستواء الى السماء مع كون الخطاب المترتب على ذلك متوجهاً إليها وإلى الأرض ، كما يفيده قوله : ﴿ فقال لها

---

(١) سقط من الأصل: بل للتراخي الرتبى فيندفع الإشكال من أصله ، وعلى تقدير ينها للتراخي الزماني

وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ استغناء بما تقدم من ذكر تقديرها وتقدير ما فيها ، ومعنى ائتيا إفعلا ما آمركما به ، وجيئا به ، كما يقال : ائت ما هو الأحسن أي افعله ، وقيل : المعنى ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، ائتي يا أرض مدحورة قراراً ومهاداً لأهلك ، وائتي يا سماء مقببة سقفاً لهم .

قال الواحدي : قال المفسرون : إن الله سبحانه قال : أما أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك ، وأما أنت يا أرض فشققي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك ، قاله ابن عباس ، قرأ الجمهور ائتيا أمراً من الاتيان وقرىء آتيا قالتا آتينا ، بالمد فيهما ، وهو من المؤاتاة وهي الموافقة أي لتوافق كل منكما الأخرى لما يليق بها ، واليه ذهب الرازي والزمخشري ، أو من الإيتاء وهو الإعطاء قاله ابن عباس ، فوزنه على الأول فاعلا كقاتلا ، وعلى الثاني أفعلا كأكرما ، وطوعاً وكرهاً مصدران في موضع الحال ، أي طائعتين أو مكرهتين ، وقرىء كرهاً بالضم .

قال الزجاج : أطيعا طاعة أو تكرهان كرهاً ، قيل : ومعنى هذا الأمر لهما التسخير والحصول والوقوع أي كونا فكانتا ، كما قال تعالى : ﴿ إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون ﴾ فالكلام من باب التمثيل لتأثير قدرته واستحالة امتناعهما أو من باب الاستعارة التخييلية .

﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ أي أتينا أمرك منقادين وجمعهما جمع من يعقل لخطابهما بما يخاطب به العقلاء ، وجمع الأمر لهما في الاخبار عنه لا يدل على جمعه في الزمان ، بل قد يكون القول لهما متعاقباً ، قال القرطبي : قال أكثر أهل العلم إن الله سبحانه خلق فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد سبحانه ، وقيل هو تمثيل لظهور الطاعة منهما وتأثير القدرة الربانية فيهما ، والأول أولى ، قال أبو نصر السكسي فنطق من الأرض موضع الكعبة ، ونطق من السماء بحيالها ، فوضع الله فيه حرمة .

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (١٤)﴾

﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل ، المعبر عنه بالأمر ، وجوابه ، لا أنه فعل مرتب على تكوينهما أي خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة ، وأتمهن وفرغ منهن ، والضمير إما راجع إلى السماء على المعنى لأنها سبع سموات ، أو مبهم مفسر بسبع سموات ، وانتصاب سبع على التفسير أو على البدل من الضمير ، وقيل على أنه مفعول ثان لقضاهن لأنه مضمن معنى صيرهن ، وقيل على الحال أي قضاهن حال كونهن معدودات بسبع ، ويكون قضى بمعنى صنع ، وقيل على التمييز .

﴿ في يومين ﴾ الخميس والجمعة ، وفرغ منها في آخر ساعة منه ، وفيها خلق آدم . قال المحلي ولذلك لم يقل هنا سواء ، ووافق ما هنا آيات خلق السموات والأرض في ستة أيام ، والمعنى أنه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدراً بيومين ، والمشهور أن الأيام الستة بقدر أيام الدنيا ، وقيل بقدر ستة آلاف سنة حكاه القرطبي ، قال مجاهد ويوم من الستة الأيام ﴿ كألف سنة مما تعدون ﴾ .

﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ قال قتادة والسدي أي خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها ، وما فيها من الملائكة والبحار والبرد والثلج . وقيل المعنى أوحى فيها ما أراده وما أمر به ، والايحاء قد يكون بمعنى الأمر كما في قوله ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ وقوله ﴿ وإذ أوحيت الى الحواريين ﴾ أي أمرتهم ، وهو أمر تكوين ، قال ابن عباس « ولله على كل سماء بيت نحج اليه

وتطوف به الملائكة بحذاء الكعبة ، والذي في السماء الدنيا هو البيت المعمور .

﴿ وزينا السماء الدنيا ﴾ أي التي تلي الأرض ﴿ بمصابيح ﴾ أي بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح ، وفيه التفات الى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالتزيين المذكور .

﴿ وحفظاً ﴾ أي وحفظناها حفظاً أو خلقنا المصابيح زينة وحفظاً والأول أولى . قال أبو حيان في الوجه الثاني هو تكلف عدول عن السهل البين ، والمراد بالحفظ حفظها من الشياطين الذين يسترقون السمع ﴿ ذلك ﴾ أي ما وقع وتقدم ذكره ﴿ تقدير العزيز العليم ﴾ أي البليغ القدرة الكثير العلم .

﴿ فإن أعرضوا ﴾ عن التدبر والتفكر في هذه المخلوقات ، وعن الإيمان بعد هذا البيان ـ وفيه التفات من خطابهم بقوله أئنكم الى الغيبة لفعلهم الإعراض ـ فأعرض عن خطابهم ، وهو تناسب حسن .

﴿ فقل أنذرتكم ﴾ أي خوفتكم ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الإنذار المنبىء عن تحقق المنذر به ﴿ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ أي عذاباً مثل عذابهم ، والمراد بالصاعقة العذاب المهلك من كل شيء ، قال المبرد : الصاعقة المرة المهلكة لأي شيء كان ، والصاعقة في الأصل هي الصيحة التي يحصل بها الهلاك أو قطعة نار تنزل من السماء معها رعد شديد ، والمراد بها هنا مطلق العذاب . لكن بالنظر إلى الصاعقة الأولى ، وأما الثانية فالمراد بها حقيقتها ، قرأ الجمهور صاعقة بالألف في الموضعين ، وقرىء صعقة فيهما ، وقد تقدم بيان معنى الصاعقة والصعقة في البقرة .

﴿ إذ جاءتهم ﴾ أي إلى عاد وثمود ، وإنما خص هاتين القبيلتين لأن قريشاً كانوا يمرون على بلادهم ﴿ الرسل ﴾ أي هود وصالح ومن قبلهما وكان هود وصالح بين نوح وابراهيم ، وليس بينهما غيرهما من الرسل ، وأن الذين تقدموا عليهما من الرسل أربعة : نوح وادريس وشيث وآدم .

﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ أي أتوهم من كل جانب ، وعملوا

فيهم كل حيلة . فلم يروا منهم إلا الإعراض ، وعن الحسن أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة والظرف متعلق بأنذرتكم أو بالصاعقة لأنها بمعنى العذاب أو حال من صاعقة عاد ، وهذا أولى من الوجهين الأولين لأن الإنذار لم يقع وقت مجيء الرسل فلا يصح أن يكون ظرفاً له ، وكذلك الصاعقة لا يصح أن يكون الوقت ظرفاً لها، ومن في الموضعين متعلقة بجاءتهم أي من جميع جوانبهم أو من جهة الزمان الماضي بالانذار عما جرى على الكفار أو من جهة المستقبل بالتحذير عما سيحيق بهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة،

وقيل : المعنى جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم إلى الحق منزلة مجيء أنفسهم ، فكأن الرسل قد جاؤوهم وخاطبوهم بقولهم :

﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي بأن لا تعبدوا على أنها مصدرية أو تفسيرية أو مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، ثم ذكر سبحانه ما أجابوا به الرسل فقال : ﴿ قالوا ﴾ أي عاد وثمود مخاطبين لهود وصالح : ﴿ لو شاء ربنا لأنزل ﴾ أي لأرسل إلينا ﴿ ملائكة ﴾ ولم يرسل الينا بشراً من جنسنا ، ثم صرحوا بالكفر ولم يتلعثموا فقالوا : ﴿ فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أي كافرون بما تزعمونه من أن الله أرسلكم الينا لأنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا ، فكيف اختصكم برسالته دوننا .

وقد تقدم دفع هذه الشبهة الدحضة التي جاؤوا بها في غير موضع ، وفيه تغليب المخاطب على الغائب ، فغلبوا هوداً وصالحاً على من قبلهما من الرسل ، فكأنهم قالوا : فإنا كافرون بكما وَبِمَنْ دعوتمونا إلى الإيمان به ممن قبلكما من الرسل .

ولما ذكر عاد وثمود إجمالاً ذكر ما يختص بكل طائفة من الطائفتين تفصيلاً فقال :

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ﴾ أي بغير استحقاق ذلك الذي وقع منهم من التكبر والتجبر ، ثم ذكر سبحانه بعض ما صدر عنهم من الأقوال الدالة على الاستكبار فقال : ﴿ وقالوا : من أشد منا قوة ﴾ وكانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم وقوة شديدة ، فاغتروا بأجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب ، ومرادهم بهذا القول أنهم قادرون على دفع ما نزل بهم من العذاب ، وبلغ من قوتهم أن الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده ، ويجعلها حيث يشاء ، فرد الله عليهم بقوله :

﴿ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ الاستفهام للاستنكار عليهم والتوبيخ ، أي أو لم يعلموا بأن الله أشد منهم قدرة وأوسع منهم قوة؟ فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء ، يقول كن فيكون ، وقال(خلقهم)،ولم يقل خلق السموات والأرض ، لأن هذا أبلغ في تكذيبهم في ادعاء انفرادهم بالقوة ، فإنهم حيث كانوا مخلوقين فبالضرورة أن خالقهم أشد قوة منهم .

﴿ وكانوا بآياتنا ﴾ أي بمعجزات الرسل التي خصهم الله بها وجعلها دليلاً على نبوتهم ، أو بآياتنا التي أنزلناها على رسلنا أو بآياتنا التكوينية التي نصبناها لهم وجعلناها حجة عليهم ، أو بجميع ذلك ﴿ يجحدون ﴾ ثم ذكر الله سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه فقال :

﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ الصرصر الريح الشديدة الصوت من الصرة وهي الصيحة ، قال أبو عبيدة : معنى صرصر شديدة عاصفة ، وقال الفراء : هي الباردة تحرق كما تحرق النار ، وقال عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة : هي الباردة ، وقال مجاهد : هي الشديدة السموم ، والأولى تفسيرها بالبرد لأن الصر في كلام العرب البرد ، قال ابن السكيت : صرصر يجوز أن يكون من الصر وهو البرد ، ومن صرصر الباب ، ومن الصرة وهي الصيحة ، ومنه ﴿ وأقبلت امرأته في صرة ﴾ .

ثم بين سبحانه وقت نزول ذلك العذاب عليهم فقال :

﴿ في أيام نحسات ﴾ أي نكدات مشئومات ذوات نحوس عليهم ، قال مجاهد وقتادة : كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء ، وذلك ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ قيل : وما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء ، وقيل : نحسات باردات ، حكاه الثعلبي ، وقيل : متتابعات ، وقيل : شداد ، وقيل : ذوات غبار وتراب ثائر ، لا يكاد يبصر فيه . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو نحسات بإسكان الحاء على أنه جمع نحس ، وقرأ الباقون بكسرها ، واختار أبو حاتم الأولى لقوله ﴿ في يوم نحس مستمر ﴾ ، واختار أبو عبيد الثانية ﴿ لنذيقهم ﴾ أي لكي نذيقهم .

﴿ عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴾ والخزي هو الذل والهوان بسبب ذلك الاستكبار ، وهو في الأصل صفة المعذب ، وانما وصف به العذاب على الإسناد المجازي للمبالغة ، فهو من إضافة الموصوف الى صفته أي العذاب الخزي ، ولهذا جاء :

﴿ ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ أي أشد إهانة وذلاً ، فلو لم يكن من إضافة الموصوف إلى صفته لم يأت بلفظ أخزى الذي يقتضي المشاركة ﴿ وهم لا ينصرون ﴾ أي لا يمنعون من العذاب النازل بهم ولا يدفعه عنهم دافع ، ثم ذكر حال الطائفة الأخرى فقال :

﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ أي بينا لهم سبيل النجاة ، ودللناهم على طريق الحق بارسال الرسل اليهم ، ونصب الدلالات لهم من مخلوقات الله ، وإنزال الآيات التشريعية ، فانها توجب على كل عاقل أن يؤمن بالله ويصدق رسله .

قال الفراء معنى الآية دللناهم على مذهب الخير بإرسال الرسل . قال الشيخ أبو منصور يحتمل ما ذكر من الهداية التبيين ، وخلق الاهتداء فيهم ، فصاروا مهتدين ، ثم كفروا بعد ذلك وعقروا الناقة لأن الهدي المضاف الى الخلق يكون بمعنى البيان والتوفيق ، وخلق فعل الاهتداء ، فأما الهدي المضاف إلى الخلق فيكون بمعنى البيان لا غير .

وقال صاحب الكشاف فيه فإن قلت أليس معنى قولك هديته جعلت فيه الهدي ؟ والدليل عليه قولك هديته فاهتدى بمعنى تحصيل البغية وحصولها ، كما تقول ردعته فارتدع فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة ؟ قلت للدلالة على أنه مكنهم فأزاح عللهم ، ولم يبق لهم عذر فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها ا هـ وإنما تمحل بهذا لأنه لا يتمكن من أن يفسره بخلق الاهتداء لأنه يخالف مذهبه الفاسد .

قرأ الجمهور ثمود بالرفع ، ومنع الصرف ، وقرىء بالرفع والصرف ، وقرىء بالنصب والصرف ، وقرىء بالنصب والمنع ، فأما الرفع فعلى الابتداء وهو الفصيح وأما النصب فعلى الاشتغال ، وأما الصرف فعلى تفسير الاسم بالأب أو الحي ، وأما المنع فعلى تأويله بالقبيلة .

﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان قال أبو العالية اختاروا العمى على البيان ، وقال السدي اختاروا المعصية على الطاعة

﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ قد تقدم أن الصاعقة اسم للشيء المهلك لأي شيء كان ، والهون الهوان والإهانة ، فكأنه قال أصابهم مهلك العذاب ذي الهوان أو الإهانة ، ويقال عذاب هون أي مهين كقوله ﴿ ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ الباء للسببية أي بسبب الذي كانوا يكسبونه ، أو بسبب كسبهم وهو شركهم وتكذيبهم صالحاً .

﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ وهم صالح ومن معه من المؤمنين فإن الله نجاهم من ذلك العذاب وكانوا أربعة آلاف . ثم لما ذكر سبحانه ما عاقبهم به في الدنيا ذكر ما عاقبهم به في الآخرة فقال :

﴿ ويوم يحشر أعداء الله الى النار ﴾ وصفهم بكونهم أعداء الله مبالغة في ذمهم ، وقيل المراد بهم الكفار مطلقاً الأولين والآخرين ، أي أذكر لقريش المعاندين لك حال الكفار يوم القيامة ، لعلهم يرتدعوا وينزجروا ، ومعنى حشرهم الى النار سوقهم إليها أو إلى موقف الحساب ، لأنه يتبين عنده فريق الجنة وفريق النار ، قرأ الجمهور يحشر بالتحتية مضمومة ورفع أعداء على النيابة ، وقرأ نافع بالنون ونصب أعداء .

﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا ، كذا قال قتادة والسدي وغيرهما ، وبه قال ابن عباس أي يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم ، وهي عبارة عن كثرة أهل النار ، وأصله من وزعته أي كففته ، وقد سبق تحقيق معناه في سورة النمل مستوفى ، وعن ابن عباس قال : يدفعون ، وقيل يساقون .

﴿ حتى إذا ماجاؤوها ﴾ أي النار التي حشروا إليها وصاروا بحضرتها أو موقف الحساب و ﴿ ما ﴾ مزيدة للتوكيد ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ في الدنيا من المعاصي ، وفي كيفية هذه الشهادة ثلاثة أقوال ، أولها أن الله تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه ، ثانيها أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات

والحروف الدالة على تلك المعاني ، ثالثها أن يظهر في تلك الأعضاء أحوال تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان ، وتلك الأمارات تسمى شهادات ، كما يقال : العالم يشهد بتغيرات أحواله على حدوثه .

وقال الكرخي : ينطقها الله تعالى كإنطاق اللسان فتشهد . وليس نطقها بأغرب من نطق اللسان عقلاً ، وإيضاحه أن البنية ليست شرطاً للحياة والعلم والقدرة فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء .

قال مقاتل تنطق جوارحهم بما كتمت ألسنهم من عملهم بالشرك . والمراد بالجلود هي جلودهم المعروفة في قول أكثر المفسرين . وقيل : المراد بها الجوارح مطلقاً، فالعطف من قبيل عطف العام على الخاص . وقال السدي وعبيد الله بن أبي جعفر والفراء : أراد بالجلود الفروج وهو من باب الكنايات كما قال تعالى : ﴿ لا تواعدوهن سراً ﴾ أراد النكاح ، وقال تعالى : ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ والمراد قضاء الحاجة ، وفي الحديث : « أول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه » ، وعلى هذا التقدير تكون الآية وعيداً شديداً في إتيان الزنا لأن مقدمة الزنا إنما تحصل بالفخذ والأول أولى .

ووجه تخصيص الثلاثة بالشهادة دون غيرها مع أن الحواس خمسة ، وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، وآلة اللمس هي الجلد ، ما ذكره الرازي أن الذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه ، لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان مماسة لجرم الطعام ، وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الأنف مماسة لجرم المشموم فكانا داخلين في حس اللمس انتهى .

واذا عرفت من كلامه هذا وجه تخصيص الثلاثة بالذكر عرفت منه وجه تخصيص الجلود بالسؤال كما قال :

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ وقالوا لجلودهم ﴾ لأنها قد اشتملت على ثلاث حواس فكان تأتي المعصية من جهتها أكثر ، وأما على قول من قال بالفروج فوجه تخصيصها بالسؤال ظاهر ، لأن ما يشهد به الفرج من الزنا أعظم قبحاً وأجلب للخزي والعقوبة ، قيل : والمراد بالجلود هنا المعنى الأعم ، فليس في سؤالهم ترك سؤال السمع والبصر ، بل هما داخلان في الجلود بالمعنى الذي علمته ﴿ لم شهدتم علينا ﴾ سؤال توبيخ وتعجب من هذا الأمر الغريب لكونها ليست مما ينطق ولكونها كانت في الدنيا مساعدة لهم على المعاصي فكيف تشهد الآن عليهم فلذلك استغربوا شهادتها وخاطبوها بصيغة خطاب العقلاء ، لصدور ما يصدر من العقلاء عنها وهو الشهادة .

﴿ قالوا ﴾ مجيبين لهم معتذرين : ﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ مما ينطق من مخلوقاته ، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ، وقيل : المعنى ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله والأول أولى ، والمعنى أن نطقنا ليس بعجيب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان .

﴿ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ قيل : هذا من تمام كلام الجلود ، وقيل إنه من كلام الملائكة ، وقيل : مستأنف من كلام الله ، والمعنى أن من قدر على خلقكم وإنشائكم ابتداء قدر على إعادتكم ورجعكم اليه ، ولعل صيغة المضارع مع أن هذه المحاورة بعد البعث والرجوع لما أن

المراد بالرجوع ليس مجرد الرد الى الحياة بالبعث بل ما يعمه ويعم ما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند المخاطبة ، فغلب المتوقع على الواقع .

﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ هذا تقريع لهم ، وتوبيخ من جهة الله سبحانه أو من كلام الجلود ، أي ما كنتم تستخفون عند الأعمال القبيحة وارتكاب الفواحش بالحيطان والحجب ، حذراً من شهادة الجوارح عليكم ، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً وهو قول أكثر العلماء. ولما كان الانسان لا يقدر على أن يستخفي من جوارحه عند مباشرة المعصية كان معنى الاستخفاء هنا ترك المعصية ، وقيل : معنى الاستتار الاتقاء أي ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة ، فتتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة ، ومعنى أن تشهد لأجل أن تشهد ، أو مخافة أن تشهد ، وقيل إن الاستتار مضمن معنى الظن ، أي وما كنتم تظنون أن تشهد وهو بعيد .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عن معاوية ابن حيدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تحشرون ههنا وأومأ بيده الى الشام مشاة وركباناً وعلى وجوهكم ، وتعرضون على الله وعلى أفواهكم الفدام وأول ما يعرب عن أحدكم فخذه وكفه وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كنتم تستترون » الخ .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : « كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وثقفيان أو ثقفي وقرشيان ، كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إن لنا آنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإنا إذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر انه إن سمع منه شيئاً سمعه كله ، قال : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : وما كنتم تستترون أن

يشهد عليكم سمعكم إلى قوله من الخاسرين» .

﴿ ولكن ظننتم ﴾ عند استتاركم من الناس مع عدم استتاركم من أعضائكم ﴿ أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ من المعاصي فاجترأتم على فعلها قيل : كان الكفار يقولون : إن الله لا يعلم ما في أنفسنا ، ولكن يعلم ما نظهر دون ما نسر ، قال قتادة : الظن هنا بمعنى العلم ، وقيل : أريد بالظن معنى مجازي يعم معناه الحقيقي ، وما هو فوقه من العلم .

﴿ وذلكم ﴾ أي ما ذكر من ظنكم مبتدأ ﴿ ظنكم ﴾ بدل منه ﴿ الذي ظننتم بربكم ﴾ نعت والخبر ﴿ أرداكم ﴾ أي أهلككم وطرحكم في النار ، وقيل : ظنكم الخبر والموصول بدل أو بيان ، وأرداكم حال ، وقد مقدرة أو غير مقدرة ، أي ذلكم ظنكم مردياً إياكم .

﴿ فأصبحتم من الخاسرين ﴾ أي الكاملين في الخسران ، قال المحققون الظن قسمان أحدهما حسن والآخر قبيح ، فالحسن أن يظن بالله عز وجل : الرحمة والفضل والاحسان ، قال صلى الله عليه وسلم ، حكاية عن الله عز وجل : « أنا عند ظن عبدي بي »[١] .

وأخرج أحمد وأبو داود والطيالسي وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى ، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله ، فقال الله وذلكم ظنكم »[٢] الآية، والظن القبيح أن يظن أنه تعالى يعزب عن علمه بعض هذه الأفعال ، وقال قتادة الظن نوعان مرد ومنج ، فالمنجي قوله : ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ ، وقوله : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ﴾ ، والمردي هو قوله : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ ثم أخبر عن حالهم فقال :

(١) البخاري ٤٣١/٨ ـ أحمد ٣٨٧٥/٣٦١٤ والترمذي ١٥٢/٢ والطبري ١٠٩/٢٤ .
(٢) مسلم ٢٢٠٦/٤ .

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) ﴾

﴿ فإن يصبروا ﴾ على النار ﴿ فالنار مثوى لهم ﴾ أي محل استقرارهم وإقامتهم ، لا خلاص ولا خروج لهم منها ، صبروا أو لم يصبروا على كل حال ؛ وقيل : المعنى فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوى لهم ﴿ وان يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ يقال أعتبني فلان أي أرضاني بعد إسخاطه إياي واستعتبته طلبت منه أن يرضى .

والمعنى أنهم إن يسألوا أن يرجع بهم إلى ما يحبون لم يرجع لأنهم لا يستحقون ذلك قال الخليل تقول استعتبته فاعتبني أي استرضيته فأرضاني ومعنى الآية إن يطلبوا الرضا لم يقع الرضا عنهم بل لا بد لهم من النار قرأ الجمهور يستعتبوا بفتح التحتية وكسر التاء الفوقية الثانية مبنياً للفاعل ومن المعتبين بفتح الفوقية اسم مفعول وقرىء يُسْتَعْتَبُوا مبنياً للمفعول وقرىء من المُعْتِبين اسم فاعل أي أنهم إن أقالهم الله وردهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته كما في قوله سبحانه ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ .

﴿ وقيضنا ﴾ أصل التقييض التيسير والتهيئة أي هيأنا ﴿ لهم ﴾ أي لكفار قريش وغيرهم ﴿ قرناء ﴾ من الشياطين بمنزلة الإخلاء لهم جمع قرين بمعنى نظير كقوله ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وقال

الـزجاج سببنـا لهم قرنـاء حتى أضلوهم وقيل سلطنـا عليهم قرنـاء وقيل قـدرنا والمعاني متقاربـة أي يلازمـونهم ويستولـون عليهم استيلاء القيض على البيض والقيض قشـر البيض الأعلى وقيل إن الله قيض لهم قـرناء في النـار والأولى أن ذلك في الدنيا لقوله :

﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم ومـا خلفهم ﴾ فان المعنى زينـوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها وحملوهم على الوقوع في معاصي الله بانهماكهم فيها وزينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة فقالوا لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار وقال الزجاج ما بين أيديهم ما عملوه ومـا خلفهم ما عـزموا على أن يعملوه وروي عنه أيضاً أنه قال ما بين ايديهم من أمر الأخرة وما خلفهم من أمر الدنيا بأن الدنيا قديمة ولا صانع إلا الطبائع والأفلاك .

﴿ وحق عليهم القـول ﴾ أي وجب وثبت عليهم العذاب وتحقق مقتضـاه وهـو قولـه سبحانـه ﴿ لأملأن جهنم منـك وممن تبعـك منهم أجمعين ﴾ ﴿ في أمم ﴾ أي كـائنـين في جملة أمم وقيـل في بمعنى مـع أي مـع أمم من الأمم الكـافـرة ولا حاجة الى بدل حرف من حـرف مع إمكـان بقائـه على بابـه والمعنى الأمم التي ﴿ قـد خلت ﴾ ومضت ﴿ من قبلهم من الـجن والإنس ﴾ عـلى الكـفـر ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب قاله الكرخي .

﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ أي قـال بعضهم لبعض لا تسمعـوه ولا تنصتوا لـه وقيل المعنى لا تـطيعوا يقـال سمعت لـك أي أطعتـك ﴿ والغوا فيه ﴾ أي عارضوه باللغو والباطل أو ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارىء له وقال مجاهد الغوا فيه بالمكاء والتصدية والتصفيق والتخليط في الكلام حتى يصير لغواً وقال الضحاك أكثروا الكلام ليختلط عليـه ما يقـول وقال أبـو العاليـة قعوا فيه وعيبوه قرأ الجمهور ألغوا بفتح الغين من لغا اذا تكلم باللغو وهـو ما لا فائدة فيه أو من لغى بالفتح يلغي بالفتح أيضاً كمـا حكاه الأخفش وكـان قياسـه الضم كغـزا يغزو ولكنـه فتح لأجل حرف الحلق أو من لغـا بكـذا إذا رمى بـه فتكون في بمعنى الباء أي ارموا به وقرىء بضم الغين من لغا بالفتح يلغو كدعا

يدعو وفي الحديث « فقد لغوت » وهذا موافق لقراءة غير الجمهور .

وقد تقدم الكلام في اللغو فى سورة البقرة ﴿ لعلكم تغلبون ﴾ أي لكي تغلبوا فيسكتوا ، عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ وكان إذا أخفى قراءته لم يسمع من يحب أن يسمع القرآن فأنزل الله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ » أخرجه ابن أبي حاتم .

ثم توعدهم سبحانه على ذلك فقال : ﴿ فلنذيقهن الذين كفروا عذاباً شديداً ﴾ هذا وعيد لجميع الكفار ويدخل فيهم الذين السياق معهم دخولاً أولياً ﴿ ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ﴾ أي ولنجزينهم في الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا قال مقاتل وهو الشرك وقيل المعنى أنه يجازيهم بمساوىء أعمالهم لا بمحاسنها كما يقع منهم من صلة الأرحام وإكرام الضيف لأن ذلك باطل لا أجر له مع كفرهم .

وفي هذا تعريض بمن لا يكون عند كلام الله المجيد خاضعاً خاشعاً متفكرا متدبراً وتهديد ووعيد لمن يصدر عنه عند سماعه ما يشوش على القارىء ويخلط عليه القراءة فانظر الى عظمة القرآن وتأمل في هذا التغليظ والتشديد وأشهد لمن عظمه وأجل قدره وألقى إليه السمع وهو شهيد بالفوز العظيم والأجر الكبير.

﴿ ذلك ﴾ أي العذاب الشديد وأسوأ الجزاء ﴿ جزاء أعداء الله النار ﴾ بدل أو عطف بيان للجزاء المخبر به عن ذلك أو خبر مبتدأ مضمر أو مبتدأ خبره ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ أي دار الاقامة المستمرة التي لا انقطاع لها ولا انتقال عنها ﴿ جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ أي يجزون جزاء بسبب جحدهم بآيات الله .

قال مقاتل يعني القرآن يجحدون أنه من عند الله وعلى هذا يكون التعبير عن اللغو بالجحود لكونه سبباً له إقامة للسبب مقام المسبب .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس ﴾ قالوا هذا وهم في النار وذكره بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه والمراد أنهم طلبوا من الله سبحانه أن يريهم من أضلهم من فريقي الجن والإنس من الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر ومن الشياطين الذين كانوا يسولون لهم ويحملونهم على المعاصي لأن الشيطان على ضربين جني وإنسي .

قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن ﴾ وقال ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ﴾ قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ هو ابن آدم الذي قتل أخاه وإبليس أي لأنهما سنا المعصية لبني آدم ، قرأ الجمهور : أرنا بكسر الراء وقرىء : بسكونها وهما لغتان بمعنى واحد .

وقال الخليل إذا قلت أرني ثوبك بالكسر فمعناه بصرنيه وبالسكون أعطنيه ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ في النار أي ندوسهما بأقدامنا لنشتفي منهما وليكونا وقاية بيننا وبينها فتخف عنا حرارتها نوع خفة و ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ فيها مكاناً أو ليكونا من الأذلين المهانين وقيل ليكونا أشد عذاباً منا قال الزجاج ليكونا في الدرك الأسفل وممن هو دوننا ثم لما ذكر سوء عقاب الكافرين وما أعده لهم ذكر حسن حال المؤمنين وما أنعم به عليهم فقال :

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ﴾ وحده لا شريك له .

﴿ ثم استقاموا ﴾ أي داموا وثبتوا على التوحيد ولم يلتفتوا الى إلّه غير الله وثم للتراخي في الزمان من حيث أن الاستقامة أمر يمتد زمانه أفاده أبو السعود وقال الخطيب ثم لتراخي الرتبة في الفضيلة فإن الثبات على التوحيد ومصحاته إلى الممات في علو رتبته أمر لا يرام إلا بتوفيق ذي الجلال والاكرام قال جماعة من الصحابة والتابعين معنى الاستقامة إخلاص العمل لله تعالى .

وقال قتادة وابن زيد ثم استقاموا على طاعة الله وقال الحسن استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة استقاموا على شهادة أن لا إلّه إلا الله حتى ماتوا وقال الثوري عملوا على وفاق ما قالوا وقال الربيع أعرضوا عما سوى الله وقال الفضيل بن عياض زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية .

عن أنس قال : « قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية قال: قد قالها ناس من الناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حين يموت فهو ممن استقام عليها » أخرجه الترمذي والنسائي والبزار وأبو يعلى وغيرهم وقال أبو بكر الصديق الاستقامة أن لا يشركوا بالله شيئاً وعنه قال لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان قال أبو حيان قال ابن عباس نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق وعن بعض الصحابة قال ثم استقاموا على فرائض الله .

وعن عمر بن الخطاب قال : استقاموا بطاعة الله لم يروغوا روغان الثعلب وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمي والبخاري في تاريخه ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان عن سفيان بن عبدالله الثقفي أن رجلاً قال : « يا رسول الله مرني بأمر في الاسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : قل

آمنت بالله ثم استقم . قلت : فما أتقي ؟ فأومأ إلى لسانه[1]» قال الترمذي : حسن صحيح .

﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ من عند الله بالبشرى التي يريدونها من جلب نفع أو دفع ضر أو رفع حزن قال ابن زيد ومجاهد تتنزل عليهم عند الموت وقال مقاتل وقتادة إذا قاموا من قبورهم للبعث وقال وكيع البشرى في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث قال البيضاوي أو في حياتهم فيما يعرض لهم من الأحوال تأتيهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن .

﴿ أن لا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ أن هي المخففة أو المفسرة أو الناصبة ولا على الوجهين الأولين ناهية وعلى الثالث نافية والمعنى لا تخافون مما تقدمون عليه من أمور الآخرة ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل وولد ومال .

قال مجاهد لا تخافوا الموت ولا تحزنوا على أولادكم فإن الله خليفتكم عليهم وقال عطاء لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم والظاهر عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين وعدم تقييد نفي الخوف والحزن بحالة مخصوصة كما يشعر به حذف المتعلق في الجميع والخوف غم يلحق النفس لتوقع مكروه في المستقبل والحزن غم يلحقها لفوات نفع في الماضي .

﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ بها على ألسنة الرسل في الدنيا فإنكم واصلون اليها مستقرون بها خالدون في نعيمها ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من ذلك كله فقال ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ أي نحن المتولون لحفظكم ومعونتكم في أمور الدنيا وأمور الآخرة ومن كان الله وليه فاز بكل مطلب ونجا من كل مخافة وقيل إن هذا من قول الملائكة .

---

(١) مسلم ٦٥/١ ـ السيوطي في الدر ٣٦٣/٥ .

قال مجاهد يقولون لهم نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة.

وقال السدي نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وأنصاركم وأحباؤكم وأولياؤكم في الآخرة وقيل أنهم يشفعون لهم في الآخرة ويتلقونهم بالكرامة وقال النسفي رحمه الله كما أن الشياطين قرناء العصاة والكافرين فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ من صنوف الكرامات واللذات وانواع النعم ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ أي تتمنون افتعال من الدعاء بمعنى الطلب.

وقد تقدم بيان معنى هذا في قوله ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ مستوفى ، والفرق بين الجملتين أن الأولى باعتبار شهوات أنفسهم، والثانية باعتبار ما يطلبونه ، أعم من أن يكون مما تشتهيه أنفسهم أولاً ، إذ لا يلزم أن يكون كل مطلوب مشتهى ، كالفضائل العلمية ، وإن كان الأول أعم أيضاً من وجه بحسب حال الدنيا فالمريض لا يريد ما يشتهيه ويضر مرضه إلا أن يقال التمني أعم من الارادة ، وقال الرازي : الأقرب عندي أن قوله : ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ إشارة الى الجنة الروحانية المذكورة في قوله ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ الآية .

وانتصاب ﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ على الحال من الموصول ، أو من عائده أو من فاعل تدعون أو هو مصدر مؤكد لفعل محذوف أي أنزلنا نزلاً والنزل ما يعد لهم حال نزولهم من الرزق والضيافة ، قال النسفي : هو رزق النزيل وهو الضيف ، وقد تقدم تحقيقه في سورة آل عمران قال أهل المعاني كل هذه الأشياء المذكورة في هذه الآية جارية مجرى النزل ، والكريم إذا أعطى هذا النزل ، فما ظنك بما بعده من الألطاف والكرامة .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله ﴾ أي الى توحيده وطاعته قال الحسن هو المؤمن أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس الى ما أجاب الله فيه من طاعته ﴿ وعمل صالحاً ﴾ في إجابته ﴿ وقال إنني من المسلمين ﴾ لربي ، وليس الغرض منه القول فقط بل يضم إليه إعتقاد القلب فيعتقد بقلبه دين الإسلام مع التلفظ ، أي قال ذلك ابتهاجاً بالإسلام وفرحاً به واتخاذاً له ديناً ومذهباً وتفاخراً به ، **قال** ابن سيرين والسدي وابن زيد : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروي هذا أيضاً عن الحسن .

وقال عكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد : نزلت في المؤذنين قالت عائشة الداعي الى الله المؤذن والعمل الصالح ركعتان فيما بين الأذان والإقامة وعنها قالت : ما أرى هذه الآية نزلت إلا في المؤذنين ، ويجاب عن هذا بأن الآية مكية والأذان إنما شرع بالمدينة والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ ، ويدخل فيها من كان سبباً لنزولها دخولاً أولياً ، فكل من جمع بين دعاء العباد الى ما شرعه الله وعمل عملاً صالحاً ، وهو تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه .

وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم ، فلا شيء أحسن منه ولا أوضح من طريقته ، ولا أكثر ثواباً من عمله ، قيل : وللدعوة الى الله مراتب الأولى

دعوةالأنبياء الى الله بالمعجزات ، وبالحجج والبراهين ، وبالسيف ، وهذه المرتبة لم تتفق لغير الأنبياء . المرتبة الثانية : دعوة العلماء الى الله بالحجج والبراهين فقط ، والعلماء أقسام علماء بالله وعلماء بصفات الله وعلماء بأحكام الله . المرتبة الثالثة دعوة المجاهدين الى الله بالسيف والسنان ، فهم يجاهدون الكفار حتى يدخلوا في دين الله وطاعته . المرتبة الرابعة دعوة المؤذنين الى الصلاة فهم أيضاً دعاة الى الله والى طاعته .

ثم بين سبحانه الفرق بين محاسن الأعمال ومساويها فقال :

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ أي لا تستوي الحسنة التي يرضى بها الله ويثيب عليها ، ولا السيئة التي كرهها الله ويعاقب عليها ، ولا وجه لتخصيص الحسنة بنوع من أنواع الطاعات وتخصيص السيئة بنوع من أنواع المعاصي ، فإن اللفظ أوسع من ذلك ، وقيل الحسنة التوحيد والسيئة الشرك وقيل الحسنة المدارة، والسيئة الغلظة وقيل الحسنة العفو والسيئة الانتصار وقيل الحسنة العلم ، والسيئة الفحش ، وقيل غير ذلك . قال الفراء (لا) في (ولا السيئة) زائدة ، والجملة مستأنفة سيقت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد ، إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب ، ترغيباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصبر على أذية المشركين ، ومقابلة إساءتهم بالإحسان .

﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ استئناف مبين لحسن عاقبة الحسنة ، أي ادفع السيئة اذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، ومنه مقابلة الاساءة بالإحسان ، والذنب بالعفو ، والغضب بالصبر ، والإغضاء عن الهفوات ، والاحتمال للمكروهات ، قال ابن عباس أمر المسلمين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل : والعفو عند الاساءة ؛ فاذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم وقال ابن عباس القه بالسلام وقال مجاهد وعطاء : بالتي هي أحسن يعني بالسلام إذا لقي من

يعاديه ، وقيل بالمصافحة عند التلاقي .

والمعنى أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما ، فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها اذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك ، كما لو أساء إليك رجل إساءة فالحسنة أن تعفو عنه والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ، أو يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه ، ووضع التي هي أحسن موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة ، لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها .

﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ هذه هي الفائدة الحاصلة من الدفع بالتي هي أحسن ، والمعنى أنك اذا فعلت ذلك الدفع صار العدو كالصديق ، والبعيد عنك كالقريب منك ، وقال مقاتل : نزلت في أبي سفيان ابن حرب كان معادياً للنبي صلى الله عليه وسلم ، فصار له ولياً بالمصاهرة التي وقعت بينه وبينه ، ثم أسلم فصار ولياً في الإسلام ، حميماً بالصهارة ، وقيل غير ذلك ، والأولى حمل الآية على العموم .

﴿ وما يلقاها ﴾ قال الزجاج : أي ما يلقى هذه الفعلة وهذه الحالة وهي دفع السيئة بالحسنة ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ على كظم الغيظ ، واحتمال المكروه ، وتجرع الشدائد ، وترك الانتقام . وقال أنس : الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنت صادقاً غفر الله لي ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك .

﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ في الثواب والخير ، أو من الخلق الحسن وكمال النسب ، وهذا أنسب . وقال قتادة : الحظ العظيم الجنة أي ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة ، وقيل الضمير في يلقاها عائد الى الجنة ، وقيل راجعة الى كلمة التوحيد ، قرأ الجمهور ؛ يلقاها من التلقية ، وقرىء تلاقاها من الملاقاة ثم أمر سبحانه بالاستعاذة من الشيطان فقال :

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزع ﴾ النزغ شبيه النخس ، شبه به الوسوسة لأنها تبعث على الشر ، وجعل النزغ نازغاً على سبيل المجاز العقلي ، كقولهم جد جده ، أو أريد : وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر ، أو لتسويله ، والمعنى : وإن صرفك الشيطان عن شيء مما شرعه الله لك أو عن الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من شره وامض على حلمك ولا تطعه .

وجملة . ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ تعليل لما قبلها ، أي السميع لكل ما يسمع ، ومنه استعاذتك ، والعليم بكل ما يعلم ومنه فعلك وأحوالك ، ومن كان كذلك فهو يعيذ من استعاذ به ، وقال هنا بزيادة هو وأل ، وفي الأعراف بدونهما ، لأن ما هنا متصل بمؤكد بالتكرار وبالحصر ، فناسب التأكيد بما ذكر ، وما في الأعراف خلي عن ذلك ، فجرى على القياس من كون المسند اليه معرفة والمسند نكرة .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سليمان بن صرد قال : استب

رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد غضب أحدهما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فقال الرجل : أمجنون تراني فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ » .

ثم شرع سبحانه في بيان بعض آياته البديعة ، الدالة على كمال قدرته وقوة تصرفه للاستدلال بها على توحيده فقال :

﴿ ومن آياته الليل والنهار ﴾ في تعاقبهما على حد معلوم ، وتناوبهما على قدر مقسوم ﴿ والشمس والقمر ﴾ في اختصاصهما بسير مقدر ونور مقرر ، هذا رد على قوم عبدوا الشمس والقمر ، وإنما تعرض للأربعة مع أنهم لم يعبدوا الليل والنهار للإيذان بكمال سقوط الشمس والقمر عن رتبة السجودية لهما ، بنظمهما في المخلوقية في سلك الأعراض التي لا قيام لها بذاتها ، وهذا هو السر في نظم الكل في سلك آياته ، ثم لما بين أن ذلك من آياته نهاهم عن عبادة الشمس والقمر ، وأمرهم أن يسجدوا لله عز وجل فقال : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ﴾ لأنهما مخلوقان من مخلوقاته وإن كثرت منافعهما فلا يصح أن يكونا شريكين له في ربوبيته .

﴿ واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ أي هذه الأربعة المذكورة ، لأن جمع ما لا يعقل حكمه حكم جمع الاناث ، أو الآيات ، أو الشمس والقمر ، لأن الاثنين جمع عند جماعة من الأئمة . قال السمين : وإنما عبر عن الأربع بضمير الإناث مع أن فيها ثلاثة مذكرة والعادة تغليب المذكر على المؤنث ، لأنه لما قال : ومن آياته فنظم الأربعة في سلك الآيات صار كل واحد منها آية فعبر عنها بضمير الاناث في قوله : خلقهن .

﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ قيل : كان ناس يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله ، فنهوا عن ذلك ، فهذا وجه تخصيص ذكر السجود بالنهي عنه ،

وقيل : وجه تخصيصه أنه أقصى مراتب العبادة .

وهذه الآية من آيات السجود بلا خلاف ، وإنما اختلفوا في موضع السجدة فقيل : موضعها عند قوله ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ ، لأنه متصل بالأمر ، وقيل عند قوله ﴿ وهم لا يسأمون ﴾ لأنه تمام الكلام ، وعن ابن عباس أنه كان يسجد بآخر الايتين من حم السجدة ، وكان ابن مسعود يسجد بالأولى منهما ، وعن ابن عمر انه كان يسجد بالأولى ويسجد بالآية الأخيرة .

﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ أي إن استكبر هؤلاء عن الامتثال فدعهم وشأنهم ، فإن لله عباداً يعبدونه كالملائكة يديمون التسبيح لله سبحانه بالليل والنهار ، أو يصلون له وهم لا يملون ولا يفترون ، يعني أن الله لا يعدم عابداً أبداً ، بل من خلقه من يعبده على الدوام ، والعندية عندية مكانة وتشريف ، وفي الحديث « أنا عند ظن عبدي بي »و « أنا عند المنكسرة قلوبهم » .

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على قدرته ووحدانيته ﴿ أنك ﴾ الخطاب لكل من يصلح له ، أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ترى الأرض ﴾ أي بعضها بحاسة البصر ، وبعضها بعين البصيرة ، قياساً على ما أبصرت ﴿ خاشعة ﴾ يابسة لا نبات فيها ، متطامنة ، وهي أنسب بلفظ خاشعة ، والخاشعة اليابسة الجدبة الجامدة ، وقيل : الغبراء التي لاتنبت ، قال الأزهري . اذا يبست الأرض ولم تمطر ، قيل : قد خشعت والخشوع التذلل والتقاصر ، فاستعير لحال الأرض اذا كانت قحطة لا نبات فيها ، كما وصفها بالهمود في قوله تعالى ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو كما قال : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء ﴾ أي ماء المطر أو غيره ﴿ اهتزت ﴾ تحركت بالنبات حركة عظيمة كثيرة سريعة فكان كمن يعالج ذلك بنفسه ، يقال اهتز الانسان إذا تحرك .

﴿وربت﴾ انتفخت وعلت قبل أن تنبت ، قاله مجاهد وغيره أي تصدعت عن النبات بعد موتها ، وعلى هذا ففي الكلام تقديم وتأخير

وتقديره : ربت واهتزت وقيل : الاهتزاز والربو قد يكونان قبل خروج النبات من الأرض وقد يكونان بعده ، ومعنى الربو لغة الارتفاع . كما يقال للموضع المرتفع : ربوة ورابية فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد في جسمه بالكبر طولاً وعرضاً .

وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الحج ، وقيل اهتزت استبشرت بالمطر وربت انتفخت بالنبات ، وقيل تشققت فارتفع ترابها . وخرج منها النبات وسما في الجو مغطياً لوجهها ، وتشعبت عروقه وغلظت سوقه ، فصار يمنع سلوكها على ما كانت فيه من السهولة ، وتزخرفت بذلك النبات كأنها بمنزلة المختال في زيه . لما كانت قبل ذلك كالذليل ، وقرأ أبو جعفر وخالد ربأت ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى ﴾ بالبعث والنشور ﴿ انه على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه شيء كائناً ما كان .

﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا ﴾ أي يمليون عن الحق والاستقامة في آياتنا بالطعن والتحريف ، والتأويل الباطل ، واللغو فيها ، والإلحاد الميل والعدول ومنه اللحد في القبر ، لأنه أميل الى ناحية منه ، يقال : الحد في دين الله أي مال عنه وعدل ، ويقال لحد وهو لغة فيه ، وقد تقدم تفسير الإلحاد ، ويقال : ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق ، فاستعير لحال الأرض اذا كانت ملحودة ، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة ، قال مجاهد : معنى الآية يميلون عن الايمان بالقرآن ، وقال أيضاً : يميلون عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصدية ، واللغو والغناء ، وقال قتادة يكذبون في آياتنا ، وقال السدي : يعاندون ويشاقون ، وقال ابن زيد : يشركون ، والمعاني متقاربة ، وقال ابن عباس في الآية ؛ هو أن يضع الكلام في غير موضعه .

﴿ لا يخفون علينا ﴾ بل نحن نعلمهم فنجازيهم بما يعملون ، قيل : نزلت في أبي جهل ، ثم بيّن كيفية الجزاء والتفاوت بين المؤمن والكافر فقال : ﴿ أفمن يلقى في النار خير . أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ الاستفهام

للتقرير ، والغرض منه التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار ، وأن المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة .

وظاهر الآية العموم اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهو تمثيل للكافر والمؤمن ، وقيل : المراد بمن يلقى في النار أبو جهل ، ومن يأتي آمناً النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل حمزة وقيل عمر بن الخطاب وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسود المخزومي ، وقال ابن عباس : أبو جهل ابن هشام ومن يأتي آمناً يوم القيامة أبو بكر الصديق . وعن بشير بن تميم قال : نزلت في أبي جهل وعمار بن ياسر ، وعن عكرمة مثله ، وكان الظاهر أن يقال أم من يدخل الجنة ؟ وعدل عنه للتصريح بأمنهم ، وانتفاء الخوف عنهم ، قاله الكرخي . وترسم (أم) مفصولة من (من) اتباعاً للمصحف الامام .

﴿ اعملوا ﴾ هذا أمر تهديد ، أي اعملوا من أعمالكم التي تلقيكم في النار ﴿ ما شئتم ﴾ فهو مجازيكم على كل ما تعملون ، قال الزجاج : لفظه لفظ الأمر ، ومعناه الوعيد ، وقال ابن عباس : هذا لأهل بدر خاصة ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ لا تخفى عليه منه خافية فيجازيكم عليه .

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، وخبر إن محذوف أي إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم ، أو هالكون . أو يعذبون . وقيل هو قوله : ﴿ ينادون من مكان بعيد ﴾ وهذا بعيد وإن رجحه أبو عمرو بن العلاء ، وذكر السمين في خبر إن أعاريب ووجوهاً لا نطول بذكرها ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن الذي كانوا يلحدون فيه ﴿ لكتاب عزيز ﴾ عن أن يعارض أو يطعن فيه الطاعنون منيع عن كل عيب محمي بحماية الله وقيل : عديم نظيره ، وذلك أن الخلق عجزوا عن معارضته ، وقيل : أعزه الله بمعنى منعه أي ممتنع عن قبول الابطال والتحريف .

ثم وصفه بأنه حق لا سبيل للباطل إليه بوجه من الوجوه فقال :

لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ قال الزجاج : معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه . وبه قال قتادة والسدي ومعنى الباطل على هذه الزيادة والنقصان ، وقال مقاتل لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ، ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله ، وبه قال الكلبي وسعيد بن جبير ، وقيل : الباطل هو الشيطان أي لا يستطيع أن يزيد فيه ولا ينقص منه . وقيل : لا يزاد فيه ولا ينقص منه ، لا من جبريل ولا من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل لا يأتيه التبديل والتناقض بوجه من الوجوه ، وقيل : لا يأتيه الباطل عما أخبر فيما تقدم من الزمان ، ولا فيما تأخر ، وقيل : إن الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات ، حتى يصل إليه والمعنى كل ما فيه حق وصدق ، ليس فيه ما لا يطابق الواقع ، والعموم أولى .

﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أو صفة أخرى لكتاب ثم سلى سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عما كان يتأثر له من أذية الكفار فقال ﴿ ما يقال لك ﴾ من هؤلاء الكفار من وصفك بالسحر والكذب والجنون ﴿ إلا ﴾ مثل ﴿ ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثل

ما يقول لك هؤلاء ، وقيل : المعنى ما يقال لك من التوحيد وإخلاص العبادة لله إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك وقيل هو استفهام أي أيُّ شيء يقال لك .

﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ لمن يستحق مغفرته من الموحدين الذين تابعوك وتابعوا من قبلك من الأنبياء ﴿ وذو عقاب أليم ﴾ للكفار المكذبين المعادين لرسل الله ، وقيل : لذو مغفرة للأنبياء وذو عقاب لأعدائهم .

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً ﴾ أي لو جعلنا هذا القرآن الذي تقرأه على الناس بغير لغة العرب ، ولا حجة فيه لأبي حنيفة رحمه الله في جواز الصلاة اذا قرأ بالفارسية كما زعمه النسفي وغيره لأن التركيب خارج مخرج الفرض والتقدير دون الوقوع والتحقيق ﴿ لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ أي بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم لغة العجم والاستفهام في قوله ﴿ أأعجمي وعربي ﴾ للإنكار وهو من جملة قول المشركين ، أي لقالوا : كلام أعجمي ورسول عربي ، والأعجمي الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم ، والياء للمبالغة في الوصف كأحمري ، وليس النسب فيه حقيقياً .

وقال الرازي في لوامحه : هي كياء كرسي ويختي ، وفرق بينهما الشيخ ، والأعجم ضد الفصيح وهو الذي لا يبين كلامه ، ويقال للحيوان غير الناطق أعجم ، وقيل المراد هلا فصلت آياته فجعل أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب ، قال ابن عباس : يقول لو جعلنا القرآن أعجمياً ولسانك يا محمد عربي لقالوا أعجمي وعربي تأتينا به مختلفاً أو مختلطاً هلاَّ بينت آياته فكان القرآن مثل اللسان يقول ، فلم نفعل لئلا يقولوا فكانت حجة عليهم قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي أأعجمي بهمزتين مخففتين وقرىء بهمزة واحدة وقرىء بتسهيل الثانية بين بين :

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم فقال :

﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ أي يهتدون به الى الحق ويستشفون

به من كل شك وشبهة ، ومن الأسقام والآلام ، قال الشهاب : رد عليهم بأنه هاد لهم ، شاف لما في صدورهم ، كاف في دفع الشبهة فلذا ورد بلسانهم معجزاً بيناً في نفسه مبيناً لغيره .

﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ أي صمم عن سماعه ، وفهم معانيه ولهذا تواصوا باللغو فيه والموصول مبتدأ خبره في آذانهم وقر ، والموصول الثاني عطف على الأول ، ووقر عطف على هدى ، عند من جوز العطف على معمولي عاملين مختلفين والتقدير هو للأولين هدى وشفاء وللآخرين وقر في آذانهم .

﴿ وهو عليهم عمى ﴾ وذلك لتصامهم عن سماعه ، وتعاميهم عما يريهم من الآيات ، قال قتادة : عموا عن القرآن وصموا عنه . وقال السدي عميت قلوبهم عنه والمعنى وهم عليه ذو عمى ، ووصف بالمصدر للمبالغة ، وقيل : المعنى والوقر عليهم عمى ، أي ظلمة وشبهة ، قرأ الجمهور عمى بفتح الميم منونة على أنه مصدر .

وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص وابن عمر بكسر الميم منونة على أنه إسم منقوص على أنه وصف به مجازاً . وقرىء بكسر الميم وفتح الياء على أنه فعل ماض ، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى .

﴿ أولئك ﴾ أي الذين لا يؤمنون ﴿ ينادون من مكان بعيد ﴾ مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم للقرآن بحال من ينادي من مسافة بعيدة لا يسمع من يناديه منها ، قال الفراء : تقول للرجل الذي لا يفهم كلامك أنت تنادي من مكان بعيد ، ففيه استعارة تمثيلية ، وقال الضحاك ينادون يوم القيامة بأقبح أسمائهم من مكان بعيد وقال مجاهد من مكان بعيد من قلوبهم .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ كلام مستأنف يتضمن تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يحصل له من الاغتمام بكفر قومه

وطعنهم في القرآن فأخبره أن هذه عادة قديمة في أمم الرسل ، غير مختصة بقومك ، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة اليهم ، والمراد بالكتاب التوراة وضمير فيه راجع اليه وقيل يرجع الى موسى والأول أولى ، يعني قال بعضهم هو حق ، وقال بعضهم هو باطل ، كما اختلف قومك في كتابك فمصدق به ومكذب .

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ في تأخير العذاب عن المكذبين بالقرآن من أمتك وإمهالهم كما في قوله : ﴿ ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى ﴾ ﴿ لقضى بينهم ﴾ بتعجيل العذاب لمن كذب منهم قال قتادة أي سبق لهم من الله حين وأجل هم بالغوه .

﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ أي من كتابك المنزل عليك وهو القرآن ومعنى الشك المريب الموقع في الريبة والشديد الريبة ، وقيل : إن المراد اليهود ، وأنهم في شك من التوراة مريب ، والأولى أولى .

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي من أطاع الله وآمن برسله ولم يكذبهم فثواب ذلك راجع إليه ، ونفعه خاص به ﴿ ومن أساء فعليها ﴾ أي عقاب إساءته عليه لا على غيره ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ فلا يعذب أحداً إلا بذنبه ، ولا يقع منه الظلم لأحد ، كما في قوله سبحانه ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ وظلام صيغة نسب كتمّار ، وبقال ، وخباز ، لا صيغة مبالغة ، وهذا التقرير أحسن من غيره .

وقال الكرخي : ليس بذي ظلم أشار به الى أن ظلام ليس على بابه ، وقد تقدم الكلام على معنى هذه الآية في سورة آل عمران عند قوله : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ وفي سورة الأنفال أيضاً ثم أخبر سبحانه أن علم القيامة ووقت قيامها لا يعلمه غيره فقال :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ أي علم سؤال الساعة ، أي السؤال عنها أي علم جواب هذا السؤال ، فإذا وقع السؤال عنها وجب على المسؤول أن يرد علمها إليه لا إلى غيره ، وأخذ الحصر من تقديم المعمول ، وقد روي أن المشركين قالوا : يا محمد إن كنت نبياً فخبرنا متى تقوم الساعة ، فنزلت هذه الآية ﴿ وما تخرج من ثمرات من أكمامها ﴾ ما نافية ومن الأولى للاستغراق ؛ والثانية لابتداء الغاية وقيل ما موصولة في محل جر عطفاً على الساعة أي علم الساعة وعلم التي تخرج ، والأولى أولى .

والأكمام جمع كم بكسر الكاف ، وهو روي الثمرة ، ويطلق على كل ظرف لمال أو غيره ، قال أبو عبيدة أكمامها أوعيتها ، وهي ما كانت فيه الثمرة واحدها : كم وكمة ، قال الراغب : الكم ما يغطي اليد من القميص وما يغطي الثمرة وجمعه أكمام ، وهذا يدل على أن الكم بضم الكاف لأنه جعله مشتركاً بين كم القميص وكم الثمرة ، ولا خلاف في كم القميص أنه بالضم ، ويمكن أن يقال : إن في الكم الذي هو وعاء الثمر لغتين ، قرأ الجمهور من ثمرة بالافراد على إرادة الجنس ، وقرىء بالجمع للاختلاف في أنواع الثمار ، قال قتادة من أكمامها حين تطلع .

﴿ وما تحمل من أنثى ﴾ حملاً في بطنها ﴿ ولا تضع ﴾ ذلك الحمل ﴿ إلا بعلمه ﴾ أي علم الله سبحانه والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي ما

يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع في حال من الأحوال ملابساً لشيء من الأشياء إلا كائناً بعلم الله ، فإليه يرد علم الساعة كما يرد إليه علم هذه الأمور الحادثة ، وفيه دليل على أن أصحاب الكشف والكهان وأهل النجوم لا يمكنهم القطع والجزم في شيء مما يقولونه البتة ، وإنما غايته ادعاء ظن ضعيف ، أو وهم خفيف ، قد لا يصيب ، وعلم الله هو العلم اليقين المقطوع به الذي لا يشركه فيه أحد .

﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي ينادي الله سبحانه المشركين ، وذلك يوم القيامة فيقول لهم : ﴿ أين شركائي ﴾ الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في الدنيا ، من الأصنام وغيرها ، فادعوهم الآن فليشفعوا لكم ، أو يدفعوا عنكم العذاب وهذا على طريقة التهكم بهم والتقريع لهم ، وأضافهم الى نفسه على زعمهم الباطل ، والعامل في يوم محذوف أي اذكر .

﴿ قالوا ﴾ أي يقولون ، فالماضي بمعنى المضارع ﴿ آذناك ﴾ أي اعلمناك قال ابن عباس يقال : آذن يؤذن إذا أعلم أي أعلمناك وقيل : أخبرناك ، قال النسفي : وهو الأظهر إذ الله تعالى كان عالماً بذلك ، وإعلام العالم محال إنما الاخبار للعالم بالشيء يتحقق بما علم به إلا أن يكون المعنى إنك علمت من قلوبنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه اذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه انتهى .

﴿ ما منا من شهيد ﴾ يشهد بأن لك شريكاً ، وذلك أنهم لما عاينوا القيامة تبرأوا من الشركاء ، وتبرأت منهم تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها ، وقيل : لهم بأنهم كانوا محقين ، والأول أولى .

﴿ وضل عنهم ﴾ أي غاب وزال وبطل في الآخرة ﴿ ما كانوا يدعون من قبل ﴾ في الدنيا من الأصنام ونحوها ﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ أي أيقنوا وعلموا أنه لا مهرب لهم من العذاب ، يقال : حاص يحيص حيصاً إذا هرب وقيل ، الظن على معناه الحقيقي لأنه بقي لهم في تلك الحال ظن ورجاء ، والأول أولى ، ثم ذكر سبحانه بعض أحوال الانسان فقال :

لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

﴿ لا يسأم الإنسان من دعـاء الخير ﴾ أي لا يمـل من دعاء الخيـر لنفسه وجلبـه اليه ، ولا يـزال يسأل ربـه المال والخير هنا المـال والصحـة والسلطان والرفعة . قال السدي : والإنسان هنا يراد به الكافر ، وقيل الوليد بن المغيرة ، وقيـل عتبة وشيبـة ابنا ربيعـة وأمية بن خلف والأولى حمـل الآية على العمـوم باعتبار الغـالب ، فلا ينـافيه خـروج خلص العباد ، وقـرأ ابن مسعود من دعـاء المال.

﴿ وإن مسه الشر ﴾ أي البـلاء والشدة والفقـر والمرض ﴿ فيئـوس ﴾ من روح الله ﴿ قنوط ﴾ من رحمته ، واليـأس من صفة القلب وهـو قطع الـرجاء ، والقنوط إظهار آثاره على ظاهر البدن ، والحـال المحلي يقتضي ترادفهمـا ، وبه قال بعضهم فالجمع بينهما للتأكيد ، وقيـل يؤوس من إجابـة دعائـه قنوط بسـوء الظن بربه ، وقيل يؤوس من زوال ما به من المكـروه ، قنوط بمـا يحصل لـه من ظن دوامه وهما صيغتا مبالغة تدلان على أنه شديد اليأس، عظيم القنوط وبولغ فيـه من طريقين من طريق بناء فعول كما أشرنا ومن طريق التكرير مع ما في القنوط

من ظهور أثر اليأس لأن القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر أي يقطع الرجاء من فضل الله وروحه، وهذا صفة الكافر بدليل قوله تعالى ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ﴾ أي ولئن آتيناه خيراً وعافية وغنى من بعد شدة ومرض وفقر ﴿ ليقولن ﴾ جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف لسد جواب القسم مسده ﴿ هذا لي ﴾ أي هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي ، فظن أن تلك النعمة التي صار فيها وصلت إليه باستحقاقه لها ، ولم يعلم أن الله يبتلي عباده بالخير والشر ليتبين له الشاكر من الجاحد ، والصابر من الجزع .

قال مجاهد : معناه هذا بعملي وأنا محقوق به ، أو هذا لي دائماً لا يزول ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي ما أظنها تقوم كما يخبرنا بها الأنبياء أو لست على يقين من البعث ، وهذا خاص بالكافرين والمنافقين ، فيكون المراد بالإنسان المذكور في صدر الآية الجنس باعتبار غالب أفراده ، لأن اليأس من رحمة الله والقنوط من خيره والشك في البعث لا يكون إلا من الكافرين او المتزلزلين في الدين المتظهرين بالاسلام المبطنين للكفر .

﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ رجعت الى ربي ﴾ على تقدير صدق ما يخبرنا به الأنبياء من قيام الساعة وحصول البعث والنشور ﴿ إن لي عنده للحسنى ﴾ جواب القسم لسبقه الشرط ، أي للحالة الحسنى من النعمة والكرامة ، فظن أنه استحق خير الدنيا بما فيه من الخير واستحق خير الآخرة بذلك الذي اعتقده في نفسه ، وأثبته لها ، وهو اعتقاد باطل ، وظن فاسد ، وقد تضمن الكلام مبالغات حيث أكد بالقسم ، وإن ، وتقديم الظرفين ، والعدول الى صيغة التفضيل اذ الحسنى تأنيث الأحسن .

﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ﴾ أي لنخبرنهم به يوم القيامة وهذا جواب لقول الكافر ولئن رجعت الى آخره ، أي ليس الأمر كما يزعم وإنما له

العقـاب الشديـد كما قـال ﴿ ولنذيقنهم من عـذاب غليظ ﴾ بسبب ذنـوبهم ، واللام هذه والتي قبلها هي الموطئة للقسم .

﴿ وإذا أنعمنــا على الإنسـان ﴾ أي على هــذا الجنس من حيث هـو ، باعتبار غـالب أفراده ﴿ أعـرض ﴾ عن الشكر ﴿ ونـأى بجانبـه ﴾ أي ترفـع عن الانقيـاد للحق، وتكبر وتجبـر ، وثنى عطفـه متبختراً ، كنـاية عن الإعـراض . وقيل : انحرف عنه أو ذهب بنفسه وتباعد عنه بكليته تكبـراً والجانب هنـا مجاز عن النفس ، ونـأى بمعنى بعد ، يقـال : نأيت وتنـاءيت أي بعدت وتبـاعـدت والمنتأى الموضع البعيد ، وقرىء ناء بالألف قبل الهمزة .

﴿ وإذا مسه الشر ﴾ أي البلاء والجهد والفقر والمرض ﴿ فذو ﴾ أي فهو ذو ﴿ دعاء عريض ﴾ أي كثيـر ، والعرب تستعمـل العرض والـطول في الكثرة مجازاً يقال : أطال فلان في الكلام وأعرض في الدعاء اذا أكثر ، فهو مستعـار مما له عرض متسع ، للإشعار بكثرته ، فـإن العريض يكـون ذا أجزاء كثيـرة ، والاستعارة تخييلية ، شبه الدعـاء بأمـر يوصف بـالامتداد ، ثم ثبت لـه العرض قـاله الكـرخي والطول أطـول الامتدادين ، فـإذا كان عـرضه كـذلك فمـا ظنك بطوله ، أفاده أبو السعود .

والمعنى أنه إذا مسه الشر تضرع الى الله واستغاث به أن يكشف عنـه ما نزل به ، واستكثر من ذلك فذكره في الشـدة ونسيه في الـرخاء ، واستغـاث به عند نزول النقمة ، وتركه عند حصول النعمة وهذا صنيع الكافرين ، ومن كـان غير ثابت القدم من المسلمين قال الشهاب فإن قلت : كونه يدعو دعـاء طويـلاً عـريضاً ينـافي وصفه قبـل هذا بـأنه يؤوس قنوط ، لأن الـدعـاء فـرع الـطمـع والرجاء ، وقد اعتبر في القنوط ظهور أثر اليأس ، فظهور مـا يدل على الـرجاء يـأباه ، قلت: يمكن دفـع المنافـاة بحمله على عدم اتحـاد الأوقات والأحـوال انتهى ، أو لعل هذا شأن بعض غير البعض الذي حكى عنه اليـأس والقنوط ، أو شأن الكل في بعض الأوقات ، ذكره أبو السعود .

ثم رجع سبحانه الى مخاطبة الكفار ومحاجتهم فقال : ﴿ قل أرأيتم ﴾ أي أخبروني عن حالتكم العجيبة ، واستعمال أرأيتم بمعنى الاخبار مجاز ، ووجه المجاز أنه لما كان العلم بالشيء سبباً للإخبار عنه أو الإبصار به طريقاً الى الإحاطة به علماً ، والى صحة الإخبار عنه استعملت الصيغة التي لطلب العلم او لطلب الإبصار في طلب الخير لاشتراكهما في الطلب ، ففيه مجازان : استعمال رأى التي بمعنى علم أو أبصر في الإخبار ، واستعمال الهمزة التي هي لطلب الرؤية في طلب الإخبار قاله الشهاب .

﴿ إن كان ﴾ القرآن ﴿ من عند الله ﴾ كما قلت ﴿ ثم كفرتم به ﴾ أي كذبتم به ، ولم تقبلوه ولا عملتم بما فيه ﴿ من أضل ممن هو في شقاق ﴾ خلاف ﴿ بعيد ﴾ عن الحق أي لا أحد أضل منكم لفرط شقاوتكم ، وشدة عداوتكم والأصل أي شيء أضل منكم فوضع من هو في شقاق موضع الضمير لبيان حالهم في المشاقة ، وأنها السبب الأعظم في ضلالهم .

﴿ سنريهم آياتنا ﴾ أي دلالات صدق القرآن وعلامات كونه من عند الله ﴿ في الآفاق ﴾ جمع أفق بضم الهمزة والفاء ، كذا قال أهل اللغة ، كأعناق وعنق ، وهو الناحية ، ونقل الراغب أنه يقال . أفق بفتحهما كجبل وأجبال ، والمعنى سنريهم آياتنا في النواحي على ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية ، وما يسر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب على وجه خارق للعادة ، وقال القرطبي أي علامات وحدانيتنا وقدرتنا في الآفاق ، يعني خراب منازل الأمم الماضية وربوع القرون الخالية .

﴿ وفي أنفسهم ﴾ قال ابن زيد : في الآفاق آيات السماء وفي أنفسهم حوادث الأرض وقال مجاهد في الآفاق فتح القرى التي يسر الله فتحها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا ، وبلاد المشرق والمغرب عموماً ، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوح التي لم

يتيسر مثلها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، أو من الظهور على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم ، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة عن المعهود ، خارقة للعادات ، وفي أنفسهم فتح مكة ورجح هذا ابن جرير ، واختاره المنهال بن عمرو والسدي .

وقال قتادة والضحاك في الآفاق يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغير ذلك وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، حتى في سبيل الغائط والبول فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد ، ويتميز ذلك خارجاً من مكانين ، وحتى في عينيه اللتين ينظر بهما من الأرض الى السماء مسيرة خمسمائة عام ، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة وغير ذلك من بديع حكمة الله تعالى فيه .

فإن قيل : قوله سنريهم الخ يقتضي أنه الى الآن ما أطلعهم على تلك الآيات وسيطلعهم عليها بعد ذلك ، مع أن الآيات المذكورة قد اطلعوا عليها وهي منهم نصب العين ، والجواب أن المراد على هذا سنريهم أسرار آياتنا الخ فالآيات وان اطلعوا عليها بالفعل لكن سرها وحكمها لم يطلعوا عليه قاله الكرخي .

وعن ابن جريج في الآية قال أمسك المطر عن الأرض كلها . وفي أنفسهم قال البلايا التي تكون في أجسامهم وقال ابن عباس كانوا يسافرون فيرون آثار عاد وثمود فيقولون والله لقد صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أراهم في أنفسهم قال الأمراض وقيل في كونهم نطفاً الى غير ذلك من انتقال أحوالهم ، كما تقدم في سورة المؤمنين بيانه .

﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ الضمير راجع الى القرآن وقيل الى الإسلام الذي جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل الى ما يريهم الله

ويفعل من ذلك وقيل الى محمد صلى الله عليه وسلم أنه الرسول الحق من عند الله ، والأول أولى .

وقد حرف الوجودية هذه الآية الكريمة بحملها على اتحاد الخلق والخالق تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ الجملة مستأنفة لتوبيخهم وتقريعهم على ترددهم في شأن القرآن ، وعنادهم المحوج إلى إيراد وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى ، والمعنى أولم يغنهم ، ولم يكفهم عن الآيات الموعودة ، المبينة لحقية القرآن أنه سبحانه شهيد على جميع الأشياء وقيل المعنى أولم يكف بربك يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار ، والباء زائدة، وهذا هو الراجح وقيل : أولم يكف بربك شاهداً على أن القرآن منزل من عنده ؟ والشهيد بمعنى العالم أو هو بمعنى الشهادة التي هي الحضور ، قال الزجاج : ومعنى الكفاية ههنا أن الله عز وجل قد بين لهم ما فيه كفاية في الدلالة والمعنى أولم يكف ربك أنه على كل شيء شهيد شاهد للأشياء لا يغيب عنه شيء ما .

﴿ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ﴾ أي في شك من البعث والحساب والثواب والعقاب ﴿ ألا إنه ﴾ تعالى ﴿ بكل شيء محيط ﴾ أحاط علمه بجميع المعلومات وأحاطت قدرته بجميع المقدورات يقال أحاط يحيط إحاطة وحيطة ، وفي هذا وعيد شديد ، لأن من أحاط بكل شيء لا يخفى عليه شيء جازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.[١]

---

(١) زاد المسير ٢٦٩ .



سورة الشورى

وتسمى سورة حم عسق وسورة شورى من غير الف ولام وسورة حم عسق وهي ثلاثة وخمسون آية.

وهي مكية كلها. قاله ابن عباس وابن الزبير. وكذا قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وروي عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة﴿قل لا أسالكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾الى آخرها. وقد أخرج ابن جرير وابن ابي حاتم ونعيم ابن حماد والخطيب عن ارطاة ابن المنذر حديثا طويلا في تفسير حم عسق وهو حديث لا يصح ولا يثبت وما اظنه الا من الموضوعات المكذوبات. والحامل لواضعه عليه ما يقع لكثير من الناس من عداوة الدول والحط من شانهم والازراء عليهم وكذا ما اخرجه ابو يعلى وابن عساكر عن ابي معاوية قال السيوطي بسند ضعيف وقلت بل بسند موضوع ومتن مكذوب.

وقد قال ابن كثير في الحديث الأول: إنه غريب عجيب منكر وفي الثاني إنه اغرب من الأول وعندي أنهما موضوعان مكذوبان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام في أمثال هذه الفواتح قال عبدالمؤمن : سألت الحسن ابن الفضل لم قطع حمٓ من عٓسٓقٓ ؟ ولم يقطع كٓهيعٓصٓ ؟ فقال : لأنها بين سور أولها حمٓ ، فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها ، فكان حمٓ مبتدأ وعٓسٓقٓ خبره ولأنهما عدتا آيتين وعدت أخواتهما مثل كٓهيعٓصٓ ، وآلمر وآلمص آيـة واحدة وقيل : إن الحروف المعجمة كلها في المعنى واحد من حيث إنها أس البيان وقاعدة الكلام ، ذكره الجرجاني .

وقيل : لأن أهل التأويل لم يختلفوا في كٓهيعٓصٓ وأخواتها أنها حروف التهجي لا غير ، واختلفوا في حمٓ فقيل : معناها حمٓ أي قضى ما هو كائن ففصلوا بين ما يقدر فيه فعل وبين ما لا يقدر ، وقيل إن ح حلمه ، وم مجده وع علمه ، وس سناؤه وق قدرته ، أقسم الله بها ، وقيل : هما اسمان للسورة وقيل : اسم واحد لها ، وقيل غير ذلك مما هو متكلف ومتعسف لم يدل عليه دليل ، ولا جاءت به حجة ولا شبهة ، وقد ذكرنا قبل هذا ما روى في ذلك مما لا أصل له ، والحق ما قدمناه لك في فاتحة سورة البقرة .

﴿ كذلك ﴾ كلام ، مستأنف غير متعلق بما قبله ، أي مثل ذلك الإيحاء الذي أوحى إلى سائر الرسل من كتب الله المنزلة عليهم المشتملة على الدعوة إلى التوحيد ، والنبوة والبعث ، وهذا هو وجه المشابهة ﴿ يوحى إليك ﴾ يا محمد في هذه السورة وقيل : إن حمٓ عٓسٓقٓ أوحيت إلى من قبله من الأنبياء فتكون الإشارة بقوله : كذلك إليها والأول أولى .

﴿ وإلى الذين من قبلك ﴾ أي إلى الرسل ﴿ الله ﴾ كأنه قيل من يوحى فقال الله ﴿ العزيز ﴾ في ملكه الغالب بقهره ﴿ الحكيم ﴾ بصنعه المصيب في قوله وفعله .

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾

﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ ذكر سبحانه لنفسه هذا الوصف وهو ملك جميع ما فيهما لدلالته على كمال قدرته ، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته ﴿وهو العلي﴾ ذاته وشأنه على خلقه ﴿العظيم﴾ الكبير مكانه وبرهانه .

﴿تكاد السموات يتفطرن من فوقهن﴾ قرأ الجمهور تكاد بالفوقية وكذلك تتفطرن قرؤوه بالفوقية مع تشديد الطاء وقرأ نافع والكسائي وابن وثاب يكاد يتفطرن بالتحتية فيهما ، وقرأ أبو عمرو والمفضل وأبو بكر وأبو عبيد ينفطرن بالنون من الانفطار كقوله تعالى ﴿إذا السماء انفطرت﴾ والتفطر التشقق ، قال الضحاك والسدي : يتفطرن يتشققن من عظمة الله وجلاله ، وقيل : المعنى يكاد كل واحدة منها ينفطر فوق التي تليها من قول المشركين اتخذ الله ولداً ، وقيل : معنى من فوقهن من فوق الأرضين والأول أولى .

وقيل : يتشققن لكثرة ما على السموات من الملائكة ، وقيل : يكدن يتفطرن من علو شأن الله وعظمته ، ويدل عليه مجيئه بعد قوله ﴿العلي العظيم﴾ ومن لابتداء الغاية يبتدىء التفطر من جهة الفوق ، وقال الأخفش الصغير إن

الضمير يعود إلى جماعات الكفار ، أي من فوقهم وهو بعيد جداً ووجه تخصيص جهة الفوق أنها أقرب إلى الآيات العظيمة ، والمصنوعات الباهرة أو على طريق المبالغة كأن كلمة الكفار مع كونها جاءت من جهة التحت أثرت في جهة الفوق ، فتأثيرها في جهة التحت بالأولى .

﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ كلام مستأنف أي ينزهونه عما لا يليق به ولا يجوز عليه متلبسين بحمده وقيل : إن التسبيح موضوع موضع التعجب ، أي يتعجبون من جرأة المشركين على الله ، وقيل ؛ المعنى يصلون بأمر ربهم قاله السدي .

﴿ ويستغفرون ﴾ أي يشفعون ﴿ لمن في الأرض ﴾ من عباد الله المؤمنين ، كما في قوله : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ ويطلبون هدايتهم ، وقيل الاستغفار منهم بمعنى السعي فيما يستدعي المغفرة لهم وتأخير عقوبتهم طمعاً في إيمان الكافر ، وتوبة الفاسق ، فتكون الآية عامة كما هو ظاهر اللفظ غير خاصة بالمؤمنين ، وإن كانوا داخلين فيها دخولاً أولياً ، وإليه ذهب البيضاوي بل ولو فسر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلل المتوقع لعم الحيوان بل الجماد .

قال الضحاك لمن في الأرض من المؤمنين . وقال السدي : بيانه في سورة المؤمن ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ وعلى هذا يكون المراد بالملائكة هنا حملة العرش ، وقيل جميع الملائكة وهو الظاهر من قول الكلبي وقيل هو منسوخ بقوله ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ وقال المهدوي والصحيح أنه ليس بمنسوخ لأنه خبر وهو خاص بالمؤمنين .

وقال أبو الحسن بن الحصار إن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين ولله ملائكة أخر يستغفرون لمن في الأرض قال الماوردي وفي استغفارهم لهم قولان أحدهما من الذنوب والخطايا ، وهو ظاهر قول مقاتل ، والثاني أنه طلب الرزق لهم والسعة عليهم ، قاله الكلبي وهو الأظهر ، لأن

من في الأرض يعم الكافر وغيره ، وعلى قول مقاتل لا يدخل الكافر وقال مطرف وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الشياطين .

﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة لأهل طاعته وأوليائه أو الجميع عباده ، فإن تأخير عقوبة الكفار والعصاة نوع من أنواع مغفرته ورحمته ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ أي أصناماً يعبدونها وجعلوا له شركاء وأنداداً .

﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ أي يحفظ أعمالهم لا يغيب عنه منها شيء ليجازيهم بها ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي لم يوكلك بهم حتى تؤاخذ بهم ، ولا وكل إليك هدايتهم ، وإنما عليك البلاغ . قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

﴿ وكذلك ﴾ الإيحاء البديع المبين المفهم ﴿ أوحينا إليك ﴾ أي أنزلنا عليك ﴿ قرآناً عربياً ﴾ بلسان قومك لا لبس فيه عليك ولا على قومك ، كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ﴿ لتنذر أم القرى ﴾ أي مكة والمراد أهلها ﴿ ومن حولها ﴾ من الناس والمفعول الثاني محذوف ، أي لتنذرهم العذاب .

﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ أي بيوم الجمع وهو يوم القيامة لأنه مجمع الخلائق ، وقيل : المراد جمع الأرواح بالأجساد ، وقيل : جمع الظالم والمظلوم ، وقيل جمع العامل والعمل .

﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه والجملة معترضة مقررة لما قبلها ، أو حال من يوم الجمع ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ قرأ الجمهور برفع فريق في الموضعين إما على أنه مبتدأ وخبره الجار المجرور ، وساغ الابتداء بالنكرة لأن المقام مقام تفضيل أو على أن الخبر مقدر قبله ، أي منهم فريق في الجنة ومنهم فريق في السعير ، أو أنه خبر مبتدأ محذوف وهو ضمير عائد إلى المجموعين ، المدلول عليهم بذكر الجمع ، أي هم فريق في الجنة وفريق في

السعير وقرىء فريقاً بالنصب في الموضعين على الحال من جملة محذوفة ، أى افترقوا حال كونهم كذلك ، وأجاز الفراء والكسائي النصب على تقدير لتنذر فريقاً .

وقد أخرج الترمذي وصححه ، وأحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبدالله بن عمرو قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال : أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قلنا لا إلا أن تخبرنا يا رسول الله قال للذي في يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم ، ثم قال للذي في شماله هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً فقال أصحابه ففيم العمل يا رسول الله ؟ إن كان أمر قد فرغ منه ، فقال سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أي عمل . قال رسول الله صلى عليه وآله وسلم بيديه فنبذهما ، ثم قال : فرغ ربكم من العباد ، فريق في الجنة وفريق في السعير » .

قال الترمذي بعد إخراجه : هذا حديث حسن صحيح غريب ، وروى ابن جرير طرفاً منه عن ابن عمرو « موقوفاً عليه » ، قال ابن جرير وهذا الموقوف أشبه بالصواب ، قلت بل المرفوع أشبه بالصواب ، فقد رفعه الثقة ورفعه زيادة ثابتة من وجه صحيح ، ويقوي الرفع ما أخرجه ابن مردويه عن البراء قال . « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتاب ينظر فيه قالوا انظروا إليه كيف هو أمي لا يقرأ ؟ قال فعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة ، وأسماء قبائلهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم ، وقال ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ فرغ ربكم من أعمال العباد » .

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ﴾ قال الضحاك أهل دين واحد إما على هدى وإما على ضلالة ، ولكنهم افترقوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية ، وهو معنى قوله ﴿ ولكن يدخل من يشاء في رحمته ﴾ أي في الدين الحق وهو الإسلام ﴿ والظالمون ﴾ أي المشركون ﴿ مالهم من ولي ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿ ولا نصير ﴾ ينصرهم في ذلك المقام .

ومثل هذا قوله ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ وقوله ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ وهذا مقابل لقوله ﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾ ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال ويدخل من يشاء في غضبه لكن عدل عنه إلى ما ذكر للمبالغة في الوعيد ، فإن نفي من يتولاهم وينصرهم أدل على أن كونهم في العذاب أمر معلوم مفروغ منه ، أفاده الكرخي .

وقال الشوكاني رحمه الله : وههنا مخاصمات بين المتمذهبين المحامين على

ما درج عليه أسلافهم ، فذبوا عليه من بعدهم . وليس بنا إلى ذكر شيء من ذلك فائدة ، كما هو عادتنا في تفسيرنا هذا فهو تفسير سلفي يمشي مع الحق ويدور مع مدلولات النظم الشريف ، وإنما يعرف ذلك من رسخ قدمه ، وتبرأ من التعصب قلبه ولحمه ودمه .

﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين ولياً ونصيراً ، وأم هذه هي المنقطعة المقدرة ببل المفيدة للانتقال وبالهمزة المفيدة للإنكار ، أي بل اتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام يعبدونها ﴿ فالله هو الولي ﴾ أي هو الحقيق بأن يتخذوه ولياً فإنه الخالق الرازق الضار النافع ، والفاء لمجرد العطف ، قاله الكرخي . وغرضه بهذا الرد على الزمخشري في قوله . إنها جواب شرط مقدر أي إن أرادوا أن يتخذوا ولياً في الحقيقة فالله هو الولي الحق ، قال أبو حيان لا حاجة إلى هذا التقدير لتمام الكلام بدونه .

﴿ وهو ﴾ أي ومن شأنه أنه ﴿ يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ أي يقدر على كل مقدور فهو الحقيق بتخصيصه بالألوهية وإفراده بالعبادة .

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ هذا عام في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين ، فإن حكمه ومرجعه إلى الله يحكم فيه يوم القيامة بحكمه ، ويفصل خصومة المختصمين فيه ، وعند ذلك يظهر المحق من المبطل ، ويتميز فريق الجنة وفريق النار ، قال الكلبي وما اختلفتم فيه من شيء أي من أمر الدين فحكمه إلى الله يقضى فيه ، وزاد البيضاوي أو أمر الدنيا ، ولم يذكر الدنيا في الكشاف وذكره المحلي ، وقال من الدين وغيره ، والغير كالخصومات في الدنيا ، والأول أولى إذ لا يلزم أن تكون بينهم وبين الكفرة ، ولا يقال في مثله التحاكم إلى الله أفاده الشهاب .

وقال مقاتل إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن وآمن به بعضهم ، فنزلت

هذه الآية ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويمكن أن يقال إن معنى حكمه إلى الله أنه مردود إلى كتابه ، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه ، فتكون الآية عامة في كل اختلاف يتعلق بأمر الدين أنه مردود إلى كتاب الله ، ومثله قوله :

﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ وقد حكم سبحانه بأن الدين هو الإسلام ، وأن القرآن حق ، وأن المؤمنين في الجنة والكافرين في النار ولكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقاً إلا في الدار الآخرة وعدهم الله بذلك يوم القيامة ، وقيل : تحاكموا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن حكمه حكم الله ، ولا تؤثروا حكومة غيره على حكومته .

﴿ ذلكم ﴾ مبتدأ أي الحاكم العظيم الشأن بهذا الحكم ﴿ الله ﴾ خبر أول ﴿ ربي ﴾ خبر ثان ﴿ عليه توكلت ﴾ خبر ثالث ، أي اعتمدت عليه في جميع أموري لا على غيره ، وفوضته في كل شؤوني ﴿ وإليه ﴾ لا إلى غيره ﴿ أنيب ﴾ أي أرجع في كل شيء يعرض لي ، وهذا خبر رابع .

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ الفاطر الخالق المبدع ، وقد تقدم تحقيقه وهذا خبر خامس أو مبتدأ وخبره ما بعده ، أو نعت لربي لأن الإضافة محضة ويكون عليه توكلت وإليه أنيب معترضاً بين الصفة والموصوف ، وقرأ زيد بن علي فاطر بالجر على أنه نعت للإسم الشريف في قوله إلى الله وما بينهما اعتراض أو بدل من الهاء في عليه أو إليه وأجاز الكسائي النصب على النداء وأجازه غيره على المدح .

﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ خبر سادس أي خلق لكم من جنسكم نساء ، أو المراد حواء لكونها خلقت من ضلع ادم ، وقال مجاهد نسلاً بعد نسل ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ أي خلق لها من جنسها إناثاً أو وخلق لكم من الأنعام أصنافاً من الذكور والإناث ، وهي الثمانية التي ذكرها في الأنعام .

﴿ يذرؤكم فيه ﴾ أي يبثكم من الذرء وهو البث أو يخلقكم وينشئكم

والضمير في يذرؤكم للمخاطبين والأنعام إلا أنه غلب عليه العقلاء ، قال الزمخشري وهي من الأحكام ذات العلتين ، قال الشيخ وهو اصطلاح غريب ، والمعنى أن الخطاب يغلب على الغيبة إذا اجتمعا ، وضمير فيه راجع إلى الجعل المدلول عليه بالفعل ، أو للمخلوق ، وقيل راجع إلى ما ذكر من التدبير ، وقال الفراء والزجاج وابن كيسان معنى يذرؤكم فيه يكثركم به أي يكثركم بجعلكم أزواجاً لأن ذلك سبب النسل ، وقال ابن قتيبة : يذرؤكم فيه أي في الزوج وقيل في البطن وقيل في الرحم .

﴿ ليس كمثله شيء ﴾ خبر سابع والمراد بذكر المثل هنا المبالغة في النفي بطريق الكناية فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى ، كقولهم : مثلك لا يبخل وغيرك لا يجود ، وقيل : إن الكاف زائدة للتوكيد لأنه تعالى لا مثل له ، وهو المشهور عند المعربين ، وقيل : إن مثل زائدة قاله ثعلب وغيره ، كما في قوله ﴿ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ أي بما آمنتم به ، وهذا ليس بجيد ، بل الأول أولى .

فإن الكناية باب مسلوك للعرب ومهيع مألوف لهم قال ابن قتيبة العرب تقيم المثل مقام النفس ، فتقول : مثلي لا يقال له هذا ، أي أنا لا يقال لي ، وقيل : المراد بالمثل الصفة وذلك أن المثل بمعنى المثل والمثل الصفة كقوله مثل الجنة ، فيكون المعنى ليس مثل صفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره وهو محمل سهل .

قال الراغب : المثل أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، وذلك أن الند يقال لما يشارك في الجوهر فقط ، والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط ، والمساوي يقال فيما يشاركه في الكمية فقط والشكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط ، ولهذا لما أراد الله نفي الشبه من كل وجه خصه بالذكر قال تعالى .

﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقال أبو البقاء مرجحاً لزيادة الكاف إنها لو لم

تكن زائدة لأفضى ذلك إلى المحال ، إذ يكون المعنى أن له مثلاً وليس لمثله مثل ، وفي ذلك تناقض ، لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل ، وهو هو مع أن إثبات المثل لله سبحانه محال ، وهذا تقرير حسن ، ولكنه يندفع ما أورده بما ذكرناه من كون الكلام خارجاً مخرج الكناية .

ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها ، وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة ، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله ﴿ وهو السميع البصير ﴾ فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمثل ، قد اشتمل على برد اليقين ، وشفاء الصدور ، وانثلاج القلوب فاقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة ، والبرهان القوي ، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع ، وتهشم بها رؤوساً من الضلالة ، وترغم بها آناف طوائف من القاصرين المتكلفين ، والمتكلمين المتأولين ، ولا سيما إذا ضممت إليه قول الله سبحانه ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ فإنك حينئذ قد أخذت بطرفي حبل ما يسمونه علم الكلام وعلم أصول الدين.

ودع عنك نهياً صيح في حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

وهو السميع الخ خبر ثامن وقوله : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ خبر تاسع جمع مقلاد أو مقليد أو قليد ، وهو المفتاح جمع على خلاف القياس أي مفاتيحهما أو خزائنهما ، والمراد المطر والنبات وغيرهما كالجواهر المستخرجة من الأرض ، قال النحاس : والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن وقد تقدم تحقيقه في سورة الزمر .

ثم لما ذكر سبحانه أن بيده مقاليدهما ذكر بعده البسط والقبض فقال ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ خبر عاشر أي يوسعه لمن يشاء كالروم والفرس ويضيقه على من يشاء كالعرب ﴿ إنه بكل شيء ﴾ من الأشياء ﴿ عليم ﴾ فلا تخفي عليه خافية ، وإحاطة علمه بكل شيء يندرج تحتها علمه بطاعة المطيع ومعصية العاصي فهو يجازي كُلًّا بما يستحقه من خير وشر .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾

﴿ شرع لكم ﴾ أي بين وأوضح وسن وأظهر طريقاً واضحاً ، وهو خبر حادي عشر ﴿ من الدين ﴾ أي ديناً تطابقت على صحته الأنبياء ، والخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ما وصى به نوحاً ﴾ من التوحيد ودين الإسلام ، وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرسل ، وتوافقت عليها الكتب ، وإنما خص نوحاً لأنه أول الأنبياء أصحاب الشرائع ، والمعنى قد وصيناه وإياك يا محمد ديناً واحداً ، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث الشفاعة المشهور الكبير:

« ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض » وهذا صحيح لا إشكال فيه كما أن آدم أول رسول نبيء بغير إشكال إلا أن آدم لم يكن معه إلا نبوة ، ولم تفرض له الفرائض ، ولا شرعت له المحارم ، وإنما كان شرعه تنبيهاً على بعض الأمور واقتصاراً على ضرورات المعاش ، وأخذاً بوظائف الحياة والبقاء واستمر إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات ، ووظف عليه الواجبات ، وأوضح له الآداب والديانات ، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء عليهم السلام واحداً بعد واحد وشريعة

اثر شريعة حتى ختمها بخير الملل ملتنا على لسان اكرم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ من القرآن وشرائع الإسلام والبراءة من الشرك والتعبير عنه عند نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالذي هو أصل الموصلات لتفخيم شأنه من تلك الحيثية ، وخص ما شرعه لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالإيحاء مع كون ما قبله وما بعده مذكوراً بالتوصية ، للتصريح برسالته ، القامع لإنكار الكفرة ، وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم بنون العظمة لكمال الاعتناء بالإيحاء إليه ، وهو السر في تقدمه على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً وتقديم توصية نوح للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً وتوجبه الخطاب إليه صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين للتشريف والتنبيه ، على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام .

﴿ وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ مما تطابقت عليه الشرائع وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع المعظمة والأتباع الكثيرة ؛ وأولو العزم ، ولميل قلوب الكفرة إليهم لاتفاق الكل على نبوة بعضهم ، وتفرد اليهود في موسى ، والنصارى في عيسى ، وكل من هؤلاء المذكورين له شرع جديد ، ومن عداهم من الرسل إنما كان يبعث بتبليغ شرع من قبله فشيث وإدريس بعثا بتبليغ شرع آدم ، ومن بين نوح وإبراهيم وهما هود وصالح بعثا بتبليغ شرع نوح ، ومن بين إبراهيم وموسى بعثوا بتبليغ شرع ابراهيم وكذا من بين موسى وعيسى بعثوا بتبليغ شرع موسى فليتأمل ، ثم بين ما وصى به هؤلاء فقال .

﴿ أن أقيموا الدين ﴾ أي توحيد الله ، والإيمان به وطاعة رسله ، وقبول شرائعه والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ أو المواظبة عليه ، والتشمير له ، وقال السدي : أي اعملوا به وقيل : المراد سائر ما يكون المرء بإقامته مسلماً ولم ترد به الشرائع فإنها مختلفة ، قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ قال مجاهد : لم يبعث الله نبياً إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة فذلك دينه الذي شرع لهم ، وقال

قتادة : يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام .

قال القرطبي : الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع هي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وتحريم الكفر والقتل والزنا والإذاية للخلق ، كيفما تصورت ، والإعتداء على الحيوان كيفما دار ، واقتحام الدناءات ، ومايعود بخرم المروءات فهذا كله مشروع ديناً واحداً ، وملة واحدة لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعذارهم ، وذلك قوله تعالى : أن أقيموا الدين الخ .

ثم لما أمرهم سبحانه بإقامة الدين نهاهم عن الإختلاف فيه فقال :

﴿ ولا تتفرقوا فيه ﴾ أي لا تختلفوا في التوحيد والإيمان بالله ، وطاعة رسوله ، وقبول شرائعه فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع وتوافقت فيها الأديان ، فلا ينبغي الخلاف في مثلها ، وليس هذا من فروع المسائل التي تختلف فيها الأدلة وتتعارض فيها الامارات ، وتتباين فيها الأفهام ، فإنها من مطارح الاجتهاد ، ومواطن الخلاف .

قال القرطبي في الآية أي اجعلوه دائماً قائماً مستمراً محفوظاً مستقراً ، من غير خلاف فيه ولا اضطراب ، فمن الخلق من وفى بذلك ومنهم من نكث ، ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ .

واختلفت الشرائع وراء هذه في أحكامه حسبما أراد الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم والله أعلم .

قال قتادة في الآية : ألا تعلموا أن الفرقة هلكة ، وأن الجماعة ثقة وقال على الجماعة رحمة والفرقة عذاب . ثم ذكر سبحانه أن ما شرعه من الدين شق على المشركين فقال :

﴿ كبر ﴾ أي عظم وشق ﴿ على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان ، قال قتادة اشتد عليهم شهادة أن لا إله إلا الله وحده ، وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله إلا أن ينصرها ويعليها ويظهرها ، ويظفرها على من ناوأها ، والأولى التعميم لدلالة السياق ولا يمنعه تخصيص

المشركين بالذكر كما لا يخفي ثم خص أولياءه فقال :

﴿ الله يجتبي إليه ﴾ استئناف وارد لتحقيق الحق وفيه إشعار بأن منهم من يجيب إلى الدعوة ، والاجتباء الاختيار ، والمعنى يختار لتوحيده والدخول في دينه ، افتعال من الجباية وهي الجمع على طريق الاصطفاء ، واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي لتحصل له أنواع النعم بلا سعي منه ﴿ من يشاء ﴾ من عباده ، قال قتادة : يخلص لنفسه من يشاء .

﴿ ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي يوفق لدينه ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته ، ويقبل إلى عبادته ثم لما ذكر سبحانه ما شرعه لهم من إقامة الدين وعدم التفرق فيه ذكر ما وقع من التفرق والاختلاف فقال :

﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي ما تفرقوا إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة متوعد عليها ، أو العلم بمبعث الرسول أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرهما ، فلم يلتفتوا إليها ، وفعلوا ذلك التفرق ، قيل : المراد قريش وهم الذين تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم بغياً منهم عليه .

وقد كانوا يقولون ما حكاه الله عنهم بقوله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ﴾ الآية ، وبقوله ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ وقيل المراد أمم الأنبياء المتقدمين ، وأنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المدى ، فآمن قوم وكفر قوم . وقيل : اليهود والنصارى خاصة كما في قوله ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾

﴿ بغياً بينهم ﴾ أي بغياً من بعضهم على بعض ، طلباً للرياسة فليس تفرقهم لقصور في البيان والحجج ، ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا والجاه والحمية ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ وهي تأخير العقوبة ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو يوم القيامة كما في قوله ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ وقيل : إلى الأجل الذي قضاه الله لعذابهم في الدنيا بالقتل والأسر والذل والقهر ﴿ لقضي

بينهم ﴾ أي لوقع القضاء بينهم بإنزال العقوبة بهم معجلة ، وقيل يقضي بين من آمن منهم ومن كفر بنزول العذاب بالكافرين ونجاة المؤمنين .

﴿ وإن الـذين أورثوا الكتـاب ﴾ أي التوراة والإنجيـل وهم اليهـود والنصارى الذي كانوا في عهده صلى الله عليه وسلم ﴿ من بعدهم ﴾ أي من بعد من قبلهم من اليهود والنصارى المختلفين في الحق .

وقال مجاهد : معنى من بعدهم من قبل مشركي مكة ، وهم اليهود والنصارى وقيل ، المراد كفار المشركين من العرب الـذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم ووصفهم بأنهم ﴿ لفي شك منه ﴾ أي من القرآن أو من محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى كلا الوجهين فالشك هنا ليس على معناه المشهور من اعتدال النقيضين وتساويهما في الذهن ، بل المراد به ما هو أعم أي مطلق التردد .

وقال القرطبي : لفي شك من الذي أوصى به الأنبياء ﴿ مريب ﴾ موقع في الريبة وهي قلق النفس واضطرابها ولذلك لم يؤمنوا .

﴿ فلذلك ﴾ أي فلأجل ما ذكر من التفرق والشك أو الكتاب ، أو العلم الذي أوتيته ، أو فلأجل أنه شرع من الدين ما شرع ﴿ فادع ﴾ إلى الله وإلى توحيده وإلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القوية أو الإتباع لما أوتيته ، وعلى هذا اللام في موضع إلى لإفادة الصلة والتعليل ، قال الفراء والزجاج : المعنى فإلى ذلك فادع ، كما تقول : دعوت إلى فلان ولفلان وذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير والمعنى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ ﴿ فلذلك فادع ﴾ .

﴿ واستقم ﴾ على ما دعوت إليه فسر الراغب الإستقامة بلزوم المنهج المستقيم ، فلا حاجة إلى تأويلها بالدوام على الإستقامة ، قال قتادة : استقم على أمر الله ، وقال سفيان : استقم على القرآن ، وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة ﴿ كما أمرت ﴾ بذلك من جهة الله تعالى .

﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ الباطلة وتعصباتهم الزائفة في ترك التوحيد ، ولا تنظر إلى خلاف من خالفك في دين الله ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ أي بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض وفيه تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب في أصول الدين ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين وتعريض لهم .

﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ في أحكام الله إذا ترافعتم إلي ، ولا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه الله ، أو بنقصان منه ، وأبلغ إليكم ما أمرني الله بتبليغه كما هو واللام لام كي ، أي أمرت بذلك الذي أمرت به لكي أعدل بينكم ، وقيل : هي زائدة ، والمعنى أمرت أن أعدل وقيل : بمعنى الباء وأن المصدرية مقدرة أي بأن أعدل والأول أولى .

قال أبو العالية : أمرت لأسوي بينكم في الدين فأومن بكل كتاب وبكل رسول ، والظاهر أن الآية عامة في كل شيء ، والمعنى أمرت لأعدل بينكم في كل شيء .

﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أي إلهنا وإلهكم ، وخالقنا وخالقكم ﴿ لنا أعمالنا ﴾ أي ثوابها وعقابها خاص بنا ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ أي ثوابها وعقابها خاص بكم ، فكل يجازى بعمله ﴿ لا حجة ﴾ أي لا خصومة ﴿ بيننا وبينكم ﴾ لأن الحق قد ظهر ووضح ، ولم يبق للمحاجة مجال ، وليس في الآية إلا ما يدل على المتاركة في المقاولة ، والمحاجة لا مطلقاً حتى تكون منسوخة ، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة مجاراة لهم على زعمهم الباطل ، قال ابن عباس ومجاهد : الخطاب لليهود وقيل للكفار على العموم .

﴿ الله يجمع بيننا ﴾ في المحشر لفصل القضاء ﴿ وإليه المصير ﴾ أي المرجع يوم القيامة ، فيجازي كُلًّا بعمله ، وهذا منسوخ بآية السيف وقيل ليست بمنسوخة لأن البراهين قد ظهرت والحجج قد قامت فلم يبق الا العناد وبعد العناد لا حجة ولا جدال .

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

﴿ والذين يحاجون في الله ﴾ أو يخاصمون في دين الله ﴿ من بعد ما استجيب ﴾ أي استجاب الناس ﴿ له ﴾ أي لدين الله ودخلوا فيه ، وقيل : الضمير راجع إلى الله ، وقيل : إلى محمد صلى الله عليه وسلم المعلوم من السياق الدال عليه الفعل ، والأول أولى .

قال مجاهد ؛ من بعد ما أسلم الناس ، قال : وهؤلاء قوم توهموا أن الجاهلية تعود ، وقال قتادة هم اليهود والنصارى ، ومحاجتهم قولهم نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء ، وكان المشركون يقولون ﴿ أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ فنزلت هذه الآية .

وقال ابن عباس : هم أهل الكتاب كانوا يجادلون المسلمين ويصدونهم عن الهدى ، من بعد ما استجابوا لله ، وقال : هم قوم من أهل الضلالة وكانوا يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية ، وعن عكرمة قال لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال المشركون لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قد دخل الناس في دين الله أفواجاً فاخرجوا من بين أظهرنا فنزلت هذه الآية .

والموصول مبتدأ وخبره الجملة بعده وهي ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ أي لاثبات لها كالشيء الذي يزول عن موضعه يقال دحضت حجته دحوضاً بطلت ، وبابه خضع ، والإدحاض الإزلاق ، ومكان دحض أي زلق ، ودحضت رجله أي زلقت وبابه قطع وسماها حجة وإن كانت شبهة لزعمهم أنها حجة .

﴿ وعليهم غضب ﴾ عظيم من الله لمجادلتهم بالباطل ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ في الآخرة .

﴿ الله الذي أنزل الكتاب ﴾ المراد به الجنس فيشمل جميع الكتب المنزلة على الرسل ، وقيل المراد به القرآن خاصة ﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف أي متلبساً بالحق وهو الصدق ﴿ والميزان ﴾ أي العدل كذا قال اكثر المفسرين قالوا وسمى العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق ، فالميزان متجوز به عنه إستعمالاً للسبب في المسبب وقيل الميزان ما بين في الكتب المنزلة مما يجب على كل إنسان أن يعمل به ، وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .

وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه وإنزال العدل هو الأمر والتكليف به ، وقيل : إنه الميزان على نفسه أنزله الله من السماء في زمن نوح عليه السلام ، وعلم العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس ، كما في قوله ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم يقضي بينكم بكتاب الله وقال مجاهد : هو الذي يوزن به .

﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ أي أَيُّ شيء يجعلك دارياً بها ، عالماً بوقتها ، لعلها شيء قريب ، أو قريب مجيئها ، أو ذات قرب أو إتيانها قريب وقال ﴿ قريب ﴾ ولم يقل قريبة لأن تأنيثها غير حقيقي .

قال الزجاج : المعنى لعل البعث أو لعل مجيء الساعة قريب وقال

الكسائي قريب نعت ينعت به المؤنث والمذكر كما في قوله : إن رحمة الله قريب من المحسنين ، وقال الكرخي : ولا يقال : إن (قريب) يستوي فيه المؤنث والمذكر لأن فعيلاً هنا بمعنى فاعل ، ولا يستوي فيه ما ذكر والاستفهام إنكاري أي لاسبب يوصلك للعمل بقربها إلا الوحي الذي ينزل عليك قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم « ذكر الساعة وعنده قوم من المشركين فقالوا متى تقوم تكذيباً لها فأنزل الله هذه الآية ، » ويدل على هذا قوله :

﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون ﴾ استعجال استهزاء منهم بها وتكذيباً بمجيئها ، فلا يشفقون منها ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ أي خائفون وجلون من مجيئها ، أي فلا يستعجلونها ، ففي الآية احتباك حيث ذكر الاستعجال أولاً ، وحذف الإشفاق ، وذكر الإشفاق ثانياً وحذف الاستعجال . قال مقاتل لأنهم لا يدرون ما يهجمون عليه وقال الزجاج لأنهم يعلمون أنهم محاسبون ومجزيون .

﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ أي أنها آتية لا ريب فيها ، وكائنة لا محالة ومثل هذا قوله ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ ثم بين ضلال الممارين فيها فقال :

﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾ أي يخاصمون فيها مخاصمة شك وريبة من المماراة ، وهي المخاصمة والمجادلة أو من المرية وهي الشك والريبة ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ عن الحق لأنهم لم يتفكروا في الموجبات للإيمان بها من الدلائل التي هي مشاهدة لهم ، منصوبة لأعينهم ، مفهومة لعقولهم ولو تفكروا لعلموا أن الذي خلقهم ابتداء قادر على الإعادة ، وقد دل الكتاب والسنة على وقوعها ، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء والبعث أشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد لتجويزه فهو أبعد عن الاهتداء إلى ما وراءه .

﴿ الله لطيف بعباده ﴾ أي كثير اللطف بهم ، بالغ الرأفة لهم ، قال مقاتل لطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم ، قال عكرمة :

بارىهم وقال السدي : رفيق بهم وقيل : حفى بهم . وقال القرطبي : لطيف بهم في العرض والمحاسبة ، وقيل : في إيصال المنافع وصرف البلاء ، وقيل لطف بالغوامض علمه ، وعظم عن الجرائم حلمه ، وقيل اللطيف من ينشر المناقب ويستر المثالب ، أو يعفو عمن يهفو ، أو يعطي العبد فوق الكفاية ، ويكلفه الطاعة دون الطاقة .

وقال الجنيد : لطف بأوليائه فعرفوه ولولا لطفه بأعدائه ما جحدوه وقال جعفر الصادق : يلطف بهم في الرزق من وجهين ، أحدهما أنه جعل رزقك من الطيبات ، الثاني أنه لم يدفع إليك مرة واحدة فتبذره.

وقال الحسين بن الفضل : لطيف بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره . وقيل : اللطيف الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله[1] ،وقيل هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه ، وقيل هو الذي أوقد للعلماء من الكتاب والسنة سراجاً ، وجعل لهم الصراط المستقيم والدين القيم منهاجاً، وأنزل لهم من سحائب بره ومَنِّهِ ولطفه وكرمه وإحسانه ماء ثجاجاً وقيل غير ذلك .

وحاصل المعنى انه يجري لطفه على عباده في كل أمورهم ومن جملة ذلك الرزق الذي يعيشون به في الدنيا وهو معنى قوله ﴿ يرزق من يشاء ﴾ منهم كيف يشاء فيوسع على هذا ويضيق على هذا ، وفي تفضيل قوم بالمال حكمة ليحتاج البعض الى البعض ، كما قال ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، وكان هذا لطفاً بالعباد ليمتحن الغني بالفقير ، والفقير بالغني . وقيل ما يشاء من أنواع الرزق فهو ـ وإن كان يرزق كل ذي روح ـ لكنه فاوت بين المرزوقين في الرزق ، قلة وكثرة وجنساً ونوعاً لحكمة يعلمها هو.

﴿ وهو القوي ﴾ العظيم القوة الباهر القدرة ﴿ العزيز ﴾ الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء.

---

(١) سقط من الأصل : وقيل : هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المدحة ، وقيل : هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاه ، وقيل : هو الذي لا يرد سائله ولا يؤيس آمله .

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾ الحرث في اللغة الكسب يقال : هو يحرث لعياله ويحترث ، اي يكتسب ، ومنه سمي الرجل حارثاً ومعنى أصل الحرث إلقاء البذر في الأرض ، فأطلق على ثمرات الأعمال وفوائدها بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذر ، المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور ، والمعنى من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الآخرة يضاعف الله له تلك الحسنة بعشرة أمثالها ، الى سبعمائة ضعف ، وقيل : معناه يزيد في توفيقه وإعانته وتسهيل سبل الخير له .

﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا ﴾ اي من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الدنيا وهو متاعها ، وما يرزق الله به عباده منها ، مؤثراً لها على الآخرة ﴿ نؤته منها ﴾ ما قضت به مشيئتنا ، وقسم له في قضائنا ، ولو تهاون به ولم يطلبه لأتاه .

قال قتادة : المعنى نقدر له ما قسم له كما قال ﴿عجلنا له فيها ما نشاء﴾ وقال أيضاً : إن الله يعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا . قال القشيري والظاهر ان الآية في الكافر ، وهو تخصيص بغير مخصص ، ثم بين سبحانه أن هذا الذي يريد بعمله الدنيا لا نصيب له في الآخرة فقال :

﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾ لأنه لم يعمل للآخرة فلا نصيب له فيها وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الإسراء وقال وابن عباس في الآية حرث الآخرة عيش الآخرة ، وقال من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلا النار ، ولم يزد بذلك من الدنيا شيئاً إلا رزقاً فرغ منه وقسم له وأخرج أحمد والحاكم وصححه وابن مردويه وابن حبان عن أبيّ بن كعب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب » ، وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن ابي هريرة قال : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يريد حرث الآخرة الآية ثم قال : يقول الله : ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسد فقرك » . وعن علي قال : الحرث حرثان : فحرث الدنيا المال والبنون ، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات .

ولما بين سبحانه القانون في امر الدنيا والآخرة ، أردفه ببيان ما هو الذنب العظيم الموجب للنار فقال :

﴿أم لهم شركاء﴾ أم منقطعة وتقديره بل ألهم شركاء ؟ وقيل هي المعادلة لألف الاستفهام وفي الكلام إضمار تقديره . أيقبلون ما شرع الله من الدين ؟ أم لهم آلهة ﴿شرعوا لهم من الدين﴾ وقيل أم بمعنى بل التي للانتقال والهمزة التي للتوبيخ والتقريع ، وضمير شرعوا عائد الى الشركاء وضمير لهم

الى الكفار وقيل العكس والأول اولى .

﴿ ما لم يأذن به الله ﴾ من الشرك والمعاصي والشرائع المضلة ، وإنكار البعث ، والعمل للدنيا ، والآية بعمومها تشمل كل شيء لم يأمر به الله سبحانه او رسوله ، فيدخل فيه التقليد لأنه مما لم يأذن به الله بل ذمه في كتابه في غير موضع ، ولم يأذن به رسوله ، ولا إمام من أئمة الدين ، ولا أَحد من سلف الأمة وسادتها وقادتها ، بل نهى عنه المجتهدون الأربعة ، ومن كان بعدهم من أهل الحق ، رَكْب الإيمان وأتباع السنة المطهرة ، وإنما أحدثه من أحدث من الجهال والعوام ، بعد القرون المشهود لها بالخير فرحم الله امرءاً سمع الحق فاتبعه وسمع الباطل فتركه وأدمغه وبالله التوفيق .

﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ وهي تأخير عذابهم حيث قال : ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ ﴿ لقضى بينهم ﴾ في الدنيا فعوجلوا بالعقوبة ، والضمير في بينهم راجع الى المؤمنين والمشركين او الى المشركين وشركائهم ﴿ وإن الظالمين ﴾ أي المشركين الكافرين والمكذبين ﴿ لهم عذاب اليم ﴾ مؤلم في الدنيا والآخرة قرأ الجمهور بكسر إن على الإستئناف وقرىء بفتحها عطفاً على كلمة الفصل .

﴿ ترى الظالمين ﴾ خطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ﴿ مشفقين ﴾ اي خائفين وجلين ﴿ مما كسبوا ﴾ من السيئآت وذلك الخوف والوجل يوم القيامة ﴿ وهو ﴾ الضمير راجع الى ما كسبوا بتقدير مضاف ، قاله الزجاج ، أي وجزاء ما كسبوا ﴿ واقع بهم ﴾ نازل عليهم لا محالة أشفقوا أولم يشفقوا ، والجملة حالية ، ولما ذكر الله سبحانه حال الظالمين ذكر حال المؤمنين فقال :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ في روضات الجنات ﴾ جمع روضة قال أبو حيان : اللغة الكثيرة تسكين الواو ، ولغة هذيل فتحها والروضة الموضع النزه الكثير الخضرة ، وقد مضى بيان هذا في سورة الروم وروضة الجنة أطيب مساكنها كما أنها في الدنيا أحسن أمكنتها ، وفيه تنبيه على أن عصاة المسلمين من أَهل الجنة لأنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم في روضات الجنات وهي البقاع الشريفة من الجنة ، والبقاع

التي دون تلك الأوصاف لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

﴿ لهم ما يشاؤون﴾[1] أو للاستقرار العامل في لهم ، والعندية مجاز او حقيقة ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر للمؤمنين ﴿ هو الفضل الكبير﴾ الذي لا يوصف ولا تهتدي العقول الى كنه صفته ، ومعرفة حقيقته ، لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذي يقدر قدره .

﴿ ذلك ﴾ أي الفضل الكبير ﴿ الذي يبشر الله عباده ﴾ قرىء يبشر مخففاً ومثقلاً ، وهما سبعيتان ، ثم وصف العباد بقوله : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فهؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل بما أمر الله به وترك ما نهى عنه ، هم المبشرون بتلك البشارة ، ثم لما ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم من هذه الأحكام الشريفة التي اشتمل عليها كتابه أُمره بأن يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثواباً منهم فقال :

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ اي قل يا محمد : لا أطلب منكم الآن ولا في مستقبل الزمان على تبليغ الرسالة بشارة أُو نذارة جعلاً ولا نفعاً وإن قَلَّ والخطاب إما لقريش وللأنصار لأنهم أخواله ، أو لجميع العرب لأنهم أقاربه في الجملة ﴿ إلا المودة ﴾ العظيمة الواسعة ﴿ في القربى ﴾ اي مظروفة فيها ، بحيث تكون القربى موضعاً للمودة وظرفاً لها ، لا يخرج شيء من محبتكم عنها والاستثناء متصل . ، اي إلا أن تودوني لقرابتي بينكم او تودوا أُهل قرابتي ، ويجوز ان يكون منقطعاً .

قال الزجاج : الا المودة استثناء ليس من الأول أي إلا أن تودوني لقرابتي فتحفظوني ، والخطاب لقريش وهذا قول عكرمة ومجاهد وابي مالك والشعبي فيكون المعنى على الانقطاع : لا أسألكم أجراً قط ، ولكن أسألكم المودة في القربى التي بيني وبينكم ارقبوني فيها ولا تعجلوا إليّ ، ودعوني والناس وبه قال

(١) سقط من الأصل ﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ من صنوف النعيم وأنواع المستلذات ، وعند ، ظرف ليشاؤون .

قتادة ومقاتل والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم ، وهو الثابت عن ابن عباس كما سيأتي وقال سعيد بن جبير وغيره هم آل محمد ، وسيأتي ما استدل به القائلون بهذا.

وقال الحسن وغيره: معنى الآية إلا التودد إلى الله عز وجل والتقرب بطاعته، وقال الحسين بن الفضل، ورواه ابن جرير عن الضحاك أن هذه الآية منسوخة، قال البغوي: وهذا قول غير مرضي، لأن مودة النبي صلى الله عليه وسلم وكف الأذى عنه، ومودة أقاربه والتقرب إلى الله بالطاعة والعمل الصالح، من فرائض الدين.

أقول: في الآية ثلاثة أقوال، الأول أن القربى بمعنى القرابة أي الرحم، والثاني بمعنى الأقارب، والثالث بمعنى القرب والتقرب والزلفى، وسيأتي ما يتضح به الصواب ، ويظهر به معنى الآية . قال سعيد بن جبير قربى آل محمد صلى الله عليه وسلم. عن ابن عباس أنه سئل عن قوله ﴿إلا المودة في القربى﴾ قال ابن عباس : «عجلت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة» ، وعنه قال : قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم»[٢] ، وعن الشعبي قال : أَكْثَرَ الناس علينا في هذه الآية ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فقال : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان واسط النسب في قريش ، ليس بطن من بطونهم إلا وله فيه قرابة ، فقال الله: قل الخ أن تودوني لقرابتي منكم ، وتحفظوني بها» .

وعن ابن عباس قال كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابه من جميع قريش فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه قال :« يا قوم إذا أبيتم أن

---

(١) السيوطي في الدر ٦/٦ .

تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم، ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم»، وعنه قال: «قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا وكأنهم فخروا فقال العباس: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم في مجالسهم فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله قالوا بلى يا رسول الله قال أفلا تجيبون؟ قالوا ما نقول يا رسول الله؟ قال ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك؟ ألم يكذبوك فصدقناك؟ ألم يخذلوك فنصرناك؟ فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا أموالنا وما في أيدينا لله ورسوله، فنزلت هذه الآية »[1] وفي إسناده يزيد ابن أبي زياد وهو ضعيف والأولى أن الآية مكية لا مدنية. وقد أشرنا فيما سبق أن هذه الآية مدنية وهذا متمسكهم.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية «تحفظوني في أهل بيتي وتودوهم بي» أخرجه الديلمي وأبو نعيم، وعنه قال لما نزلت هذه الآية قالوا: «يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال علي وفاطمة وولداهما» أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف.

وعنه قال نزلت هذه الآية بمكة وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله قل لهم يا محمد لا أسألكم عليه ـ أي على ما أدعوكم إليه ـ أجراً عرضاً من الدنيا إلى المودة في القربى، إلا الحفظ في قرابتي فيكم، فلما هاجر إلى المدينة أحب أن يلحقه بإخوته من الأنبياء فقال ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله﴾ يعني ثوابه وكرامته في الآخرة، كما قال نوح ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ وكما قال هود وصالح وشعيب لم يستثنوا أجراً كما استثنى النبي صلى الله عليه وسلم فرده عليهم، وهي منسوخة، وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية «قل لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات والهدى أجراً إلا أن تودوا الله وأن تتقربوا إليه بطاعته هذا حاصل ما روي عن حبر الأمة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في تفسير هذه الآية والمعنى الأول هو الذي صح

(٢) السيوطي في الدر ٦/٧.

عنه ورواه عنه الجمع الجم من تلامذته فمن بعدهم ولا ينافيه ما روي عنه من النسخ فلا مانع من أن يكون قد نزل القرآن في مكة بأن يوده كفار قريش لما بينه وبين قريش من القربى ويحفظوه بها ثم ينسخ ذلك ويذهب هذا الاستثناء من أصله كما يدل عليه ما ذكرنا مما يدل على أنه لم يسأل على التبليغ أجراً على الإطلاق.

ولا يقوي ما روي من حملها على آل محمد صلى الله عليه وسلم على معارضته ما صح عن ابن عباس من تلك الطرق الكثيرة، وقد أغنى الله آل محمد عن هذا بما لهم من الفضائل الجليلة والمزايا الجميلة، وقد بينا ذلك عند تفسيرنا لقوله ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ وكما لا يقوى هذا على المعارضة فكذلك لا يقوي ما روي عنه أن المراد بالمودة أن يودوا الله، وأن يتقربوا إليه بطاعته، ولكنه يشد من عضد هذا انه تفسير مرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ومن يقترف﴾ أي يكتسب وأصل القرف الكسب يقال فلان يقرف لعياله من باب ضرب أي يكسب والاقتراف الاكتساب مأخوذ من قولهم رجل قرفة إذا كان محتالا ﴿حسنة﴾ أي طاعة (نزد له فيها﴾ أي في هذه الحسنة أو في الجنة ﴿حسناً﴾ بمضاعفة ثوابها، قال مقاتل المعنى من يكتسب حسنة واحدة نزد له فيها حسناً نضاعفها بالواحدة عشراً فصاعداً. وقيل المراد بهذه الحسنة هي المودة في القربى، والحمل على العموم أولى، ويدخل تحته المودة في القربى دخولاً أولياً لذكرها عقيب ذكر المودة في القربى وقال ابن عباس إنها المودة في آل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال السدي إنها نزلت في أبي بكر ومودته فيهم والظاهر العموم.

﴿إن الله غفـور شكور﴾ أي كثير المغفرة للمذنبين كثير الشكر للمطيعين قال قتادة : غفور للذنوب شكور للحسنات . وقال السدي : غفور لذنوب آل محمد صلى الله عليه وسلم شكور للقليل فيضاعفه .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿أم﴾ منقطعة أي بل أ ﴿يقولون افترى﴾ أي اختلق ﴿على الله كذباً﴾ بدعوى النبوة ونسبة القرآن إلى الله تعالى، والإنكار للتوبيخ، ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال: ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ أي لو افترى على الله الكذب لشاء عدم صدوره منه، وختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله شيئاً مما كذب فيه كما تزعمون، قال قتادة يختم على قلبك فينسيك القرآن فأخبرهم أنه لو افترى عليه لفعل به ما أخبرهم به في هذه الآية.

وقال مجاهد ومقاتل: إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذيتهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم وقيل: الخطاب له والمراد الكفار، أي إن يشأ يختم على قلوب الكفار ويعاجلهم بالعقوبة، ذكره القشيري وقيل: المعنى لو حدثتك نفسك أن تفتري على الله كذباً لطبع على قلبك: فإنه لا يجترىء على الكذب إلا من كان مطبوعاً على قلبه، والأول أولى، والمقصود، من هذا الكلام المبالغة في تقرير الاستبعاد.

﴿ويمحو الله الباطل﴾ استئناف مقرر لما قبله من نفي الافتراء غير داخل في جزاء الشرط، قال ابن الأنباري: يختم على قلبك تام وما بعده مستأنف،

وقال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، أي والله يمحو الباطل، وقال الزجاج: ويمحو الله الباطل احتجاج على من أنكر ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، أي لو كان ما أتى به باطلا لمحاه كما جرت به عادته في المفترين؛ وسقطت الواو من يمحو في بعض المصاحف كما حكاه الكسائي.

﴿ويحق الحق﴾ أي الإسلام فيبينه ﴿بكلماته﴾ أي بما أنزله من القرآن وقد فعل الله تعالى ذلك فمحا باطلهم. وأعلى كلمة الإسلام ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي عالم بما في قلوب العباد.

﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ المذنبين أي يقبل توبتهم إليه مما عملوا من المعاصي، واقترفوا من السيئآت والتوبة الندم على المعصية والقلع عنها والعزم على عدم المعاودة لها، وهذه ثلاثة شروط فيما بينه وبين الله تعالى فإذا حصلت هذه الشروط صحت التوبة، وإن فقد أحد الثلاثة لم تصح، وأما فيما يتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة، والرابع أن يبرأ من حق صاحبها، وقيل: يقبل التوبة عن أوليائه وأهل طاعته، والأول أولى، فإن التوبة مقبولة من جميع العباد مسلمهم وكافرهم إذا كانت صحيحة صادرة عن خلوص نية وعزيمة صحيحة والأحاديث في ذكر التوبة وحكمها كثيرة في الصحيحين وغيرها.

﴿ويعفو عن السيئآت﴾ على العموم لمن تاب عن سيئة، ويعفو لمن يشاء بلا توبة أيضاً إذا كان ما دون الشرك ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ من خير وشر فيجازي كُلًّا بما يستحقه قرأ حمزة وغيره تفعلون بالفوقية على الخطاب وقرىء بالتحتية على الخبر، وهما سبعيتان، واختار الثانية أبو عبيد وأبو حاتم لأن هذا الفعل وقع بين خبرين.

﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي يعطيهم ما طلبوه منه يقال أجاب واستجاب بمعنى وقيل المعنى تقبل عبادة المخلصين وقيل التقدير يستجيب لهم فحذف اللام كما حذف في قوله: ﴿وإذا كالوهم﴾ أي كالوا لهم وقيل إن

الموصول في محل رفع أي يجيبون ربهم إذا دعاهم، كقوله ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾ واستظهره السفاقسي ، قال المبرد المعنى يستدعي الذين آمنوا الإجابة هكذا حقيقة معنى استفعل، فالذين في موضع رفع والأول أولى ﴿ويزيدهم﴾ على ما طلبوه ﴿ من فضله ﴾ او على ما يستحقونه من الثواب تفضلاً منه ، وقيل يشفعهم في إخوانهم ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ هذا للكافرين مقابلاً لما ذكره للمؤمنين فيما قبله .

﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده ﴾ جميعهم ، أي لو وسع الله لهم رزقهم ﴿ لبغوا ﴾ أي لعصوا وطغوا جميعهم ﴿ في الأرض ﴾ وبطروا النعمة وتكبروا وطلبوا ما ليس لهم طلبه ، لأن الغنى مبطرة مأشرة ، وكفى بحال قارون وفرعون عبرة وقيل المعنى لو جعلهم سواء في الرزق لما انقاد بعضهم لبعض ولتعطلت الصنائع ، والأول أولى ، والظاهر عموم أنواع الرزق وقيل هو المطر خاصة وذكروا في كون بسط الرزق موجباً للطغيان وجوهاً لا نطول بذكرها ؛ وأصل البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى كمية أو كيفية ، وفي القرطبي بغيهم طلبهم منزلة بعد منزلة ، ودابة بعد دابة ، ومركباً بعد مركب ، وملبساً بعد ملبس .

﴿ ولكن ينزل ﴾ بالتشديد وضده سبعيتان ﴿ بقدر ما يشاء ﴾ أي ينزل من الرزق لعباده بتقدير على حسب مشيئته ، وما تقتضيه حكمته البالغة ﴿ إنه بعباده ﴾ أي بأحوالهم ﴿ خبير بصير ﴾ بما يصلحهم من توسيع الرزق وتضييقه فيقدر لكل أحد منهم ما يصلحه ويكفيه عن الفساد بالبغي في الأرض ويقدر لهم ما تقتضيه حكمته ، فيفقر ويغني ، ويمنع ويعطي ، ويبسط ويقبض ، ولو أغناهم جميعاً لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا ، وما ترى من البسط على من يبغي ، ومن البغي بدون البسط فهو قليل ، ولا شك أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب ، عن أبي هانىء الخولاني قال : سمعت عمرو بن خريت وغيره يقولون : « إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة وذلك أنهم قالوا لو أن لنا فتمنوا الدنيا » قال السيوطي سنده صحيح وعن علي « مثله » .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾

﴿ وهو الذي ينزل ﴾ بالتشديد والتخفيف سبعيتان ﴿ الغيث ﴾ أي المطر الذي هو أرفع أنواع الرزق وأعمها فائدة ، وأكثرها منفعة ومصلحة ﴿ من بعدما قنطوا ﴾ أي أيسوا عن ذلك ، فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم ويشكرون له ما يجب الشكر عليه ، والعامة على فتح النون ، وقرىء بكسرها وهي لغة ، وعليها قرىء لا تقنطوا بفتح النون في المتواتر ولم يقرأ بالكسر في الماضي إلا شاذاً وما مصدرية أي من بعد قنوطهم .

﴿ وينشر رحمته ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه في كل شيء من السهل والجبل ، والنبات والحيوان ، وما يحصل به من الخصب أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاماً أولياً ، والمراد بالرحمة المطر ، فذكر المطر بإسمين الغيث لأنه يغيث من الشدائد ، والرحمة لأنه رأفة وإحسان .

﴿ وهو الولي ﴾ للصالحين من عباده بالإحسان وجلب المنافع لهم ودفع الشرور عنهم ﴿ الحميد ﴾ المستحق للحمد منهم على إنعامه خصوصاً وعموماً ، ثم ذكر سبحانه بعض آياته الدالة على كمال قدرته الموجبة لتوحيده وصدق ما وعد به من البعث فقال :

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ﴾ أي خلقهما على هذه الكيفية العجيبة ، والصنعة الغريبة ، الدالة على وجود صانع حكيم قادر ، وفيه إشارة إلى ما قرر في الكلام من المسالك الأربعة في الإستدلال على وجود الصانع تعالى ، وهي حدوث الجواهر ، وإمكانها ، وحدوث الأعراض القائمة بها ،

وإمكانها أيضاً ، وفيه اشارة أيضاً إلى أن خلق السموات والأرض من إضافة الصفة للموصوف ، أي السموات المخلوقة والأرض المخلوقة .

﴿ وما بث فيهما من دابة ﴾ يجوز عطفه على خلق بتقدير مضاف ، ويجوز عطفه على السموات ، وقدمه القاضي على الأول والدابة اسم لكل ما دبّ ، قال الفراء أراد ما بث في الأرض دون السماء كقوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وإنما يخرج من الملح دون العذب وقال أبو علي الفارسي : تقديره وما بث في أحدهما فحذف المضاف ، قال مجاهد : يدخل في هذا الملائكة والناس ، وقد قال تعالى ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ قال الكرخي وما جَوّزه الزمخشري من أن يكون للملائكة مشي مع الطيران فيوصفون بالدبيب كما وصف به الأناسي أو يخلق الله تعالى في السموات حيوانات يمشون فيها مشي الأناسي على الأرض بعيد من الأفهام لكونه على خلاف العرف العام ولأن الشيء إنما يكون آية إذا كان معلوماً ظاهراً مكشوفاً ومن ثم أهمل القاضي ذكره .

﴿ وهو على جمعهم ﴾ أي حشرهم يوم القيامة، في الضمير تغليب العاقل على غيره، لأنه راجع إلى الدابة ، ولولاه لكان يُقال : على جمعها ﴿ إذا ﴾ أي في وقت ﴿ يشاء قدير ﴾ والظرف متعلق بجمعهم لا بقدير ، فإن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لا قدرته ؛ قال أبو البقاء . لأن ذلك يؤدي إلى أن يصير المعنى : وهو على جمعهم قدير إذا يشاء فتتعلق القدرة بالمشيئة وهو محال ، قال شهاب الدين والسمين ولا أدري ما وجه كونه محالاً على مذهب أهل السنة فإن كان يقول بقول المعتزلة وهو أن القدرة تتعلق بما لم يشأ الله تمشي كلامه ولكنه مذهب رديء لا يجوز اعتقاده .

﴿ وما أصابكم من مصيبة ﴾ من المصائب كائنة ما كانت ﴿ فيما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كسبت أيديكم ﴾ من المعاصي ، وما هي الشرطية ، ولذا دخلت الفاء في جوابها على قراءة الجمهور ، ولا يجوز حذفها عند سيبويه ، وجوز الأخفش وبعض البغداديين الحذف كما في قوله ﴿ وإن أطعتموهم إنكم

لمشركون ﴾ وبه قال أبو البقاء ، وقيل : هي الموصولة فيكون الحذف والإثبات جائزين ، والأول أولى .

قال الزجاج : إثبات الفاء أجود لأن الفاء مجازات جواب الشرط ومن حذف الفاء فعلى أن ما في معنى الذي ، والمعنى الذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم ، وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تزاول بها وتعالج وتحصل .

قال الحسن : المصيبة هنا الحدود على المعاصي ، والأولى الحمل على العموم كما يفيده وقوع النكرة في سياق النفي ، ودخول من الاستغراقية عليها قال الضحاك : ما تعلم الرجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب ، ثم قرأ هذه الآية وقال أي مصيبة أعظم من نسيان القرآن. قلت ويلحق بالقرآن نسيان السنة المطهرة . وترك العمل بها وإيثار الرأي عليها أيضاً ، عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ « وما أصابكم من مصيبة الآية وسأفسرها لك يا علي ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فيما كسبت أيديكم ، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه » .

أخرجه أحمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم ، قيل : المراد بهذه المصائب الأحوال المكروهة ، نحو الأوجاع والأسقام والقحط والبلاء والغرق والصواعق وغير ذلك ، من الذنوب والمعاصي وتعلق بهذه الآية من يقول بالتناسخ ، وقال : لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألموا ، والحق أن الآية مخصوصة بالمكلفين بالسياق والسباق .

﴿ و ﴾ هو ﴿ يعفو عن كثير ﴾ أي من المعاصي التي يفعلها العباد ، فلا يعاقب عليها أو عن كثير من الناس فلا يعاجلهم بالعقوبة فمعنى الآية أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب ويعفو عن كثير من الذنوب وقد أثبت بالأدلة الصحيحة أن جميع ما يصاب به الإنسان في الدنيا يؤجر عليه أو يكفر عنه من

ذنوبه وقيل هذه آية مختصة بالكافرين على معنى أن ما يصابون به بسبب ذنوبهم من غير أن يكون ذلك مكفراً عنهم لذنب ولا محصلاً لثواب ويترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم فلا يعاجلهم في الدنيا بل يمهلهم إلى الدار الآخرة والأولى حمل الآية على العموم ، والعفو يصدق على تأخير العقوبة ، كما يصدق على محو الذنب ورفع الخطأ به .

وقال الواحدي وهذه أرجى آية في كتاب الله لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين ، صنف كفره عنهم بالمصائب ، وصنف عفا عنه في الدنيا وهو كريم لا يرجع في عفوه ، فهذه سنة الله مع المؤمنين ، وأما الكافر فإنه لا يعجل له في الدنيا عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة ، وعن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر ، وقرأ وما أصابكم الآية » أخرجه الترمذي وعبد بن حميد وعن عمران ابن حصين أنه دخل عليه بعض أصحابه وكان قد ابتلى في جسده فقال إنا لنبتئس لك لما نرى فيك ، قال فلا تبتئس لما ترى ، فإن ما ترى بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم تلا هذه الآية إلى آخرها وعن معاوية بن أبي سفيان سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله به عنه من سيئآته » ، أخرجه أحمد وعن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق . ولا خدش عود . إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر أخرجه ابن مردويه .

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ أي بفائتين ما قضاه عليهم هربا في الأرض ولا في السماء لو كانوا فيها ، بل ما قضاه عليهم من المصائب واقع عليهم نازل بهم ﴿ ومالكم من دون الله من ولي ﴾ يواليكم فيمنع عنكم ما قضاه الله ﴿ ولا نصير ﴾ بنصركم من عذاب الله في الدنيا ولا في الآخرة ، ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آياته العظيمة الدالة على توحيده وصدق ما وعد به فقال :

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ ومن آياته الجوار ﴾ بحذف الياء من الخط لأنها من يا آت الزوائد وبإثباتها وحذفها في اللفظ في كل من الوصل والوقف قراءات سبعية ؛ وهي السفن ، واحدتها جارية أي سائرة ﴿ في البحر كالأعلام ﴾ أي الجبال جمع علم ؛ وهو الجبل ؛ قال الخليل : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم وقال مجاهد : الأعلام القصور واحدها علم .

﴿ إن يشأ ﴾ قرأ الجمهور بالهمز وقرىء بلا همز ﴿ يسكن الريح ﴾ قرأ الجمهور بالافراد وقرىء بالجمع والمعنى يسكن الريح التي تجري بها السفن ﴿ فيظللن ﴾ أي السفن الجواري . العامة على فتح اللام التي هي عين الفعل ؛ وهو القياس لأن الماضي بكسرها ؛ وقرىء بكسرها ؛ وهو شاذ ، وقال الزمخشري : من ظل يظل ويظل نحو ضل يضل ويضل ؛ قال الشيخ : وليس كما ذكر ؛ لأن يضل بفتح العين من ضللت بكسرها في الماضي ، ويضل بالكسر من ضللت بالفتح وكلاهما مقيس يعني أن كلاً منهما له أصل يرجع إليه ، بخلاف ظل فان ماضيه مكسور العين فقط ، وظل هنا بمعنى صار ، لان المعنى ليس على وقت الظلول وهو النهار فقط ، أفاده السمين .

﴿ رواكد ﴾ أي سواكن ثوابت وقوفاً يقال ركد الماء ركوداً سكن وكذلك ركدت الريح وركدت السفينة وكل ثابت في مكان فهو راكد وركد الميزان استوى ، وركد القوم هدأوا والمراكد المواضع التي يركد فيها الإنسان وغيره ﴿ على ظهره ﴾ أي ظهر البحر لا تجري ، قال ابن عباس : يتحركن ولا

يجرين في البحر ﴿ إن في ذلك ﴾ الذي ذكر من أمر السفينة ﴿ لآيات ﴾ دلالات عظيمة ﴿ لكل صبار شكور ﴾ أي لكل من كان كثير الصبر على البلوى كثير الشكر على النعماء ، قيل الإيمان نصفان نصف صبر عن المعاصي ونصف شكر وهو الإتيان بالواجبات ، وقال قطرب : الصبار الشكور الذي إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر ، قال عون ابن عبد الله فكم من منعم عليه غير شاكر وكم من مبتلي غير صابر .

﴿ أو يوبقهن ﴾ أي يهلكهن بالغرق قاله ابن عباس والمراد أهلكهن يقال أوبقه أي أهلكه ﴿ بما كسبوا ﴾ من الذنوب ، وقيل بما أشركوا والأول أولى ، فإنه يهلك في البحر المشرك وغير المشرك ﴿ ويعف عن كثير ﴾ من أهلها بالتجاوز عن ذنوبهم ؛ فينجيهم من الغرق ، قرأ الجمهور يعف بالجزم عطفاً على جواب الشرط ، قال القشيري ، وفي هذه القراءة إشكال لأن المعنى إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد ، أو يهلكها بذنوب أهلها ، فلا يحسن عطف﴿ ويعف ﴾على هذا لأنه يصير المعنى إن يشأ يعف ، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة ، فهو إذن عطف على المجزوم من حيث اللفظ ، لا من حيث المعنى ، وقد قرأ قوم يعفو بالرفع وهي جيدة في المعنى ، قال أبو حيان : وما قاله ليس بجيد إذ لم يفهم مدلول التركيب ، والمعنى ألا إنه تعالى إن يشأ أهلك ناساً وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم ، وقرىء بالنصب بإضمار إن بعد الواو .

﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ﴾ قرأ الجمهور بنصب يعلم ، قال الزجاج على الصرف ، قال : ومعنى الصرف صرف العطف على اللفظ إلى العطف على المعنى ، قال : وذلك أنه لما لم يحسن عطف ويعلم مجزوماً على ما قبله إذ يكون المعنى إن يشأ يعلم ، عدل إلى العطف على مصدر الفعل الذي قبله ، ولا يتأتى ذلك إلا بإضمار إن ، ليكون مع الفعل في تأويل اسم ، وكما قال الزجاج : قال المبرد وأبو علي الفارسي : واعترض على هذا الوجه بما لا طائل تحته ، وقيل النصب على العطف على تعليل محذوف ، والتقدير لينتقم

منهم ويعلم واعترضه الحفناوي بأنه ترتب على الشرط إهلاك قوم ونجاة قوم ، فلا يحسن تقدير لينتقم منهم .

وقرأ نافع وابن عامر برفع يعلم على الاستئناف ، أي على أنه جملة إسمية أو فعلية ، فعلى كونها فعلية يكون الموصول فاعلاً ، وعلى كونها إسمية بكون مفعولاً والفاعل ضمير مستتر يعود على مبتدأ مقدر ، أي وهو يعلم الذين ، وهي قراءة ظاهرة واضحة اللفظ ، وقرىء بالجزم عطفاً على المجزوم قبله على معنى : وإن يشأ يجمع بين الإهلاك والنجاة والتحذير .

ومعنى قوله : ﴿ ما لهم من محيص ﴾ ما لهم من فرار ولا مهرب من العذاب قاله قطرب وقال السدي : ما لهم من ملجأ وهو مأخوذ من قولهم : حاص به البعير حيصة إذا رمى به ، ومنه قولهم ، فلان يحيص عن الحق أي يميل عنه ثم لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد ذكر التنفير عن الدنيا فقال :

﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي ما أعطيتم أيها الناس من الغنى والسعة في الرزق وأثاث الدنيا فإنما هو متاع قليل يتمتع به في أيام قليلة تنقضي وتذهب وتزول .

إنما الدنيا فناء ليس للدنيا ثبوت
إنما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت

ثم رغبهم في ثواب الآخرة وما عند الله من النعيم المقيم فقال : ﴿ وما عند الله ﴾ من ثواب الطاعات والجزاء عليها بالجنات هو ﴿ خير ﴾ من متاع الدنيا ﴿ وأبقى ﴾ لأنه دائم لا ينقطع ومتاع الدنيا ينقطع بسرعة ، ثم بين سبحانه لمن هذا فقال .

﴿ للذين آمنوا ﴾ أي صدقوا وعملوا على ما يوجبه الايمان ﴿ وعلى ربهم ﴾ لا على غيره ﴿ يتوكلون ﴾ أي يفوضون إليه أمورهم ويعتمدون عليه في كل شؤونهم ، قيل : « نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه حين تصدق بجميع ماله ، ولامه الناس » .

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ الموصول في محل جر معطوف على الذين آمنوا، أو بدل منه، أو في محل نصب على إضمار أعني، والأول أولى، والمراد الكبائر من الذنوب وقد قدمنا تحقيقها في سورة النساء، قرأ الجمهور كبائر بالجمع وقرىء كبير بالإفراد وهو يفيد مفاد كبائر لأن الإضافة للجنس كاللام، والرسم الكريم يحتمل القراءتين؛ والفواحش هي من الكبائر، ولكنها مع وصف كونها فاحشة كأنها فوقها، وذلك كالقتل والزنا ونحو ذلك، وقال مقاتل: الفواحش موجبات الحدود؛ وقال السدي هي الزنا فعطفها من عطف الخاص على العام، والبعض على الكل إذ الكبائر قد لا توجب الحد كالغيبة والنميمة.

﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ أي يتجاوزون عن الذنب الذي أغضبهم ويكظمون الغيظ ويحلمون على من ظلمهم وخص الغضب بالغفران، لأن استيلاءه على طبع الإنسان وغلبته عليه شديدة فلا يغفره عند سورة الغضب إلا من شرح الله صدره، وخصه بمزيد الحلم، ولهذا أثنى الله سبحانه عليهم بقوله في آل عمران ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ قال ابن زيد: جعل الله المؤمنين صنفين صنفاً يعفون عن ظالمهم فبدأ بذكرهم: وصنفاً ينتصرون من ظالمهم وهم الذين سيأتي ذكرهم.

﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة﴾ أي أجابوه إلى ما دعاهم

إليه وأقاموا ما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة ، قال ابن زيد هم الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة وأقاموا الصلاة لمواقيتها بشروطها وهيئاتها قاله القرطبي ، ونحوه البيضاوي .

﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ أي يتشاورون فيما بينهم ولا يعجلون ولا ينفردون بالرأي ، والشورى مصدر شاورته مثل البشرى والقربى ، قال الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وورد النقباء إليهم حين اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به ، والنصرة له ، وقيل : المراد تشاورهم في كل أمر يعرض لهم فلا يستأثر بعضهم على بعض برأي ، قال ابن العربي : الشورى ألفة للجماعة ، وسبار للعقول ، وسبب إلى الصواب ، وما تشاور قوم قط إلا هدوا ، فمدح الله تعالى المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك وما أحسن ما قاله بشار بن برد :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فريش الخوافي قوة للقادم

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في أموره ، وأمره الله سبحانه بذلك فقال : ﴿وشاورهم في الأمر ﴾ وذلك في الآراء كثير ، ولم يكن يشاورهم في الأحكام لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض ، والندب والمكروه والمباح والحرام ، فأما الصحابة بعده صلى الله عليه وسلم فكانوا يتشاورون في الأحكام ، ويستنبطونها من الكتاب والسنة ، وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينص عليها وتشاوروا في أهل الردة ، فاستقر رأي أبي بكر على القتال ، وشاور عمر رضي الله عنه الهرمزان حين وفد عليه مسلماً ، وقد قدمنا في آل عمران كلاماً في الشورى .

﴿ ومما رزقناهم يتفقون ﴾ في سبيل الخير ، ويتصدقون به على المحاويج ، ثم ذكر سبحانه الطائفة التي تنتصر ممن ظلمها فقال : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي ﴾ أي بغي من بغى عليهم بغير الحق ﴿ هم ينتصرون ﴾ أي ينتقمون من ظالمهم من غير تعد ، ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح ، لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل الله له العزة ، حيث قال ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ فالانتصار عند البغي فضيلة ، كما أن العفو عند الغضب فضيلة .

قال ابن العربي ذكر الله الانتصار في البغي في معرض المدح وذكر العفو عن الجرم في موضع آخر ، في معرض المدح ، فاحتمل أن يكون أحدهما رافعاً للآخر ، أو يكون ذلك راجعاً إلى حالتين إحداهما أن يكون الباغي معلناً بالفجور مؤذياً للصغير والكبير ، فيكون الانتقام منه أفضل ، الثانية أن يقع ذلك ممن لم يعرف بالزلة ويسأل المغفرة فالعفو ههنا أفضل ، وهكذا ذكر الكيا الطبري في أحكامه .

وقال النخعي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم السفهاء والفساق ، لكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله الله له وعدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله :

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ فبين سبحانه أن العدل في الانتصار هو الاقتصار على المساواة وظاهر هذا العموم ، وقال مقاتل والشافعي وأبو حنيفة وسفيان إن هذا خاص بالمجروح ، ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره وقال مجاهد والسدي هو جواب القبيح إذا قال شخص أخزاك الله يقول : أخزاك الله من غير أن يعتدي ، وإذا انتصر فقد استوفى ظلامته وبرىء الأول من حقه ، وبقي عليه إثم الابتداء ، والإثم لحق الله تعالى ، وتسمية الجزاء سيئة إما لكونها تسوء من وقعت عليه أو على طريق المشاكلة لتشابهها في الصورة .

أخرج النسائي وابن ماجة وابن مردويه عن عائشة قالت : « دخلت عليّ

زينب وعندي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبلت عليّ فسبتني فردعها النبي صلى الله عليه وسلم فلم تنته ، فقال لي سبيها فسببتها حتى جف ريقها في فمها ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل سروراً » ، وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم«المستبّان ما قالا من شيء فعلى البادىء حتى يعتدي المظلوم ثم قرأ ﴿ وجزاء سيئة مثلها ﴾ » .

﴿ فمن عفا ﴾ الفاء للتفريع أي إذا كان الواجب في الجزاء رعاية المماثلة من غير زيادة ، وهي عسرة جداً ، فالأولى العفو والإصلاح إذا كان قابلاً للاصلاح ، فلا يرد أنه يخالف قولهم الحلم على العاجز محمود ، وعلى المتغلب مذموم ، والمعنى من عفا عمن ظلمه .

﴿ وأصلح ﴾ بالعفو بينه وبين ظالمه ﴿ فأجره على الله ﴾ أي يأجره على ذلك لا محالة ، وأبهم الأجر تعظيماً لشأنه ، وتنبيهاً على جلالته ، قال مقاتل فكان العفو من الأعمال الصالحة ، وقد بينا هذا في سورة آل عمران ، والمقصود من الآية التحريض على العفو ، وقد عرفت التوفيق بينه وبين الانتصار .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا ليقم من كان له على الله أجر ، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا ، وذلك قوله فمن عفا الآية .

وأخرج البيهقي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ينادي منادمن كان له أجر على الله فليدخل الجنه مرتين فيقوم من عفا عن أخيه قال الله تعالى : فمن عفى الآية ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته التي هي سبب الفوز والنجاة فقال ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ يعني من يبدأ بالظلم قاله مقاتل وبه قال سعيد بن جبير وقيل:لا يحب من يتعدى في الاقتصاص . ويجاوز الحد فيه لأن المجاوزة ظلم .

وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾

﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول ، أي بعد أن ظلمه الظالم واللام هي لام الابتداء وقال الحوفي وابن عطية هي لام القسم وليس بجيد بل الأول أولى ، ومن هي الشرطية وجوابه ﴿ فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ بمؤاخذة وعقوبة لأنهم فعلوا ما هو جائز لهم ، وقيل من موصولة ، والأول أولى . وفي القرطبي :الآية دليل على أن له يستوفي ذلك بنفسه ، وهذا ينقسم ثلاثة أقسام وذكرها في حاشية الجمل لا نطول ببسطها فمحلها كتب الفقه دون التفاسير ، ولما نفى سبحانه السبيل على من انتصر بعد ظلمه بين من عليه السبيل فقال :

﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ أي يتعدون عليهم ابتداء كذا قال الأكثر ، وقال ابن جريج : أي يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم ﴿ ويبغون في الأرض ﴾ أي يعملون في النفوس والأموال ﴿ بغير الحق ﴾ كذا قال الأكثر قيد به لأن البغي قد يكون مصحوباً بحق كالانتصار المقترن بالتعدي فيه ، وقال مقاتل : بغيهم عملهم بالمعاصي ، وقيل : يتكبرون ويتجبرون ؛ وقال أبو مالك : هو ما يرجوه أهل مكة أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً .

﴿ أولئك ﴾ أي الذين يظلمون الناس ﴿ لهم ﴾ بهذا السبب ﴿ عذاب أليم ﴾ شديد الألم ثم رغب سبحانه في الصبر والعفو فقال : ﴿ ولمن صبر

وغفر﴾ كرره اهتماماً بالصبر وترغيباً فيه ، والصبر هنا هو الإصلاح المتقدم . فأعيد هنا وعبر عنه بالصبر ، لأنه من شأن أولي العزم وإشارة إلى أن العفو المحمود ما نشأ عن التحمل ، لا عن العجز ، والمعنى ومن صبر على الأذى وغفر لمن ظلمه لوجه الله ولم ينتصر ، وهذا فيمن ظلمه مسلم .

ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق ، ثم قام فتلا هذه الآية ، فقال الحسن عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون ، وبالجملة العفو مندوب إليه ثم قد ينعكس في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه كما تقدم ، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي ، وقطع مادة الأذى .

﴿إن ذلك﴾ الصبر والمغفرة منه وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم ﴿لمن عزم الأمور﴾ قال مقاتل:أي من الأمور التي أمر الله بها ، وندب إليها ، أو مما ينبغي أن يوجبه العاقل على نفسه ولا يترخص في تركه قال أبو سعيد القرشي الصبر على المكاره من علامات الانتباه فمن صبر على مكروه يصيبه ولم يجزع أورثه الله تعالى حال الرضاء ، وهو أجل الأحوال ومن جزع من المصيبات وشكا وكله الله تعالى إلى نفسه ، ثم لم تنفعه شكواه .

وقال الزجاج الصابر يؤتى بصبره ثواباً فالرغبة في الثواب أتم عزماً قال ابن زيد إن هذا كله منسوخ بالجهاد ، وأنه خاص بالمشركين ، وقال قتادة إنه عام ، وهو ظاهر النظم القرآني ، وقال هنا بلام التوكيد ، وفي لقمان بدونها لأن الصبر على مكروه حدث بظلم كقتل ولد أشد من الصبر على مكروه حدث بلا ظلم كموت ولد ، كما أن العزم على الأول آكد منه على الثاني ، وما هنا من القبيل الأول فكان أنسب بالتوكيد ، وما في لقمان القبيل الثاني فكان أنسب بعدمه ، أفاده الكرخي .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي يخذله ﴿ فما له من ولي من بعده ﴾ أي فما له من أحد يلي هدايته وينصره، وظاهر الآية العموم، وقيل هي خاصة بمن أعرض عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعمل بما دعاه إليه من الإيمان بالله والعمل بما شرعه الله والمودة في القربى، أي فمن أضله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هاد، قاله القرطبي والأول أولى.

﴿ وترى ﴾ الخطاب في الموضعين لكل من تتأتى منه الرؤية والرؤية فيهما بصرية، والجملة الواقعة بعد كل منهما حالية ﴿ الظالمين ﴾ أي المشركين المكذبين بالبعث ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي حين نظروا النار، وقيل نظروا ما أعده الله لهم عند الموت، واختير لفظ الماضي للتحقيق ﴿ يقولون: هل إلى مرد من سبيل ﴾ أي هل إلى الرجعة إلى الدنيا من طريق؟

﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾ أي على النار ﴿ خاشعين من الذل ﴾ أي ساكنين متواضعين من أجله ﴿ ينظرون ﴾ إليها ﴿ من طرف خفي ﴾ أي ذليل ، قاله ابن عباس ، ومن هي لابتداء الغاية ، أي يبتدىء نظرهم إلى النار ، ويجوز أن تكون تبعيضية ، وقال يونس : من بمعنى الباء ، أي ينظرون بطرف ضعيف من الذل والخوف ، وبه قال الأخفش ، والطرف الخفي الذي يخفي نظره كالمصبور ينظر إلى السيف لما لحقهم من الذل والخوف والوجل قال مجاهد : وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يحشرون عمياً وعين القلب طرف خفي وقال قتادة وسعيد بن جبير والسدي ومحمد بن كعب القرظي : يسارقون النظر إلى النار من شدة الخوف .

﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ﴾ أي إن الكاملين في الخسران هم هؤلاء الذين جمعوا بين خسران الأنفس والأهلين بتخليدهم في النار ﴿ يوم القيامة ﴾ إما ظرف لخسروا فالقول في الدنيا أو لقال فالقول في القيامة ، ويكون التعبير عنه بالماضي للدلالة على تحقق وقوعه قاله أبو السعود وأما خسرانهم لأنفسهم فلكونهم صاروا في النار معذبين بها ، وأما خسرانهم لأهليهم فلأنهم إن كانوا معهم في النار فلا ينتفعون بهم وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينهم وبينهم ، وقيل خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين .

﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ هذا من تمام كلام المؤمنين ، أو من كلام الله سبحانه أي هم في عذاب دائم لا ينقطع ﴿ وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ﴾ أي لم يكن لهم أعوان يدفعون عنهم العذاب ، وأنصار ينصرونهم في ذلك الموطن من دون الله ، بل هو المتصرف سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ أي من طريق

يسلكها إلى النجاة ، ثم أمر سبحانه عباده بالإستجابة وحذرهم فقال :

﴿ استجيبوا لربكم ﴾ أي استجيبوا دعوته لكم إلى الإيمان به وبكتبه ورسله ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ أي لا يقدر أحد على رده ودفعه على معنى من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد ، ولا يرده الله بعد[1] كالأليم بمعنى المؤلم ، أي لا تجدون يومئذ منكراً لما ينزل بكم من العذاب حكاه ابن أبي حاتم ، وقاله الكلبي وغيره : والأول أولى قال الزجاج . معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها .

﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي حافظاً تحفظ أعمالهم الصادرة عنهم حتى تحاسبهم عليها ولا موكلاً بهم رقيباً عليهم ، لتقهرهم على امتثال ما أرسلناك به .

﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ عليك إلا البلاغ ﴾ لما أمرت بإبلاغه وليس عليك غير ذلك ، وهذا منسوخ بآية السيف ، لأنه قبل الأمر بالجهاد ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ أي إذا أعطيناه رخاء وصحة وغنى ﴿ فرح بها ﴾ بطراً ونعم الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر ، فلهذا سمى الإنعام إذاقة ، والمراد بالإنسان الجنس ولهذا قال :

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي بلاء وشدة ومرض وفقر ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ من الذنوب وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تزاول بها ﴿ فإن الانسان كفور ﴾ أي كثير الكفر بما أنعم به عليه من نعمه غير شكور له عليها ، وهذا باعتبار غالب جنس الإنسان ، ولم يقل : فإنه كفور ، بل وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم ، كما قال ﴿ إن

---

(١) سقط من الأصل : أن حكم به على عباده ووعدهم به ، والمراد به يوم القيامة ، أي يوم الموت ﴿ما لكم من ملجأ يومئذ﴾ تلجأون إليه ﴿وما لكم من نكير﴾ أي إنكار ، يعني بل تعترفون بذنوبكم لأنها مدونة في صحائفكم وتشهد بها عليكم جوارحكم ، وقال مجاهد : ما لكم من ناصر ينصركم ، وقيل : النكير بمعنى المنكر .

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)﴾

الإنسان لظلوم كفار﴾ والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغطيها ، ثم ذكر سبحانه سعة ملكه ونفاذ تصرفه فقال :

﴿لله ملك السموات والأرض﴾ أي له التصرف فيهما بما يريد لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، والملك بالضم الاستيلاء على الشيء والتمكن من التصرف فيه ، وفي المصباح وملك على الناس أمرهم ملكاً من باب ضرب إذا تولى السلطنة فهو ملك والاسم الملك بضم الميم .

﴿يخلق ما يشاء﴾ من الخلق ﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾ بدل مفصل من مجمل أي لا ذكور معهن ، قاله مجاهد والحسن والضحاك وأبو مالك وأبو عبيدة وقال ابن عباس يريد لوطاً وشعيباً لأنهما لم يكن لهما إلا البنات .

﴿ويهب لمن يشاء الذكور﴾ أي لا إناث معهم ، يريد إبراهيم لأنه لم يكن له إلا الذكور ، قاله ابن عباس ، قيل : وتعريف الذكور بالألف واللام للدلالة على شرفهم على الإناث ، ويمكن أن يقال إن التقديم للإناث قد عارض ذلك فلا دلالة في الآية على المفاضلة ، بل هي مسوقة لمعنى آخر ، وقد دل على شرف الذكور قوله سبحانه :

﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله﴾ وغير ذلك من الأدلة الدالة على شرف الذكور على الإناث ، وقيل : تقديم الإناث لكثرتهن بالنسبة إلى الذكور . وقيل : لتطيب قلوب آبائهن ، وقيل لغير ذلك مما لا حاجة إلى

التطويل بذكره ، أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن وائلة بن الأسقع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى لأن الله قال : يهب لمن يشاء إناثاً » إلخ .

﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ أي يقرن بين الإناث والذكور ، ويجعلهم أزواجاً فيهبهما جميعاً لبعض خلقه يريد محمداً صلى الله عليه وسلم فإنه كان له من البنين ثلاثة على الصحيح ، القاسم وعبدالله وإبراهيم ، ومن البنات أربع زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، قاله ابن عباس قال مجاهد . هو أن تلد المرأة غلاماً ثم تلد جارية ، ثم تلد غلاماً ، ثم تلد جارية . وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد توأماً غلاماً وجارية ، وقال القتيبي التزويج هنا هو الجمع بين البنين والبنات ، تقول العرب : زوجت إبلي إذا جمعت بين الصغار والكبار ، ومعنى الآية أوضح من أن يختلف في مثله ، فإنه سبحانه أخبر أنه يهب لبعض خلقه إناثاً ويهب لبعض خلقه ذكوراً ويجمع لبعض بين الذكور والإناث .

﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ لا يولد له ذكر ولا أنثى ، والعقيم الذي لا يولد له يريد يحيى وعيسى ، قاله ابن عباس ، وقال أكثر المفسرين : هذا على وجه التمثيل ، وإنما الحكم عام في كل الناس ، لأن المقصود بيان نفاذ قدرة الله تعالى في تكوين الأشياء كيف يشاء ، فلا معنى للتخصيص ، يقال رجل عقيم ، وامرأة عقيم ، وعقمت المرأة تعقم عقماً ، وأصله القطع ، ويقال : نساء عقّم وعقماء ﴿ إنه عليم قدير ﴾ أي بليغ العلم عظيم القدرة .

﴿ وما كان لبشر ﴾ أي ما صح لفرد من أفراد البشر ﴿ أن يكلمه الله ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ إلا وحياً ﴾ بأن يوحي إليه فيلهمه في المنام ، ويقذف في قلبه ذلك ، قال مجاهد : نفث ينفث في قلبه فيكون إلهاماً منه كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم في ذبح ولده ، والوحي الإشارة والرسالة والكتابة ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه وحي ، كيف كان ، قاله ابن فارس ، وهو مصدر وحى إليه

يحي من باب وعي ، وأوحى إليه بالألف مثله ، ثم غلب استعمال الوحي فيما يلقى الى الأنبياء من عند الله تعالى ، ولغة القرآن الفاشية أوحى بالألف .

﴿ أو من وراء حجاب ﴾ كما كلم موسى يريد أن كلامه يسمع من حيث لا يرى ، وهو تمثيل بحال الملك المحتجب الذي يكلم خواصه من وراء حجاب قال ابن عباس في الآية إلا أن يبعث ملكاً يوحي إليه من عنده ، أو يلهمه فيقذف في قلبه . أو يكلمه من وراء حجاب ، وقيل : المراد به أن السامع محجوب عن الرؤية في الدنيا .

﴿ أو يرسل رسولاً ﴾ أي ملكاً ﴿ فيوحي ﴾ ذلك الملك إلى الرسول من البشر ﴿ بإذنه ﴾ أي بأمر الله وتيسيره ﴿ ما يشاء ﴾ أن يوحي إليه ، قال الزجاج : المعنى أن كلام الله للبشر إما أن يكون بإلهام يلهمهم أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى ، أو برسالة ملك إليهم ، وتقدير الكلام ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي وحياً أو يكلمه من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً ، ومن قرأ يرسل رفعاً أراد وهو يرسل فهو ابتداء واستئناف لها .

وقرأ الجمهور بنصب يرسل وبنصب فيوحي على تقدير أن ، وتكون أن وما دخلت عليه معطوفين على ﴿ وحياً ﴾ وحياً في محل الحال ، والتقدير : إلا موحياً أو مرسلاً ولايصح عطف أو ﴿يرسل﴾ على أن ﴿يكلمه﴾ لأنه يصير التقدير : وما كان لبشر أن يرسل الله رسولاً ، وهو فاسد لفظاً ومعنى . وقد قيل في توجيه قراءة الجمهور غير هذا مما لا يخلو عن ضعف ، وقرىء بالرفع وكذلك فيوحي باسكان الياء على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير أو هو يرسل ، كما قال الزجاج وغيره .

وجملة ﴿ إنه عليّ حكيم ﴾ تعليل لما قبلها أي متعال عن صفات النقص ، حكيم في كل أحكامه ، قال المفسرون سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى فنزلت .

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

﴿ وكذلك ﴾ أي كالوحي الذي أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ المراد به القرآن قاله ابن عباس ، وقيل النبوة ، قال مقاتل يعني الوحي بأمرنا ومعناه القرآن لأنه يهتدي به ففيه حياة من موت الكفر ، وقيل : من تبعيضية لأن الموحى إليه لا ينحصر في القرآن ، وقيل : المراد به الرحمة ، وقيل جبريل ، ثم ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحي إليه فقال :

﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ أي : أيُّ شيء هو لأنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وذلك أدخل في الإعجاز ، وأدل على صحة نبوته ، ومعنى ﴿ ولا الإيمان ﴾ أنه كان صلى الله عليه وسلم لا يعرف تفاصيل الشرائع ومعالمها ، ولا يهتدي إلى معانيها ، كالصلاة والصوم والزكاة والختان وإيقاع الطلاق والغسل من الجنابة ، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر ، وهذا هو الحق وخص الإيمان لأنه رأسها وأساسها ، وقيل أراد بالإيمان هنا الصلاة ، قال بهذا جماعة من أهل العلم ، منهم إمام الأئمة محمد بن إسحق بن خزيمة واحتج بقوله تعالى :

﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ يعني الصلاة ، فسماها إيماناً ، وذهب جماعة إلى أن الله لم يبعث نبياً إلا وقد كان مؤمناً به ، وقالوا معنى الآية ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن ؟ ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ؟ وقيل كان هذا قبل البلوغ حين كان طفلاً وفي المهد .

وقال الحسين بن الفضل إنه على حذف المضاف ، أي ولا أهل الإيمان ، وقيل المراد بالإيمان ، دين الاسلام ، وقيل الايمان هنا عبارة عن الاقرار بكل

ما كلف الله به العباد ، وقال الكواشي ويجوز أن يراد بالإيمان نفس الكتاب وهو القرآن وعطف عليه لاختلاف لفظيهما أي ما كنت تعرف القرآن وما فيه من الأحكام ، ويدل على هذا التأويل توحيد الضمير في جعلناه ، وقيل المراد بالإيمان الكلمة التي بها دعوة الإيمان والتوحيد ، وهي لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ، والإيمان بهذا التفسير إنما علمه بالوحي لا بالعقل ، قاله الكرخي .

وعن علي قال : « قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم هل عبدت وثناً قط ؟ قال : لا قالوا فهل شربت خمراً قط ؟ قال : لا ، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر ، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان ؟ وبذلك نزل القرآن » . ﴿ وما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾[1]

﴿ ولكن جعلناه نوراً ﴾ أي جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك ضياء ودليلاً على التوحيد والإيمان ﴿ نهدي به ﴾ المراد به الهداية الموصلة بدليل قوله ﴿ من نشاء ﴾ هدايته ﴿ من عبادنا ﴾ ونرشده إلى الدين الحق ﴿ وإنك لتهدي ﴾ أي كل مكلف فالهداية فيه أعم من التي قبلها قرأ الجمهور لتهدي على البناء للفاعل وقرىء على البناء للمفعول ، وقرىء بضم التاء وكسر الدال من أهدى ، وفي قراءة أبيّ وإنك لتدعو ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ قال قتادة والسدي ومقاتل : وإنك لتدعو إلى الإسلام فهو الصراط المستقيم .

ثم بين الصراط المستقيم بقوله :

﴿ صراط الله ﴾ بدل من الأول بدل المعرفة من النكرة وفي هذه الإضافة للصراط إلى الإسم الشريف من التعظيم له والتفخيم لشأنه مالا يخفى ﴿ الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً والمعنى أنه المالك لذلك ، والمتصرف فيه .

﴿ ألا إلى الله تصير ﴾ أي ترجع ﴿ الامور ﴾ يوم القيامة لا إلى غيره ، أي جميع أمور الخلائق بارتفاع الوسائط والتعلقات وعلى هذا المضارع على

(١) زاد المسير ٢٩٩ .

ظاهره ، وقيل : المراد بهذا المضارع الديمومة كقولك زيد يعطي ويمنع أي من شأنه ذلك وليس المراد حقيقة المستقبل لأن الأمور منوطة به تعالى كل وقت وفيـه وعيد بـالبعث المستلزم للمجازاة ووعـد بنعيم الجنات فيثيب المحسن ويعاقب المسيء .

قال سهيل بن أبي الجعد : أحترق مصحف ولم يبق منه إلا قوله ﴿ أَلَا إلى الله تصير الأمور﴾ وغرق مصحف فانمحى كله إلا قوله ذلك والله أعلم القرطبي .



سورة الزخرف

﴿ وهي تسع وثمانون آية ﴾

قال القرطبي : هي مكيّة بالاجماع وبه قال ابن عباس . قال مقاتل إلا قوله ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ يعني فانها نزلت بالمدينة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾

﴿ حمٓ ﴾ الكلام ههنا كالكلام الذي قدمناه والله أعلم بمراده به ﴿ والكتاب المبين ﴾ أقسم بالقرآن الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة ، وأبان ما تحتاج اليه الأمة من الشريعة ، وقيل المبين الواضح للمتدبرين وهو من الايمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه ولعل أقسام الله بالأشياء استشهاده بما فيها من الدلالة على المقسم عليه ، وجواب القسم .

﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ وهذا عندهم من البلاغة وهو كون القسم والمقسم عليه من واد واحد إن أريد بالكتاب القرآن وإن أريد به جنس الكتب المنزلة لم يكن من ذلك والضمير في جعلناه على الأول ، يعود على الكتاب ، وعلى الثاني يعود على القرآن وإن لم يصرح بذكره ، والجعل هنا تصيير ولا يلتفت لخطأ الزمخشري في تجويزه أن يكون بمعنى خلقناه قاله السمين .

والمعنى سميناه وصيرناه ووصفناه ولذلك تعدى الى مفعولين ، وقال السدي : أي أنزلناه قرآناً ، وقال مجاهد قلناه وقال سفيان الثوري : بيناه ، وكذا قال الزجاج أي أنزل بلسان العرب لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه ، وقال مقاتل لأن لسان أهل الجنة عربي .

﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لكي تفهموه وتتعقلوا معانيه وتحيطوا بما فيه ، قال ابن زيد لعلكم تتفكرون ﴿ وإنه ﴾ أي وإن القرآن ﴿ في أم الكتاب لدينا ﴾ أي عندنا ﴿ لعلي حكيم ﴾ أخبر عن منزلته وشرفه وفضله أي ان كذبتم به يا أهل مكة فانه عندنا شريف رفيع القدر محكم النظم في أعلى طبقات البلاغة ، ودرجات الفصاحة ، لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ، والجملة عطف على الجملة المقسم بها داخلة تحت معنى القسم أو مستأنفة مقررة لما قبلها ، قال الزجاج : أم الكتاب أصل الكتاب ، وأصل كل شيء أمه والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ ، كما قال ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ .

قال ابن جريج : المراد بقوله وانه الخ أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية ، عن ابن عباس قال : « إن أول ما خلق الله من شيء القلم ، وأمره أن يكتب ما هو كائن الى يوم القيامة عنده »[1] ، ثم قرأ هذه الآية وأخرج ابن مردويه نحوه عن أنس مرفوعاً .

﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ يقال : ضربت عنه وأضربت عنه إذا تركته وأمسكت عنه ، كذا قال الفراء والزجاج وغيرهما ، وانتصاب صفحاً على المصدرية أو على الحال أي صافحين ، والصفح مصدر قولهم : صفحت عنه إذا أعرضت عنه ، وذلك أنك توليه صفحة وجهك وعنقك ، والمراد بالذكر هنا القرآن ، والاستفهام للانكار والتوبيخ قال الكسائي :

المعنى أفنضرب عنكم الذكر طياً فلا توعظون ولا تؤمرون . وقال مجاهد وأبو صالح والسدي أفنضرب عنكم العذاب ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم ؟ وقال قتادة المعنى أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم ، وروي عنه انه قال : المعنى أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل ، أنكم لا تؤمنون به ، وقيل : الذكر التذكير كأنه قال أنترك تذكيركم .

﴿ أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ قرىء إن بالكسر على أنها الشرطية والجزاء

(١) سبق ذكره .

محذوف لدلالة ما قبله عليه وبفتحها على التعليل ، أي لأن كنتم قوماً منهمكين في الإسراف مصرين عليه مفرطين في الجهالة مجاوزين الحد في الضلالة ، قال ابن عباس في الآية أحببتم أن نصفح عنكم ولم تفعلوا ما أمرتم به ، ثم سلى سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ﴾ كم هي الخبرية التي معناها التكثير والمعنى : ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة .

﴿ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ﴾ كاستهزاء قومك بك ﴿ فأهلكنا ﴾ قوماً ﴿ أشد منهم ﴾ أي من هؤلاء القوم ﴿ بطشاً ﴾ أي قوة تمييز أو حال ، أو باطشين والأول أحسن ، والبطش شدة الأخذ ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ أي سلف في القرآن في غير موضع منه ، ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل لشهرتها ، وقال قتادة : عقوبتهم ، وقيل : صفتهم في الاهلاك والمثل الوصف والخبر ، وفي هذا وعد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتهديد شديد لهم لأنه يتضمن أن الأولين أهلكوا بتكذيب الرسل ، وهؤلاء إن استمروا على تكذيبك والكفر بما جئت به هلكوا مثلهم .

﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ سألتهم ﴾ أي هؤلاء الكفار من قومك ﴿ من خلق السموات والأرض ﴾ أي هذه الأجرام العلوية والسفلية ﴿ ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ جواب القسم لا جواب الشرط ، وهذا على القاعدة في اجتماع الشرط والقسم ، من حذف جواب المتأخر منهما وحذف منه نون الرفع لتوالي النونات وواو الضمير لالتقاء الساكنين ، وكرر الفعل للتوكيد إذ لو جاء﴿العزيز﴾ بغير﴿ خلقهن ﴾لكان كافياً ،والمعنى أقروا بأن الله خالقهن ولم ينكروا ذلك وهذا أسوأ لحالهم وأشد لعقوبتهم ، لأنهم عبدوا بعض مخلوقات الله وجعلوه شريكاً له ، بل عمدوا الى ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينفع ولا يضر من المخلوقات ، وهي الأصنام فجعلوها شركاء لله ، ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم نعمته على عباده ، وكمال قدرته في مخلوقاته فقال :

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣﴾

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أي فراشاً كالمهد للصبي ، ولو شاء لجعلها مزلة لا يثبت فيها شيء كما ترون من بعض الجبال ، ولو شاء لجعلها متحركة فلا يمكن الانتفاع بها في الزراعة والأبنية ، فالانتفاع بها إنما حصل لكونها مسطحة قارة ساكنة وقد تقدم بيانه ، قرأ الجمهور مهاداً وقرأ الكوفيون مهداً وهذا كلام مبتدأ غير متصل بما قبله ، ولو كان متصلاً بما قبله من جملة مقول الكفار لقالوا : الذي جعل لنا الأرض مهاداً .

﴿ وجعل لكم فيها سبلاً ﴾ أي طرقاً تسلكونها إلى حيث تريدون ولو شاء لجعلها بحيث لا يسلك في مكان منها كما جعل بعض الجبال كذلك وقيل معايش تعيشون بها ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ بسلوكها إلى مقاصدكم ومنافعكم في أسفاركم .

﴿ والذي نزل من السماء ماء بقدر ﴾ أي بقدر الحاجة وحسبما تقتضيه المصلحة(١) بالغرق ولا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته في أرزاق عباده بالتوسيع تارة والتقتير أخرى .

﴿ فأنشرنا به بلدة ميتاً ﴾ أي أحيينا بذلك الماء بلدة مقفرة من النبات

(١) سقط من الأصل : ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زرعكم ويهدم منازلكم ويهلككم . . . . .

وفيه التفات قرأ الجمهورميتاً بالتخفيف وقرىء بالتشديد ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الإحياء للأرض بإخراج نباتها بعد أن كانت لا نبات بها ﴿ تخرجون ﴾ أي تبعثون من قبوركم أحياء فإن من قدر على هذا قدر على ذلك ، وقد مضى بيان هذا في آل عمران والأعراف ، قرأ الجمهور : تخرجون مبنياًللمفعول وقرىء مبنياً للفاعل .

﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ أي الضروب والأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود ، قال سعيد بن جبير الأصناف كلها وقال الحسن الأزواج الشتاء والصيف ، والليل والنهار ، والسموات والأرض والجنة والنار . وقيل أزواج الحيوان من ذكر وأنثى ، وقيل أزواج النبات كقوله :

﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ و ﴿من كل زوج كريم ﴾ وقيل : ما يتقلب فيه الانسان من خير وشر وإيمان وكفر ، ونفع وضر وفقر وغنى ، وصحة وسقم وهذا القول يعم الأقوال ويجمعها بعمومه ، وقيل : الأول أولى ، قال بعض المحققين : كل ما سوى الله فهو زوج كالفوق والتحت ، والربيع والخريف ، واليمين واليسار ، والقدام والخلف ، والماضي والمستقبل والذوات والصفات ، وكونها أزواجاً يدل على أنها ممكنة الوجود ، محدثة مسبوقة بالعدم ، فأما الحق تعالى فهو الفرد المنزه عن الضد والند والمقابل والمعاضد .

﴿ وجعل لكم من الفلك ﴾ السفن ﴿ والأنعام ما تركبون ﴾ أي ما تركبونه في البحر والبر وأريد بالأنعام هنا ما يركب من الحيوان ، وهو الابل والخيل والبغال والحمير ، وقرينة هذا قوله في سورة النحل ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها ﴾ فحينئذ في الأنعام هنا تغليب إذ الأنعام هي الابل والبقر والغنم وقال

الشوكاني : المراد بالأنعام ههنا الابل خاصة ، وقيل : الابل والبقر والأول أولى انتهى .

﴿ لتستووا ﴾ اللام لام العلة ، وهو الظاهر ، أو للصيرورة وجوز ابن عطية أن تكون لام الأمر ، وفيه بعد لقلة دخولها على أمر المخاطب ﴿ على ظهوره ﴾ الضمير راجع الى ما قاله أبو عبيد ، وقال الفراء أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد الجنس ، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجنس فلذلك ذكر وجمع الظهر لأن المراد ظهور هذا الجنس ، والاستواء الاستعلاء أي لتستعلوا على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام .

﴿ ثم تذكروا نعمة ربكم ﴾ أي التي أنعم بها عليكم من تسخير ذلك المركب في البحر والبر ﴿ إذا استويتم عليه ﴾ أي على ما تركبون ففيه مراعاة لفظ ﴿ ما ﴾ أيضا قال مقاتل والكلبي هو أن تقول الحمد لله الذي رزقني هذا وحملني عليه :

﴿ وتقولوا ﴾ أي بألسنتكم جمعاً بين القلب واللسان : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه سبحان من سخر لنا هذا ، وقال قتادة قد علمكم كيف تقولون إذا ركبتم والمعنى ذلل لنا هذا المركب الذي ركبناه سفينة كان أو دابة قاله الخطيب وصرح غيره بأنه خاص بالدابة ، وأما السفينة فيقول فيها ﴿ بسم الله مجريها ومرساها ﴾ ويؤيده :

﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ فان الامتناع والتعاصي والتوحش لولا تسخير الله وإذلاله إنما يتأتى في الدواب . وأما السفن فهي من عمل ابن آدم فليس لها امتناع بقوتها كامتناع الدابة . قال ابن عباس والكلبي : مقرنين مطيقين يقال أقرن هذا البعير اذا أطاقه . وقال الأخفش وأبو عبيدة : مقرنين ضابطين ، يقال فلان مقرن لفلان أي ضابط له ، وقيل مماثلين له في القوة من قولهم : هو قرن فلان اذا كان مثله في القوة .

وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ أي راجعون اليه وهذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة ، وفيه إشارة الى الرد عليهم في إنكار البعث أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « كان إذا سافر ركب راحلته ثم كبر ثلاثاً ، ثم قال : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .

روي أن قوماً ركبوا ، وقالوا سبحان الذي سخر لنا هذا الخ وفيهم رجل على ناقة لا تتحرك هزالاً فقال : إني مقرن لهذه فسقط لوثبتها واندقت عنقه ، وينبغي أن لا يكون ركوب العاقل للتنزه والتلذذ ، بل للاعتبار ، ويتأمل عنده أنه هالك لا محالة ومنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه .

قال القرطبي علمنا سبحانه وتعالى ما نقول إذا ركبنا الدواب وعرفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن فكم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت أو طاح عن ظهرها فهلك ، وكم من راكب سفينة انكسرت به فغرق فلما كان الركوب مباشرة أمر مخوف واتصالاً بسبب من أسباب التلف أمر أن لا ينسى عند اتصاله به موته ولا يدع ذكر ذلك بقلبه

ولسانه ، حتى يكون مستعداً لقضاء الله بإصلاحه من نفسه ، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله ، وهو غافل عنه . وقال ابن العربي : ليس بواجب ذكره باللسان بل يستحب وإنما الواجب اعتقاده بالقلب والأول أولى والجمع أفضل .

ثم رجع سبحانه الى ذكر الكفار الذين تقدم ذكرهم فقال :

﴿ وجعلوا له ﴾ أي بعد ذلك الاعتراف كما قاله القاضي أو معه كذا في الكشاف ، والجملة حالية والجعل تصيير قولي أي حكموا وأثبتوا له أو بمعنى سموا واعتقدوا ﴿ من عباده جزءاً ﴾ أي ولداً وسماه جزءاً دلالة على استحالته على الواحد في ذاته ، لأن المركب لا يكون واحد الذات ، قال قتادة جزءاً أي عدلاً يعني ما عبد من دون الله ، وقال الزجاج والمبرد الجزء هنا البنات ، والجزء عند أهل العربية البنات ، يقال : قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات .

وقد جعل صاحب الكشاف تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير ، وصرح بأنه مكذوب على العرب ويجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج والمبرد وهما إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى في معرفتها ، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتي من قوله ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ وقوله ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ﴾ وقوله ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ وقيل : المراد بالجزء هنا الملائكة فانهم جعلوهم أولاداً لله سبحانه قاله مجاهد والحسن قال الأزهري ، ومعنى الآية أنهم جعلوا لله من عباده نصيباً على معنى أنهم جعلوا نصيب الله من الولدان .

﴿ إن الانسان ﴾ القائل ما تقدم ﴿ لكفور مبين ﴾ أي ظاهر الكفران مبالغ فيه قيل المراد بالانسان هنا الكافر فإنه الذي يجحد نعم الله عليه جحوداً بيناً ثم أنكر عليهم هذا فقال : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ هذا استفهام تقريع وتوبيخ وأم هي المنقطعة بمعنى همزة الإنكار وقدرها بعضهم ببل التي للانتقال وبعضهم بهما وكل صحيح لأن فيها مذاهب ثلاثة كما نقله أبو حيان والمعنى أتقولون اتخذ ربكم لنفسه البنات .

﴿ وأصفاكم ﴾ أخلصكم وخصكم ﴿ بالبنين ﴾ فجعل لنفسه المفضول من الصنفين ، ولكم الفاضل منهما يقال أصفيته بكذا أي آثرته به وأصفيته الود أخلصته له ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ وهذه الجملة معطوفة على اتخذ داخلة معها تحت الانكار ، ثم زاد في تقريعهم وتوبيخهم فقال :

﴿ وإذا بشر أحدهم ﴾ استئناف أو حال ﴿ بما ضرب للرحمن مثلاً ﴾ **أي** بما جعله للرحمن سبحانه من كونه جعل لنفسه البنات ، **والالتفات** الى الغيبة للإيذان بأن قبائحهم اقتضت أن يعرض عنهم ، وتحكى لغيرهم ليتعجب منها والمثل بمعنى الشبه أي المشابه لا بمعنى الصفة الغريبة العجيبة ، والمعنى إذا بشر أحدهم بأنها ولدت له بنت اغتم لذلك وظهر عليه أثره ، وهو معنى قوله :

﴿ ظل ﴾ أي صار ﴿ وجهه مسوداً ﴾ بسبب حدوث الأنثى له حيث لم يكن الحادث له ذكراً مكانها ﴿ وهو كظيم ﴾ أي والحال انه شديد الحزن كثير الكرب مملوء منه قال قتادة : حزين وقال عكرمة : مكروب ، وقيل ساكت ثم زاد في توبيخهم وتقريعهم فقال :

﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ النشوء التربيةوالحلية الزينةو﴿من﴾ عبارة عن الأنثى أي يجعلون لله الأنثى التي تتربى قي الزينة لنقصها إذ لو كملت في نفسها لما تكملت بالزينة قرأ الجمهور ينشأ بفتح الياء واسكان النون وقرأ ابن عباس والضحاك وحفص بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم واختار الثانية أبو عبيدة ، وقال الهروي : الفعل على القراءة الأولى لازم ، وعلى الثانية متعد ، والمعنى يربى ويكبر في الحلية .

﴿ وهو في الخصام غير مبين ﴾ أي عاجز عن أن يقوم بأمر نفسه واذا خوصم لا يقدر على إقامة حجته وتقرير دعواه ، ودفع ما يجادله به خصمه لنقصان عقله ، وضعف رأيه، وإضافة﴿غير﴾لا يمنع عمل ما بعدها في الجار المتقدم عليها . لأنها بمعنى النفي قال المبرد : تقدير الآية ويجعلون له من

ينبت في الزينة ، وإذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين ليس عنده بيان ولا يأتي ببرهان .

وفيه أنه جعل النشأة في الزينة من المعايب فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويتزين بلباس التقوى . قال قتادة : قلما تتكلم امراة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها ، وقال ابن زيد والضحاك : الذي ينشأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة ، قال ابن عباس في الآية هو النساء فرق بين زيهن وزي الرجال ونقصهن من الميراث ومن الشهادة ، وأمرهن بالقعدة وسماهن الخوالف .

﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ الجعل هنا بمعنى القول والحكم على الشيء كما تقول : جعلت زيداً أفضل الناس أي قلت بذلك وحكمت له به أي سموهم وحكموا ، وقالوا : انهم إناث وجمعوا في كفرهم ثلاث كفرات وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ونسبوا اليه أخس النوعين وجعلوا ملائكته المكرمين إناثاً فاستخفوا بهم قرأ الجمهور : عباد بالجمع ، وبها قرأ ابن عباس وقرأ الباقون عند بنون ساكنة ، واختار الأولى أبو عبيد لأن الاسناد فيها على ، ولأن الله إنما كذبهم في قولهم إنهم بنات الله فأخبرهم بأنهم عباده .

قال النسفي : وهو ألزم في الحجاج مع أهل العناد لتضاد بين العبودية والولادة انتهى ، ويؤيد هذه القراءة قوله ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ واختار أبو حاتم الثانية قال : وتصديق هذه القراءة قوله : ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ عن سعيد بن جبير قال كنت أقرأ هذا الحرف الذين هم عند الرحمن إناثاً فسألت ابن عباس فقال عباد الرحمن ، قلت فإنها في مصحفي قال فامحها واكتبها عباد الرحمن ثم وبخهم وقرعهم فقال :

﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ أي أحضروا خلق الله إياهم فهو من الشهادة التي هي الحضور وفي هذا تهكم بهم ، وتجهيل لهم ، قرأ الجمهور : ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ بضم الفوقية وبناء الفعل للمفعول ورفع شهادتهم ، وقرىء بالنون

وبناء الفعل للفاعل ، ونصب شهادتهم ، وقرىء شهاداتهم بالجمع ، والمعنى سنكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في ديوان أعمالهم ، لنجازيهم على ذلك ، قال البقاعي يجوز أن يكون في السين استعطاف الى التوبة قبل كتابة ما قالوا ولا علم لهم به ﴿ ويسألون ﴾ عنها يوم القيامة في الآخرة ، وهذا وعيد . قال سليمان الجمل وهذا يدل على أن القول بغير دليل منكر ، وأن التقليد حرام يوجب الذم العظيم انتهى .

﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ هذا فن آخر من فنون كفرهم بالله جاؤوا به للاستهزاء والسخرية ، ومعناه لو شاء الرحمن في زعمكم عدم عبادة الملائكة ما عبدنا هذه الملائكة ، فاستدلوا بنفي مشيئته عدم العبادة على امتناع النهي عنها ، أو على حسنها ، وذلك باطل لأن المشيئة ترجيح بعض الممكنات على بعض ، مأموراً كان أو منهياً ، حسناً كان أو غيره ، وبالجملة هذا كلام حق يراد به باطل ، وقد مضى بيانه في الأنعام ، وتعلقت المعتزلة بظاهر هذه الآية في أن الله لم يشأ الكفر من الكافر ، وإنما شاء الإيمان ، فإن الكفار ادعوا أن الله شاء منهم الكفر ، وما شاء منهم ترك عبادة الأصنام فرد الله عليهم قولهم واعتقادهم ، وبين جهلهم بقوله :

﴿ ما لهم بذلك ﴾ أي بما قالوه من أن الله لو شاء عدم عبادتهم للملائكة ما عبدوهم ﴿ من علم ﴾ بل تكلموا بذلك جهلاً ، وأرادوا بما صورته صورة الحق باطلاً ، وزعموا انه إذا شاء فقد رضي . وقيل : الاشارة بذلك إلى قوله ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ قاله قتادة ومقاتل والكلبي ، وقال مجاهد وابن جريج أي ما لهم بعبادة الأوثان من علم ثم بين انتفاء علمهم بقوله :

﴿ إن هم إلا يخرصون ﴾ أي ما هم إلا يكذبون فيما قالوا ويتمحلون تمحلاً باطلاً ، قال هنا ﴿يخرصون﴾ وفي الجاثية ﴿يظنون﴾ ،هذا كذب فناسبه الخرص وما هناك صدق مخلوط بالكذب فناسبه الظن .

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾

﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله ﴾ أم هي المنقطعة بمعنى همزة الاستفهام الإنكاري أي أأعطيناهم كتاباً من قبل القرآن ، بما ادعوه بأن يعبدوا غير الله وقيل إن الضمير في﴿من قبله﴾يعود إلى ادعائهم ، أي أم آتيناهم كتاباً من قبل ادعائهم ينطق بصحة ما يدعونه ؟ والأول أولى أو أم معادلة لقوله أشهدوا فتكون متصلة ، والمعنى أحضروا أم آتيناهم كتاباً الخ والأول أرجح وأولى ، كما أفاده الشهاب ﴿ فهم به مستمسكون ﴾ يأخذون بما فيه ويحتجون به ويجعلونه لهم دليلاً .

ثم بيّن سبحانه أنه لا حجة بأيديهم ولا شبهة ولكنهم اتبعوا آباءهم في الضلالة فقال :

﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ أي على طريقة ومذهب ، قال أبو عبيدة هي الطريقة والدين ، وبه قال ابن عباس وقتادة وغيره قال الجوهري والأمة الطريقة والدين يقال فلان لا أمة له ولا نحلة أي لا دين له وقال الفراء وقطرب على قبلة . وقال الأخفش على استقامة قرأ الجمهور أمة بالضم ، وقرىء بكسرها قال الجوهري والإمة بالكسر النعمة والإمة أيضاً لغة في الأمة .

﴿ وإنا ﴾ ماشون ﴿ على آثارهم مهتدون ﴾ بهم وكانوا يعبدون غير الله اعترفوا بأنه لا مستند لهم من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث السمع والبيان سوى تقليد آبائهم قال الخازن جعلوا أنفسهم مهتدين باتباع

آبائهم وتقليدهم من غير حجة انتهى ؛ وعبارة أبي السعود لم يأتوا بحجة عقلية ولا نقلية ، بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم اهـ .

وقال هنا : مهتدون ، وفيما بعده : مقتدون ، لأن الأول وقع في محاجتهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين ، وأنهم مهتدون كآبائهم ، فناسبه مهتدون والثاني وقع حكاية عن قوم ادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء ، فناسبه مقتدون ، أفاده الكرخي . ثم أخبر سبحانه أن غير هؤلاء من الكفار قد سبقهم الى هذه المقالة ، وقال بها فقال :

﴿ وكذلك ﴾ أي الأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتمسكهم بالتقليد ، وقوله ﴿ ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ استئناف مبين لذلك ، دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم ، ليس لأسلافهم أيضا مستند غيره ، قاله أبو السعود ، والمترفون الأغنياء والرؤساء والمتنعمون جمع مترف . اسم مفعول من أترف ، وأترفته النعمة أطغته .

قال الكرخي : هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ،وأن من تقدمهم أيضاً لم يكن لهم مستند منظور إليه ، وتخصيص المترفين للإشعار بأن التنعم هو الذي أوجب البطر ، وصرفهم عن النظر الى التقليد انتهى . والأمة هي من الأم وهو القصد ، فالأمة الطريقة التي تؤم أي تقصد ، ومقتدون أي متبعون ، قاله قتادة ، قال النسفي : وهذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وبيان أن تقليد الآباء داء قديم اهـ .

قال الرازي في تفسيره : لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد ، وذلك لأنه تعالى بين أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في اثبات ما ذهبوا اليه لا بطريق عقلي ، ولا بدليل نقلي ثم بين أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف ، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في

معرض الذم والتهجين ، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل .

ومما يدل عليه أيضاً من حيث العقل أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق ، وذلك لأنه كما حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة ، فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة ، فلو كان التقليد ، طريقاً إلى الحق لوجب كون الشيء ونقيضه حقاً ، ومعلوم أن ذلك باطل ، وأنه تعالى بين أن الداعي إلى القول بالتقليد والحامل عليه إنما هو حب التنعم في طيبات الدنيا ، وحب الكسل والبطالة ، وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال ، لقوله : ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة ، أي أبطرتهم ، فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ، ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق أ هـ .

أقول وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية ، منها ما ذكره ابن القيم ، وأنا أورده ههنا قال : يقال لمن حكم بالتقليد : هل لك من حجة فيما حكمت به ؟ فإن قال : نعم بطل التقليد لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد ، وإن قال : حكمت به بغير حجة ، قيل له : فلم أرقت الدماء وأبحت الفروج وأتلفت الأموال وقد حرم الله ذلك إلا بحجة قال الله عز وجل .

﴿ هل عندكم من سلطان بهذا ﴾ أي من حجة بهذا ، فإذا قال أنا أعلم أني قد أصبت ، وإن لم أعرف الحجة لأني قلدت كثيراً من العلماء ، وهو لا يقول إلا بحجة خفيت على قيل له : إذا جاز تقليد معلمك لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك فتقليد معلم معلمك أولى ، لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت على معلمك ، كما لم يقل معلمك إلا بحجة خفيت عليك . فإن قال نعم ترك تقليد معلمه إلى تقليد معلم معلمه ، وكذلك من هو أعلى حتى ينتهي الأمر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أبى ذلك نقض قوله ، وقيل له كيف يجوز تقليد من هو أصغر وأقل علماً ؟ ولا

يجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علماً ؟ وهذا تناقض ، فإن قال لأن معلمي ـ وإن كان أصغر ـ فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه ، فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك ، قيل له وكذلك من تعلم من معلمك فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه إلى علمه فليلزمه تقليده ، وترك تقليد معلمك وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك لأنك جمعت علم معلمك وعلم من هو فوقه إلى علمك ؛ فإن قلد قوله جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه في قياس قوله ، والأعلى للأدنى أبداً ، وكفى بقول يؤول إلى هذا تناقضاً وفساداً .

قال أبو عمرو قال أهل العلم والنظر حد العلم التبيين ، وادراك المعلوم على ما هو به ، فمن بان له الشيء فقد علمه ، قالوا والمقلد لا علم له ، لم يختلفوا في ذلك ، ومن ههنا والله أعلم قال البحتري :

عرف العالمون فضلك بالعلـ ـم وقال الجهال بالتقليد
وأرى الناس مجمعين على فضـ ـلك من بين سيد ومسود

وقال أبو عبد الله بن خواز منداد البصري المالكي : التقليد معناه في الشرع الرجوع الى قول لا حجة لقائله ، وذلك ممنوع منه في الشريعة ، والاتباع ما ثبت عليه حجة . وقال في موضع آخر من كتابه كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قبوله بدليل يوجب ذلك فأنت مقلده ، والتقليد في دين الله غير صحيح وكل من أوجب الدليل عليك اتباع قوله فأنت متبعه ، والاتباع في الدين مسوغ ، والتقليد ممنوع ا هـ .

قال ابن حارث : هذا والله الدين الكامل والعقل الراجح . لا كمن يأتي بالهذيان ويريد أن ينزل قوله من القلوب منزلة القرآن ا هـ . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يرد عليهم فقال :

﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

﴿ قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ أي أتتبعون آباءكم وتقلدونهم ؟ ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ؟ قال الزجاج المعنى قل لهم أتتبعون ما وجدتم عليه آباءكم من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء وإن جئتكم بأهدى منه ؟ قرأ الجمهور قل وقرىء قال : وهو حكاية لما جرى بين المنذرين وقومهم ، أي قال كل منذر من أولئك المنذرين لأمته ، وقيل إن كلتا القراءتين حكاية لما جرى بين المنذرين وقومهم أي قال كل منذر من أولئك المنذرين لأمته المقلدين ، كأنه قال لكل نبي قل بدليل قوله :

﴿ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ قال الشوكاني وهذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد وقبحه ، فان هؤلاء المقلدة في الاسلام إنما يعملون بقول أسلافهم ، ويتبعون آثارهم ، ويقتدون بهم فإذا رام الداعي إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة أو يدفعهم عن بدعة قد تمسكوا بها ، وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير ، ولا حجة واضحة ، بل لمجرد قيل وقال ، لشبهة داحضة ، وحجة زائفة ، ومقالة باطلة ، قالوا بما قاله المترفون من هذه الملل ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ أو بما يلاقي معناه معنى ذلك .

فإن قال لهم الداعي إلى الحق قد جمعتنا الملة الاسلامية وشملنا هذا الدين المحمدي ، ولم يتعبدنا الله ولا تعبدكم ولا آباءكم من قبلكم إلا بكتابة الذي أنزله على رسوله ، وبما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه

المبين لكتاب الله ، الموضح لمعانيه ، الفارق بين محكمه ومتشابهه ، فتعالـوا نرد ما تنازعنا فيه إلى كتاب الله وسنة رسولـه ، كما أمـرنا الله بـذلك في كتـابه بقوله :

﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ فإن الرد إليهما أهدى لنا ولكم من الرد إلى ما قاله أسلافكم ودرج عليه آباؤكم ،نفروا نفور الوحش ، ورمـوا الداعي لهم إلى ذلـك بكل حجـر ومدر ، كـأنهم لم يسمعـوا قـول الله سبحـانه ﴿ إنمـا كان قـول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسـوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنـا وأطعنا ﴾ ولا قـوله ﴿ فـلا وربك لا يؤمنـون حتى يحكموك فيمـا شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ .

فإن قال لهم القـائل : هـذا العالم الـذي تقتدون بـه وتتبعون أقـواله هـو مثلكم في كونه متعبـداً بكتاب الله وسنـة رسولـه ، مطلوبـاً منه مـا هو مـطلوب منكم ، واذا عمل برأيه عند عدم وجدانه للدليل ، فذلك رخصـة له ، لا يحـل أن يتبعـه غيره عليهـا ، ولا يجوز لـه العمل بهـا ، وقد وجـد الدليـل الـذي لم يجده ، وها أنا أوجدكموه في كتاب الله ، أو فيما صح من سنـة رسولـه صلى الله عليه وسلم ، وذلك أهدى لكم مما وجدتم عليه آباءكم ، قالـوا : لا نعمل بهذا ، ولا سمع لك ولا طاعة ، ووجدوا في صدورهم أعظم الحرج من حكم الكتاب والسنة ، ولم يسلموا لذلك ولا أذعنوا له .

وقد وهب لهم الشيطان عصا يتوكأون عليها عند أن يستمعوا من يدعوهم الى الكتاب والسنة ، وهي أنهم يقـولون : إن إمـامنا الـذي قلدناه واقتـدينا بـه أعلم منك بكتاب الله وسنة رسوله ، وذلك لأن أذهانهم قد تصورت من يقتدون به تصوراً عظيماً بسبب تقدم العصر وكثرة الأتباع ، ومـا علموا أن هـذا منقوض عليهم مدفوع به في وجوههم .

فإنه لـو قيل لهم : إن في التـابعين من هو أعـظم قدراً وأقـدم عصراً من صاحبكم ، فإن كان لتقدم العصر وجلالة القدر مزية تـوجب الاقتـداء فتعـالوا

حتى أريكم من هو أقدم عصراً وأجل قدراً ، فإن أبيتم ذلك ففي الصحابة رضي الله عنهم من هو أعظم قدراً من صاحبكم علماً وفضلاً وجلالة قدر ، فإن أبيتم ذلك فها أنا أدلكم على من هو أعظم قدراً وأجل خطراً ، وأكثر أتباعاً ، وأقدم عصراً ، وهو محمد بن عبد الله نبينا ونبيكم صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله إلينا وإليكم ، فتعالوا فهذه سنته موجودة في دفاتر الاسلام ودواوينه التي تلقتها جميع هذه الأمة قرناً بعد قرن ، وعصراً بعد عصر ، وهذا كتاب ربنا خالق الكل ، ورازق الكل ، وموجد الكل ، بين أظهرنا ، موجود في كل بيت ، وبيد كل مسلم ، لم يلحقه تغيير ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا تحريف ولا تصحيف ، ونحن وأنتم ممن يفهم ألفاظه ، ويتعقل معانيه ، فتعالوا لنأخذ الحق من معدنه ، ونشرب صفو الماء من منبعه ، فهو مما وجدتم عليه آباءكم .

قالوا : لا سمع ولا طاعة ، إما بلسان القال أو بلسان الحال ، فتدبر هذا وتأمله إن بقي فيك بقية من إنصاف وشعبة من خير ، ومزعة من حياء ، وحصة من دين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقد أوضحت هذا غاية الايضاح في كتابي الذي سميته أدب الطلب ومنتهى الأرب انتهى . وقد أوضحه الحافظ ابن القيم في إعلام الموقعين عن رب العالمين فأرجع إليهما إن رمت أن تنجلي عنك ظلمات التعصب ، وتنقشع لك سحائب التقليد .

﴿ فانتقمنا منهم ﴾ وذلك الانتقام ما أوقعه الله بقوم نوح وعاد وثمود بما استحقوه على اصرارهم على التقليد ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ للأنبياء من تلك الأمم . فإن آثارهم موجودة ، ولا تكترث بتكذيب قومك لك ، ثم لما بيّن في الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف ، وبين أنه طريق باطل ، ومنهج فاسد ، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من الاعتماد على التقليد ، أردفه بهذه الآية :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

﴿ وإذا قال ابراهيم ﴾ الذي هو أعظم آبائهم ، ومحط فخرهم ، والمجمع على محبته وحقية دينه منهم ومن غيرهم ﴿ لأبيه ﴾ أي واذكر لهم وقت قوله لأبيه من غير أن يقلده ، كما قلدتم أنتم آباءكم ﴿ وقومه ﴾ أي الذين قلدوا آباءهم ، وعبدوا الأصنام .

﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ تبرأ مما هم عليه وتمسك بالبرهان ، ليسلكوا مسلكه في الاستدلال ، والبراء مصدر نعت به للمبالغة ، وهو يستعمل للواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ، وقال الجوهري : وتبرأت من كذا وأنا منه براء وخلاء لا يثنى ولا يجمع ، لأنه مصدر في الأصل وبه قال الكسائي والمبرد والزجاج ، ثم استثنى خالقه من البراءة فقال :

﴿ إلا الذي فطرني ﴾ أي خلقني ، والاستثناء منقطع أي لكن الذي فطرني أو متصل من عموم ﴿ما﴾ لأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام ، أو إلا صفة بمعنى غير ، وما نكرة موصوفة ، قاله الزمخشري ﴿ فانه سيهدين ﴾ أي سيرشدني لدينه ، ويوفقني لطاعته ، ويثبتني على الحق ، وإخباره بأنه سيهديه جزماً لثقته بالله سبحانه ، وقوة يقينه ، والأوجه أن السين للتأكيد دون التسويف ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار .

﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ الضمير في جعلها عائد الى قوله إلا الذي فطرني ، وهي بمعنى التوحيد كأنه قال : وجعل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم ، وهم ذريته ، فلا يزال فيهم من يوحد الله ، وفاعل جعلها

ابـراهيم ، وذلك حيث وصـاهم بالتـوحيد ، وأمـرهم أن يدينـوا بـه ، كمـا في قوله :

﴿ ووصى بهـا ابراهيم بنيـه ويعقوب ﴾ الآيـة ، وقيل : الفـاعـل هـو الله عـز وجل ، أي وجعل الله سبحانه كلمة التوحيـد باقيـة في عقب إبراهيم ، والعقب من بعـد ، قال مجـاهد وقتـادة . الكلمة لا إلّـه إلا الله ، لا يزال من عقبـه من يعبـد الله إلى يوم القيـامة ، ويـوحده ويـدعو الى تـوحيده وقـال عكرمـة : هي الإسلام ، قال ابن زيد : الكلمة هي قوله ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ قال ابن عباس : كلمة باقية لا إلّه إلا الله وعقب ابراهيم ولده .

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ تعليل للجعل أي جعلها باقية رجاء أن يـرجع إليهـا من يشرك منهم بدعـاء من يوحـد ، وقيل : الضميـر في لعلهم يرجـع الى أهل مكـة أي لعل أهلهـا يرجعـون إلى دينك الـذي هو دين ابـراهيم ، وقيـل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها الخ ، قال السدي : لعلهم يتوبون فيرجعون عما هم عليه الى عبادة الله ، قال الرازي في تفسيره .

والمقصود من هذه الآية ذكر وجه آخر يـدل على فساد القـول بالتقليـد ، وتقريره من وجهين ، الأول انه تعالى حكى عن ابـراهيم عليه السـلام أنه تبـرأ عن دين آبائه بناء على الدليل ، فنقول : إما أن يكون تقليـد الآباء في الأديـان محرماً أو جائزاً فإن كان محرماً فقد بطل القول بالتقليد ، وإن كان جـائزاً فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو ابـراهيم عليه السـلام ، وذلك لأنـه ليس لهم فخر ولا شرف إلا بأنهم من أولاده ، وإذا كان كذلك فتقليد هذا الأب الذي هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء وإذا ثبت أن تقليده أولى من تقليد غيره فنقول : إنه ترك دين الآباء وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء ، وإذا كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الآباء ، ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد

وإذا ثبت هذا فنقول : فقد ظهر أن القول بوجوب التقليد يوجب المنع من التقليد ، وما أفضى ثبوته إلى نقله كان باطلاً ، فوجب أن يكون القول بالتقليد باطلاً ، فهذا طريق دقيق في ابطال التقليد ، وهو المراد من هذه الآية ، الوجه الثاني في بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى في الدنيا والدين ، انه تعالى بين أن ابراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه إلى متابعة الدليل ، لا جرم جعل الله دينه ومذهبه باقياً في عقبه الى يوم القيامة ، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت ، فثبت أن الرجوع الى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة ، وأن التقليد والاصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه في الدنيا خبر ، ولا أثر ، فثبت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل ، وترك التقليد أولى ، فهذا بيان المقصود الأصلي من هذه الآية انتهى .

ثم ذكر سبحانه نعمته على قريش ، ومن وافقهم من الكفار المعاصرين لهم فقال :

﴿ بل متعت هؤلاء ﴾ أي أهل مكة عقب إبراهيم ﴿ وآباءهم ﴾ أضرب سبحانه عن الكلام الأول الى ذكر ما متعهم به من الأنفس والأهل والأموال ، والمد في الأعمار ، وأنواع النعم ، وسلامة الأبدان من البلايا والنقم ، وما متع به آباءهم ولم يعاجلهم بالعقوبة فاغتروا بالمهلة ، وأنكبواعلى الشهوات ، وشغلوا بالتنعم عن كلمة التوحيد ، وبطروا وتمادوا على الباطل .

﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ يعني القرآن ﴿ ورسول مبين ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، ظاهر الرسالة واضحها ، أو مبين لهم ما يحتاجون اليه من أمر الدين ، فلم يجيبوه ولم يعملوا بما أنزل عليه ، وفي هذه الغاية خفاء بيّنة في الكشاف وشروحه ، وهو أن ما ذكر ليس غاية للتمتيع ، إذ لا مناسبة بينهما مع أن مخالفة ما بعدها لما قبلها غير مرعي فيها .

والجواب أن المراد بالتمتيع ما هو سببه من اشتغالهم به عن شكر

المنعم ، فكأنه قال : اشتغلوا به حتى ﴿ جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ وهو غاية في نفس الأمر لأنه مما ينبههم ويزجرهم ، لكنهم لطغيانهم عكسوا، فهو كقوله : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ أفاده الشهاب ثم بين سبحانه ما صنعوه عند مجيء الحق فقال :

﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ أي جاحدون فسموا القرآن سحراً وجحدوه واستحقروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجه النظم أنهم لما عولوا على تقليد الآباء والأسلاف لم يتفكروا في الدليل واغتروا بطول الامهال ، وامتاع الله إياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق والغرض بهذا الكلام توبيخ المقلد المسيء .

﴿ وقالوا ﴾ متحكمين بالباطل ﴿ لو لا ﴾ هلا ﴿ نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ أي رجل عظيم من إحدى القريتين كقوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي من أحدهما ، والمراد بهما مكة والطائف ، قاله ابن عباس ، وبالرجلين الوليد بن المغيرة من مكة ، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف ، كذا قال قتادة وغيره : وقال مجاهد وغيره عتبة بن ربيعة من مكة وعمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف ، وقال ابن عباس ، عمير بن مسعود وخيار قريش ، وقال أيضا العظيم الوليد بن المغيرة القرشي وحبيب بن عمير الثقفي ، وعنه قال : يعنون أشرف من محمد الوليد بن المغيرة من أهل مكة ومسعود الثقفي من أهل الطائف ، وقيل غير ذلك ، وظاهر النظم أن المراد رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه ، واسع المال ، مسود في قومه ، والمعنى أنه لو كان قرآنا لنزل على رجل من عظماء القريتين ، فهؤلاء المساكين قالوا منصب رسالة الله منصب شريف ، فلا يليق إلا برجل شريف ، وقد صدقوا في ذلك إلا أنهم ضموا اليه مقدمة فاسدة ، وهي أن الرجل الشريف عندهم هو الذي يكون كثير المال والجاه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، ليس كذلك ، فأجاب الله سبحانه عليهم بقوله :

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ يعني النبوة أو ما هو أعم منها والاستفهام للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من تحكمهم في اختيار من يصلح للنبوة وترسم هذه التاء مجرورة اتباعا لرسم المصحف الامام كما نص عليه ابن الجزري ثم بين أنه سبحانه هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا فقال :

﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ أي نحن أوقعنا هذا التفاوت بين العباد ، فجعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً ، وهذا مالكاً ، وهذا مملوكاً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، ولم نفوض ذلك إليهم ، وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء بل الحكم لله وحده ، وإذا كان الله سبحانه هو الذي قسم بينهم أرزاقهم فكيف لا يقنعون بقسمته في أمر انبوة ؟ وتفويضها الى من يشاء من خلقه ؟ قال مقاتل : يقول بأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا ، قرأ الجمهور معيشتهم الافراد ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن معايشهم بالجمع .

﴿ و ﴾ معنى ﴿ رفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾ أنه فاضل بينهم فجعل بعضهم أفضل من بعض في الدنيا بالرزق والرياسة والقوة والحرية والعقل والعلم ، ثم ذكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض فقال :

﴿ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ أي ليستخدم بعضهم بعضاً فيستخدم الغني الفقير ، والرئيس المرؤوس والقوي الضعيف ، والحر العبد ، والعاقل من دونه في العقل والعالم الجاهل وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا ، وبه تتم مصالحهم وينتظم معاشهم ، ويصل كل واحد منهم الى مطلوبه ، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين فجعل البعض محتاجاً الى البعض لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا ويحتاج هذا إلى هذا ويصنع هذا لهذا ويعطي هذا هذا .

وقال السدي وابن زيد سخرياً خولاً وخدماً ، يسخر الأغنياء الفقراء ، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض ، وقال قتادة والضحاك : ليملك بعضهم بعضاً ، وقيل هو من السخرية التي بمعنى الاستهزاء ، قال الأخفش سخرت به ، وسخرت منه ، وضحكت به ، وضحكت منه ، وهزأت به ، وهزأت منه ، وهذا وإن كان مطابقاً للمعنى اللغوي لكنه بعيد من معنى القرآن ، ومناف لما هو مقصود السياق ، وعلى هذا القول تكون اللام للصيرورة والعاقبة ، لا للعلة والسببية .

﴿ ورحمة ربك ﴾ يعني بالرحمة ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة . وقيل هي النبوة لأنها المرادة بالرحمة المتقدمة في قوله ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ ولا مانع من أن يراد كل ما يطلق عليه اسم الرحمة إما شمولاً أو بدلاً ﴿ خير مما يجمعون ﴾ أي مما يجمعونه من الأموال وسائر متاع الدنيا لأن الدنيا على شرف الزوال والانقراض وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآبدين ، ثم بين سبحانه حقارة الدنيا عنده فقال :

﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ أي لولا أن يجتمعوا على الكفر ميلاً الى الدنيا وزخرفها أو يرغبوا فيه إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ﴾ جمع الضمير في بيوتهم وأفرده في ﴿ يكفر ﴾ باعتبار معنى من ولفظها ولبيوتهم بدل اشتمال من

الموصول واللام للاختصاص ، والسقف جمع سقف قرأ الجمهور بضم السين والقاف كرهن ورهن ، قال أبو عبيدة ولا ثالث لهما ، وقال الفراء . هو جمع سقيف نحو كثيب وكثب ورغيف ورغف وقيل : هو جمع سقوف ، فيكون جمعاً للجمع ، وقرىء بفتح السين وإسكان القاف على الافراد ، ومعناه الجمع لكونه الجنس قال الحسن : معنى الآية لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم الى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه لهوان الدنيا عندنا وقال بهذا أكثر المفسرين .

وقال ابن زيد لولا أن يكون الناس أمة واحدة في طلب الدنيا واختيارهم لها على الآخرة ، وقال الكسائي المعنى لولا ان يكون في الكفار غني وفقير وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا لهوانها .

﴿ ومعارج ﴾ كالدرج من فضة ، جمع معرج بفتح الميم وكسرها ، وسميت المصاعد من الدرج المعارج ، لأن المشي عليها مثل مشي الأعرج ومعاريج جمع معراج ، والمعراج السلم ، وهي لغة بعض تميم وهذا كمفاتح جمع مفتح ، ومفاتيح جمع مفتاح قال الأخفش إن شئت جعلت الواحدة معرج ومعرج مثل مرقا ومرقا والمعنى جعلنا لهم معارج من فضة .

﴿ عليها ﴾ أي على المعارج ﴿ يظهرون ﴾ يرتقون ويصعدون يقال : ظهرت على البيت أي علوت سطحه ﴿ ولبيوتهم أبواباً وسرراً ﴾ أي وجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة وتكرير لفظ البيوت لزيادة التقرير ﴿ عليها ﴾ أي على السرر ، وهو جمع سرير ، وقيل جمع أسرة فيكون جمعاً للجمع ﴿ يتكئون ﴾ الاتكاء والتوكؤ التحامل على الشيء ومنه ﴿أتوكأ عليها ﴾ واتكأ على الشيء فهو متكىء والموضع متكأ .

﴿ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ (٣٨) ﴾

﴿ وزخرفاً ﴾ أي وجعلنا لهم زخرفاً ليجعلوه في السقف والمعارج والأبواب والسرر ، ليكون بعض كل منها من فضة ، وبعضه من ذهب ، لأنه أبلغ في الزينة ، وقيل : النصب بنزع الخافض أي أبواباً وسرراً من فضة ومن ذهب فلما حذف الخافض انتصب ، والزخرف الذهب ، وقيل : الزينة أعم من أن يكون ذهباً أو غيره ، قال ابن زيدهو ما يتخذه الناس في منازلهم من الأمتعة والأثاث ، وقال الحسن: النقوش ، وأصله الزينة ، يقال : زخرفت الدار زينتها ، وتزخرف فلان أي تزين ، قال ابن عباس في الآية : يقول لولا أن نفعل الناس كلهم كفاراً لجعلنا لبيوت الكفار سقفاً من فضة ، ومعارج من فضة ، وهي درج عليها يصعدون الى الغرف وسرر فضة وزخرفاً وهو الذهب .

وأخرج الترمذي وصححه ، وابن ماجة عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » وعن المسور بن شداد قال : كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السخلة الميتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها ؟ قالوا : من هوانها ألقوها يا رسول الله ، قال : فإن

الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها » أخرجه الترمذي وحسنه، وعن قتادة بن النعمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا أحب الله عبداً حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » أخرجه مسلم ، قال البقاعي : ولا يبعد أن يكون ما صار اليه الفسقة والجبابرة من زخرفة الأبنية وتذهيب السقوف وغيرها من مبادىء الفتنة بأن يكون الناس أمة واحدة في الكفر قرب الساعة ، حتى لا تقوم الساعة على من يقول : الله ، أو في زمن الدجال ، لأن من يبقى إذ ذاك على الحق في غاية القلة بحيث إنه لا عداد له في جانب الكفرة لأن كلام الملوك لا يخلو عن حقيقة ، وإن خرج مخرج الشرط فكيف بملك الملوك سبحانه ثم أخبر سبحانه أن جميع ذلك إنما يتمتع به في الدنيا فقال :

﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ قرأ الجمهور لما بالتخفيف ، وقرىء بالتشديد ، فعلى الأولى إن هي المخففة من الثقيلة ، وعلى الثانية هي النافية ، ولما بمعنى إلا ما كل ذلك إلا ما يتمتع به في الدنيا ، وقرىء بكسر اللام من لما على أن اللام للعلة ، وما موصولة ، والعائد محذوف ، أي للذي هو متاع ﴿ والآخرة ﴾ أي الجنة ﴿ عند ربك للمتقين ﴾ أي لمن اتقى الشرك والمعاصي وآمن بالله وحده ، وعمل بطاعته ، وترك الدنيا وآثر الآخرة فإنها الباقية التي لا تفنى ، ونعيمها الدائم الذي لا ينقطع .

﴿ ومن يعش ﴾ يقال عشوت الى النار قصدتها وعشوت عنها أي أعرضت عنها ، كما تقول : عدت الى فلان وعدلت عنه ، أي ملت اليه

وملت عنه كذا قال الفراء والزجاج وأبو الهيثم والأزهري ، وقال الخليل : العشو النظر الضعيف ، وقال ابو عبيدة والأخفش . ان معنى (ومن يعش) ومن تظلم عينه وهو نحو قول الخليل ، وهذا على قراءة الجمهور من يعش بضم الشين من عشا يعشو ، وقرىء بفتح الشين يقال : عشى الرجل يعشى عشا إذا عمى ، وقال الجوهري : العشا مقصور مصدر الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار ، والمرأة عشوى ، وقرىء يعشو بالواو على أن من موصولة غير متضمنة معنى الشرط .

والمعنى ومن يعرض ويتعامى ويتجاهل ويتغافل ﴿ عن ذكر الرحمن ﴾ ولم يخف عقابه ولم يرد ثوابه ، وقيل : يول ظهره عن القرآن ﴿ نقيض له شيطاناً ﴾ قرأ الجمهور بالنون ، وقرى بالتحتية مبنياً للفاعل ، وقرأ ابن عباس بالتحتية مبنياً للمفعول ، ورفع شيطان على النيابة والمعنى نسبب له جزاء على كفره شيطاناً .

﴿ فهو له قرين ﴾ أي ملازم له في الدنيا ، يمنعه من الحلال ويبعثه على الحرام وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية ولا يفارقه . وقيل في الآخرة إذا قام من قبره قاله سعيد الجريري وقيل : فيهما قال القشيري : وهو الصحيح أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه بل يتبعه في جميع أموره ويطيعه في كل ما يوسوس به إليه وقال الزجاج معنى الآية أن من أعرض عن القرآن وما فيه من الحكم الى أباطيل المضلين يعاقبه الله بشيطان يقيضه له حتي يضله ويلازمه قريناً فلا يهتدي مجازاة له حين آثر الباطل على الحق البين .

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي « أن قريشاً قالت قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً يأخذه فقيضوا لأبي بكر طلحة ابن عبيد الله فأتاه وهو في القوم فقال أبو

بكر : إلام تدعوني ؟ قال أدعوك الى عبادة اللات والعزى ، قال أبو بكر وما اللات ؟ قال أولاد الله قال وما العزى ؟ قال بنات الله قال أبو بكر فمن أمهم ؟ فسكت طلحة فلم يجبه فقال لأصحابه أجيبوا الرجل فسكت القوم فقال طلحة قم يا أبا بكر أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله فأنزل الله هذه الآية » وثبت في صحيح مسلم وغيره أن مع كل مسلم قرين من الجن .

﴿ وإنهم ﴾ أي وإن الشياطين الذين يقيضهم الله لكل أحد ممن يعشو عن ذكر الرحمن كما هو معنى من ﴿ ليصدونهم عن السبيل ﴾ أي يحولون بينهم وبين سبيل الحق ويمنعونهم منه ويوسوسون لهم أنهم على الهدى حتى يظنوا اصدق ما يوسوسون به ، وهو معنى قوله :

﴿ ويحسبون أنهم ﴾ أي يحسب الكفار أن الشياطين ﴿ مهتدون ﴾ فيطيعونهم أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم في أنفسهم مهتدون ، وصيغة المضارع في الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجددي لقوله :

﴿ حتى إذا جاءنا ﴾ فإن حتى وإن كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضي حتماً أن تكون غاية لأمر ممتد، كما مر مراراً ، قاله ابو السعود قرأ الجمهور بالتثنية أي الكافر والشيطان المقارن له ، وقرىء بالإفراد أي الكافر أو كل واحد منهما.

﴿ قال ﴾ الكافر مخاطباً للشيطان : ﴿ يا ليت ﴾ كان في الدنيا ﴿ بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب ، فغلب المشرق على المغرب ، قال مقاتل : يتمنى الكافر أن بينهما بعد مشرق أطول يوم في السنة من مشرق أقصر يوم في السنة والأول أولى وبه قال الفراء ﴿ فبئس القرين ﴾ أي أنت أيها الشيطان .

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

﴿ ولن ينفعكم اليوم ﴾ هذا حكاية لما سيقال لهم يوم القيامة ﴿ إذ ظلمتم ﴾ أي لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا ، وقيل : إن إذ بدل من اليوم لأنه تبين ذلك في اليوم أنهم ظلموا أنفسهم في الدنيا ﴿ أنكم في العذاب مشتركون ﴾ قرأ الجمهور بفتح إن على أنها وما بعدها في محل رفع على الفاعلية ، أي لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب ، قال المفسرون لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب ، لأن لكل أحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر منه وقيل إنها للتعليل لنفي النفع ، أي لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم ، فأنتم وقرناؤكم اليوم مشتركون في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا ويقوي هذا المعنى قراءة إن بالكسر .

ثم ذكر سبحانه أنها لا تنفع الدعوة والوعظ من سبقت له الشقاوة فقال ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العُمي ﴾ الهمزة لانكار التعجب أي ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك ان كفروا ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإخبار له بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل .

﴿ ومن كان في ضلال مبين ﴾ عطف على العمي للتغاير العنواني ، وإلا فالمصداق واحد ، أي إنك لا تهدي من كان كذلك ، ومعنى الآية أن هؤلاء الكفار بمنزلة الصم الذين لا يعقلون ما جئت به ، وبمنزلة العمي

الذين لا يبصرون لافراطهم في الضلالة وتمكنهم من الجهالة .

﴿ فإما نذهبن بك ﴾ بالموت قبل أن ننزل بهم العذاب ، وقيل : المعنى نخرجنك من مكة ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ إما في الدنيا أو في الآخرة ، قال علي كرم الله وجهه : ذهب الله بنبيه صلى الله عليه وسلم وبقيت نقمته في عدوه ﴿ أو نرينك الذي وعدناهم ﴾ من العذاب قبل موتك ﴿ فإنا عليكم مقتدرون ﴾ متى شئنا عذبناهم .

قال كثير من المفسرين قد أراه ذلك يوم بدر وبه قال ابن عباس وقال الحسن وقتادة : هي في أهل الاسلام يريد ما كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن ، وقد كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم فتنة شديدة فأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم وذهب به فلم يره في أمته شيئاً من ذلك والأول أولى .

﴿ فاستمسك بالذي أوحي اليك ﴾ من القرآن وإن كذب به من كذب ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ أي طريق واضح تعليل للإستمساك أو للأمر به ﴿ وأنه ﴾ أي وإن القرآن ﴿ لذكر لك ولقومك ﴾ أي شرف لك ولقريش إذ نزل عليك وأنت منهم بلغتك ولغتهم ، ومثله قوله :

﴿ لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ وقيل بيان لك ولأمتك فيما لكم حاجة ، وقيل تذكره تذكرون بها أمر الدين وتعملون به ؛ وعن علي وابن عباس قالا : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل بمكة ويعدهم الظهور ، فاذا قالوا لمن الملك بعدك أمسك فلم يجبهم بشيء لأنه لا يؤمر في ذلك بشيء حتى نزلت ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ فكان إذا سئل بعد قال لقريش فلا يجيبوه حتى قبلته الأنصار على ذلك » .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان » أخرجه الشيخان ، وعن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن هذا الأمر في

قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ، ما أقاموا الدين » أخرجه البخاري .

﴿ وسوف تسألون ﴾ عما جعله الله لكم من الشرف ، كذا قال الزجاج والكلبي وغيرهما ، وقيل يسألون عما يلزمهم من القيام بما فيه والعمل به وعن تعظيمهم له ، وشكرهم لهذه النعمة يوم القيامة .

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن ﴾ أي غيره ﴿ آلهة يعبدون ﴾ قال الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد أن جبريل قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم لما أسرى به فالمراد سؤال الأنبياء في ذلك الوقت عند ملاقاته لهم ، وبه قال جماعة من السلف . وقال المبرد والزجاج وجماعة من العلماء إن المعنى واسأل أمم من قد أرسلنا وبه قال ابن عباس ومجاهد والسدي والضحاك وقتادة وعطاء والحسن ، وفائدة إيقاع السؤال على الرسل مع أن المراد أممهم التنبيه على أن المسؤول عنه عين ما نطقت به ألسنة الرسل ، لا ما تقوله علماؤهم من تلقاء أنفسهم ، وعلى الأول هي مكية ، وعلى الثاني مدنية .

ومعنى الآية على القولين سؤالهم هل أذن الله بعبادة الأوثان في ملة من الملل؟ وهل سوغ ذلك لأحد منهم ؟ والمقصود تقريع مشركي قريش بأن ما هم عليه لم يأت في شريعة من الشرائع . وقيل ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم ، والفحص عن مللهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء ؟ وكفاه فحصاً ونظره في كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه ، وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة الى غيرها ـ

ولما أعلم الله سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عدوه وذكر اتفاق الأنبياء على التوحيد ، أتبعه بذكر قصة موسى وفرعون ، وبيان ما نزل بفرعون وقومه من النقمة فقال .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِآيَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ التسع التي تقدم بيانها ﴿ الى فرعون وَمَلإِيْهِ ﴾ أي القبط ﴿ فقال إني رسول رب العالمين ﴾ أرسلني اليكم ما أجابوه به عند قوله هذا محذوف دل عليه قوله ﴿ فلما جاءهم بآياتنا ﴾ وهو مطالبتهم إياه باحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿ إذا هم منها يضحكون ﴾ استهزاء وسخرية وجواب لما هو اذا الفجائية لأن التقدير فاجأوا وقت ضحكهم .

﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ أي كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها وأعظم قدراً مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها وقيل المراد بهذا الكلام أنهن موصوفات بالكبر ولا يكدن يتفاوتن فيه وعليه كلام الناس هما أخوان كل واحد منهما أكبر من الآخر وقيل المعنى إن الأولى تقتضي علماً والثانية تقتضي علماً فإذا ضمت الثانية الى الأولى ازداد الوضوح ومعنى الأخوة بين الآيات أنها متشاكلة متناسبة في دلالتها

على صحة نبوة موسى كما يقال هذه صاحبة هذه أي هما قرينتان في المعنى وقيل المعنى أن كل واحدة من الآيات اذا انفردت ظن الظان أنها أكبر من سائر الآيات .

﴿ وأخذناهم ﴾ بسبب تكذيبهم بتلك الآيات ﴿ بالعذاب ﴾ أي بالسنين والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس ، كما قال تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ الآية ، ثم بين سبحانه أن العلة في أخذه لهم بالعذاب هو رجاء رجوعهم ، فقال : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي لكي يرجعوا عن الكفر الى الإيمان ، ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات ، والدلالات الواضحات ، ظنوا ان ذلك من قبيل السحر .

﴿ وقالوا يا أيها الساحر ﴾ وكانوا يسمون العلماء سحرة ، ويوقرون السحرة ويعظمونهم ، ولم يكن السحر صفة ذم عندهم ، قال الزجاج : خاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالساحر ، أو نادوه بذلك في تلك الحال لشدة شكيمتهم ، وفرط حماقتهم ، والأظهر أن النداء كان باسمه العلم ، كما في الأعراف في قوله : قالوا : يا موسى .

﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ لكن حكى الله سبحانه هنا كلامهم لا بعبارتهم ، بل على وفق ما أضمرته قلوبهم من اعتقادهم أنه ساحر ، لاقتضاء مقام التسلية ذلك فإن قريشاً سموه ساحراً ، وسموا ما أتى به سحراً ، أفاده الكرخي ، والمعنى : ادع الله بما أخبرتنا من عهده إليك أنا إذا آمنا كشف عنا العذاب الذي نزل بنا ﴿ إننا لمهتدون ﴾ أي فنحن مهتدون فيما يستقبل من الزمان ومؤمنون بما جئت به .

﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم العذاب ، فلما كشف عنهم العذاب ﴿ اذا هم ينكثون ﴾ فاجأوا نكثهم للعهد الذي جعلوه على أنفسهم من الاهتداء ، والنكث النقض وكانوا ينقضونه في كل مرة من مرات العذاب .

﴿ ونادى فرعون ﴾ افتخاراً ﴿ في قومه ﴾ قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم الى موسى فجمعهم ونادى بصوته فيما بينهم ، أو أمر منادياً ينادي بقوله : ﴿قال: يا قوم أليس لي ملك مصر ﴾ لا ينازعني فيه أحد ، ولا يخالفني فيه مخالف .

﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ أي والحال أن الأنهار تجري من تحت قصري ، والمراد هنا أنهار النيل ، وقال قتادة : المعنى تجري بين يدي وفي بساتيني ، قال الحسن : تجري بأمري أي تجري تحت أمري وقال الضحاك : أراد بالأنهار القواد والرؤساء والجبابرة ، وأنهم يسيرون تحت لوائه ، وقيل : أراد بالأنهار الأموال ، والأول أولى .

﴿ أفلا تبصرون ﴾ ذلك وتستدلون به على قوة ملكي وعظم قدري ، وضعف موسى عن مقاومتي ، وعن الرشيد أنه لما قرأها قال : لأولينها أخس عبيدي ، فولاها الخصيب ، وكان خادمه على وضوئه ، وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها ، فلما شارفها قال : أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال ﴿ أليس لي ملك مصر ﴾ والله لهي أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه .

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿أم أنا خير﴾ أم هي المنقطعة المقدرة ببل ، التي للاضراب دون الهمزة التي للانكار أي بل أنا خير ، قال أبو عبيدة أم بمعنى : بل ، والمعنى قال فرعون لقومه بل أنا خير ، وقال الفراء : إن شئت جعلتها من الإستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله ـ وقيل : هي زائدة ، وحكى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون أم زائدة ، والمعنى أنا خير من هذا ، وقال الأخفش : في الكلام حذف ، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون ؟ ثم ابتدأ فقال : أنا خير ، وروي عن الخليل وسيبويه نحو قول الأخفش ، ويؤيد هذا أن عيسى الثقفي ويعقوب الحضرمي وقفا على أم على تقدير أم تبصرون فحذف لدلالة الأول عليه ، وعلى هذا فتكون أم متصلة لا منقطعة والأول أولى ، وحكى الفراء أن بعض القراء قرأ أما أنا خير ؟ أي ألست خيراً ؟

﴿من هذا الذي هو مهين﴾ أي ضعيف حقير ممتهن في نفسه ، لا عز له لأنه يتعاطى أموره بنفسه وليس له ملك ولا قوة يجري بها نهراً وينفذ بها أمراً ﴿ولا يكاد يبين﴾ الكلام لما في لسانه من العقدة ، وقد تقدم بيانه في سورة طه ، قال ابن عباس في الآية : كانت بموسى لثغة في

لسانه ، واللثغة بالضم ان تصير الراء غيناً أو لاماً أو السين ثاء ، وقد لثغ من باب طرب فهو ألثغ ، وقيل المعنى لا يكاد يبين حجته التي تدل على صدقه فيما يدعي ، ولم يرد به أنه لا قدرة له على الكلام ، والأول أولى .

﴿ فلولا ألقي عليه ﴾ من عند مرسله الذي يدعي أنه الملك بالحقيقة ﴿ أسورة ﴾ جمع سوار ، وبها قرأ حفص ، وقرأ الجمهور أساور جمع أسورة ، وقال أبو عمرو بن العلاء واحد الأساورة والأساور والأساوير أسوار ، وهي لغة في سوار ، وقرأ أبيّ أساور ، وابن مسعود أساوير ، قال مجاهد : كانوا اذا سودوا رجلاً سوروه بسوارين ، وطوقوه بطوق ذهب ، علامة لسيادته ، أرادوا بإلقاء الأسورة عليه إلقاء مقاليد الملك إليه ، أي فهلا حلي بأسورة ﴿ من ذهب ﴾ إن كان عظيماً مقدماً سيداً .

﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي هلا جاء معه الملائكة متتابعين متقارنين إن كان صادقاً يعينونه على أمره ، ويشهدون له بالنبوة ، ويمشون معه ، فأوهم اللعين قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على هيئة الجبابرة ، ومحفوفين بالملائكة ﴿ فاستخف قومه ﴾ أي حملهم على خفة الجهل والسفه ، بقوله وكيده ، واستفزهم بالقول ، واستزلهم وعمل فيهم كلامه ، وقيل : طلب منهم الخفة في الطاعة وهي الاسراع ، قال ابن الأعرابي المعنى فاستجهل قومه فأطاعوه لخفة أحلامهم ، وقلة عقولهم ، فقال استخفه الفرح ، أي أزعجه ، استخفه أي حمله ، ومنه ﴿ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ ، وقد استخف بقومه وقهرهم حتى اتبعوه وعزروه وقيل استخف قومه أي وجدهم خفاف العقول ، فصيغة الاستفعال للوجدان ، وفي نسبته الى القوم تجوز .

﴿ فأطاعوه ﴾ فيما أمرهم به وقبلوا قوله وكذبوا موسى ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله .

﴿ فلما آسفونا ﴾ أي اغضبونا قاله المفسرون ، والأسف الغضب وقيل أشد الغضب ، وقيل السخط ، وقيل ، المعنى أغضبوا رسلنا قال ابن عباس فلما أسخطونا وأغضبونا أي بالافراط في الفساد والعصيان ﴿ انتقمنا منهم ﴾ ثم بين العذاب الذي وقع به الانتقام فقال ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ في البحر وإنما أهلكوا بالغرق ليكون هلاكهم بما تعززوا به وهو الماء في قوله ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ ففيه إشارة الى أن من تعزز بشيء دون الله أهلكه الله به وقد استضعف اللعين موسى وعابه بالفقر والضعف ، فسلطه الله تعالى عليه إشارة الى أنه ما استضعف أحد شيئاً إلا غلبه ، أفاده القشيري .

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب وابن أبي حاتم عن عقبة ابن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال إذا رأيت الله يعطى العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له وقرأ ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ وعن طاوس بن شهاب قال كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجاءة فقال تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ .

﴿ فجعلناهم سلفاً ﴾ أي قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار ، في استحقاق العذاب ، لأجل الاعتبار بهم ، قرأ الجمهور سلفاً بفتح السين واللام جمع سالف كخدم وخادم ، ورصد وراصد ، وحرس وحارس ، يقال سلف يسلف إذا تقدم ومضى ، قال الفراء والزجاج جعلناهم متقدمين سابقين ، ليتعظ بهم الآخرون اللاحقون ، وقرىء سلفاً بضم السين واللام ، قال الفراء هو جمع سليف نحو سرر وسرير ، وقال أبو حاتم هو جمع سلف نحو خشب وخشب ، وقرىء بضم السين وفتح اللام جمع سلفة ، وهم الفرقة المتقدمة نحو غرف وغرفة ، كذا قال النضر بن شميل ، وقال ابن عباس سلفاً أهواء مختلفة .

﴿ ومثلاً للآخرين ﴾ أي عبرة وموعظة لمن يأتي بعدهم ، أو قصة عجيبة تجري مجرى الأمثال ، وتسير سير الأقوال ، ولما قال سبحانه ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا ما يريد محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن نتخذه إلّهاً ، كما اتخذ النصارى عيسى بن مريم فأنزل الله ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً ﴾ كذا قال قتادة ومجاهد .

وقال الواحدي : أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في مجادلة ابن الزبعرى مع النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ قال ابن الزبعرى : خصمتك ورب الكعبة اليست النصارى يعبدون المسيح ؟ واليهود عزيراً ؟ وبنو مليح الملائكة ؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرحوا به ، وضحكوا وارتفعت أصواتهم ، فأنزل الله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ ونزلت هذه الآية المذكورة هنا ، وقد مضى هذا في سورة الأنبياء ، ولا يخفاك أن ما قاله ابن الزبعري مندفع من أصله ، وباطل برمته فإن الله سبحانه قال : ﴿ إنكم وما تعبدون ﴾ ولم يقل : ومن تعبدون ، حتى يدخل في ذلك العقلاء كالمسيح وعزير والملائكة ، قال الشهاب : ابن الزبعرى هو عبد الله الصحابي المشهور ، وهذه القصة على تقدير صحتها كانت قبل إسلامه .

﴿ إذا قومك ﴾ يا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ منه ﴾ أي من ذلك المثل المضروب ﴿ يصدون ﴾ أي يضجون ويصيحون ، فرحاً بذلك المثل المضروب ، والمراد بقومه هنا كفار قريش ، إذ ظنوا أنه ألزم وأفحم النبي صلى الله عليه وسلم به ، وهو إنما سكت انتظاراً للوحي .

قرأ الجمهور : يصدون بكسر الصاد ، وقرىء بضمها ، وهما سبعيتان قال الكسائي والفراء والزجاج والأخفش : هما لغتان ومعناهما يضجون ،

قال الجوهري : صد يصد صديداً أي ضج ، وقيل : إنه بالضم للإعراض ، وبالكسر من الضجيج ، قاله قطرب ، قال أبو عبيدة: لو كانت من الصدود عن الحق يقال : اذا قومك عنه يصدون ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : « إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير ، قالوا : ألست تزعم أن عيسى كان نبياً ؟ وعبداً من عباد الله صالحاً ؟ وقد عبدته النصارى ، فإن كنت صادقاً فإنه كآلهتهم ، فأنزل الله : ولما ضرب ابن مريم مثلاً » الآية ، قلت : وما يصدون ؟ قال : يضجون .

﴿ وقالوا أآلهتنا خير ﴾ عندك ﴿ أم هو ﴾ أي المسيح ، قال السدي وابن زيد : خاصموه وقالوا إن كان كل من عبد غير الله في النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة ، وقال قتادة يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم ، أي أآلهتنا خير أم محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ويقوي هذا قراءة ابن مسعود أآلهتنا خير أم هذا .

﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثل في عيسى إلا ليجادلوك لا لطلب الحق حتى يرجعوا له عند ظهوره وبيانه ، على أن جدلاً منتصب على العلة ، أو مجادلين على أنه مصدر في موضع الحال وقرىء جدالاً .

﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ أي شديدو الخصومة ، كثيرو اللدد ، عظيمو الجدل ، وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » ، ثم تلا هذه الآية ، وقد ورد في ذم الجدل بالباطل أحاديث كثيرة ، ثم بيّن سبحانه أن عيسى ليس برب ، وإنما هو عبد من عباده اختصه بنبوته فقال :

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ بما أكرمناه به من النبوة ، وأنعمنا عليه برفعة المنزلة والذكر ﴿ وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل ﴾ أي آية وعبرة لهم ، يعرفون به قدرة الله سبحانه ، فإنه كان من غير أب ، وكان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ، وكل مريض بإذن الله ، فمن أين يدخل في قوله ﴿ إنكم وما تعبدون ﴾ ؟ .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال إن المشركين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أرأيت من يعبد من دون الله أين هم ؟ قال في النار ، قالوا الشمس والقمر قال والشمس والقمر قالوا فعيسى ابن مريم ؟ قال: قال الله ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل ﴾ .

﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ الخطاب لقريش ، أي لو نشاء لأهلكناكم ، وجعلنا بدلكم في الأرض ملائكة مكرمين يعمرونها ، ويعبدوننا ، فهذا تهديد وتخويف لقريش ، قال السمين في ﴿من﴾ هذه أقوال أحدها أنها بمعنى بدل أي لجعلنا بدلكم ، ومنه قوله تعالى ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ أي بدلها ، والثاني وهو المشهور أنها ابتدائية وتأويل الآية عليه لولدنا منكم يا رجال ملائكة في الأرض يخلفونكم كما تخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى دون ذكر ، ذكره الزمخشري ، والثالث أنها تبعيضية قال أبو البقاء وقيل المعنى لحولنا بعضكم ملائكة ، وقال ابن عطية لجعلنا بدلاً منكم ، ومقصود الآية

أنا لو نشاء لأسكنّا الملائكة الأرض ، وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا .

﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال مجاهد والضحاك والسدي وقتادة إن المراد المسيح ، وأن خروجه أي نزوله مما يعلم به قيام الساعة ، أي قربها لكونه شرطاً من أشراطها لأن الله سبحانه ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة ، وقال الحسن وسعيد بن جبير المراد القرآن لأنه يدل على قرب مجيء الساعة ، وبه يعلم وقتها وأهوالها وأحوالها ، وقيل المعنى أن حدوث المسيح من غير أب وإحياءه للموتى دليل على صحة البعث ، وقيل الضمير لمحمد صلى الله عليه وسلم والأول أولى .

قال ابن عباس « أي خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة »[١] ، وأخرجه الحاكم وابن مردويه عنه مرفوعاً ، وعن أبي هريرة نحوه أخرجه عبد بن حميد قرأ الجمهور لعلم بصيغة المصدر ، جعل المسيح علماً للساعة مبالغة ، لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله ، وقرأ جماعة من الصحابة بفتح العين واللام ، أي خروجه علم من أعلامها ، وشرط من شروطها ، وقرىء للعلم بلامين مع فتح العين واللام أي للعلامة التي يعرف بها قيام الساعة .

﴿ فلا تمترن بها ﴾ أي فلا تشكن في وقوعها ، ولا تكذبن بها ، فإنها كائنة لا محالة ﴿ واتبعون ﴾ قرأ الجمهور بحذف الياء وصلاً ووقفاً ، وقرىء بإثباتها وصلاً ووقفاً وقرىء بحذفها في الوصل دون الوقف أي اتبعوني فيما آمركم به من التوحيد وبطلان الشرك ، وفرائض الله التي فرضها عليكم ﴿ هذا ﴾ أي الذي آمركم به وأدعوكم إليه ﴿ صراط مستقيم ﴾ أي طريق قيم ، موصل الى الحق .

---

(١) وقد قال به ابن كثير في تفسيره .

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ ولا يصدنكم الشيطان ﴾ أي لا تغتروا بوساوسه وشبهه التي يوقعها في قلوبكم فيمنعكم ذلك من اتباعي أو من الايمان بالساعة ، فإن الذي دعوتكم إليه هو دين الله الذي اتفق عليه رسله وكتبه ، ثم علل نهيهم عن أن يصدهم الشيطان ببيان عداوته لهم فقال : ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ أي مظهر لعدواته لكم غير متحاش عن ذلك ولا متكتم به كما يدل على ذلك ما وقع بينه وبين آدم ، وما ألزم به نفسه من إغراء جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين .

﴿ ولما جاء عيسى ﴾ الى بني إسرائيل ﴿ بالبينات ﴾ أي بالمعجزات الواضحة ، والشرائع النيرة ، قال قتادة البينات ههنا الانجيل ﴿ قال قد جئتكم بالحكمة ﴾ أي النبوة وقيل : الانجيل ، وقيل ما يرغب في الجميل ويكف عن القبيح .

﴿ و ﴾ جئتكم ﴿ لأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ من أحكام التوارة ، ولم يترك العاطف ليتعلق بما قبله ليؤذن بالاهتمام بالعلة حتى جعلت كأنها كلام برأسه والبعض هو أمر الدين قال قتادة يعني اختلاف الفرق الذين تحزبوا في أمر عيسى ، قال الزجاج : الذي جاء به عيسى

في الانجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه فبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا اليه .

وقيل : إن بني اسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم وقال أبو عبيدة ان بعض هنا بمعنى كل كما في قوله ﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ وقال مقاتل هو كقوله ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ يعني ما أحل في الانجيل مما كان محرماً في التوراة كلحم الابل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت ثم أمرهم بالتقوى والطاعة فقال :

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي اتقوا معاصيه ﴿ وأطيعون ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والشرائع وأبلغه عنه ﴿ إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه ﴾ هذا بيان لما أمرهم بأن يطيعوه فيه ﴿ هذا ﴾ أي عبادة الله وحده والعمل بشرائعه ﴿ صراط مستقيم ﴾ وهذا تمام كلام عيسى عليه السلام أو استئناف من الله يدل على ما هو المقتضى للطاعة في ذلك .

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ قال مجاهد والسدي الأحزاب هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وقال الكلبي ومقاتل هم فرق النصارى اختلفوا في أمر عيسى ، قال قتادة المعنى أنهم اختلفوا فيما بينهم ، وقيل اختلفوا من بين من بعث إليهم من اليهود والنصارى والأحزاب هي الفرق المتحزبة قيل هم اليعقوبية والنسطورية والملكانية والشمعونية ، وهذا مبني على أنه بعث لجميع بني اسرائيل فتحزبوا في أمره ، وقيل المراد بالأحزاب الذين تحزبوا على النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوه وهم المرادون بقوله : ﴿ هل ينظرون إلا الساعة ﴾ والأول أولى .

﴿ فويل للذين ظلموا ﴾ من هؤلاء المختلفين وهم الذين أشركوا بالله ولم يعملوا بشرائعه ، وقالوا في عيسى ما كفروا به ﴿ من عذاب يوم أليم ﴾ أي أليم عذابه وهو يوم القيامة .

﴿ هل ينظرون ﴾ أي هل يترقب وينتظر هؤلاء الأحزاب أو الكفار ﴿ إلا الساعة ان تأتيهم بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي لا يفطنون بذلك لاشتغالهم بأمر دنياهم وإنكارهم لها ، كقوله تأخذهم وهم يخصمون .

﴿ الأخلّاء ﴾ في الدنيا أي المتحابون فيها ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم تأتيهم الساعة ﴿ بعضهم لبعض عدو ﴾ أي يعادي بعضهم بعضاً لأنه ، قد انقطعت بينهم العلائق واشتغل كل واحد منهم بنفسه ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها أخلاء أسباباً للعذاب ، فصاروا أعداء ثم استثنى المتقين فقال ﴿ إلا المتقين ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة ، لأنهم وجدوا تلك الخلة التي كانت بينهم من أسباب الخير والثواب فبقيت خلتهم على حالها .

عن علي بن أبي طالب في الآية « قال : خليلان مؤمنان ، وخليلان كافران توفي أحد المؤمنين فبشر بالجنة فذكر خليله فقال : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، وينبئني أني ملاقيك ، اللهم لا تضله بعدي حتى تريه ما أريتني ، وترضى عنه كما رضيت عني فيقال له : اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً ، ثم يموت الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال : ليثن كل واحد منكما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل ، واذا مات أحد الكافرين بشر بالنار ، فيذكر خليله فيقول : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، وينبئني أني غير ملاقيك اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أريتني وتسخط عليه كما سخطت علي فيموت الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال : ليثن كل واحد منكما على صاحبه فيقول كل لصاحبه . بئس الأخ وبئس الصاحب ، وبئس الخليل » ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وحميد بن زنجويه في ترغيبه وابن جرير والبيهقي وابن مردويه وابن أبي حاتم .

يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾

﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ أي يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله بهذه المقالة تشريفاً لهم وتطييباً لقلوبهم ، فيذهب عند ذلك خوفهم ، ويرتفع حزنهم ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ لله منقادين له مخلصين في أمر الدين .

﴿ ادخلوا الجنة ﴾ أي يقال لهم ذلك ، قال مقاتل ، إذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد يا عبادي لا خوف عليكم ، فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم فيقال : الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، فينكس أهل الأوثان رؤوسهم غير المسلمين .

﴿ أنتم وأزواجكم ﴾ المراد بها نساؤهم المؤمنات وقيل قرناؤهم من المؤمنين وقيل زوجاتهم من الحور العين ﴿ تحبرون ﴾ تكرمون أو تنعمون أو تفرحون أو تسرون أو تعجبون أو تلذذون بالسماع ، والأولى تفسير ذلك بالفرح والسرور الناشئين عن الكرامة والنعمة ، ناداهم بأربعة أمور الأول نفي الخوف ، والثاني نفي الحزن ، والثالث الأمر بدخول الجنة ، والرابع البشارة بالسرور .

﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب ﴾ جمع صحفة وهي القصعة الواسعة العريضة ، قال الكسائي أعظم القصاع الجفنة ، ثم القصعة ، وهي تشبع عشرة ثم الصحفة ، وهي تشبع الخمسة ، ثم الميكلة ، وهي تشبع الرجلين أو الثلاثة ، والمعنى أن لهم في الجنة أطعمة يطاف عليهم بها في

صحاف الذهب

﴿ وأكواب ﴾ أي ولهم فيها أشربة يطاف عليهم بها في الأكواب ، وهي جمع كوب قال الجوهري الكوب كوز لا عروة له والجمع أكواب ، قال قتادة الكوب المدور القصير العنق ، القصير العروة ، والإبريق المستطيل العنق الطويل العروة ، وقال الأخفش الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها ، وقال قطرب هي الأباريق التي ليست لها عرى ، والعروة ما يمسك منه ويسمى أذناً ، قال ابن عباس الأكواب الجرار من الفضة .

﴿ وفيها ﴾ أي في الجنة ﴿ ما تشتهيه الأنفس ﴾ أي أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة والأشربة ، والأشياء المعقولة والمسموعة والملموسة ونحوها . مما تتطلبه النفس وتهواه كائناً ما كان ، جزاء لهم بما منعوا أنفسهم من الشهوات في الدنيا قرأ الجمهور تشتهي وفي مصحف عبد الله ابن مسعود تشتهيه بإثبات الضمير العائد الى الموصول .

﴿ وتلذ الأعين ﴾ من كل المستلذات التي يستلذ بها ويطلب مشاهدتها ، وأعلاها النظر الى وجهه الكريم ، جزاء ما تحملوه من مشاق الاشتياق ، تقول لذ الشيء يلذ لذاذاً ولذاذة إذا وجده لذيذاً أو التذ به ، وهذا حصر لأنواع النعم ، لأنها إما مشتهيات في القلوب أو مستلذات في العيون .

عن عبد الرحمن بن سابط قال : قال رجل « يا رسول الله ، هل في الجنة خيل ؟ فإني أحب الخيل ، قال إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت ، وسأله آخر فقال: يا رسول الله هل في الجنة من إبل؟ فإني أحب الابل قال فلم يقل له ما قال لصاحبه فقال إن يدخلك الله الجنة يكن لك ما اشتهت نفسك ولذت عينك» أخرجه الترمذي ﴿ وأنتم فيها خالدون ﴾ لا تموتون ولا تخرجون منها .

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩)﴾

﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها ﴾ أي يقال لهم يوم القيامة هذه المقالة أي صارت اليكم كما يصير الميراث الى الوارث ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة ، وتلك مبتدأ والجنة صفته والموصول مع صلته صفة للجنة ، والخبر بما كنتم الخ ، وقيل الخبر الموصول مع صلته ، والأول أولى وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب للتشريف ، والمخاطب كل واحد من أهل الجنة ، فلذلك أفرد الكاف ، ولم يقل وتلكم الذي هو مقتضى أورثتموها إيذاناً بأن كل واحد مقصود بذاته .

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، وذلك قوله وتلك الجنة التي أورثتموها » .

﴿ لكم فيها ﴾ سوى الطعام والشراب ﴿ فاكهة كثيرة ﴾ أي كثيرة الأنواع والأصناف والفاكهة معروفة وهي الثمار كلها رطبها ويابسها ﴿ منها تأكلون ﴾

وكل ما يؤكل يخلف بدله ومن تبعيضيه أو ابتدائية ، وقدم الجار لأجل الفاصلة ، ثم شرع سبحانه في الوعيد بعد ذكر الوعد كما هو دأب القرآن الكريم فقال :

﴿ إن المجرمين ﴾ أي أهل الاجرام الكفرية ، كما يدل عليه إيرادهم في مقابلة المؤمنين الذين لهم ما ذكره الله سبحانه قبل هذا ﴿ في عذاب جهنم خالدون ﴾ لا ينقطع عنهم العذاب أبداً ﴿ لا يفتر عنهم ﴾ أي لا يخفف عنهم ذلك العذاب جملة حالية وكذلك .

﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ أي آيسون من النجاة وقيل ساكتون سكوت يأس ، وقد مضى تحقيق معناه في الأنعام ، ولا يشكل على هذا قوله الآتي ؛ ﴿ ونادوا ﴾ الخ لأن تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة ، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون تارة لغلبة اليأس عليهم ، وعلمهم أنه لا فرج ويشتد عليهم العذاب تارة فيستغيثون ، وقرأ عبد الله : هم فيها أي في النار لدلالة العذاب عليها .

﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي ما عذبناهم بغير ذنب ، ولا بزيادة على ما يستحقونه ﴿ ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ لأنفسهم بما فعلوا من الذنوب ، قرأ الجمهور الظالمين ، بالنصب على أنه خبر كان والضمير ضمير فصل ، وقرىء الظالمون بالرفع على أن الضمير مبتدأ ، وما بعده خبره ، والجملة خبر كان .

﴿ ونادوا يا مالك ﴾ أي نادى المجرمون هذا النداء ، والإتيان بالماضي على حد ﴿ أتى أمر الله ﴾ ومالك هو خازن النار ، قرأ الجمهور بغير الترخيم ، وقرىء يا مال بالترخيم ، قيل لابن عباس : إن ابن مسعود قرأ يا مال ، فقال ما أشغل أهل النار عن الترخيم ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ بالموت من قضى عليه اذا أماته قال تعالى: ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ توسلوا بمالك خازن النار الى الله سبحانه ليسأله لهم أن يقضي عليهم

بالموت ليستريحوا من العذاب ، وقال البيضاوي : هو لا ينافي إبلاسهم فإنه جؤار وتمن للموت من فرط الشدة .

﴿ قال إنكم ماكثون ﴾ أي مقيمون في العذاب ، هانت والله دعوتهم على مالك وعلى رب مالك قيل سكت عن إجابتهم أربعين سنة قاله الخازن والسنة ثلثمائة وستون يوماً واليوم كألف سنة مما تعدون قاله القرطبي وقيل : ثمانين سنة ، وقيل مائة سنة وقال ابن عباس يمكث عنهم ألف سنة ثم يجيبهم بهذا الجواب .

﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾ يحتمل أن يكون هذا من كلام الله سبحانه أو من كلام مالك والأول أظهر ، والمعنى : إنا أرسلنا إليكم الرسل وأنزلنا عليهم الكتب فدعوكم فلم تقبلوا ولم تصدقوا وهو معنى قوله .

﴿ ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ أي لا تقبلونه وتنفرون منه ، لأن مع الباطل الدعة ومع الحق التعب ، قيل معنى أكثركم كلكم وقيل أراد الرؤساء والقادة ومن عداهم أتباع لهم والمراد بالحق كل ما أمر الله به على ألسن رسله وأنزله في كتبه وقيل هو خاص بالقرآن :

﴿ أم أبرموا امراً فإنا مبرمون ﴾ كلام مستأنف ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله صلى الله وسلم . وأم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة أي بل أبرموا أمراً وفي ذلك انتقال من توبيخ أهل النار وحكاية حالهم الى حكاية ما يقع من هؤلاء والابرام الاتقان والإحكام ، يقال برمت الشيء أحكمته واتقنته وأبرم الحبل اذا أحكم فتله .

والمعنى بل أحكموا كيداً للنبي صلى الله عليه وسلم فإنا محكمون لهم كيداً قاله مجاهد وقتادة وابن زيد ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ وقيل المعنى أم قضوا أمراً فإنا قاضون عليهم أمرنا بالعذاب قاله الكلبي .

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ أي بل أيحسبون أنا لا نسمع ما يسرون في أنفسهم أو ما يتحادثون به سراً في مكان خال ، وما يتناجون به فيما بينهم ﴿ بلى ﴾ نسمع ذلك ونعلم به ﴿ ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ أي الحفظة عندهم يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل . عن يحيى بن معاذ قال من ستر من الناس ذنوبه وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من أمارات النفاق .

أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : « بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان وثقفي ، أو ثقفيان وقرشي ، فقال واحد منهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ؟ فقال واحد : إذا جهرتم يسمع ، وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت هذه الآية » .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار قولاً يلزمهم به الحجة ، ويقطع ما يوردونه من الشبهة فقال :

﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾ وصح ذلك ببرهان صحيح ، أو إن كان له ولد في قولكم ، وعلى زعمكم ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ أي أول من عبدالله وحده لأن من عبدالله وحده فقد دفع أن يكون له ولد ، قاله ابن قتيبة وقال الحسن والسدي . إن المعنى ما كان للرحمن ولد ، ويكون قوله : فأنا أول العابدين ابتداء كلام .

قال ابن عباس في الآية يقول إن يكن للرحمن ولد ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ أي الشاهدين ، وعن زيد بن أسلم قال هذا معروف من كلام العرب إن كان هذا الأمر قط ، أي ما كان ، وعن قتادة نحوه وقيل : المعنى قل يا محمد : إن ثبت لله ولد ، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته ، ولكنه يستحيل أن يكون له ولد . وفيه نفي للولد على أبلغ وجه ، واتم عبارة ، وأحسن أسلوب ، وهذا هو الظاهر من النظم القرآني ، لأن هذا الكلام وارد على سبيل الفرض والمراد نفي الولد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها ، ومن هذا القبيل قوله تعالى :

﴿ وإنا و إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ ومثل هذا قول الرجل لمن يناظره إن ثبت ما تقوله بالدليل فأنا أول من يعتقده ويقول به فتكون إن في ﴿ إن كان ﴾ شرطية ورجح هذا ابن جرير وغيره .

وقيل : معنى العابدين الآنفين من العبادة وهو تكلف لا ملجىء إليه ولكنه قرىء العبدين : بغير ألف ؛ من عبد يعبد عبداً بالتحريك إذا أنف وغضب ، فهو عبد ، والإسم العبدة مثل الأنفة ولعل الحامل على هذه القراءة الشاذة البعيدة لمن قرأها هو استبعاد معنى ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ وليس بمستبعد ولا مستنكر وقد حكى الجوهري عن أبي عمرو في قوله : ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ أنه من الأنف أو الغضب ؛ وحكاه الماوردي عن الكسائي والقتيبي

وبه قال الفراء ، وكذا قال ابن الأعرابي إن معنى العابدين الغضاب الآنفين .

وقال أبو عبيدة : معناه الجاحدين ، وحكى عبدني حقي أي جحدني ولا شك أن عبد وأعبد بمعنى أنف أو غضب ثابت في لغة العرب ، وكفى بنقل هؤلاء الأئمة حجة ولكن جعل ما في القرآن من هذا من التكلف الذي لا ملجىء إليه ومن التعسف الواضح ، وقد رد ابن عرفة ما قالوه فقال : إنما يقال : عبد يعبد فهو عبد ، وقل ما يقال : عابد والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ ، قرأ الجمهور ولد بالإفراد وقرىء بضم الواو وسكون اللام .

﴿ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ أي تنزيهاً له وتقديساً عما يقولون من الكذب ، بأن له ولداً ويفترون عليه سبحانه ما لا يليق بجنابه ، وهذا إن كان من كلام الله سبحانه فقد نزه نفسه الكريمة عما قالوه وإن كان من تمام كلام رسوله صلى الله عليه وسلم الذي أمره بأن يقوله فقد أمره بأن يضم إلى ما حكاه عنهم بزعمهم الباطل تنزيه ربه وتقديسه .

﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا ﴾ أي اترك الكفار حيث لم يهتدوا لما هديتهم به ولا أجابوك فيما دعوتهم إليه يخوضوا في أباطيلهم ؛ ويلهوا في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ وهو يوم القيامة ، وقيل العذاب في الدنيا : وقيل يوم الموت وهو الأظهر فإن خوضهم ولعبهم إنما ينتهي بيوم الموت ، قيل : وهذا منسوخ بآية السيف وقيل : هو غير منسوخ وإنما أخرج مخرج التهديد ، وفيه دليل على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب ، قرأ الجمهور يلاقوا وقرىء يلقوا .

﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ الجار والمجرور في الموضعين متعلق بإله لأنه بمعنى معبود ، أو مستحق للعبادة والمعنى وهو الذي معبود في السماء ومعبود في الأرض ، أو مستحق للعبادة في السماء والعبادة في الأرض وبما تقرر من أن المراد بإله معبود اندفع ما قيل هذا يقتضي تعدد الآلهة

لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت ؛ كقولك : أنت طالق وطالق وإيضاح الاندفاع أن الإِلٓه هنا بمعنى المعبود ؛ وهو تعالى معبود فيهما والمغايرة إنما هي بين معبوديته في السماء ومعبوديته في الأرض ، لأن المعبودية من الأمور الإضافية فيكفي التغاير فيها من أحد الطرفين ؛ فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض ، مع أن المعبود واحد ، وفيه دلالة على اختصاصه باستحقاق الألوهية ، فإن التقديم يدل على الإختصاص أفاده الكرخي .[1]

قال أبو علي الفارسي وإِلٓه في الموضعين مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي في السماء هو إِلٓه وفي الأرض هو إِلٓه وحسن حذفه لطول الكلام قال والمعنى على الإخبار بالإِلٓهية لا على الكون فيهما ، قال قتادة يعبد في السماء والأرض وقيل في بمعنى على أي هو القادر على السماء والأرض ، كما في قوله ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾

وقرأ عمر وعلي وابن مسعود : وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله على تضمين العلم معنى المشتق فيتعلق به الجار والمجرور من هذه الحيثية ﴿ وهو الحكيم العليم ﴾ أي البليغ الحكمة الكثير العلم .

﴿ وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ تبارك تفاعل من البركة ؛ وهي كثرة الخيرات والمراد بما بينهما الهواء وما فيه من الحيوانات ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أي علم الوقت الذي يكون فيه قيامها ﴿ وإليه ترجعون ﴾ فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر ، وفيه وعيد شديد ، قرأ الجمهور بالفوقية على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، وقرىء بالتحتية .

﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ أي لا يملك من يدعونه

---

(١) زاد المسير ٢٣٣ .

من دون الله من الأصنام ونحوها الشفاعة عند الله كما يزعمون أنهم يشفعون لهم قرأ الجمهور يدعون بالتحتية وقرىء بالفوقية ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ أي التوحيد .

﴿ وهم يعلمون ﴾ أي هم على علم وبصيرة بما شهدوا به ، والإستثناء متصل والمعنى إلا من شهد بالحق وهم المسيح وعزير والملائكة فإنهم يملكونِ الشفاعة لمن يستحقها ، وقيل هو منقطع .

والمعنى ليكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء ، وقيل المستثنى منه محذوف ، أي لا يملكون الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق قال سعيد بن جبير وغيره : معنى الآية أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة قال قتادة : لا يشفعون لعابديها بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية ، وقيل : مدار الاتصال في هذا الاستثناء على جعل الذين يدعون عاماً لكل ما يعبد من دون الله ومدار الانقطاع على جعله خاصاً بالأصنام .

﴿ ولئن سألتهم ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والمعنى : لئن سألت هؤلاء المشركين العابدين للأصنام ﴿ من خلقهم ليقولن الله ﴾ جواب القسم وجواب الشرط محذوف على القاعدة أي أقروا واعترفوا بأن خالقهم الله ولا يقدرون على الإنكار ، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر وجلائه .

﴿ فأنى يؤفكون ﴾ أي فيكف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره ، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف ، فإن المعترف بأن الله خالقه إذا عمد إلى صنم أو حيوان ، وعبده مع الله ، أو عبده وحده ، فقد عبد بعض مخلوقات الله ، وفي هذا من الجهل ما لا يقادر قدره يقال : أفكه يأفكه إفكاً إذا قلبه وصرفه عن الشيء ، وقيل : المعنى ولئن سألت المسيح وعزيراً والملائكة من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفك هؤلاء الكفار في اتخاذهم لهم آلهة ، وقيل المعنى ولئن سألت العابدين والمعبودين جميعاً .

وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿ وقيله ﴾ قرأ الجمهور بالنصب عطفاً على محل الساعة ، كأنه قيل إنه يعلم الساعة ويعلم قيله ، أو عطفاً على سرهم ونجواهم ، أي يعلم سرهم ونجواهم ؛ ويعلم قيله أو عطفاً على مفعول يكتبون المحذوف ، أي يكتبون ذلك ويكتبون قيله ، أو عطفاً على مفعول يعلمون المحذوف ، أي يعلمون ذلك ويعلمون قيله ، أو هو مصدر أي قال قيله ، أو منصوب بإضمار فعل أي الله بعلم قيل رسوله ، أو هو معطوف على محل بالحق أي شهد بالحق وبقيله ، أو منصوب على حذف حرف القسم ، ومن المجوزين للأول المبرد وإبن الأنباري ، وللثاني الفراء والأخفش ، وللنصب على المصدرية أيضاً الفراء والأخفش .

وقرىء قيله بالجر عطفاً على لفظ الساعة أي ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ وعلم ﴿ قيله ﴾ والقول والقال والقيل والمقال كلها مصادر بمعنى واحد ، جاءت على هذه الأوزان ، وقال أبو عبيدة : يقال قلت قولاً وقالاً وقيلاً أو على أن الواو للقسم .

وقرأ قتادة ومجاهد والحسن وأبو قلابة والأعرج بن هرمز ومسلم بن جندب قيله بالرفع عطفاً على علم ، أي ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ وعنده ﴿ قيله ﴾ أو على الابتداء وخبره الجملة المذكورة بعده أو خبره محذوف تقديره وقيله كيت وكيت ، أو وقيله مسموع ، والضمير في وقيله راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال قتادة : هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه وقيل عائد إلى المسيح وعلى الوجهين فالمعنى أنه قال منادياً لربه :

﴿ يا رب إن هؤلاء ﴾ الذين أرسلتني إليهم ﴿ قوم لا يؤمنون ﴾ ثم لما

نادى ربه بهذا ، أجابه بقوله : ﴿ فاصفح عنهم ﴾ أي أعرض عن دعوتهم .

﴿ وقل سلام ﴾ أي أمري تسليم منكم ، ومتاركة لكم ، وقال الفراء إن سلام مرفوع بإضمار عليكم ، قال عطاء : يريد مداراة حتى ينزل حكمي ، ومعناه المتاركة كقوله ﴿ سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ فليس في الآية مشروعية السلام على الكفار كما قيل ، وقال قتادة أمره بالصفح عنهم ، ثم أمره بقتالهم ، فصار الصفح منسوخاً بالسيف ، وقيل هي محكمة لم تنسخ ﴿ فسوف يعلمون ﴾ قرأ الجمهور بالتحتية ، وقرىء بالفوقية ، وفيه تهديد شديد لهم ووعيد عظيم من الله عز وجل وتسلية له صلى الله عليه وسلم .

سورة الدخان

﴿ هي ست أو سبع أو تسع وخمسون آية ﴾

قال القرطبي : هي مكيّة بالاتفاق إلا قوله : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً ﴾ وبه قال ابن عباس وابن الزبير . وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من قرأ حمٓ الدخان في ليلة الجمعة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » أخرجه البيهقي في الشعب . ورفعه الثعلبي أيضاً والترمذي . وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وعمرو بن أبي خثعم ضعيف . قال البخاري : منكر الحديث . وعنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من قرأ حمٓ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له » أخرجه البيهقي وابن مردويه ومحمد بن نصر والترمذي وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وهشام بن مقدام يضعف . والحسن لم يسمع من أبي هريرة . كذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعليّ بن زيد .

ويشهد له طرق أخرى منها ما أخرجه الدارمي ومحمد بن نصر عن أبي رافع قال : « من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له ، وزوج من الحور العين » . وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من قرأ سورة حمٓ الدخان في ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى اللّه له بيتاً في الجنة » . قال الشهاب : في سورة الواقعة . ولم يذكر البيضاوي في فضائل السور حديثاً غير موضوع من أول القرآن إلى هنا غير ما هنا . وما مر في سورة يٓس والدخان .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، حمٓ ﴾ قد تقدم قبل هذه السورة الكلام على هذا والله أعلم بمراده به ﴿ والكتاب ﴾ الواو للقسم والكتاب القرآن ﴿ المبين ﴾ أي المشتمل على بيان ما للناس حاجة إليه في دينهم ودنياهم .

﴿ إنا أنزلناه ﴾ جواب القسم ، وقد أنكر بعض النحاة أن تكون هذه الجملة جواباً للقسم ، لأنها صفة للمقسم به ، ولا تكون صفة المقسم به جواباً للقسم ، وقال : الجواب :

﴿ إنا كنا منذرين ﴾ واختاره ابن عطية ، وقال أيضاً وجملة إنا أنزلناه اعتراض متضمن لتفخيم الكتاب ، ورجح الأول بالسبق ، وبكونه من البدائع ، وبسلامته من الفك اللازم لما اختاره ابن عطية ، وقيل : إن قوله إنا كنا الخ جواب ثان أو جملة مستأنفة مقررة للإنزال ، وفي حكم العلة له كأنه قال : إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار . والضمير في أنزلناه راجع إلى الكتاب وهو القرآن ، واقتصر على ذلك البيضاوي ، وتبعه الجلال المحلي .

وعلى هذا فقد أقسم بالقرآن أنه أنزل القرآن ، وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن ، فقد يقول الرجل إذا أراد تعظيم الرجل له إليه حاجة : أتشفع بك إليك ، وأقسم بحقك عليك .

وجاء في الحديث : « أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك ، وبك منك ، لا أحصي ثناء عليك » . وقيل : المراد بالكتاب سائر الكتب المنزلة ، والضمير راجع إلى القرآن على معنى أنه سبحانه أقسم بسائر الكتب المنزلة أنه أنزل القرآن والأول أولى ، واستدلوا بهذه الآية على حدوث القرآن بوجوه لا دلالة لها عليه .

﴿ في ليلة مباركة ﴾ أي ليلة القدر ، كما في قوله ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ولها أربعة أسماء هي ، وليلة البراءة ، وليلة الصك ، وليلة الرحمة . قال عكرمة وطائفة الليلة المباركة هنا ليلة النصف من شعبان ، وقال النووي في باب صوم التطوع من شرح مسلم إنه خطأ ، والصواب وبه قال العلماء إنها ليلة القدر ، وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة .

والجمهور وأكثر المفسرين على الأول وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان ، وقال قتادة أنزل القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ثم أنزل الله سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة في أنواع الوقائع حالاً فحالاً ، وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا في سورة البقرة ، عند قوله :

﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ وذكر سليمان الجمل أدلة القولين ، وبسط فيها لا نطول بذكرها هنا .

وقال مقاتل كان ينزل من اللوح المحفوظ كل ليلة قدر من الوحي على مقدار ما ينزل به جبريل في السنة إلى مثلها من العام ، وقيل ابتداء نزوله في ليلة القدر ، ووصف الله سبحانه هذه الليلة بأنها مباركة لنزول القرآن فيها

وهو مشتمل على مصالح الدين والدنيا ، ولكونها تتنزل فيها الملائكة والروح كما سيأتي في سورة القدر إن شاء الله تعالى .

قال ابن عباس « أنزل القرآن في ليلة القدر ، ونزل به جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوماً لجواب الناس » ، وقيل المباركة الكثيرة الخير ، لما ينزل فيها من الخير والبركة ، ويستجاب من الدعاء ، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة .

﴿ إنا كنا منذرين ﴾ أي مخوفين عقابنا مستأنف أو جواب ثان بغير عاطف ، ومن جملة بركتها ما ذكره الله سبحانه ههنا بقوله : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ أي يفصل ويبين من قولهم فرقت الشيء أفرقه فرقاً ، والأمر الحكيم المحكم المبرم الذي لا يحصل فيه تغيير ولا نقض ، وذلك أن الله سبحانه يكتب فيها ما يكون في السنة من حياة وموت ، وبسط وقبض ، وخير وشر ، ورزق وأجل ، ونصر وهزيمة ، وخصب وقحط ، وغير ذلك من أقسام الحوادث وجزئياتها في أوقاتها وأماكنها ، ويبين ذلك للملائكة من تلك الليلة إلى مثلها من العام المقبل فيجدونه سواء ، فيزدادون بذلك إيماناً ، كذا قال مجاهد وقتادة والحسن وغيرهم .

وقيل : معنى حكيم أي مفعول على ما تقتضيه الحكمة ، وهو من الإسناد المجازي ، لأن الحكيم صاحب الأمر على الحقيقة ، ووصف به الأمر مجازاً ، وهذه الجملة إما صفة أخرى لليلة وما بينهما اعتراض أو مستأنفة لتقرير ما قبلها ، قرأ الجمهور يفرق بضم الياء وفتح الراء مخففاً ، وقرىء بفتح الياء وضم الراء ، ونصب كل أمر ورفع حكيم على أنه الفاعل .

والحق ما ذهب إليه الجمهور من أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر لا ليلة النصف من شعبان لأن الله سبحانه أجملها هنا وبينها في سورة البقرة بقوله : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ وبقوله في سورة القدر ﴿ إنا

أنزلناه في ليلة القدر﴾ فلم يبق بعد هذا البيان الواضح ما يوجب الخلاف ، ولا ما يقتضي الاشتباه .

قال ابن عباس في الآية « يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق وموت وحياة ومطر ، حتى يكتب الحاج يحج فلان ويحج فلان » وقال ابن عمر : « أمر السنة إلى السنة إلا الشقاوة والسعادة ، فإنه في كتاب الله لا يبدل ولا يغير » أخرجه ابن أبي حاتم ، وأخرج عبد بن حميد وغيره عنه أنه قال : « إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى ، ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل من موت أو حياة أو رزق كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها » ، وأخرج ابن زنجويه والديلمي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له قد خرج اسمه في الموتى » وأخرجه ابن أبي الدنيا وابن جرير عن عثمان بن محمد ، وهذا مرسل لا تقوم به الحجة ، ولا يعارض بمثله صرائح القرآن ، وما روي في هذا فهو إما مرسل أو غير صحيح ، وقد أورد ذلك صاحب الدر المنثور ، وأورد ما ورد في فضل ليلة النصف من شعبان ، وذلك لا يستلزم أنها المراد بقوله في ليلة مباركة[1] .

وانتصاب قوله ﴿ أمراً من عندنا ﴾ بيفرق أي يفرق فرقاً لأن أمراً بمعنى فرقاً ، قاله الزجاج والفراء ، والمعنى أنا نأمر ببيان ذلك ونسخه من اللوح المحفوظ ، فهو على هذا منتصب على المصدرية ، مثل قولك يضرب ضرباً ، قال المبرد أمراً في موضع المصدر ، والتقدير أنزلناه إنزالاً ، وقال الأخفش انتصابه على الحال ، أي آمرين ، وقيل على الاختصاص أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا ، وفيه تفخيم لشأن القرآن وتعظيم له . وقد ذكر بعض أهل العلم في انتصاب أمراً أثني عشر وجهاً أظهرها ما ذكرناه ، وقرأ زيد بن عليّ بالرفع أي هو أمر .

(١) زاد المسير ٣٣٧ .

﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ الرسل محمداً ومن قبله قال الرازي المعنى إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل أنا كنا مرسلين للأنبياء ، ومثله قال ابن الخطيب ، وانتصاب ﴿ رحمة ﴾ على العلة أي أنزلناه للرحمة ، قاله الزجاج وقال المبرد : إنها منتصبة على أنها مفعول لمرسلين ، أي إنا كنا مرسلين رحمة ، وقيل : هي مصدر في موضع الحال أي راحمين قاله الأخفش وقيل : إنها مصدر منصوب بفعل مقدر ، أي رحمنا رحمة ، وقيل : إنها حال من ضمير مرسلين أي ذوي رحمة ، وقرأ الحسن بالرفع أي هي رحمة ورأفة بالمرسل إليهم .

﴿ من ربك ﴾ متعلق بالرحمة أو صفة لمحذوف ، وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة ، ولو جرى على منوال ما تقدم لقال : من ربنا ، والمعنى رأفة مني بخلقي ونعمة عليهم بما بعثت إليهم من الرسل ﴿ إنه هو السميع ﴾ لمن دعاه ﴿ العليم ﴾ بكل شيء ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم قدرته الباهرة فقال :

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ قرأ الجمهور رب بالرفع على أنه عطف بيان على السميع العليم أو على أنه مبتدأ وخبره قوله الآتي ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي هو رب وقرأ الكوفيون بالجر على أنه بدل من ربك أو بيان له أو نعت ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ بأنه رب السموات والأرض وما بينهما ، وقد أقروا بذلك كما حكاه الله عنهم في غير موضع فأيقنوا بأن محمداً رسوله .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها أو خبر رب السموات كما مر وكذلك جملة ﴿ يحيي ويميت ﴾ فانها مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الاستئناف بتقدير مبتدأ أي هو ربكم أو على أنه بدل من رب السموات أو بيان أو نعت له وقرأ الكسائي في رواية الشيرازي عنه وغيره بالجر ووجه الجر ما ذكرناه في قراءة من قرأ بالجر في رب السموات ، وقرأ الأنطاكي بالنصب على المدح .

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿ بل هم في شك يلعبون ﴾ أضرب عن كونهم موقنين إلى كونهم في شك من التوحيد والبعث وفي إقرارهم بأن الله خالقهم وخالق سائر المخلوقات ، وإنما يقولونه تقليداً لآبائهم من غير علم وأن ذلك منهم على طريقة اللعب والهزء في دينهم بما يعن لهم من غير حجة ، ومحل يلعبون الرفع على أنه خبر ثان أو النصب على الحال ﴿ فارتقب ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لأن كونهم في شك ولعب ، يقتضي ذلك والمعنى فانتظر لهم يا محمد .

﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ وقيل المعنى احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء الخ وقد اختلف في هذا الدخان المذكور في الآية متى يأتي فقيل إنه من أشراط الساعة ، وإنه يمكث في الأرض أربعين يوماً .

وقد ثبت في الصحيح أنه من جملة العشر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة وقيل إنه أمر قد مضى ، « وهو ما أصاب قريشاً بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً » وهذا ثابت في الصحيحين وغيرهما وبه قال الفراء والزجاج ، وقيل انه يوم فتح مكة .

وقال ابن قتيبة : فيه وجهان ، الأول : أنه في سنة القحط يعظم يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار الكثير ، ويظلم الهواء وذلك يشبه الدخان ، ويقولون كان بيننا أمر ارتفع له دخان ، ولهذا يقال للسنة المجدبة : الغبراء (الثاني) : أن العرب يسمون الشيء الغالب بالدخان ، والسبب فيه ان الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه اظلمت عيناه ، ويرى الدنيا كالمملوءة من الدخان .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود « أن قريشاً لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبطأوا عن الإسلام قال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجوع فأنزل الله هذه الآية فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقيل يا رسول الله استسق الله المطر فاستسقى لهم فسقوا فأنزل الله ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ فانتقم الله منهم يوم بدر فقد مضى البطشة والدخان واللزام » ، وقد روي عن ابن مسعود نحو هذا من غير وجه وروي نحوه عن جماعة من التابعين كمقاتل ومجاهد وعن أبي مليكة قال دخلت على ابن عباس فقال : « لم أنم هذه الليلة فقلت لم؟قال طلع الكوكب فخشيت أن يطرق الدخان »[1] قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح وكذا صححه السيوطي ولكن ليس فيه أنه سبب نزول الآية[1] .

وقد عرفناك أنه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدخان الذي كان يتراءى لقريش من الجوع ، وبين كون الدخان من آيات الساعة وعلاماتها

---

(١) الطبري ١١٣/٢٥ .

(٢) ذكره البخاري بألفاظ مختلفة ٣٩٤/٨ ـ ٤٢٠ ـ ٤٤٠ ورواه مسلم أيضاً .

وأشراطها ، فقد وردت أحاديث صحاح وحسان وضعاف بذلك . وليس فيها أنه سبب نزول الآية فلا حاجة بنا إلى التطويل بذكرها .

والواجب التمسك بما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن دخان قريش عند الجهد والجوع هو سبب النزول ، وبهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجح أنه الدخان الذي من أشراط الساعة كابن كثير في تفسيره وغيره في غيره ، وهكذا يندفع قول من قال : إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة متمسكاً بما أخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال : « كان يوم فتح مكة دخان ، وهو قول الله فارتقب الخ » فإن هذا لا يعارض ما في الصحيحين على تقدير صحة إسناده مع احتمال أن يكون أبو هريرة رضي الله تعالى عنه ظن من وقوع ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية ، ولهذا لم يصرح بأنه سبب نزولها .

﴿ يغشى الناس ﴾ صفة ثانية للدخان أي يشملهم ويحيط بهم ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أي يقولون هذا أو قائلين ذلك أو يقول الله لهم ذلك ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ أي يقولون ذلك « وقد روي أنهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كشف الله عنا العذاب أسلمنا » والمراد بالعذاب الجوع الذي كان بسببه ما يرونه من الدخان أو يقولونه إذا رأوا الدخان الذي هو من آيات الساعة أو إذا رأوه يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال .

والراجح منها أنه الدخان الذي كانوا يتخيلونه مما نزل بهم من الجوع وشد الجهد ، ولا ينافي ترجيح هذا ما ورد أن الدخان من آيات الساعة ، فإن ذلك دخان آخر ، ولا ينافيه أيضاً ما قيل إنه الذي كان يوم فتح مكة ، فإنه دخان آخر على فرض صحة وقوعه .

﴿ أنّى لهم الذكرى ﴾ أي كيف يتذكرون ويتعظون بما نزل بهم ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ قد جاءهم رسول مبين ﴾ يبين لهم كل شيء يحتاجون إليه من أمر

الدنيا والدين ﴿ ثم تولوا عنه ﴾ أي أعرضوا عن ذلك الرسول الذي جاءهم ولم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه بل جاوزوه .

﴿ وقالوا معلم مجنون ﴾ أي قالوا في حقه تارة إنما يعلمه القرآن بشر ، وتارة أخرى إنه مجنون ، أو قال بعضهم هذا وبعضهم ذلك فيكف يتذكر هؤلاء وأنّى لهم الذكرى ؟ ثم لما دعوا الله بأن يكشف عنهم العذاب ، وأنه إذا كشفه عنهم آمنوا أجاب الله سبحانه عليهم بقوله :

﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً ﴾ أي إنا نكشفه عنهم كشفاً قليلاً أوزماناً قليلاً وهذا جواب بطريق الالتفات لمزيد التهديد والتوبيخ ، وما بينهما اعتراض أي إلى يوم بدر أو إلى ما بقي من أعمارهم ، ثم أخبر سبحانه عنهم أنهم لا ينزجرون عما كانوا عليه من الشرك ولا يفون بما وعدوا به من الإيمان فقال :

﴿ إنكم عائدون ﴾ إلى ما كنتم عليه من الشرك ، وقد كان الأمر هكذا فإن الله سبحانه لما كشف عنهم العذاب رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعناد ، وقيل المعنى إنكم عائدون إلينا بالبعث والنشور والأول أولى .

﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ قرأ الجمهور نبطش بفتح النون وكسر الطاء أي نبطش بهم وقرىء بضم الطاء وهي لغة وقرىء بضم النون وكسر الطاء والظرف منصوب بإضمار اذكر ، وقيل بدل من ﴿ يوم تأتي السماء ﴾ وقيل هو متعلق بـ ﴿ منتقمون ﴾ ، وقيل بما دل عليه منتقمون ، وهو منتقم والبطشة الكبرى هي يوم بدر ، قاله الأكثر .

والمعنى أنهم لما عادوا إلى التكذيب والكفر بعد رفع العذاب عنهم انتقم الله منهم بوقعة بدر . وقال الحسن وعكرمة والمراد بها عذاب النار يوم القيامة ، واختار هذا الزجاج ، والأول أولى .

وعن ابن عباس أنه قال : قال ابن مسعود : البطشة الكبرى يوم بدر

وأنا أقول هي يوم القيامة ، قال ابن كثير وهذا إسناد صحيح ، وقال ابن الخطيب هذا القول أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم ، وأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة ، لقوله تعالى :

﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ وقال ابن كثير قبل هذا فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر ، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم ، وروي أيضاً عن ابن عباس من رواية العوفي عنه ، وعن أبيّ بن كعب وجماعة وهو محتمل والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة كبرى أيضاً انتهى .

قال الشوكاني : بل الظاهر أنه يوم بدر ، وإن كان يوم القيامة بطشة أكبر من كل بطشة ، فإن السياق مع قريش ، فتفسيره بالبطشة الخاصة لهم أولى من تفسيره بالبطشة التي تكون يوم القيامة لكل عاص من الإنس والجن انتهى .

﴿ ولقد فتنا ﴾ وقرىء فتنا بالتشديد على المبالغة أو التكثير لكثرة متعلقة أي ابتلينا ﴿ قبلهم ﴾ أي قبل هؤلاء العرب ، ليكون ما مضى من خبرهم عبرة لهم ﴿ قوم فرعون ﴾ معه ومعنى الفتنة هنا أن الله سبحانه أرسل إليهم رسله وأمرهم بما شرعه لهم ، فكذبوهم ، أو وسع عليهم الأرزاق فطغوا وبغوا ، قال الزجاج : بلوناهم أي امتحناهم ، وفعلنا بهم فعـل الممتحن ، والمعنى عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسل إليهم ، والتمكين في الأرض .

﴿ وجـاءهم رسول كريم ﴾ على الله ، كريم في قومه أي كريم في نفسه حسيب نسيب ، لأن الله لم يبعث نبياً إلّا من سراة قومه وكرامهم ، وقال مقاتل : حسن الخلق بالتجاوز والصفح ، وقال الفراء كريم على ربه إذ اختصه بالنبوة وإسماع الكلام ، قال ابن عباس : هو موسى .

أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾

﴿ أن أدوا ﴾ أن هذه هي المفسرة لتقدم ما هو بمعنى القول ، أو مخففة من الثقيلة ، والمعنى أن الشأن والحديث أدوا ﴿ إليَّ عباد الله ﴾ أو مصدرية أي بأن أدوا ، والمعنى أنه طلب منهم أن يسلموا إليه بني إسرائيل الذين كان فرعون استعبدهم ، فأداؤهم استعارة بمعنى إطلاقهم وإرسالهم معه .

قال مجاهد : المعنى أرسلوا معي عباد الله وأطلقوهم من العذاب ، فعباد الله على هذا مفعول به ، كقوله في سورة طه : ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ وقيل : المعنى أدوا إلى عباد الله ما وجب عليكم من حقوق الله فيكون منصوباً على أنه منادى مضاف ، وقيل : أدوا إلى سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربي وقال ابن عباس : اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحق ﴿ إني لكم رسول ﴾ من الله ﴿ أمين ﴾ على الرسالة غير متهم وهذا تعليل للأمر .

﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ أي لا تتجبروا ولا تتكبروا عليه بترفعكم عن طاعته ومتابعة رسله وإهانة وحيه وهذا أوضح ، وقيل : لا تبغوا على الله وقيل : لا تفتروا عليه ، قاله ابن عباس ، والأول أولى ، والفرق بين البغي والافتراء أن البغي بالفعل والافتراء بالقول ، وقال ابن عباس أيضاً لا تعثوا ، وقال ابن جريج لا تتعظموا ، وقال يحيى بن سلام لا تستكبروا والفرق بينهما

أن التعاظم تطاول المقتدر، والاستكبار ترفع المحتقر، أفاده الماوردي.

وجملة ﴿ إني آتيكم ﴾ تعليل لما قبلها من النهي قرأ الجمهور بكسر همزة إني وقرىء بالفتح بتقدير اللام ﴿ بسلطان مبين ﴾ أي بحجة بينة واضحة يعترف بصحتها كل عاقل، ولا سبيل إلى إنكارها، وقال قتادة وابن عباس بعذر بين، والأول أولى، وبه قال يحيى بن سلام.

﴿ وإني عذت بربي وربكم ﴾ من ﴿ أن ترجمون ﴾ استعاذ بالله سبحانه لما توعدوه بالقتل، قال قتادة ترجموني بالحجارة، وبه قال ابن عباس، وقيل تشتموني، كذا قال ابن عباس أيضاً، وقيل تقتلوني ﴿ وإن لم تؤمنوا لي ﴾ أي إن لم تصدقوا لي وتقروا بنبوتي، ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني، فاللام في لي لام الأجل، وقيل أي وإن لم تؤمنوا بي. كقوله ﴿ فآمن له لوط ﴾ أي به.

﴿ فاعتزلون ﴾ أي فاتركوني ولا تتعرضوا لي بأذى، قال مقاتل دعوني كفافاً لا علي ولا لي وقيل كونوا بمعزل عني، وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا وقيل فخلوا سبيلي قاله ابن عباس، والمعنى متقارب، ثم لما لم يصدقوه ولم يجيبوا دعوته رجع إلى ربه بالدعاء كما حكى الله عنه بقوله:

﴿ فدعا ربه إن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ أي كافرون قرأ الجمهور بفتح الهمزة على إضمار حرف الجر أي دعاه بأن هؤلاء وقرىء بكسرها على إضمار القول، وفي الكلام حذف أي لكفروا فدعا ربه، وسماه دعاء مع أنه لم يذكر إلا مجرد كونهم مجرمين لأنهم قد استحقوا بذلك الدعاء عليهم، وقيل كان دعاؤه اللهم عجل لهم ما يستحقونه باجرامهم، وقيل: هو قوله ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ والأول أولى.

﴿ فأسر بعبادي ليلاً ﴾ أجاب الله سبحانه دعاءه، فأمره أن يسري ببني اسرائيل ليلاً، يقال: سرى وأسرى لغتان جيدتان، قرأ الجمهور فأسر بالقطع من أسرى، وقرأ أهل الحجاز بالوصل من سرى، وهما سبعيتان، والجملة بتقدير القول أي فقال الله لموسى أسر بعبادي ليلا ﴿ إنكم متبعون ﴾

أي يتبعكم فرعون وجنوده ، وقد تقدم في غير موضع خروج فرعون بعدهم .

﴿ واترك البحر رهواً ﴾ أي ساكناً ، يقال : رها يرهو رهواً إذا سكن لا يتحرك قال الجوهري : يقال افعل ذلك رهواً أي ساكناً على هيئتك وعيش راه أي ساكن ، ورها البحر سكن ، وقال الهروي وغيره : وهو المعروف في اللغة ، والمعنى اترك البحر ساكناً على صفته بعد أن ضربته بعصاك ، ولا تأمره أن يرجع كما كان ليدخله آل فرعون بعدك وبعد بني إسرائيل ،فينطبق عليهم فيغرقون .

وقال أبو عبيدة : رها بين رجليه يرهو رهواً أي فتح ، قال : ومنه قوله ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ والمعنى اتركه منفرجاً ، كما كان بعد دخولكم فيه ، وكذا قال أبو عبيدة، وبه قال مجاهد وغيره قال ابن عرفة وهما يرجعان إلى معنى واحد ، وإن اختلف لفظاهما لأن البحر إذا سكن جريه انفرج قال الهروي ويجوز أن يكون رهواً نعتاً لموسى ، أي سر ساكناً على هيئتك ، وقال كعب والحسن : رهواً طريقاً ، وقال الضحاك والربيع : سهلاً ، وقال عكرمة يبساً كقوله ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ﴾ وعلى كل تقدير فالمعنى اتركه ذا رهو أو اتركه رهواً على المبالغة في الوصف بالمصدر وقال ابن عباس : رهواً سمتاً وعنه قال كهيئة وأمضِ وعنه أيضاً قال الرهو أن يترك كما كان .

﴿ إنهم ﴾ أي إن فرعون وجنده بعد خروجكم ﴿ جند مغرقون ﴾ أي متمكنون في هذا الوصف ، وإن كان لهم وصف القوة والتجمع الذي شأنه النجدة الموجبة للعلو في الأمور أخبر سبحانه موسى بذلك ليسكن قلبه ويطمئن جأشه ، قرأ الجمهور بكسر إن على الاستئناف لقصد الإخبار بذلك وقرىء بالفتح على تقدير لأنهم .

﴿ كم تركوا ﴾ كم هي الخبرية المفيدة للتكثير ، وقد مضى الكلام في معنى الآية في سورة الشعراء ، والتقدير فأغرقوا ، وكم مفعول به أي تركوا أموراً كثيرة وقد بينها بقوله : ﴿ من جنات ﴾ أي بساتين ﴿ وعيون ﴾ تجري

﴿ وزروع ومقام كريم ﴾ قرأ الجمهور مقام بفتح الميم على أنه اسم مكان للقيام وقرىء بضمها اسم مكان الإقامة قال ابن عباس ومقام كريم المنابر ، وعن جابر مثله ، وقيل : هو ما كان لهم من المنازل الحسنة ، والمجالس الشريفة والمحافل المزينة .

﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ النعمة بالفتح التنعم ونضارة العيش ولذاذته يقال نعمه الله وناعمه فتنعم ، وبالكسر المنة وما أنعم به عليك وفلان واسع النعمة أي واسع المال ، ذكر معنى هذا الجوهري ، وقال المحلي : نعمة أي متعة أي أمور يتمتعون وينتفعون بها ، كالملابس والمراكب قرأ الجمهور فاكهين بالألف ، وقرىء بغير ألف والمعنى على الأولى متنعمين طيبة أنفسهم وعلى الثانية أشرين بطرين . قال الجوهري : فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحاً ، والفكه أيضاً الأشر البطر ، قال وفاكهين أي ناعمين وقال الثعلبي هما لغتان كالحاذر والحذر ، والفاره والفره وقيل : إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة .

﴿ كذلك ﴾ أي الأمر كذلك يجوز أن تكون في محل نصب ، والإشارة إلى مصدر فعل يدل عليه تركوا ، أي مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ، وقيل مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها . وقيل مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم ، فعلى الوجه الأول يكون قوله ﴿ وأورثناها ﴾ معطوفاً على تركوا وعلى الوجوه الآخرة يكون معطوفاً على الفعل المقدر ﴿ قوماً آخرين ﴾ المراد بهم بنو إسرائيل ، فإن الله سبحانه ملكهم مصر ، بعد أن كانوا مستعبدين فصاروا لها وارثين أي أنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث ، ومثل هذا قوله ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ﴾ وهذا قول الحسن ، وقيل : إنهم لم يرجعوا إلى مصر ، والقوم الآخرون غير بني إسرائيل وهو قول ضعيف جداً قاله الكرخي .

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ هذا بيان لعدم الأكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم ، كقولك : بكت عليهم السماء وكسفت لمهلكهم الشمس في نقيض ذلك فالبكاء مجاز مرسل ومع ذلك لا بد من جعل الآية استعارة بالكناية ، والمعنى أنه لم يصب بفقدهم وهلاكهم أحد من أهل السماء ولا من أهل الأرض ، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض ، أي عمت مصيبته ، وقال الحسن في الكلام مضاف محذوف أي فما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة والناس ، وقال الزمخشري ذكر هذا على سبيل السخرية بهم يعني أنهم كانوا يستعظمون أنفسهم ويعتقدون أنهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والأرض ، ولم يكونوا بهذا الحد بل كانوا دون ذلك فذكر هذا تهكماً بهم .

وقال مجاهد إن السماء والأرض تبكيان على المؤمن أربعين صباحاً ، وقيل تبكي على المؤمن مواضع صلاته ومصاعد عمله ، وعلى هذا إنه بكاء كالمعروف من بكاء الحيوان ، وفي معنى الآية وجهان ، والثاني أظهر وأوفق بالأحاديث ونظم القرآن قال السدي : لما قتل الحسين رضي الله عنه بكت عليه السماء وبكاؤها حمرتها .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد إلا

وله بابان باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه ، وتلا هذه الآية فما بكت »[1] الخ وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ، ولا من عملهم ، كلام صالح فيفتقدهم ، فيبكي عليهم ، »[2] أخرجه الترمذي وابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والخطيب .

وأخرج ابن جرير وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الشعب نحوه من قول ابن عباس ، وعنه قال : « يقال : الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحاً » وعن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال إنهما لا تبكيان على كافر » أخرجه ابن جرير وابن ابي الدنيا .

وعن علي رضي الله تعالى عنه « إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه ومصعد عمله من السماء ، ثم تلا هذه الآية » ﴿ وما كانوا منظرين ﴾ أي مؤخرين للتوبة وممهلين إلى وقت آخر . بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم وشدة عنادهم .

﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين ﴾ أي خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد ، وقتل الأبناء واستيحاء النساء وتكليفهم

(١) الترمذي ٢/١٥٨ .
(٢) السيوطي في الدر ٦/٣١ .

للأعمال الشاقة ﴿ من فرعون ﴾ بدل من العذاب إما على حذف مضاف أي من عذابه ، وإما على المبالغة كأنه نفس العذاب ، فأبدل منه أو على أنه حال من العذاب ، أي صادراً من فرعون ، وقرأ ابن عباس من فرعون ؟ بفتح الميم على الاستفهام التحقيري ، كما يقال لمن افتخر بحسبه أو نسبه : من أنت ؟ والأول أولى .

ثم بين سبحانه فقال ﴿ إنه كان عالياً ﴾ في التكبر والتجبر ﴿ من المسرفين ﴾ في الكفر بالله ، وارتكاب معاصيه ، كما في قوله ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ ومن إسرافه أنه كان على حقارته وخسته ادعى الإلهية ، ولما بين سبحانه كيفية دفعه للضرر عن بني إسرائيل بين ما أكرمهم به فقال :

﴿ ولقد اخترناهم ﴾ أي مؤمني بني إسرائيل ﴿ على ﴾ أي مع ﴿ علم ﴾ منا بحالهم ، وهي كونهم أحقاء بأن يختاروا ، أو كونهم يزيغون وتحصل منهم الفرطات في بعض الأحوال ﴿ على العالمين ﴾ أي على عالمي زمانهم على علم منه سبحانه باستحقاقهم لذلك ، وليس المراد أنه اختارهم على جميع العالمين ، بدليل قوله في هذه الأمة ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ وقيل على كل العالمين لكثرة الأنبياء فيهم ، وهذا خاصة لهم ، وليس لغيرهم ، حكاه ابن عيسى والزمخشري وغيرهما والأول أولى ، وقيل : يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق ، وإيراثهم الأرض بعد فرعون .

﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ أي معجزات موسى ﴿ ما فيه بلاء مبين ﴾ أي اختبار ظاهر ، وامتحان واضح لننظر كيف يعلمون ؟ وقال قتادة : الآيات إنجاؤهم من الغرق ، وفلق البحر لهم ، وتظليل الغمام عليهم ، وإنزال المن والسلوى لهم ، وقال ابن زيد الآيات هي الشر الذي كفهم عنه ، والخير الذي أمرهم به ، وقال الحسن وقتادة البلاء المبين النعمة الظاهرة ، كما في قوله ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ .

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾

﴿ إن هؤلاء ﴾ أي كفار قريش ، لأن الكلام فيهم ، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على استوائهم في الإصرار على الكفر ، ﴿ ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ التي نموتها في الدنيا ، ولا حياة بعدها ولا بعث ، وهو معنى قوله ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ أي بمبعوثين ، يقال أنشر الله الموتى ونشرهم إذا بعثهم ، وليس في الكلام قصد إلى إثبات موتة أخرى ، بل المراد ما العاقبة ونهاية الأمر ، إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية .

قال الرازي وابن الخطيب المعنى أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموتة الأولى ، وهذا الكلام يدل على أنه لا تأتيهم الحياة الثانية البتة ، فلا حاجة إلى التكلف الذي ذكره الزمخشري في هذا المقام ، ثم أوردوا على من وعدهم بالبعث ما ظنوه دليلاً ، وهو حجة داحضة فقالوا :

﴿ فأتوا بآبائنا ﴾ أي ارجعوهم بعد موتهم إلى الدنيا ، قال الفراء والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ، كقوله ﴿ رب ارجعونِ ﴾

والأولى أنه خطاب له صلى الله عليه وسلم ولأتباعه من المسلمين ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تقولونه وتخبروننا به من البعث ، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله ﴿ أهم خير ﴾ في القوة والمنعة .

﴿ أم قوم تبع ﴾ الحميري الذي دار في الدنيا بجيوشه ، وغلب أهلها وقهرهم ، وحير الحيرة وبني سمرقند ، وقيل هدمها وكان مؤمناً ، وكان قومه كافرين ، وكان من ملوك اليمن، سمي تبعاً لكثرة أتباعه، وقيل كل واحد من ملوك اليمن يسمى تبعاً لأنه يتبع صاحبه الذي قبله ، كما سمي في الإسلام خليفة ، وفيه وعيد شديد ، وقيل المراد بقوم تبع جميع أتباعه لا واحد بعينه ، وكان تبع هذا يعبد النار فأسلم ودعا قومه وهم حمير إلى الإسلام فكذبوه .

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم » رواه البيهقي والحاكم وصححه ، وابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا ، وعن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « فذكر نحوه »[1] أخرجه أحمد والطبراني وابن ماجة وابن مردويه وروي نحو هذا عن غيرهما من الصحابة والتابعين ، قال الرياشي كان أبو كرب أسعد الحميري من التبابعة ممن آمن بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة وإليه تنسب الأنصار وهو أول من كسى البيت بعدما أراد غزوه وبعدما غزا المدينة وأراد خرابها ثم انصرف عنها لما أخبر أنها مهاجر نبي اسمه أحمد وقال شعراً أودعه عند أهلها وكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فدفعوه إليه وقال « كعب ذم الله قومه ولم يذمه » .

والمراد بقوله ﴿ والذين من قبلهم ﴾ عاد وثمود ونحوهم من الأمم الكافرة ﴿ أهلكناهم ﴾ مستأنفة لبيان حالهم وعاقبة أمرهم ﴿ إنهم كانوا

(١) رواه الحاكم ٢/٤٥٠ مثله .

مجرمين ﴾ أي كافرين منكرين للبعث ، تعليل لإهلاكهم ، يعني أن الله سبحانه قد أهلكهم بسبب كونهم مجرمين ، فإهلاكه لمن هو دونهم بسبب كونه مجرماً ، مع ضعفه وقصور قدرته بالأولى .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي ما بين جنسي السماء والأرض ﴿ لاعبين ﴾ أي بغير غرض صحيح ، قال مقاتل لم نخلقهما عابثين لغير شيء ، وقال الكلبي لاهين ، وقيل غافلين قرأ الجمهور ما بينهما ، وقرىء وما بينهن لأن السموات والأرض جمع .

﴿ ما خلقناهما ﴾ وما بينهما ﴿ إلا بالحق ﴾ أي بالأمر الحق ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، وقال الكلبي إلا للحق وكذا قال الحسن ، وقيل إلا لإقامة الحق وإظهاره ، وقيل بالعدل ، وهو الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وقيل بالجد ضد اللعب .

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ لقلة نظرهم أن الأمر كذلك ، وهم المشركون ، وفيه تجهيل عظيم لمنكري البعث والحشر ، وتوكيد لأن إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات بأسرها ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ، وفي هذه الآية دليل على صحة الحشر ووقوعه .

ووجه الدلالة أنه لو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق عبثاً ، لأنه تعالى خلق نوع الإنسان ، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم من السقف المرفوع ، والمهاد المفروش ، وما فيهما وما بينهما من عجائب المصنوعات وبدائع الأحوال ثم كلفهم بالإيمان والطاعة فاقتضى ذلك أن يتميز المطيع من المعاصي ، بأن يكون المطيع متعلق فضله وإحسانه ، والعاصي متعلق عدله وعقابه ، وذلك لا يكون في الدنيا لقصر زمانها ، وعدم الاعتداد بمنافعها ، لكونها مشوبة بأنواع الآفات والمحن ، فلا بد من البعث ﴿ لتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ فظهر بهذا وجه اتصال الآية بما قبلها ، وهو أنه لما حكى مقالة

منكري البعث والجزاء ، وهددهم ببيان مآل المجرمين الذين مضوا ، ذكر الدليل القاطع ، الدال على صحة البعث والجزاء فقال: وما خلقنا الخ .

﴿ إن يوم الفصل ﴾ أي يوم القيامة الذي يفصل فيه الحق عن الباطل ، والإضافة على معنى في ، والظاهر أنها بمعنى اللام ﴿ ميقاتهم ﴾ أي الوقت المجعول لتميز المحسن من المسيء ، والمحق من المبطل ﴿ أجمعين ﴾ لا يخرج عنهم أحد من ذلك ، وقد اتفق القراء على رفع ميقاتهم على أنه خبر إن ، واسمها يوم الفصل ، وأجاز الكسائي والفراء نصبه على أنه اسمها ، ويوم الفصل خبرها ، ثم وصف سبحانه ذلك اليوم فقال :

﴿ يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ﴾ بدل من يوم الفصل أو منتصب بفعل يدل عليه الفصل ، أي يفصل بينهم يوم لا يغني ، والمعنى أنه لا ينفع قريب قريباً ، ولا يدفع عنه شيئاً .

ويطلق المولى على الولي ، وهو القريب والناصر ، وفي المختار المولى المعتق والمعتق وابن العم والناصر والجار ، والحليف ، أي لا يدفع ابن عم عن ابن عمه ولا صديق عن صديقه شيئاً ، ومولى الأول مرفوع بالفاعلية ، والثاني مجرور بعن ، وإعرابها إعراب المقصور كفتى وعصا ورحى ، والمراد بالمولى الثاني الكافر ، وبالأول المؤمن ، أي لا يغني مولىً مؤمن عن مولىً كافر شيئاً فهذه الآية نظير قوله تعالى ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ الآية .

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ الضمير راجع إلى المولى وإن كان مفرداً في اللفظ ، لأنه في المعنى جمع لأنه نكرة في سياق النفي ، وهو من صيغ العموم ، أي ولا هم يمنعون من عذاب الله ، والجملة توكيد لما قبلها ، فالمعنى لا ينصر المؤمن الكافر ، ولو كان بينهما في الدنيا علقة من قرابة أو صداقة أو غيرهما ، كما أشار له القرطبي .

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿إلا من رحم الله﴾ قال الكسائي الاستثناء منقطع أي لكن من رحم الله ، وكذا قال الفراء ، وقيل هو متصل ، والمعنى لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين ، فإنه يؤذن لهم في الشفاعة فيشفعون في بعضهم أو مرفوع على البدلية من مولىً الأول ، ويغني بمعنى ينفع ، قال الحوفي أو مرفوع المحل أيضاً على البدلية من واو ينصرون ، أي لا يمنع من عذاب الله إلا من رحمه الله ذكره السمين .

﴿إنه هو العزيز الرحيم﴾ أي الغالب الذي لا ينصر من أراد عذابه ، الرحيم بعباده المؤمنين ، ثم لما وصف اليوم ذكر بعده وعيد الكفار فقال :

﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم على صورة شجر الدنيا ، وسماها الشجرة الملعونة ، والزقوم ثمرها ، وهو كل طعام ثقيل ، فإذا جاء أهل النار التجأوا إليها فأكلوا منها ، وقد مضى الكلام على شجرة الزقوم في سورة الصافات ، وشجرت ترسم بالتاء

المفتوحة ، ووقف عليها بالهاء أبو عمرو وابن كثير والكسائي ، ووقف الباقون بالتاء على الرسم قاله الخطيب .

وفي القرطبي : كل ما في كتاب الله من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء إلا حرفاً واحداً في سورة الدخان :﴿إن شجرة الزقوم﴾انتهى أي فيجوز الوقف عليها بالتاء والهاء ، وفي القاموس كلام مبسوط على الزقم والزقوم فليرجع إليه ، والأثيم الكثير الإثم ، قال في الصحاح : أثم الرجل بالكسر إثماً ومأثماً إذا وقع في الإثم فهو آثم وأثيم وأثوم فمعنى طعام الأثيم طعام ذي الإثم ، قيل هو أبو جهل ولا وجه للتخصيص .

﴿ كالمهل ﴾ وهو دردي الزيت وعكر القطران وقيل : هو النحاس المذاب وقيل كل ما يذوب في النار من ذهب أو فضة وكل منطبع سواء كان من صفر أو حديد أو رصاص وقيل الصديد والقيح .

﴿ يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ قرأ الجمهور تغلي بالتاء على أن الفاعل ضمير يعود على الشجرة والجملة خبر ثالث أو حال أو خبر مبتدأ محذوف أي تغلي غلياً مثل غلي الحميم وهو الماء الشديد الحرارة وقرىء بالتحتية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الطعام ، وهو في معنى الشجرة ولا يصح عوده إلى المهل لأنه مشبه به وإنما يغلي ما يشبه بالمهل .

﴿ خذوه ﴾ أي يقال للملائكة الذين هم خزنة النار : خذوه أي الأثيم ﴿ فاعتلوه ﴾ العتل القود بالعنف ، يقال عتله يعتله إذا جره وذهب به إلى مكروه ، وقيل : العتل أن تأخذ بتلابيب الرجل ومجامعه فتجره ، قرأ الجمهور فاعتلوه بكسر التاء ، وقرىء بضمها وهما لغتان وقراءتان سبعيتان ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أي إلى وسطه ومعظمه كقوله ﴿ فرآه في سواء الجحيم ﴾ ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ من هي التبعيضية أي صبوا فوق رأسه بعض

هذا النوع ، وإضافة العذاب إلى الحميم للبيان أي عذاب هو الحميم وهو الماء الحار كما تقدم أو من إضافة الصفة للموصوف أو المسبب للسبب فالمصبوب هو الحميم لا عذابه وصب العذاب استعارة ، كقوله ﴿أفرغ علينا صبراً﴾ فقد شبه العذاب بالمائع ثم خيل له بالصب .

﴿ ذق ﴾ الأمر للإهانة به أي قولوا له تهكماً وتقريعاً وتوبيخاً ذق العذاب ﴿ إنك ﴾ قرأ الجمهور بكسر الهمزة وقرأ الكسائي بفتحها ، وروي ذلك عن عليّ أي لأنك ﴿ أنت العزيز الكريم ﴾ قيل إن أبا جهل كان يزعم أنه أعز أهل الوادي وأكرمهم فيقولون له : ذق العذاب أيها المتعزز المتكرم على زعمك ، وفيما كنت تقوله قال الفراء أي لهذا القول الذي قلته في الدنيا ـ عن ابن عباس في الآية قال : « يقول لست بعزيز ولا كريم » أخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل فقال : « إن الله أمرني أن أقول لك ﴿ أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى ﴾ قال فنزع يده من يده وقال ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، لقد علمت أني أمنع أهل بطحاء ، وأنا العزيز الكريم ، فقتله الله يوم بدر وأذله وعيره بكلمته ، وأنزل ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ » .

﴿ إن هذا ﴾ العذاب أو هذا الأمر ﴿ ما كنتم به تمترون ﴾ أي تشكون فيه حين كنتم في الدنيا والجمع باعتبار جنس الأثيم ، ثم ذكر سبحانه مستقر المتقين فقال :

﴿ إن المتقين ﴾ الذين اتقوا الكفر والمعاصي ﴿ في مقام ﴾ قرأ الجمهور مقام بفتح الميم وهو موضع القيام ، وقرىء بضمها وهو موضع الإقامة قاله الكسائي وغيره وهما سبعيتان وقال الجوهري قد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة وقد يكون بمعنى موضع القيام والمراد المكان وهو من الخاص الذي وقع

مستعملاً في معنى العموم ، ثم وصف المقام بقوله :

﴿ أمين ﴾ يأ من فيه صاحبه من جميع المخاوف ، قال النسفي : هو من أمن الرجل أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة لأن المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقي فيه من المكاره انتهى .

وأصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف والأمن والأمان والأمانة في الأصل مصادر ويستعمل الأمان تارة اسماً للحالة التي عليها الإنسان في الأمن ، وتارة لما يؤمن عليه الإنسان كقوله : ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ أي ما ائتمنتم عليه .

﴿ في جنات وعيون ﴾ بدل من مقام أمين ، جيء به للدلالة على نزاهته واشتماله علىما يستلذ به من المآكل والمشارب ، أو بيان له أو خبر ثان .

﴿ يلبسون من سندس وإستبرق ﴾ خبر ثان أو ثالث أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور ، والسندس مارق من الديباج ، وفي المصباح الديباج ثوب سداه ولحمته إبريسم ويقال إنه معرب انتهى والاستبرق ما غلظ منه وهو تعريب استبر واللفظ اذا عرب خرج من أن يكون عجمياً لأن معنى التعريب أن يجعل عربياً بالتصرف فيه ، وتغييره عن منهاجه وإجرائه على أوجه الاعراب فساغ أن يقع في القرآن العربي ، وقد تقدم تفسيره في سورة الكهف .

﴿ متقابلين ﴾ أي في مجالسهم ينظر بعضهم الى بعض وهو أتم للأنس فلا يرد ما قيل من أن الجلوس على هذه الصفة موحش ، لأن قليل الثواب اذا اطلع على حال كثير الثواب يتنغص ، لأن أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا وقال المحلي : لا ينظر بعضهم الى قفا بعض لدوران الأسرة بهم .

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿ كذلك ﴾ أي نفعل بالمتقين فعلاً كذلك أو الأمر كذلك ﴿وزوجناهم ﴾ أي أكرمناهم بأن زوجناهم ﴿ بحور عين ﴾ الحور جمع حوراء وهي البيضاء والعين جمع عيناء ، وهي الواسعة العين ، وقال مجاهد إنما سميت الحوراء حوراء لأنه يحار الطرف في حسنها ، وقيل هو من حور العين وهو شدة بياض العين في شدة سوادها ، كذا قال أبو عبيدة ، وقال الأصمعي : ما أدري ما الحور في العين ، قال أبو عمرو : الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر قال وليس في بني آدم حور ، وإنما قيل للنساء : حور لأنهن شبهن بالظباء والبقر .

وقيل المراد بقوله ﴿ زوجناهم ﴾ قرناهم ، وليس من عقد التزويج لأنه لا يقال زوجته بامرأة ، وقال أبو عبيدة وجعلناهم أزواجاً لهن كما يزوج البعل بالبعل ، أي جعلناهم اثنين اثنين ، وكذا قال الأخفش ، واختلف أيهما أفضل في الجنة النساء الآدميات ام الحور ذكر ابن المبارك ان نساء الآدميات من دخل منهن الجنة فضلن على الحور العين بما عملن في الدنيا ، وروي مرفوعاً « أن الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين الف ضعف » ، وقيل إن الحور العين أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام « فأبدله زوجاً خيراً من زوجه » والله أعلم .

﴿ يدعون فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ بكل فاكهة ﴾ أي يأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه حال كونهم ﴿ آمنين ﴾ من التخم والأسقام والآلام قال قتادة آمنين من الموت والوصب والشيطان وقيل من انقطاع ما هم فيه من النعيم .

﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ أي لا يموتون فيها أبداً إلا الموتة التي ذاقوها في الدنيا والإستثناء منقطع اي لكن الموتة كذا قال الزجاج والفراء وغيرهما ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ وقيل إن إلا بمعنى بعد واختاره الطبري كقولك ما كلمت رجلاً اليوم إلا رجلاً عندك ، أي بعد رجل عندك وأباه الجمهور لأن مجيء إلا بمعنى بعد لم يثبت .

وقيل هي بمعنى سوى أي سوى الموتة الأولى نقله الطبري وضعفه . قال ابن عطية وليس تضعيفه بصحيح بل كونها بمعنى سوى مستقيم متسق ، قال ابن قتيبة إنما استثنى الموتة الأولى ، وهي في الدنيا لأن السعداء حين يموتون يصيرون بلطف الله وقدرته الى أسباب من الجنة يلقون الروح والريحان ويرون منازلهم من الجنة ويفتح لهم أبوابها فاذا ماتوا في الدنيا فكأنهم ماتوا في الجنة لاتصالهم بأسبابها ومشاهدتهم إياها فيكون الاستثناء على هذا متصلاً

قال الزمخشري فإن قلت كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي ذوقه فيها قلت أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله : إلا الموتة الأولى موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل ؛ فهو من باب التعليق بالمحال ، كأنه قيل إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها في الجنة انتهى . قلت وهذا عند علماء البيان يسمى نفي الشيء بدليله .

﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ قرأ الجمهور وقاهم بالتخفيف وقرىء

بـالتشـديـد على المبـالغـة ﴿ فضـلاً من ربـك ﴾ أي لأجـل الفضـل منـه ، أو اعطاهم ذلك عطاء فضلاً منه .

﴿ ذلك ﴾ الذي تقدم ذكره من صرف العذاب ودخول الجنة ﴿ هو الفوز العـظيم ﴾ الذي لا فـوز بعده ، المتنـاهي في العظم ، لأنـه خـلاص عن المكاره ، وظفر بالمطالب ثم لما بين سبحانه الدلائـل ، وذكر الـوعد والـوعيد قال .

﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ أي إنما أنزلنا القرآن بلغتـك كي يفهمه قـومك فيتذكروا ويعتبـروا ويعملوا بما فيـه ، أو سهلناه بلغتـك عليك وعلى من يقـرأه وهـذا فذلكـة للسورة وإجمـال لمـا فيهـا من التفصيـل ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي يتعظون فيؤمنون ، لكنهم لا يؤمنون .

﴿ فارتقب ﴾ أي فانتظر ما وعدناك من النصر عليهم وإهلاكهم على يدك ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ أي فـإنهم منتظرون مـا ينزل بـك من موت أو غيـره ، وقيل انتـظر أن يحكم الله بينك وبينهم فـإنهم منتظرون بـك نـوائب الـدهـر والمعنى متقارب قال المحلي وهذا قبل الأمـر بجهادهم أي فهـو منسوخ وليس بصحيـح لأن رفـع الاباحـة الأصلية ليس نسخـاً إنما النسـخ رفـع حكم ثبت في الشـرع بحكم آخر .



سورة الجاثية

وتسمى الشريعة قاله الخازن هي ست أو سبع وثلاثون آية

وهي مكيّة كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة، وقال ابن عباس وقتادة إلا آية منها، وهي قوله: ﴿قل للذين آمنوا الى أيام الله﴾ فانها نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب، ذكره الماوردي، وقال المهدوي والنحاس: «إنها نزلت في عمر شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة فأراد أن يبطش به، فأنزل الله: قل للذين آمنوا» الآية ثم نسخت بآية القتال فالسورة كلها مكيّة على هذا من غير استثناء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حمٓ ﴾ قد تقدم الكلام على هذا في فاتحة سورة غافر ، وما بعدها والله أعلم بمراده به ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أي القرآن مبتدأ ﴿من الله﴾ خبره ﴿العزيز﴾ في ملكه ﴿الحكيم﴾ في صنعه ، ثم أخبر سبحانه بما يدل على قدرته الباهرة فقال: ﴿إن في السموات والأرض﴾ أي في خلقهما ﴿ لآيات ﴾ دالة على قدرة الله ووحدانيته ﴿ للمؤمنين ﴾ قال الزجاج : ويدل على أن المعنى في خلقهما قوله :

﴿ وفي خلقكم ﴾ أنفسكم على أطوار مختلفة ، قال مقاتل : من تراب ، ثم من نطفة الى أن يصير إنساناً ، وحاصل ما ذكر هنا من الدلائل ستة على ثلاث فواصل ، الأولى للمؤمنين الثانية يوقنون ، الثالثة يعقلون ، ووجه التغاير بينها أن المنصف من نفسه اذا نظر في السموات والأرض وأنه لا بد لهما من صانع آمن ، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها إزداد إيماناً فأيقن ، واذا

نظر في سائر الحوادث عقل واستحكم علمه .

﴿ و ﴾ في خلق ﴿ ما يبث ﴾ أي ما يفرقه وينشره ﴿ من دابة آيات ﴾ وللنحاة في هذا الموضع كلام طويل في رفع آيات ونصبها ، والبحث في مسألة العطف على معمولي عاملين مختلفين ، وحجج المجوزين له ، وجوابات المانعين منه مقرر في علم النحو ، مبسوط في مطولاته ﴿ لقوم يوقنون ﴾ يعني أنه لا إله إلا هو .

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أي في تعاقبهما أو تفاوتهما في الطول والقصر والظلام والضياء وذهابهما ومجيئهما ﴿وما أنزل الله من السماء من رزق ﴾ معطوف على اختلاف والرزق المطر لأنه سبب لكل ما يرزق الله العباد به ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ إيحاء الأرض إخراج نباتها ، وموتها خلوها عن النبات ويبسها .

﴿ وتصريف الرياح ﴾ في مهابها أي أنها تهب تارة من جهة وتارة من أخرى ، وتارة تكون حارة وتارة تكون باردة ، وتارة نافعة وتارة ضارة ، والرياح أربعة بحسب جهات الأفق ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ مراد الله سبحانه في كتابه ، ويفهمون الدليل فيؤمنون .

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك ﴾ أي هذه الآيات المذكورة هي حجج الله وبراهينه ﴿ بالحق ﴾ أي محقين أو متلبسة بالحق ، أو الباء للسببية فتتعلق بنفس الفعل ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته ﴾ أي حججه ، قيل : إن المقصود فبأي حديث بعد آيات الله ، وذكر الاسم الشريف ليس إلا لقصد تعظيم الآيات فيكون من باب أعجبني زيد وكرمه ، وقيل المراد بعد حديث الله ، هو القرآن كما في قوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ وهو المراد بالآيات ، والعطف لمجرد التغاير العنواني ﴿ يؤمنون ﴾ قرأ الجمهور بالفوقية وقرىء بالتحتية والمعنى يؤمنون بأي حديث ، وإنما قدم عليه لأن الاستفهام له صدر الكلام .

﴿ ويـل ﴾ واد في جهنم أو كلمة عـذاب ﴿ لكـل أفـاك أثيم ﴾ أي لكـل كذاب كثير الاثم مرتكب لما يـوجبه ثم وصف هـذا الأفاك بصفـة أخرى فقـال ﴿ يسمـع آيات الله ﴾ أي القـرآن ﴿ تتلى عليه ثم يصـر ﴾ على كفـره ، ويقيم على ما كان عليه ، حال كونه

﴿ مستكبـراً ﴾ أي متماديـاً على كفره ، متكبـراً على الإيمان ، ومتعـظماً في نفسه عن الانقياد للحق ، والاصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانـة ، وهـو أن ينحى عليها ، صـاراً أذنيـه ، وثم للتـراخي الـرتبي عنـد العقـل ، أي اصـراره على الكفر بعـد ما قـررت له الأدلـة المـذكـورة وسمعهـا مستبعـد في العقول ، قال مقاتل : إذا سمع من آيات القـرآن شيئاً اتخـذها هـزواً ، وجملة ﴿ كـأن لم يسمعهـا ﴾ في محـل نصب على الحـال ، أو مستـأنفـة ، وأن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن محذوف .

﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ هـذا من باب التهكم ، أي فبشـره على إصراره واستكباره وعدم استماعه الى الآيات بعذاب شديد الألم قيل : نزلت في النضر ابن الحـرث ، وما كـان يشتري من أحـاديث العجم ، ويشغل بهـا النـاس عن استماع القرآن ، والآية عامة في كل من كان مضاداً لدين الله .

﴿ وإذا علم من آياتنا شيئاً ﴾ قرأ الجمهور بفتح العين وكسر اللام مخففة على البنـاء للفاعـل وقرىء على البنـاء للمفعول ، والمعنى أنـه اذا وصل اليـه وبلغـه شيء وعلم انه من آيـات الله ﴿ اتخذهـا ﴾ أي الآيات ﴿هـزواً ﴾ وقيـل الضمير في اتخذها عائد الى شيء لأنه عبارة عن الآيات ، والأول أولى .

﴿ أولئك ﴾ أي كل أفـاك متصف بتلك الصفات ﴿ لهم عـذاب مهين ﴾ بسبب ما فعلوا من الاصرار والاستكبار عن سماع آيات الله ، واتخاذها هزواً ، والعذاب المهين هو المشتمل على الاذلال والفضيحة .

مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

﴿ من ورائهم ﴾ أي من وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا والتكبر عن الحق ﴿ جهنم ﴾ فإنها من قدامهم ، لأنهم متوجهون إليها ، وعبر عن القدام بالوراء كقوله : ﴿ من ورائه جهنم ﴾ والوراء مستعمل بمعنى الأمام كما يستعمل بمعنى الخلف ، وهو مشترك بين المعنيين ، فيستعمل في الشيء وضده ، كالجون يستعمل في الأبيض والأسود على سبيل الاشتراك ، وقيل : جعلها باعتبار إعراضهم عنها ، كأنها خلفهم ، وقيل الوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام .

﴿ ولا يغني ﴾ أي لا يدفع ﴿ عنهم ما كسبوا ﴾ من أموالهم وأولادهم ﴿ شيئاً ﴾ من عذاب الله ، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿ ولا ﴾ يغني عنهم ﴿ ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ من الأصنام ، وما في الموضعين إما مصدرية أو موصولة ، وزيادة لا في الجملة الثانية للتأكيد ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ في جهنم التي هي من ورائهم .

﴿ هذا ﴾ أي القرآن ﴿ هدى ﴾ للمهتدين به ﴿ والذين كفروا بآيات

ربهم ﴾ القرآنية ﴿ لهم عذاب من رجز أليم ﴾ الرجز أشد العذاب ، قرأ الجمهور أليم بالجر صفة للرجز ، وقرى بالرفع صفة لعذاب .

﴿ الله الذي سخر لكم البحر ﴾ أي جعله على صفة تتمكنون بها من الركوب عليه بأن جعله أملس السطح ، يطفو عليه ما يتخلله كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ﴿ لتجري الفلك فيه بأمره ﴾ أي بإذنه وإقداره لكم ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ بالتجارة تارة والغوص للدر والمعالجة للصيد وغير ذلك ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي ولكي تشكروا النعم التي تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر .

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ أي سخر لعباده جميع ما خلقه في سمواته وأرضه، مما يتعلق به مصالحهم ويقوم به معايشهم ومما سخره لهم من مخلوقات السموات الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح ، وجميعاً حال من ما في السموات أو تأكيد له ،وقوله ﴿منه﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لجميعاً أي كائناً منه ، أو متعلق بسخر ، أو حال من ما في السموات ، أو خبر لمبتدأ محذوف والمعنى أن كل ذلك رحمة منه لعباده ، وقال ابن عباس ﴿جميعاً منه﴾ أي منه النور والشمس والقمر وكل شيء هو من الله ، وعن طاوس قال : «جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله مم خلق الخلق ؟ قال من الماء والنور والظلمة والهواء والتراب ، قال فمم خلق هؤلاء ؟ قال لا أدري ، ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله فقال : مثل قول عبد الله بن عمرو فأتى ابن عباس فسأله مم خلق الخلق ؟ فقال من الماء والنور والظلمة والريح والتراب ، قال فمم خلق هؤلاء فقرأ ابن عباس وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، فقال الرجل ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم » .

﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور من التسخير ﴿ لآيات لقوم يتفكرون ﴾ خص

المتفكرين لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها ، فإنه ينتقل من التفكير الى الاستدلال بها على التوحيد ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ أي قل لهم اغفروا يغفروا أي يعفوا ويصفحوا ، قاله علي بن عيسى واختاره ابن العربي . وقيل التقدير قل لهم ليغفروا ، والمعنى قل لهم ليتجاوزوا .

﴿ للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أي عن الذين لا يرجون وقائع الله بأعدائه أي لا يتوقعونها، ومعنى الرجاء هنا الخوف، وقيل هو على معناه الحقيقي ، والمعنى لا يرجون ثوابه في الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ، والأول أولى ، والأيام يعبر بها عن الوقائع كما تقدم في تفسير قوله ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال مقاتل لا يخشون مثل عذاب الله للأمم الخالية ، وذلك أنهم لا يؤمنون به ، فلا يخافون عقابه وقيل المعنى لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه ، وقيل : لا يخافون البعث .

قيل والآية منسوخة بآية السيف والأقرب أن يقال : إنه محمول على ترك المنازعة ، وعلى التجاوز فيما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية وعن ابن عباس في الآية قال «كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يعرض عن المشركين إذا آذوه وكانوا يستهزئون به ويكذبونه فأمره الله أن يقاتل المشركين كافة » ، فكان هذا من المنسوخ والأولى القول بعدم النسخ .

﴿ ليجزي ﴾ الله ﴿ قوماً ﴾ قرىء بالتحتية وقرىء بالنون أي لنجزي نحن ، والجملة لتعليل الأمر بالمغفرة ، والمراد بالقوم المؤمنون ، أمروا بالمغفرة ليجزيهم الله يوم القيامة ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذية الكفار ، والإغضاء عنهم ، بكظم الغيظ ، واحتمال المكروه ، وقيل المعنى ليجزي الكفار بما عملوا من السيئآت كأنه قال لا تكافئوهم أنتم لنكافئهم نحن ، قيل المراد بالقوم كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو التنويع والأول أولى ، ثم ذكر المؤمنين وأعمالهم والمشركين وأعمالهم فقال :

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ أي إن عمل كل طائفة من إحسان وإساءة لعامله لا يتجاوزه الى غيره ، وفيه ترغيب وترهيب ، والجملة مستأنفة لبيان كيفية الجزاء ﴿ ثم الى ربكم ترجعون ﴾ أي تصيرون فيجازي كلاً بعمله إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر .

﴿ ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾ المراد بالكتاب التوراة كذا في الكشاف وتبعه القاضي ، ولعل الأولى أن يحمل الكتاب على الجنس حتى يشمل الانجيل والزبور أيضاً لكن جمهور المفسرين على تفسيره هنا بالتوراة لأنه ذكر بعدها الحكم ونحوه وما ذكر لا حكم فيه إذ الزبور أدعية ومناجاة ، والإنجيل أحكامه قليلة جداً ، وعيسى مأمور بالعمل بالتوراة والمراد بالحكم الفهم والفقه الذي يكون بهما الحكم بين الناس ، وفصل خصوماتهم ، وبالنبوة من بعثه الله من الأنبياء فيهم .

﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي المستلذات التي أحلها الله لهم ، ومن ذلك المن والسلوى ، وهذه نعم دنيوية وما قبله من الكتاب والنبوة نعم دينية .

﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ من أهل زمانهم حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من كثرة الأنبياء فيهم ، وفلق البحر ، وغرق العدو ، ونحوها ، وقد تقدم بيان هذا في سورة الدخان ، قال ابن عباس : لم يكن أحد من العاملين في زمانهم أكرم على الله ولا أحب اليه منهم .

﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ أي شرائع واضحات في الحلال والحرام ، أو معجزات ظاهرات ، وقيل : العلم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وشواهد نبوته ، وتعيين مهاجره ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي فما وقع الاختلاف بينهم في ذلك الأمر إلا بعد مجيء العلم إليهم ببيانه ، وإيضاح معناه ، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لثبوته ، وقيل المراد بالعلم يوشع بن نون فإنه آمن به بعضهم ، وكفر بعضهم وقيل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها حسداً و :

﴿ بغياً بينهم ﴾ قيل بغياً من بعضهم على بعض يطلب الرياسة ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾من أمر الدين فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر ﴾ ثم للاستئناف والشريعة في اللغة المذهب والملة والمنهاج ويقال لمشرعة الماء وهي مورد شاربيه شريعة ، والجمع شرائع ، فاستعير ذلك للدين لأن العباد يردون ما تحيا به نفوسهم ، ومنه الشارع لأنه طريق الى المقصد ، فالمراد بالشريعة هنا ما شرعه الله لعباده من الدين ، أي جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك الى الحق وقال ابن عباس : على هدى من أمر دينه ، قال قتادة الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض البينة ، لأنها طريق الى الحق ، وقال الكلبي السنة ، لأنه يستن بطريقة من قبله من الأنبياء ، وقال ابن زيد : الدين لأنه

طريق الى النجاة وقال ابن العربي : الأمر يرد في اللغة بمعنيين أحدهما بمعنى الشأن كقوله :

﴿ واتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾ والثاني ما يقابله النهي وكلاهما يصح أن يكون مراداً هنا وتقديره ثم جعلناك على طريقة من الدين ، وهي ملة الاسلام ، كما قال تعالى ﴿ ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح ، وإنما خالف بينها في الفروع حسب ما علمه سبحانه وتعالى .

﴿ فاتبعها ﴾ أي فاعمل بأحكامها في أمتك ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ توحيد الله وشرائعه لعباده ، وهم كفار قريش ومن وافقهم ، ثم علل النهي عن اتباع أهوائهم فقال : ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾ أي لا يدفعون عنك شيئاً مما أراده الله بك ان اتبعت أهوائهم .

﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ أي أنصار ينصر بعضهم بعضاً لأن الجنسية علة الانضمام قال ابن زيد إن المنافقين أولياء اليهود ﴿ والله ولي المتقين ﴾ أي ناصرهم ، والمراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك والمعاصي والاشارة بقول ﴿ هذا ﴾ الى القرآن او الى اتباع الشريعة .

﴿ بصائر للناس ﴾ أي براهين ، ودلائل لهم فيما يحتاجون اليه من أحكام الدين وبينات تبصرهم وجه الفلاح ، ومعالم يتبصرون بها في الأحكام والحدود جعل ذلك بمنزلة البصائر في القلوب ليتوصل بكل واحد منها الى تحصيل العرفان واليقين ، وجمع الخبر باعتبار ما في المبتدأ من تعدد الآيات. والبراهين ، وقرىء هذه بصائر أي هذه الآيات لأن القرآن بمعناها .

﴿ وهدى ﴾ أي رشد وطريق يؤدي الى الجنة لمن عمل به ﴿ ورحمة ﴾ من الله في الآخرة ﴿ لقوم يوقنون ﴾ أي من شأنهم الإيقان وعدم الشك والتزلزل بالشبهة .

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئآت ﴾ أم هي المنقطعة المقدرة ببل ، والهمزة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني ، والهمزة لإنكار الحسبان بطريق إنكار الواقع واستقباحه ، والتوبيخ عليه ، والاجتراح الاكتساب ، ومنه الجوارح ، وقد تقدم في المائدة ، والجملة مستأنفة سيقت لبيان تباين حالي المسيئين والمحسنين إثر بيان حالي الظالمين والمتقين ، وهو معنى قوله :

﴿ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ؟ أي نسوي بينهم مع اجتراحهم السيئآت وبين أهل الحسنات ، قيل نزلت في قوم من المشركين ، وقيل المسيئون عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، والمحسنون علي وحمزة وعبيدة بن الحرث حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم والعموم أولى .

﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ في دار الدنيا ، وفي الآخرة ؟ كلا لا يستوون في شيء منها ، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة ، فهؤلاء في عز الإيمان والطاعة وشرفهما في المحيا ، وفي رحمة الله تعالى ورضوانه في الممات ، وأولئك في ذل الكفر والمعاصي وهو انهما في المحيا ، وفي لعنة الله

والعذاب الخالد في الممات ، وشتان بينهما ، وقيل المراد إنكار أن يستووا في الممات ، كما استووا في الحياة .

قرأ الجمهور سواء بالرفع على أنه خبر مقدم ، والمبتدأ محياهم ومماتهم والمعنى إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم سواء ، وقرىء بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور ، في قوله : كالذين آمنوا ، أو على أنه مفعول ثان لحسب ، واختار قراءة النصب أبو عبيدة، وقال : معناه نجعلهم سواء ، وقرىء محياهم ومماتهم بالنصب على معنى سواء في محياهم ومماتهم . ولما سقط الخافض انتصب .

﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي ساء حكمهم هذا الذي حكموا به وقال مجاهد في الآية المؤمن في الدنيا والآخرة مؤمن ، والكافر في الدنيا والآخرة كافر ، وقال مسروق : قال لي رجل من أهل مكة هذا مقام أخيك تميم الداري ، ولقد رأيته قام ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله يركع بها ويسجد ، ويبكي ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ الآية ، وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يرددها ويبكي ويقول يا فضيل ليت شعري من أي الفريقين أنت ؟ .

﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ المقتضي للعدل بين العباد وهذا كالدليل لما قبله من نفي الاستواء ، ومحل بالحق النصب على الحال من الفاعل ، أو المفعول ، أو الباء للسببية ﴿ ولتجزى كل نفس ما كسبت ﴾ أي خلق الله إياهما ليدل بهما على قدرته ولتجزى ، أو اللام للصيرورة قاله ابن عطية أي صار الأمر من حيث اهتدى بها قوم وضل بها قوم آخرون ﴿ وهم ﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس .

﴿ لا يظلمون ﴾ بنقص ثواب ، أو زيادة عقاب وتسمية ذلك ظلماً مع أنه ليس كذلك على ما عرف من قاعدة أهل السنة لبيان غاية تنزه ساحة لطفه تعالى عما ذكر ، بتنزيله منزلة الظلم الذي يستحيل صدوره عنه ، أو سماه ظلماً

نظراً إلى صدوره منا كما في الابتلاء والاختبار ، ثم عجب سبحانه من حال الكفار فقال :

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال الحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه وقال عكرمة يعبد ما يهواه أو يستحسنه فإذا استحسن شيئاً وهواه ، اتخذه إلهاً ، قال سعيد بن جبير ؛ كان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر .

وقال ابن عباس : ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان ، والمعنى هو مطواع لهوى النفس ، يتبع ما يدعوه إليه فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه .

﴿ وأضله الله على علم ﴾ قد علمه ، قال ابن عباس : يقول أضله في سابق علمه تعالى ، وقيل المعنى أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه ، وقال مقاتل على علم منه أنه ضال لأنه يعلم أن الصنم لا ينفع ولا يضر ، قال الزجاج : على سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه ، وقال الكرخي : أضله وهو عالم بالحق ، وهذا أشد تشنيعاً عليه .

﴿ وختم ﴾ أي طبع ﴿ على سمعه ﴾ حتى لا يسمع الوعظ ﴿ و ﴾ طبع على ﴿ قلبه ﴾ حتى لا يفقه الهدى ولا يعقله ﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ أي ظلمة وغطاء حتى لا يبصر الرشد ، قرأ الجمهور غشاوة بالألف مع كسر الغين وقرىء بغير ألف مع فتح الغين . وقرأ ابن مسعود والأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين ، وهي لغة ربيعة ، وقرىء بضمها وهي لغة عكل .

﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ أي بعد إضلال الله له أي لا يهتدي ﴿ أفلا تذكرون ﴾ تذكر اعتبار ، حتى تعلموا حقيقة الحال ؛ قال الواحدي : ليس يبقى للقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة ، لأن الله صرح بمنعه إياه عن الهدى حتى أخبر أنه ختم على سمعه وقلبه وبصره ، ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم وضلالاتهم فقال :

وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ وقالوا ﴾ أي منكرو البعث ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ أي ما الحياة إلا الحياة التي نحن فيها ﴿ نموت ونحيا ﴾ أي يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة ، وقيل نموت نحن ويحيا فيها أولادنا ، وقيل نكون نطفاً ميتة ثم نصير أحياء ، وقيل في الآية تقديم وتأخير أي نحيا ونموت وكذا قرأ ابن مسعود وعلى كل تقدير فمرادهم بهذه المقالة إنكار البعث وتكذيب الآخرة وقيل : هذا من كلام من يقول بالتناسخ أي بموت الرجل ثم تجعل روحه في موات فيحيا به .

﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ أي مرور الليالي والأيام ، والدهر في الأصل مدة بقاء العالم ، من دهره إذا غلبه . وفي القاموس : دهرهم أمر كمنع نزل بهم مكروه ، فهم مدهور بهم ، ومدهورون ، وقرىء إلا دهر يمر قال مجاهد يعني السنين والأيام انتهى .

كانوا يزعمون أن مرورها هو المؤثر في هلاك الأنفس وينكرون ملك الموت وقبض الأرواح بإذن الله ، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ، ألا ترى أن أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان ؟ وقال قتادة : إلا العمر ؛ والمعنى واحد ؛ وقال قطرب المعنى وما يهلكنا إلا الموت وقال عكرمة : وما يهلكنا إلا الله .

عن أبي هريرة قال : « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، وهو الذي يحيينا ويميتنا ، فيسبون الدهر ، فقال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديثه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم الحديث » ، وفي الموطأ عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقولن أحدكم : يا خيبة الدهر ، فإن الله هو الدهر » ، وقد استدل بهذا الحديث من قال : إن الدهر من أسماء الله تعالى ، ومرادهم بهذا الحصر إنكار أن يكون الموت بواسطة ملك الموت وإضافة الحوادث إلى الدهر والزمان ، وأن المؤثر في هلاك الأنفس هو مرور الأيام والليالي[1] .

﴿ وما لهم بذلك ﴾ أي بنسبة الحوادث إلى حركات الأفلاك وما يتعلق بها على الإستقلال ﴿ من علم ﴾ ثم بين كون ذلك صادراً منهم لا عن علم فقال : ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ أي ما هم إلا قوم غاية ما عندهم الظن ، فما يتكلمون إلا به ، ولا يستندون إلا إليه .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي إذا تليت آيات القرآن على المشركين حال كونها واضحات ظاهرة المعنى والدلالة على البعث أو مبينات لما يخالف معتقدهم قاله الكرخي .

﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا ﴾ أحياء ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنا نبعث بعد الموت أي ما كان لهم حجة ولا متمسك ولا متشبث يتعلقون ويعارضون به إلا هذا القول الباطل الذي ليس من الحجة في شيء وإنما سماه حجة مع أنه ليس بحجة لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته ، وساقوه مساقها فسمي حجة على سبيل التهكم ، أو لأنه في حسابهم وتقديرهم حجة ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم فقال :

(١) روى مسلم ١٧٦٣/٤ لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله .

﴿ قل الله يحييكم ﴾ في الدنيا ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ثم يجمعكم إلى ﴾ أي في ﴿ يوم القيامة ﴾ بالبعث والنشور ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي في جمعكم لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته ، وفي هذا رد لقولهم ، ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ بذلك لإعراضهم عن التفكر بالدلائل ، فلهذا حصل معهم الشك في البعث وجاءوا في دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت ، ولو نظروا حق النظر لحصلوا على العلم اليقين ، واندفع عنهم الريب ، وأراحوا أنفسهم من ورطة الشك والحيرة ، ثم لما ذكر سبحانه ما احتج به المشركون وما أجاب به عليهم ذكر اختصاصه بالملك فقال :

﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ اي هو المتصرف فيهما وحده كما أراد لا يشاركه أحد من عباده ، وهو شامل للإحياء والإماتة المذكورين قبله ، وللجمع والبعث ، وللمخاطبين غيرهم ، ثم توعد أهل الباطل فقال :

﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ أي المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل ، يظهر في ذلك اليوم خسرانهم ، لأنهم يصيرون إلى النار ، والعامل في يوم هو يخسر ، ويومئذ بدل منه ، والتنوين عوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه فيكون التقدير : ويوم تقوم الساعة يوم تقوم الساعة فيكون بدلاً توكيدياً ، والأولى أن يكون العامل في يوم هو ملك أي ولله ملك يوم تقوم الساعة ، ويكون يومئذ معمولاً ليخسر ، والجملة مستأنفة من حيث اللفظ ، وإن كان لها تعلق بما قبلها من حيث المعنى أفاده السمين ، وقال التفتازاني وهذا بالتأكيد أشبه ، وأنّى يتأتى أن هذا مقصود بالنسبة دون الأول ؟ وقال الحفناوي : اليوم في البدل بمعنى الوقت ، والمعنى وقت أن تقوم الساعة ، وتحشر الموتى فيه ، وهو جزء من يوم تقوم الساعة فإنه يوم متسع مبدؤه من النفخة الأولى ، فهو بدل البعض . والعائد مقدر ولما كان خسرانهم وقت حشرهم كان هو المقصود بالنسبة .

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢)

﴿ وترى كل أمة ﴾ الخطاب لكل من يصلح له أو للنبي صلى الله عليه وسلم ، والأمة الملة والرؤية بصرية أو علمية ، وفيه بعد ومعنى قوله : ﴿ جاثية ﴾ مستوفزة والمستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه ، وأطراف أنامله قال الضحاك : وذلك عند الحساب ، وقيل معنى جاثية مجتمعة ، قال ابن عباس ، وقال الفراء : المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين ، وقال عكرمة متميزة عن غيرها ، وقال مؤرج : معناه بلغة قريش خاضعة ، وقال الحسن باركة على الركب والجثو الجلوس على الركب تقول : جثا يجثو ويجثي جثواً . وجثياً إذا جلس على ركبتيه ، والأول أولى ، ولا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر في لسان العرب ، وقد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شيء في لغة العرب .

وعن عبد الله بن بأباه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كأني أراكم بالكوم دون جهنم جاثين » ، ثم قرأ سفيان هذه الآية أخرجه البيهقي في البعث ، وعبد الله ابن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم وسعيد بن منصور .

وعن ابن عمر في الآية قال : « كل أمة مع نبيها حتى يجيء رسول الله

صلى الله عليه وسلم على كوم قد علا الخلائق ، فذلك المقام المحمود » ، وظاهر الآية أن هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسل وغيرهم من أهل الشرك ، وقال يحيى بن سلام : هو خاص بالكفار ، والأول أولى ويؤيده قوله :

﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ وقوله فيما سيأتي ، فأما الذين آمنوا الخ ، ومعنى إلى كتابها إلى الكتاب المنزل عليها ؛ وقيل إلى صحيفة أعمالها وقيل : إلى حسابها ، وقيل اللوح المحفوظ ؛ والأول أولى قرأ الجمهور كل أمة بالرفع على الابتداء ، وخبره تدعى ، وقرىء بالنصب على البدل من كل أمة .

﴿ اليوم ﴾ أي يقال لهم اليوم ﴿ تجزون ما كنتم تعملون ﴾ من خير وشر ﴿ هذا كتابنا ﴾ لا منافاة بين هذا وقوله كتابها لأنه كتابهم بمعنى أنه مشتمل على أعمالهم ، وكتاب الله بمعنى أنه هو الذي أمر الملائكة بكتبه وإليه أشار في التقرير قاله الكرخي .

﴿ ينطق عليكم ﴾ بما عملتم ﴿ بالحق ﴾ بلا زيادة ونقصان وهذا من تمام ما يقال لهم ، والقائل بهذا هم الملائكة ، وقيل : هو من قول الله سبحانه أي يشهد عليهم ؛ وهو استعارة ، يقال : نطق الكتاب بكذا أي بيّن وقيل : إنهم يقرأونه فيذكرهم ما عملوا فكأنه ينطق عليهم دليله قوله تعالى :

﴿ ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ قال ابن عباس هو أم الكتاب فيه أعمال بني آدم ، وقيل هو ديوان الحفظة ، ومحل ﴿ ينطق ﴾ النصب على الحال أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة .

وجملة ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ تعليل للنطق بالحق أي نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم أي بكتبها وتثبيتها عليكم ، وليس المراد بالنسخ إبطال

ما في اللوح قال الواحدي : وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكـون من أعمال بني آدم فيجدون ذلك موافقاً لما يعملونه ؛ قالوا لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل وقيل إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئآت وتركوا المباحات ، وقيل إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عز وجل أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

وقال ابن عباس « الملائكة يستنسخون أعمال بني آدم ، فقام رجل فقال يا ابن عباس ما كنا نرى هذا تكتبه الملائكة في كل يوم وليلة ، فقال إنكم لستم قوماً عرباً هل يستنسخ الشيء إلا من كتاب » ؟ .

وعن علي بن أبي طالب « إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم » ، وعن ابن عمر نحو ما روي عن ابن عباس ، وعن ابن عباس أيضاً في الآية قال : يستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم ، فإنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أم الكتاب ، وأخرج نحوه الحاكم عنه ، وصححه .

وأخرج الطبراني عنه أيضاً في الآية قال : « إن الله وكل ملائكة ينسخون من ذلك العام في رمضان ليلة القدر ما يكون في الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة ، فيتعارضون به حفظة الله على العباد عشية كل خميس ، فيجدون ما رفع الحفظة موافقاً لما في كتابهم ذلـك ، ليس فيه زيـادة ولا نقصان » .

﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ﴾ التي من جملتها الجنة قاله البيضاوي ، وهذا تفصيل لحال الفريقين ، فـالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة ، وفسر المحلي كالزمخشري الرحمة بنفس الجنة ، وهو

أظهر ﴿ ذلك ﴾ الإدخال في رحمته ﴿ هو الفوز المبين ﴾ أي الظاهر الواضح لخلوصه عن الأكدار والشوائب التي تخالطه .

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ فيقال لهم : ﴿ أفلم تكن آياتي ﴾ أي القرآن ﴿تتلى عليكم ﴾ الاستفهام للتوبيخ لأن الرسل قد أتتهم وتلت عليهم آيات الله فكذبوا أو لم يعملوا بها ﴿ فاستكبرتم ﴾ أي تكبرتم عن قبولهاوعن الإيمان بها

﴿ وكنتم قوماً مجرمين ﴾ أي من أهل الاجرام وهي الآثام والاجترام الاكتساب يقال فلان جريمة أهله إذا كان كاسبهم فالمجرم من كسب الآثام بفعل المعاصي .

﴿ و ﴾ كنتم ﴿ إذا قيل ﴾ لكم أيها الكفار : ﴿ إن وعد الله حق ﴾ أي وعده بالبعث والحساب ، والجزاء ، أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلة واقع لا محالة ، والعامة على كسر الهمزة لأنها محكية بالقول وقرىء بفتحها وذلك مخرج على لغة سليم يجرون القول مجرى الظن مطلقاً قاله السمين .

﴿ والساعة ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الابتداء أو العطف على موضع اسم إن وقرىء بالنصب على اسم إن أي القيامة ﴿ لا ريب فيها ﴾ أي في وقوعها ﴿ قلتم ﴾ استغراباً واستبعاداً وإنكاراً لها :

﴿ ما ندري ما الساعة ﴾ أي أيُّ شيء هي ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ أي نحدس حدساً ، ونتوهم توهماً ، قال المبرد : تقديره إن نحن إلا نظن ظناً وقيل التقدير إن نظن إلا أنكم تظنون ظناً ، وقيل : إن نظن مضمن معنى نعتقد أي ما نعتقد إلا ظناً لا علماً ، وقيل : إن ظناً له صفة مقدرة أي إلا ظناً بيناً وقيل إن الظن يكون بمعنى العلم والشك ، فكأنهم قالوا ما لنا اعتقاد إلا الشك ، ولعل ذلك قول بعضهم ، تحيروا بين ما سمعوا من آبائهم وما تلي عليهم في أمر الساعة ﴿وما نحن بمستيقنين ﴾ أي لم يكن لنا يقين بذلك ولم يكن معنا إلا مجرد الظن أن الساعة آتية .

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿ وبدا لهم سيئآت ما عملوا ﴾ أي ظهر لهم سيئآت أعمالهم على الصورة التي هي عليها أي جزاؤها ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أحاط بهم ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أي نترككم في النار كما تركتم العمل لهذا اليوم والنسيان أريد به الترك مجازاً إما بعلاقة السببية أو لتشبهه في عدم المبالاة، وأضاف اللقاء إلى اليوم توسعاً لأنه أضاف إلى الشيء ما هو واقع فيه كمكر الليل ﴿ ومأواكم النار ﴾ أي مسكنكم ومستقركم الذي تأوون إليه ﴿ وما لكم من ناصرين ﴾ ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب .

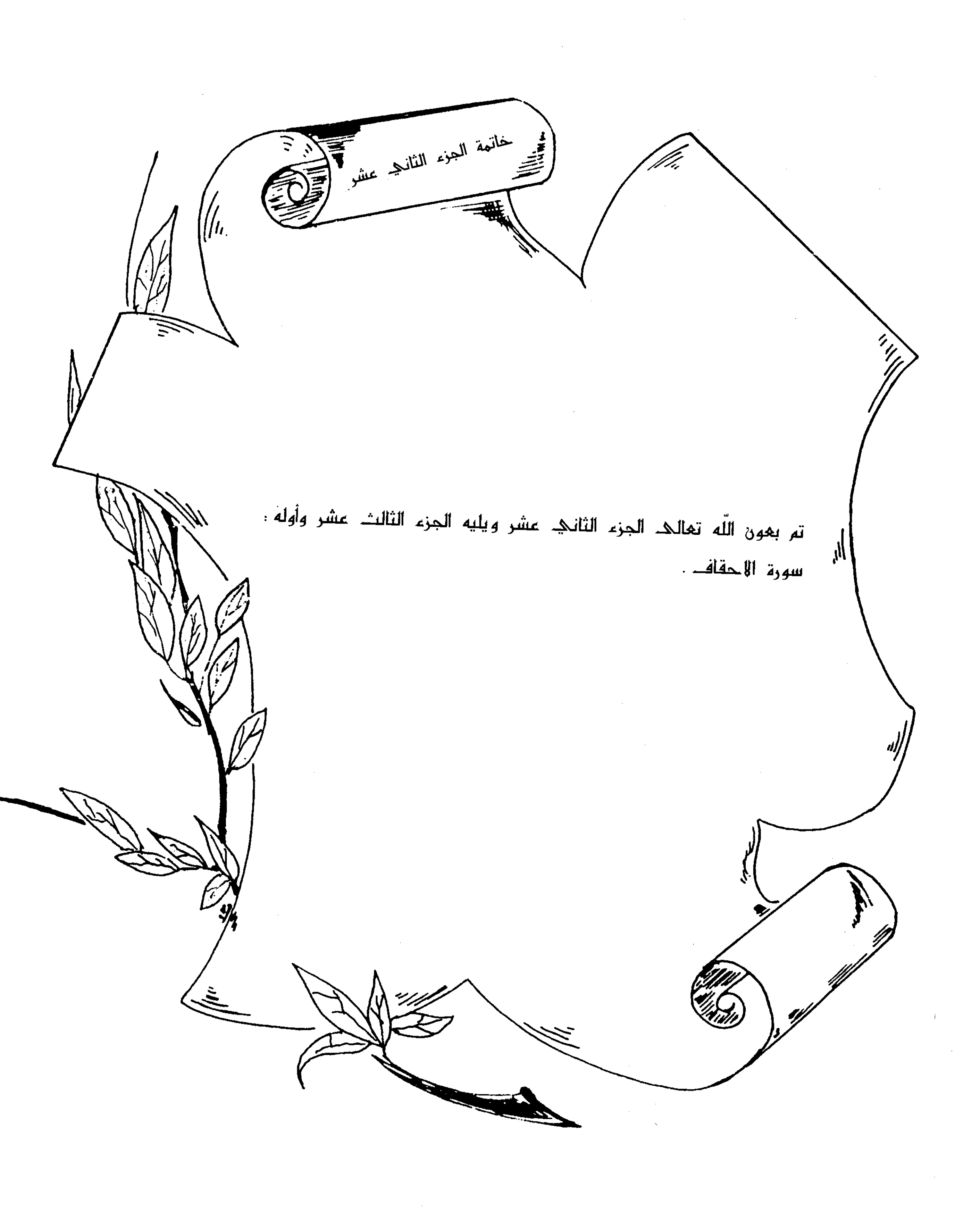
﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً ﴾ أي ذلك العذاب العظيم، بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزواً ولعباً ﴿ وغرتكم الحياة الدنيا ﴾ أي خدعتكم بزخارفها وأباطيلها فظننتم أنه لا دار غيرها ولا بعث ولا نشور .

﴿ فاليوم لا يخرجون منها ﴾ أي من النار، قرأ الجمهور بضم الياء، وفتح الراء مبنياً للمفعول وقرىء بفتح الياء وضم الراء مبنياً للفاعل وهما سبعيتان والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم، وللإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي لا يسترضون ولا يطلب منهم الرجوع إلى طاعة الله لأنه يوم لا تقبل فيه توبة ولا تنفع فيه معذرة .

﴿ فللّه الحمد ﴾ أي الوصف بالجميل ، على وفاء وعده في المكذبين ﴿ رب السموات ورب الأرض رب العالمين ﴾ أي خالق ما ذكر لا يستحق الحمد سواه ، والعالم ما سوى الله وجمع لاختلاف أنواعه ، قرأ الجمهور رب في المواضع الثلاثة بالجر على الصفة للاسم الشريف ، أو البيان أو البدل وقرىء بالرفع في الثلاثة على تقدير مبتدأ أي هو رب السموات الخ .

﴿ وله الكبرياء في السموات والأرض ﴾ أي الجلال والعظمة والسلطان ، وخص السموات والأرض لظهور آثار ذلك فيهما ، وهو القهر والتصرف لأنفسها لأنها صفة ذاتية للرب تعالى ، وإظهارهما في موضع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء .

﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أي العزيز في سلطانه فلا يغالبه مغالب والحكيم في كل أفعاله وأقواله ، وجميع أقضيته ، عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تبارك وتعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار » أخرجه ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود وابن ماجة والبيهقي .



خاتمة الجزء الثاني عشر

تم بعون اللّه تعالى الجزء الثاني عشر ويليه الجزء الثالث عشر وأوله :
سورة الأحقاف .

فهرس الجزء الثاني عشر